فتنة الكرسي

فتنة الكرسي

فتنة الكرسي

فتنة الكرسي

عبد الجبار عدوان

فتنة الكرسي

رواية تاريخية

دار الفارابي

الكتاب: فتنة الكرسي
المؤلف: عبد الجبار عدوان
الغلاف:

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: 301461(01) – فاكس: 307775(01)
ص.ب: 11/3181 – الرمز البريدي: 2130 1107
www.dar-alfarabi.com
e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: تموز 2013
ISBN: 978-9953-71-092-1

© **جميع الحقوق محفوظة**

تباع النسخة الكترونياً على موقع الدار.

الإهداء

لأولي الألباب
ولأجيال المسلمين

الشكر لله تعالى

1

«لا تخف يا بني، الرب سيحميك، تذكر ما تعلمته وما أوصيتك به أثناء الرحلة...» انزلقت يد الرجل عن لوح الخشب الذي تشبث به مع ولده، واختلط الدم الذي يسيل من فج في رأسه مع ماء البحر. كانت يده الأخرى قد كسرت عندما ضربت الأمواج سفينتهم على مقربة من مرسى جدة، فسقط في اليم وقفز ولده لينقذه فإذا بالسفينة يتناثر خشبها وحمولتها. تمسكا بلوح خشب وكان حظهما حتى الآن أفضل من بقية طاقم السفينة، ولكن الصبي لم يفلح في إنقاذ أبيه حين انزلقت يده، فتمسك بلوح الخشب وهو ينظر، من خلال الدموع والماء المالح الذي يتقاذفه، كيف انتشر دم والده في رقعة واسعة ثم زالت كل الآثار بعد لحظات تحت خبط الأمواج. كانت العاصفة قد داهمتهم وهم قبالة جدة، فاتجهوا إلى مرساها ولكن البحارة فقدوا السيطرة على المركب الذي أصبح يدور حول ذاته وكأن يد مارد ضخم تتلاعب به.

حين أفاق على الشاطئ كانت يداه تحتضنان لوح الخشب، وعيون كثيرة سوداء تحدق به، بعضها لصغار السن، وأخرى لمن وصلت لحاهم إلى صدورهم. تذكر والده، فنظر إلى البحر ولم يشاهد سوى أمواج كالجبال الممتدة بطول الساحل، وبعض ألواح الخشب تعلو وتهبط. لم يتمالك نفسه،

فارتفع عويله، ولم يفهم من تجمعوا حوله ماذا جرى له. كان يفهم أسئلتهم، ويمكن أن يفهموه لو توقف عن العويل. امتدت إليه يد قوية لشاب أخذ يطبطب على رأسه ويهدئ من روعه. «هيا بنا إلى الفسطاط لتجفف ملابسك وتنال قسطاً من الراحة والطعام.»

«أريد البقاء هنا، فربما يلقي البحر بوالدي حياً أو ميتاً.» كانت لهجة الصبي غريبة قليلاً، وعرف عمر على الفور أنه من بلاد الشام، فقد سمع هذه اللهجة كثيراً من تجار شاميين يحضرون إلى مكة. كان عمر غريباً في جدة هو الآخر، فقد حضر بأموال من أبيه لشراء جمال تحملها المراكب من بلاد السودان عبر البحر إلى هنا، أسعارها رخيصة، ولحومها مكتنزة، وضروعها درارة، وذات جلد على المسير.

«فسطاط السوق ليس بعيداً من هنا، وسنعرف على الفور بما قد يلفظه البحر.» قال عمر للصبي وهو يكاد يجره معه بعيداً عن الماء. «لقد رحمتك اللات والعزى بالحفاظ على حياتك من هذا البحر. وآلهتي لو منحوني كنوز الكعبة ما ركبت البحر أبداً. كيف تجرؤون على ذلك أنتم ومعشر الروم؟»

«إنها أسرع طريقة والأكثر أماناً، والأرخص أيضاً لنقل البضائع.» قال الصبي وهو يلتفت خلفه تارة وينظر إلى عمر تارة أخرى. كان الصبي في العاشرة وعمر في العشرين. «قال والدي ان طريق التجارة البري من إيلياء والشام إلى الحبشة غير آمن ومكلف، ولا بد أن نقطع البحر في كل الأحوال.»

«من هو والدك، وبماذا أناديك؟ » تذكر الصبي وهو يستمع إلى سؤال عمر ما كان تعلمه عن العرب في هذه المناطق. منهم اليهود والنصارى وأغلبية ممن يعبدون الأصنام، ويتخذون العبيد، ويدفنون البنات حيات، ويهاجمون القوافل، ويصلون لحجر أسود في كعبة يحجون إليها.

«نحن نصارى من إيلياء، وأبي هو باقوم، ويلقبني جندب، لأنني كنت كثير القفز والحركة وأنا صغير، لكن اسمي جوناثان. ومركبنا كان يحمل معدات بناء ورخاماً وخشباً وحديداً، ننقلها إلى الحبشة لنعيد بناء الكنيسة التي دمرها جند كسرى الذين مروا ببلادكم قبل أن يحتلوا الحبشة، وينهزموا عنها.» هكذا أجاب حسب وصية أبيه، بأن عليه إظهار مقامه منذ البداية وإلا باعوه مع العبيد إذا ما أوقعته الظروف بين أيديهم.

«لدينا الكثير من النصارى واليهود في كل مكان، فلا تقلق يا جندب.» لقد انجذب عمر إلى هذا الصبي الذي بدا وكأنه يعرف الكثير من أمور الحياة بالرغم من صغر سنه. تجاذب معه الحديث وهما يأكلان التمر في فسطاط سوق الجمال، وعرف أنه يتحدث لسان الروم بطلاقة مثل تحدثه العربية، وأنه يجيد الكتابة والقراءة ويعرف أسماء ومواقع النجوم، وأخبره جندب أنه زار القسطنطينية مع والده وشاهد القيصر هناك قبل أن تبدأ رحلتهم بمواد البناء عبر الشام براً إلى أيلة على رأس البحر حيث حملتهم السفينة في الطريق إلى الحبشة. وقال جندب لعمر إن القيصر، فوقا، جديد في الحكم، منذ ثلاث سنوات فقط، وقد تجددت الحرب مع الفرس الذين كانوا قد عقدوا معاهدة سلام مع القيصر السابق موريقي.

«ما هو كنز الكعبة الذي ترفض أن يكون ثمناً لركوبك البحر؟» انفرجت أسارير عمر لسؤال جندب إذ أراد أن يلهيه قليلاً عن مصابه بوالده، وأن يكسب وده أيضاً حتى يطلعه على كل ما يعرف عن عالمه وما شاهده في تجواله مع أبيه.

«لدينا في مكة، على مسيرة يومين من هنا، بناء قديم نتعبد فيه اسمه الكعبة،

وفي جوفها بئر فيها كنز كانت تحرسه حية ضخمة. عندما خربت السيول البناء وأراد القوم إصلاحه كانت الحية تظهر لهم وترهبهم حتى قال لهم المغيرة بن مخزوم أن يجمعوا لإعمارها مالاً حلالاً ولا يتنازعوا على شرف البناء. حينها اختفت الحية وعمروا الجدران. والآن نريد إعمار السقف.» كان جندب يستمع باهتمام فقرر عمر إكمال روايته عن الكنز. «قبل فترة تسلق أحد اللصوص الجدران ونزل من السقف وسرق الكنز. ولكن القوم أمسكوا بالمسروقات عند دويك، وهو أحد موالي بني مليح بن خزاعة الأشرار، فقطعت قريش يده وقبلت بعذر أن السارق وضع الكنز عنده حتى لا تعاقب قريش كل عشيرته. لقد تركت قريش وهم يستعدون لسقف الكعبة حتى لا يدخلها إلا من يريدون.»

قبيل الغروب عادا إلى الشاطئ فوجدا أن الرعاة مختلفون في توزيع الأخشاب التي قذفها البحر، فصاح بهم عمر وقد أشهر سيفه بأن كل ما يخرج من البحر هو لجندب الذي تبرع به لبناء الكعبة. خاطرته الفكرة بعد أن شاهد كمية الأخشاب وسماكتها، وجاء ظنه في محله بأن السيف وذكر الكعبة سيردعان القوم، بل حمّلهم عمر الخشب إلى سوق الجمال، وكلفهم بجمع ما يلفظه الموج حتى يمر بالجمال في الصباح فيحمل بقيته. لم يكن بوسعهم مخالفة شاهر سيف عريض المنكبين طوله متران وجسمه مفتول. في الليل عرف جندب أن عمر ممن تعلموا القراءة والكتابة في قريش، وأنه يعشق المصارعة ويشارك فيها أكثر من مرة كل عام في مناسبات الأسواق والمواسم السنوية والاحتفالات الدينية، وأنه تعلم الفروسية وركوب الخيل. خفّ عن جندب مصابه بسبب حماية عمر له وملاطفته، ومعرفته أن أخشاب السفينة وبعض حمولتها سوف تستعمل في تجديد بيت يقدسه العرب بدل ما كان

هدف الرحلة هو تجديد بناء الكنيسة في الحبشة. قبيل النوم أعرب جندب عن تخوفه من ركوب الجمال غداً في سفرهم إلى مكة، لكن عمر ضحك وطمأنه أن الجمال لن تكون أصعب من ركوب البحر والسفن.

لم يكن موسم الأمطار قد حان موعده بالرغم من شدة الرياح، هكذا اختار عمر العودة عبر الوادي إلى مكة، إذ توجد عيون ماء وبعض الكلأ للجمال العشرين. أغلبها حمل الأخشاب، وخمسة حملها عمر بالملح المجفف من ماء البحر، وثلاثة جمال حملت الزبيب واليقطين والتمر. «يبدو أنك تعرف الكثير عن الإبل يا عمر، بل إنك تحادثها وتفهمك فتقف وتسير وتقعد بكلمة أو صوت منك، فكيف ذلك؟»

«الإبل ذات ذاكرة جيدة، فهي لا تنسى الطريق أو صاحبها. وتتعلم بسرعة ما يريد راعيها.» قال عمر وهما يسيران متوازيين كل على ناقته وقد غطيا رأسيهما من حرارة شمس الظهيرة. «معظم أبناء العرب يحسنون التعامل مع الإبل. لقد رعيت إبلاً وغنماً لوالدي ولخالاتي وأنا في مثل سنك، لذلك تعلمت أن أفهمها وكيف تفهمني.» سكت عمر هنيهة ثم أكمل حديثه وقد تغيرت نبرة صوته إلى حزن، «كان والدي يضربني وينهرني إذا تأخرت ناقة عن القطيع، أو إذا بدا عليها الجوع أو العطش، أو لم تكن ضرعها مليئة بالحليب آخر النهار.» «لا بد أنك كنت صغيراً آنذاك، كم عمرك الآن؟»

«بوسعه ضربي الآن لو أراد، ولن أطاوع نفسي بالرد أو حتى حماية صدغي.» عاد صوته إلى طبيعته ثم أضاف: «عمري الآن عشرون عاماً. لقد ولدت في العام الثالث عشر للفيل.»

«نحن الآن في العام ستمئة وخمسة من ميلاد سيدنا المسيح، فما هو تقويم

الفيل هذا الذي تستعملونه منذ ثلاثة وثلاثين عاماً فقط، كما يبدو من كلامك؟»

«ألم تسمعوا في بلادكم بهجوم الفيل على مكة لهدم الكعبة؟» لم يسمع عمر أو يرى من جندب إشارة تأكيد أو نفي فأكمل: «كانت اليمن آنذاك لا تزال تحت حكم نجاشي الحبشة، ويديرها له حاكم اسمه أبرهة، الساعي دوماً لإرضاء النجاشي، فبنى في صنعاء القليس، وهي كنيسة عظيمة أراد للعرب أن يحولوا حجهم إليها بدل الكعبة، وكان قد استذل أهل اليمن في بنائها وقطع يد كل من تأخر عن العمل فيها. عرف عربي ممن ينسئون الشهر الحرام في الكعبة بالأمر، فذهب إلى صنعاء ودخل القليس وتبرز فيه وعاد إلى مكة. فلما سمع أبرهة بالأمر قرر الغزو وخرج بجيش تتقدمه الأفيال لهدم الكعبة. كل الذين تصدوا له في الطريق هزموا وساروا معه في القيود مثل ذي نفر، او رافقوه تابعين طائعين، ومنهم نفيل بن حبيب، من أرض خثعم، كبير قبيلتي شهران وناهس. عندما وصل أبرهة مكة ذهب إليه وفد من قادتها فعرضوا عليه ثلث أموال تهامة على أن يعود عن هدم الكعبة ولكنه رفض. هنا استجاب القرشيون لأمر عبد المطلب بالخروج إلى رؤوس الجبال ليروا ماذا سيفعل أبرهة، وكان عبد المطلب قبل أن يقابل أبرهة قد زار ذا نفر في الأسر، وتعرف بواسطته على أنيس سائس الفيل ووعده خيراً إن لم تُهدم الكعبة. قبل الخروج من مكة وتركها لجبروت أبرهة أمسك عبد المطلب بحلقة باب الكعبة واستنصر ربنا:

لا هم إن العبد يمنع رحله فامنع رحالك
لا يغلبن صليبهم ومحالهم غدواً محالك
إن كنت تاركهم وقبلتنا فأمر ما بدا لك

أراد عمر طمأنة جندب فقال له إن أبرهة نصراني بغيض متعجرف ومثله

يوجد في كل الأقوام، ثم أكمل روايته: «عندما تحركت القوات انسل نفيل بن حبيب إلى الفيل الأكبر وأراه هراً صغيراً كان يخبئه في عباءته، فجن جنون الفيل واستدار للخلف ومعه بقية الفيلة تدهس بأقدامها جنود أبرهة الذين ولّوا الأدبار بعد أن سمعوا أنيس يصرخ محذراً أن الفيل أصابه مس فاهربوا من طريقه. كان نفيل قد تعرف إلى طباع الفيلة أثناء الأسر عندما تطوع ليدلهم على الطريق إلى الكعبة مقابل الحفاظ على حياته، فقرر أن يخيف الفيل في اللحظة الحاسمة، ولم يبذل أنيس بدوره أي جهد لتهدئة الفيل. تفرق الجند وصاحوا على نفيل أن يدلهم على الطريق إلى اليمن. فقال نفيل شعراً في ذلك:

ألا حُييت عنّا يا رُدينا ... نعمناكم مع الإصباح عينا
ردينةُ لو رأيت فلا تريه ... لدى جنب المحصب ما رأينا
إذاً لعذرتني وحمدت أمرى ... ولم تأسي على ما فات بينا
حمدت الله إذ أبصرتُ طيراً ... وخفتُ حجارة تُلقى علينا
وكل القوم يسألُ عن نفيلٍ ... كأن عليَّ للحبشان دينا

لقد جلب الأحباش ذلك العام معهم أمراضاً لم نعرفها من قبل ومات الكثير منهم بعد أن أصيبت جلودهم بالتقيح ومنهم أبرهة الذي مات عندما وصل صنعاء بعد أن تساقط جلده.»

«إنها الحصبة أو الجدري، وهي تصيب الناس في الشام وبيزنطة، ولا يموت منها من يعرف دواءها.» علق جندب على حديث عمر ثم أخبره ما يعرف أيضاً عن مرض الطاعون الذي ينتج عن الفقر والقذارة وخصوصاً من أثر الحروب عندما لا تدفن الجثامين بسرعة. توقف جندب عن أكل بقية رغيف الشعير إذ تقزز مما تخيل عن تلك الأمراض، وانتقل بالحديث إلى

شأن الديانات. «لقد حدثني راهب في مدينة بُصرى بأن اليمن وجزءاً من بلاد العرب هذه، كانت تدين بالمسيحية ثم أجبرت على تبني اليهودية حتى أعاد النجاشي المسيحية إلى اليمن.»

«نعم أعرف ذلك، وإن اليهود أحرقوا النصارى، ولكن ماذا قال لك الراهب بهذا الشأن؟» كان عمر قد أكمل رغيفه وبعض حبات التمر وأخذ يشرب من القربة بعد أن طلب من جندب التفاصيل عما سمع من راهب بُصرى، الذي سمع عنه من تجار يسافرون إلى الشام في الصيف ويستريحون في بصرى ويعرفون راهبها بحيرة.

«لقد فسد أمر حمير بعدما قتل عمرو أخاه حساناً، أخا اليمامة الزرقاء. وكان حسان قد خرج بأهل اليمن إلى أرض العرب والعجم، وعندما وصلوا أرض العراق كرهت حمير وقبائل اليمن الاستمرار وألبوا عمراً لقتل حسان ليعود بهم إلى بلادهم ملكاً. وبالفعل قتل عمرو حساناً ولكن الأرق أصابه بسبب فعلته، فقتل كل من حرضه على قتل أخيه فضعفت بلادهم، ووثب على الحكم حميري يلقب لخنيعة ينوف ولم يكن من بيوت الملوك، بل كان لوطياً يطلب الغلمان فيفعل بهم ثم يقتلهم ويخرج الى الشرفة يمضغ مسواكاً وهذه إشارة إلى حرسه ليأخذوا الجثة. ذات يوم طلب لخنيعة زرعة ذي نواس أخا الملك حسان، وكان جميلاً. عرف زرعة ذي نواس مقصد لخنيعة فحمل سكيناً بين قدمه ونعله. وثب لخنيعة عليه فواثبه واستل السكين وقتله وقطع رأسه ووضعها على النافذة بعد أن وضع مسواكاً في فمه. عندما تنبه الحراس للأمر لاحقوا ذي نواس وأصروا أن يصبح ملكهم مثلما كان أخوه حسان، بعد أن أراحهم من ذلك الخبيث. بعد زمن توجه ذي نواس إلى نجران التي

يدين أهلها بالمسيحية، فخيرهم بين اعتناق اليهودية أو الموت، فاختاروا الموت. شق لهم ذي نواس الأخدود وأشعل فيها النيران وأخذ يرميهم فيها حتى قتل عشرين ألفا ونجا منهم واحد، هرب على فرسه ولم يدركوه في الصحراء حتى وصل إلى قيصر، ملك الروم الذي قال له إن بلادك بعيده عنا ولكني سأكتب إلى ملك الحبشة، وهو نصراني، لينتقم لكم. هذا الناجي اسمه دوس، وقد حمل الرسالة من قيصر إلى النجاشي، الذي أرسل معه سبعين ألفا تحت قيادة أرياط، ومعه في جنده أبرهة. نزلوا على شواطئ اليمن ولما شاهدهم ذي نواس هرب بفرسه إلى البحر ولم يشاهد بعد ذلك وأصبحت اليمن مثل ملوكها الجدد تدين بالنصرانية مثل الحبشة. استتب الأمر حتى نازع أبرهة أرياط على حكم اليمن، ومات أرياط في المنازلة بعد أن أصابه أبرهة في وجهه برمح فشرمه. وحتى يسترضي أبرهة النجاشي أقام في صنعاء الكنيسة ثم هاجم كعبتكم.»

«أحسنت الحديث يا جندب، واللات والعزى ما كنت أعرف هذا التاريخ كما ذكره لك الراهب. بودي زيارة بُصرى هذه، ربما نذهب سوياً في الصيف المقبل في تجارة إلى الشام ونمر براهب بُصرى. ماذا سمعته يقول أيضاً عن بلادنا؟»

«قال إن نبياً قد ولد لديكم منذ خمسة وثلاثين عاماً مضت، وإنه شاهده مرة وهو صبي وأخرى وهو رجل أثناء تجارته إلى الشام، وسيكون له شأن عظيم.»

«لسنا بحاجة لأنبياء، فلدينا ما يكفي من الآلهة كما سترى غداً في الكعبة، وبلادنا تعج بالأديان والمتنبئين.» صمت عمر يتذكر ويتفكر، ولم ير غضاضة في التحدث إلى رفيقه الصغير. «أحد الذين غادروا آلهتنا وانتظر هذا النبي

الذي تتحدث عنه، هو زيد بن عمرو، ووالدي يكون عمه وأخاه.» قبل أن ينطق جندب سائلاً تفسير هذا الكلام قال عمر: «عمرو بن نفيل، والد زيد، خلف على امرأة أبيه بعد أبيه وكانت قد أنجبت أبي، الخطاب من نفيل، ثم أنجبت زيد من عمرو فأصبح أبي عم زيد وأخاه لأمه.» لم يعلق جندب بشيء حول هذه المناكحة، الممنوعة عند النصارى واليهود، خشية أن يجرح شعور عمر الذي لم يكن يعرف تلك المحظورات. «عمي زيد هذا تلقى العذاب من أبي إذ أخرجه من مكة ووكل به شباناً من قريش يؤذونه كلما أراد العودة. مع ذلك كان يدخل سراً ويلتقي مع ورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث وعبد الله بن جحش ليتآمروا على آلهتنا، فلا يأكلون مما نذبح، ويصلون على دين إبراهيم، ثم تحول ورقة إلى نصراني وبقى عمي زيد ينتظر النبي المنتظر حتى مات عائداً من الشام بعد الالتقاء براهب هناك أخبره بقرب ظهور هذا النبي في مكة. وقد أنشد صديقه ورقة يرثيه:

رشدت وأنعمت ابن عمرو وإنما
تجنبت تنـــوراً مـــن النار حـــاميا
بدينك رباً ليس رب كمثله
وتركك أوثان الطــواغـي كما هيا
وقد تُدرك الإنسان رحمة ربه
ولو كان تحت الأرض سنين واديا.»

«الصراعات على الحكم والاقتتال بسبب الأديان لا أول له ولا آخر. لكن أخبرني يا عمر ماذا يأكل العرب، وماذا تفضل أنت من أنواع الطعام؟»

«خبز شعير كالذي أكلناه للتو، والأفضل لو كان مثروداً بالسمن. وهناك

القديد، وبالطبع اللبن والتمر. أما أفضل الأطعمة فهي صغار الماعز يلقى عنها شعرها، ويخبز إلى جانبها رقاق البُر خبزاً رقاقاً، ثم يوضع صاع من زبيب في سمن حتى إذا ما صار مثل عين الحجل صُب عليه الماء، فيصبح كأنه دم غزال، فتأكل من هذا وتشرب من هذا. أما طعام الجماعة في المناسبات فهو الثريد يعلوه اللحم المطبوخ، لحم نوق أو ماعز أو صيد وعلان.»

«إنهم يأكلون مثل هذا في بتراء العرب، إذ تشح الأرض عن المزروعات ما عدا الشعير، وإن كانت في الماضي أغنى مما هي الآن وأكثر عزة وعزوة، فقد سيطروا على الشام ووادي الأردن وتحكموا في التجارة بين بابل وبلاد الفراعنة، حتى أقام الروم طرقاً أخرى للتجارة وبنوا مدناً بديلة فضعفت البتراء، وضربتها الزلازل أيضاً فتهدم البناء الفوقي وصمد ما نحتوه في الصخر.»

«كيف تعرف كل هذا التاريخ أيها الغلام، لقد سمعت في عكاظ عن البتراء وبيوتها المنحوتة في الصخر الأحمر، ولكن التجار لم يتحدثوا عن تاريخ سكانها العرب. أريد منك أي تفاصيل تعرفها.»

«لا أعرف إلا القليل مما تعلمته عن التاريخ المتناقل والمكتوب لدى رهبان إيلياء، وما سمعته من أهل العلم والمعمرين أثناء سفري مع والدي. لقد حدثتك عن اليمن ولكني لا أعرف بقية الرواية وماذا حصل هناك ومن يحكمها الآن وعلى أي دين يصلي أهلها.»

«سأحدثك إذاً عن اليمن قبل أن تخبرني بشأن بتراء العرب وما شاهدت فيها.» قال عمر وقد أناخ بعيره لقضاء الليل، وفعل جندب مثله وأبرخ بعيره بعد محاولات عدة بينما عمر يضحك بصوت مرتفع. تعاونا على إنزال حمولة كل الجمال عن ظهورها، وندم عمر أنه لم يجلب معه بعض العبيد، ولكنه

لم يكن يعرف أنه سيحمل خشباً من جدة. التفت الجمال حول ربطتي تبن، وأشعل جندب ناراً وتواصل حديثهما في بداية مساء رطب يعد ببرد صحراوي آتٍ. «لقد تحررت اليمن قبل مولدي بخمس سنوات فقط، وكان عبد المطلب ووالدي الخطاب ممن وفدوا على سيف بن ذي يزن مباركين بالنصر.» صمت عمر لحظات وحرك النار بعود طري أخضر ثم أضاف: «في الحقيقة إنهم استبدلوا الأحباش بالفرس، وكان بوسع قريش وقبائل العرب أن تؤلف جيشاً أكبر مما أرسله الفرس لمساعدة سيف، ولكنهم لم يفعلوا، وكيف يحاربون الأحباش في اليمن وهم الذين صعدوا الجبال تاركين كعبتهم لخطر الأفيال.»

«إنك تعطيني الرواية من آخرها... »

«أعرف ذلك أيها الفتى المتسرع. بعد أن مات أبرهة جاء ولده يكسوم وواصل الاضطهاد والظلم، ثم جاء أخوه مسروق من بعده. طال البلاء فخرج سيف بن ذي يزن الحميري قاصداً ملك الروم ليساعده وسأله أن يخرج الأحباش ويتملك اليمن، ولكن القيصر رفض طلبه وكان قد رفض طلباً مشابهاً لأبيه قبل ذلك. توجه من بلاد القيصر إلى الحيرة حيث النعمان بن المنذر يديرها لكسرى الفرس. قال له النعمان: إن له وفادة على كسري كل عام فمكث عنده حتى جاء موعدها فذهبا سوياً. وكان لكسرى تاج ثقيل من الياقوت والزمرد معلق في السقف، ويصل كسرى مغطى بالقماش، فيجلس تحت التاج ويدخل رأسه فيه ولا يعرف الناس ذلك، فيظنونه قوياً. عرض سيف طلبه، ولم يقتنع كسرى به، كون اليمن بعيدة وفقيرة ولا يوجد فيها ما يغري بغزوها، ومنح سيف عشرة آلاف درهم. عندما خرج سيف من قصر كسرى أخذ يوزع الدراهم على الفقراء، فطلبه كسرى ليعرف سر تصرفه.

«إن جبال بلادي مليئة بالذهب والفضة» قال سيف لكسرى، «وما جئت طلباً للمال». هنا استشار كسرى رجاله. قال أحدهم: إن السجون مليئة بالمحكومين بالإعدام، فأرسلهم معه، فإن قُتلوا فقد استحقوا العقاب، وإن انتصروا تربح بلاداً جديدة. أعجب كسرى بالفكرة وجمع لسيف ثمانمئة رجل ترأسهم وهرز، ركبوا ثماني سفن. في الطريق غرقت سفينتان ورست الست الباقية على شواطئ عدن. هناك جمع سيف ما استطاع من الرجال واتجهوا سوياً إلى صنعاء حيث انتظرهم مسروق راكباً فيله وواضعاً ياقوتة حمراء بين عينيه وحوله الكثير من الجند.»

«الأمر الآن يحتاج إلى حيلة لقهر الأحباش». قال جندب وقد تمدد على الرمال وسحب غطاء فوق جسده.

«نعم، والحيلة إن وهرز، بعد أن فقد ابنه في المناوشات الأولى، أمر رجاله بالانتظار حتى يروا الأحباش قد ولوا فيتبعونهم. وكان لديه قوس ضخم لا يشده سواه وذات مدى بعيد، فأخذه وانسل يتقرب من الأحباش حتى حانت الفرصة، ورمى بسهم أصاب مسروقاً في الياقوتة وخرج من قفا رأسه. أدبر الأحباش بعد قتل قائدهم ولحقهم الفرس والعرب يقتلون ويغنمون من الأحباش الذين انتهى حكمهم بسهم واحد بعد اثنتين وسبعين سنة. واليمن الآن تحت حفيد وهرز، التينجان.»

«أي الحكم الفعلي للفرس، بمشاركة ذي يزن وأولاده، ولكن أي ديانة يتبع أهل اليمن الآن وطوال الثلاثين سنة الماضية، وماذا حل بالقليس الذي بناه أبرهة؟»

«القليس تحرسه الجان في صنمين من الخشب هما كعيب وامرأته وطول كل منهما ستون ذراعاً، نصبا على الباب ولا يجرؤ مخلوق على نقل أي من

الكنوز التي بالداخل. أما دينهم يا جندب فهو دين من تقلب أربع مرات في أقل من مئة عام. على الأرجح أن بينهم الكثير من اليهود والنصارى يمارسون دينهم سراً، وهناك من يتبع الفرس ويقدس كسرى، وهناك من يعبد اللات والعزى مثلنا، ومن عادوا يصلون إلى النخلة التي يعلقون بها حلي نسائهم...» صمت عمر وانتصب جندب إذ وصلهم عواء ذئب، «لا تخف إنه عواء تحمله الرياح من الجنوب، فربما تخيم العربان بمواشيها هناك. الخوف لو سمعت العواء من الشمال فهذا سيعني أنها قد شمت موقعنا».

«هل اليهود والنصارى يمارسون عقائدهم سراً في بلادكم؟»

«لا وآلهة الكعبة، فهم أحرار، بل إنهم كثيراً ما يحاولون ضم الناس إلى دينهم. اليهود هنا منذ بداية دينهم، والنصارى حولنا وبيننا منذ مئات السنين، ومن اليهود والنصارى أسياد وعبيد. الحروب هي التي نشرت الأديان، أو الأديان هي التي تسببت في الحروب، فلا فرق بين الفكرتين. يقول أهل العلم: إن إبراهيم هو أبو العرب واليهود. اليهود هم أبناء سارة أخت إبراهيم وزوجته، والعرب أبناء هاجر التي يقولون عنها إنها خادمة سارة. عندما أنجبت هاجر إسماعيل غضبت سارة وأقسمت أن تقطع منها ثلاثة أجزاء، فاقترح إبراهيم أن تخرق أذنيها وتختنها لتنفيذ قسمها، ثم تركها وولدها هنا وذهب إلى بلاد الفرعون حيث أنجبت سارة وهي عجوز وأصبح أولادها أنبياء لليهود... هل نمت يا جندب فأنت لا تنطق ولا تتحرك.»

«بل أسمعك وأفهمك تماماً، ولكني قد أنام في أي لحظة بالفعل.»

«إذاً، بالمختصر المفيد، جاء اليهود إلى مدينة تيماء، التي بناها ابن إسماعيل، عندما غزا الجزيرة ملوك الكلدان من بابل، جلبوهم من العراق

وإيلياء فانتقلوا لاحقاً من تيماء، التي كانت محطة تجارية بين الشرق والغرب والشمال والجنوب، انتقلوا إلى خيبر ويثرب أيضاً وذلك قبل ألف عام، ومازالوا بين ظهرانينا ينازعوننا التجارة.»

قبيل الفجر أفاق عمر على ضرب الرمال لوجهه، فأيقظ جندب وأسرعا في تحميل الجمال وربط أرسانها مع ذيولها، وشرح لجندب أن الرياح قد تشتد وتطول، وأن عليه أن يصمد فوق آخر جمل ويراقب المسير وأن ينذره إذا أفلت الرباط.

سارت القافلة بينهما ساعات طوال وكان جندب في معظم الوقت مغلقاً لعينيه من ذر الرمال. عندما اقتربا من مكة عصراً كانت الرياح قد خفت، فواصلا المسير بين البيوت الطينية والشعاب والأزقة الضيقة. لم يترجلا عن الجمال حتى بعدما سمعا احتجاج بعض سكان البيوت، إذ كان بوسع الراكبين أن يشاهدا من على السنمات ما يدور على الجانبين.

عند باب الكعبة أناخ عمر بعيره والتف حوله كبار القوم الذين كانوا مجتمعين هناك، سألوه عن الأخشاب فأخبرهم أن جندب تبرع بها لسقف الكعبة، فهللوا مستبشرين، وقال أبو أمية بن المغيرة هذا ثاني خبر سار اليوم. فاستغرب عمر ما سمعه من أكبر رجال قريش سناً، فشرحوا له أن الأيام الخمسة الماضية كادت أن تؤدي إلى الاقتتال في قريش وأن بني عدي بن كعب وبني عبد الدار قد لعقوا الدم وتعاقدوا على الموت ضد بقية قريش. والسبب أن القبائل اختلفت من منها يضع الحجر الأسود في مكانه، ثم اتفقوا اليوم على رأي أبي أمية بأن يحكم بينهم أول من يدخل باب الكعبة، فكان محمد الأمين. شرحوا له الأمر فأمر بثوب ووضع فيه الحجر وطلب من

رؤساء القبائل الاشتراك في حمله وناولوه إياه فوضعه هو في مكانه. فهم عمر قصدهم بأن الأخشاب للسقف هي الخبر الثاني، وارتاح أن قبيلته، بني عدي، لم تخض القتال أثناء غيابه. في هذه الأجواء قرر عمر أن يخبر أبا أمية أنه عازم على زيارته في الغد، وكان عمر قد استشار الخطاب قبل السفر إلى جدة حول خطبة قريبة، بنت أبي أمية لينكحها، فوافقه والده على ذلك.

في الطريق إلى بيت عمر في جبل العاقر استمع جندب إلى أفكار رفيقه حول الزواج، فالأنثى للنكح والإنجاب، فإذا لم تنجب، أو إذا أنجبت ولم يتم التوافق فحينها يتم الطلاق بسهولة، فيجد هو غيرها وتجد هي غيره. «معظم الإناث يتداولها عدة أزواج في سنواتها العشر الأولى. الأمر لدينا يختلف عما يفعله النصارى، وإن كان الأزواج النصارى يتخذون الكثير من الموالي الإناث، إذا كان حالهم ميسوراً».

«إذاً تنوي الزواج غداً والطلاق بعد سنة مثلاً؟»

«ليس بالضرورة، إذا كانت قريبة كما أتمنى ومطيعة ولا تناكد، فقد تبقى عندي طويلاً، وقد أتزوج أخريات إلى جانبها، ولها الخيار أن تبقى أو تطلب الانفصال بحثاً عن غيري.»

«تقصد يا عمر أن الإناث لهن حقوق في الانفصال...»

«طبعاً يا جندب، لهن حق رفض من يتقدم للزواج، ولهن حق الانفصال بعد الزواج، وبالطبع لهن حق طلب الزواج ممن يرغبن، فهن لا يجلسن في المنازل بانتظار الأزواج، بل يسعين ويتاجرن ويبعن ويشترين ويحضرن المجالس. أنا لست مع ذلك ولكن هذا هو الحال» قال عمر، وهما يقتربان من المنزل، ثم أوجز لجندب قصة زواج محمد الأمين الذي حل خلاف الحجر

الأسود اليوم، من خديجة بنت خويلد. لقد خرج محمد مع صديقه عمار بن ياسر إلى الحزورة، وجازا على هالة، أخت خديجة، وكانت جالسة على أدم تبيعها، فنادت عماراً وسألته إذا كان صاحبه يرغب بالزواج من خديجة، فسأله فوافق، فقالت لهما أن يغدوا عليهم صباحاً، فغديا ليجدا أنهم ذبحوا بقرة لعمل الطعام، وألبسوا والد خديجة حلة جديدة وصبغوا لحيته وزوجوا محمداً وخديجة. عندما أفاق والدها سأل ما هذا الطعام واللباس، فقالت له هالة، هذه حلة ألبسك إياها ختنك وبقرة أهداها إليك فذبحناها حين زوجته خديجة. أنكر أبوها أنه زوجها، وخرج إلى الحجر فخرج له بنو هاشم ومعهم محمد، فلما نظر إليه قال: إن كنت زوجته فسبيل ذاك، وإن لم أكن فعلت فقد زوجته. «وقد أنجبا بنتين وولدين، أما ورقة بن نوفل النصراني الذي حدثتك عنه، فهو ابن عم خديجة بنت خويلد.» قال عمر وهو يفتح باب البيت.

2

«ما يريده الروم هو تسخيرنا في حروب ضد أخوتنا العرب في الشمال، وتشتيت شمل القبائل، وبالطبع أن نقاتل الفرس بدلاً عنهم.» كان جندب ينظر إلى عثمان وهو يستمع إلى حديثه عن رحلته إلى بُصرى، والذي بدا كأنه تأكيد لحديث سابق في مكان آخر. ظن جندب في البداية أن عثمان بيزنطياً، لكن عمر أوضح له أنه قرشي أموي ولكن لباسه هذا حاز عليه كهدية عندما منحه الروم لقب «فيلارخ» في سفارته الأخيرة إلى بُصرى. كان القوم قد انتهوا للتو من مراسيم خطبة قريبة بنت أبي أمية إلى عمر بن الخطاب، والتفوا جماعات صغيرة حول موائد من الثريد.

«هذا إذاً، هو الرومي الصغير الذي تبرع بالخشب لسقف الكعبة؟»

«لست برومي أو صغير، أما فكرة الاستفادة من الخشب ففضلها يعود إلى العريس عمر.» قال جندب رداً على ما ظنه استصغاراً لموقعه في حديث عثمان بن عفان، وأكمل: «نحن من أصول عربية، هاجر أجدادنا من هنا إلى الشام، واستقرت عائلتي في بيت المقدس بعد أن تنصرنا.» كف جندب عن الكلام بإشارة خفية من عمر الذي قابله على باطية الثريد.

«سيكون لك شأن أيها الشاب، خصوصاً إذا بقيت برفقة ابن الخطاب وتعلمت منه.» توقف أبو سفيان عن تناول الطعام، وأكمل حديثه: «أود

انتهاز وجود غالبية رجال مجلسنا لأرشح عمر إلى مركز سفير لقريش ومكة مع باقي القرى والقبائل. إنها هدية لزواجه ومسؤولية جديدة عليه تحملها.»
عمرو بن هشام المخزومي كان أول من أعلن موافقته، وهو خال عمر، لكنه ليس من ضمن العشرة أعضاء المجلس المكي الذين يملكون الثروة ويمثلون أيضاً كبرى قبائل وتحالفات مكة. هناك العباس بن عبد المطلب الذي ولته قريش السقاية، وأبو سفيان مدير شؤون الحرب، وخالد بن الوليد المسؤول عن ضرب القبة، وأبو بكر الذي تولى الأشناق للفصل في الديات والمغارم. كان الأربعة وخامسهم السفير للدول العظمى، عثمان، في منزل أبي أمية، ولم يمانع أي منهم ترشيح أبي سفيان لعمر، واقترح أبو بكر أن يشهروا الرأي بعد استشارة بقية أعضاء المجلس.

لم تكن هناك مخاوف من فشل الاقتراح، فابن الخطاب مؤهل لهذا الموقع من ناحية خبرته في القبائل العربية المجاورة، وشكيمته في المصارعة التي تؤهله ليفاخر بقريش، وإن كان لا يجيد قرض الشعر، إلا أنه حاضر البديهة ومنافر ومفاخر لا يستهان به، إذ تعلم الكثير من جده نفيل بن عبد العزي القرشي العدوي الذي كانت قريش تتحاكم إليه. ورغم طول قامة عمر الذي يناهز المترين، فبوسعه أن يأخذ أذنه اليسرى بيده اليمنى ويجمع المنتشر من ملابسه باليسرى ويثب على فرسه فكأنما خلق على ظهره. وهو في طول أخيه زيد ولكن وجهه أكثر بياضاً.

لقد امتلأ منزل أبي أمية بالضيوف، وكان الكثير منهم قد رافقوا أعضاء المجلس من الكعبة بعد الاستماع لما جلبه عثمان من تفاصيل لنتائج سفارته إلى بُصرى، أرادوا سماع المزيد، وأكل الثريد في خطوبة عمر وقريبة. أثناء

رفع الموائد، الفارغة تقريباً، سأل جندب جاره عن تعداد قريش، فقال له عمرو بن العاص إنهم حوالى خمسة آلاف في مكة ومنهم ألف رجل بوسعهم حمل السلاح. «لكن ما الذي دفعك لهذا السؤال؟»

«لقد خمنت بالأمس قلة تعداد سكان مكة من مشاهدة بيوتها الطينية، واستغربت اليوم من كثرة الضيوف، وها أنت تؤيد ظني بقلة تعداد السكان.» أجاب جندب عمرو بن العاص الذي انفرجت أساريره عن ابتسامة عريضة.

«إنها قرية كبيرة، بل هي أم القرى في بلادنا. لا تقارن في البنيان وتعداد السكان بمدن رومية وشامية، ولكنها ذات موقع تجاري فريد وهو الذي يدفع الروم للاتصال بنا. يريدون تأمين تجارتهم من الهند واليمن إلى الشام والقسطنطينية وروما. كل رجال ونساء مكة يستفيدون من الخط التجاري، رجالنا يحمون القوافل، وبقية المكيين يربحون من الاشتراك في صفقات تبادل البضائع والبيع والشراء.»

«ألا تزرعون؟» استوضح جندب إثر سماعه عمرو.

«بل يزرع العبيد في مزارع لأغنياء مكة، تجدها في الطائف ويثرب، وحيث تتوافر المياه وتكثر الأمطار الشتوية.» قال أبو طالب مشدداً على كلمات العبيد، وأغنياء مكة، ثم أكمل حديثه للصبي بلطف: «كانت مكة مركزاً تجارياً منذ قديم الزمن، وهذا الذي جعلها منزل الآلهة، وأقيمت فيها الكعبة ليحج إليها أبناء القبائل ويتسوقون ويتبادلون السلع. وقد مرت على أجدادنا سنوات قحط وحروب وتقلبات، أضرت بمكانة مكة. لكن عندما ضعفت الأمم من حولنا، واقتتل الروم والفرس، وخارت قوى الغساسنة والنبط في الشمال واليمن في الجنوب، وعثر والدي، عبد المطلب، على مكان بئر زمزم ودفق ماؤها، حين

ذاك عادت مكة إلى موقعها التجاري مرة أخرى.» انجذب جندب إلى شخصية أبي طالب وصراحته وبساطة لباسه وجهورية حديثه التي لفتت انتباه غالبية القوم إليها.

«هذا عم محمد الأمين الذي أنهى خلاف القوم بالأمس حول رفع الحجر.» قال زيد بن الخطاب لجندب، وكان الجميع قد أنهوا دوائرهم الصغيرة حول الثريد وعادوا للجلوس في صفين متقابلين تحت سقيفة طويلة مغطاة بفروع النخيل.

«كانوا متفقين حول إعادة الإعمار للكعبة ووزعوا الأدوار ولكنهم اختلفوا حول الحجر.» أخذ أبو طالب زمام الحديث مجدداً «غالبية القرشيين أقارب يلتقون عند الجد السادس، كعب بن لؤي، كما هو الحال بيني وبين الخطاب مثلاً، والد صاحبيك عمر وزيد، ومن كعب نعود كلنا عبر عشرة أجداد إلى عدنان.» وافق المستمعون بإيماءات جسدية وهمهمات على ما يسمعون من أبي طالب الذي يفوق عمره الخامسة والسبعين: «اقتسمت قريش عمارة البيت، فكان الباب لبني عبد مناف وبني زهرة، وكان ما بين الركن الأسود واليماني لبني مخزوم وتيم وقبائل من قريش، وكان ظهرها لسهم وجمح، وكان شق الحجر لبني عبد الدار وبني أسد، وبني عدي بن كعب، فبنوا حتى بلغ البناء موضع الركن، فكانت كل قبيلة تريد أن ترفعه حتى تجاذبوا وتخالفوا، هؤلاء الذين يجلسون الآن سوياً، وأعدوا للقتال حتى طلب مضيفنا أبو أمية المخزومي الاحتكام إلى أول من يدخل باب الكعبة. وأنت تعرف الباقي بعد حضورك وعمر بالأخشاب من جدة.»

«أريدك أن تحدثني لاحقاً عن زمزم وقصص مكة القديمة.» قال جندب

همساً لجاره أبي طالب الذي وافقه بإيماءة من رأسه واتجهت أنظارهما مثل الآخرين إلى عثمان وهو يعيد شرح موقف البيزنطيين.

«قلت لهم، إذا وافقناكم على تجميع العرب في الجنوب والشمال لقتال الفرس، هل تقرون بسيادتنا في قريش على هذا الكيان العربي؟ قالوا لا نعرف، فالأمر بحاجة لاستشارة من القسطنطينية. وحاولوا، بدون الرد على سؤالي، ضمان موقفنا بمهاجمة الفرس والقبائل العربية المعادية لبيزنطة. قلت لهم إن بوسعي انتظار سماع رد بيزنطة، ولكنهم تحججوا بطول الوقت، وتأكدت أن التعليمات عندهم واضحة وأنهم طلبوا الاتصال بقريش لغرض محدد. لقد أبقيت على العلاقات والضمانات التجارية، فلنا حرية المرور والتجول في بلادهم، وأن نحمي القوافل في الصحراء حتى تدخل أسواقهم، وأن لا ندفع مكوساً على ما نحمل في القوافل وما نبيع ونشتري عندهم.» شرب عثمان بعض الماء، ومسح بمنديل حريري العرق عن جبينه وأضاف: «لقد طلبوا إرسال بعثة تجارية تقيم في مكة لتنظم متطلباتهم من المشتريات. ولأنها ستكون بعثة لطلبات الشراء ولا تجلب أو تبيع بضائع هنا، فقد وافقت لهم على إرسال ما لا يزيد عن ثلاثة أفراد.»

«يريدون التجسس علينا ورب الكعبة.» قال عمر بصوت مجلجل.

«لقد فكرت في هذا قبل أن أوافقهم، ورأيت أن مكة مفتوحة للتجار والحجاج والزوار، وأن بوسعهم التجسس في الخفاء متى أرادوا، وقلت لنفسي، وأقول لكم الآن، من الأفضل أن نعرف من هم الذين يتجسسون، فقد نوصل إليهم ما نريد ونخفي عنهم ما يريدون.»

«وماذا لدينا ليتجسسوا عليه. كما أن مكة تعج بالعبيد الأحباش وغالبيتهم من النصارى مثل الروم.» قال عمرو بن هشام المخزومي، خال عمر، وأضاف:

«إنهم لم يغزوا بلادنا لمناعتها في الصحراء وبعدها عنهم، وقلة زرعها، وطالما أننا نؤمن لهم وصول الحرير واللبان والبخور والعطور فلماذا يطمعون؟ إن مشكلاتهم مع الفرس كبيرة وهم الذين قطعوا عنهم طرق التجارة البرية من الهند والصين، بينما نؤمن لهم حاجتهم من هناك عبر البحر.» فكر جندب وهو يستمع، مع الآخرين، إلى خال عمر، إن نجاح خطة القيصر في تركيز التجارة عبر البحر من أيلة إلى اليمن فالهند والصين سيعيد مكة وعرب الحجاز كلهم إلى المجاعة والفقر والعودة للرحيل عن بلادهم. وتذكر ما تعلمه بأن الرومان دمروا مجد البتراء العربية حين حولوا خط التجارة عنها إلى تدمر، ثم دمروا تدمر وشردوا أغنياءها وأمراءها العرب وحرثوا بنيانها، ثم استداروا إلى دولة الغساسنة التي ورثت تدمر وقتلوا قياداتها وسلطوا العربان عليها. لم يبح جندب بما يفكر، ولا يبدو على بعض رجال قريش جهلهم لذلك التاريخ ولما يخطط الرومان والفرس ضد بلادهم.

وقف أبو سفيان مستأذناً بالانصراف ومباركاً لابن الخطاب زواجه وسفارته، ووقف معه معظم الضيوف إذ حانت ساعة القيلولة، وطلب عمرو بن العاص من زيد وعمر أن يأخذ معه ضيفهم جندب لبضعة أيام، ولكن أبا طالب أمسكه من يده وقال إنه سيبقى عنده حتى يفرغ عمر وقريبة من شؤون نكاحهما، وخرج مع الصبي يتعكز على كتفه.

«اسمك يا جندب منتشر هنا في مكة ويثرب وتحمله قبيلة صغيرة أيضاً.» قال عبد مناف، أبو طالب، لجندب بعد أن تفرق عنهم معظم الضيوف والأقارب والأصهار، وخفت الحركة في شعاب مكة. «بعد هذا المنعطف سنصل إلى الكعبة ونجلس في ظلها.»

«جندب هو لقبي كوني كثير الحركة، واسمي جوناثان بن باقوم، وأصولنا من هنا ولكن أبي لم يتحدث كثيراً عن ذلك لأننا اعتنقنا النصرانية منذ زمن.» تجاوب الصبي مع العجوز وهو يحمل بعض ثقله على كتفه وأضاف: «لماذا لا تذهب للقيلولة مثل الآخرين؟»

«كبار السن يا بني لا يحتاجون للكثير من النوم، والليل هنا طويل ولم تعد لأنثى منفعة مني فأتسلى معها. ثم إن القوم يكثرون من الطعام في المناسبات وكأنهم ينتظرون مجاعة في الغد، فلا يمكنهم مقاومة نوم القيلولة.» قال العجوز وهو يجلس على فراش مظلل بجوار جدار الكعبة. «هذا الفراش كان لأبي عبد المطلب. رأيت يا جندب أنك لم تأكل كثيراً، هل أطلب لك بعض التمر؟»

«إن هذا الثريد ثقيل على الأمعاء، ولا أعرف كيف تأكلونه في هذا الحر.»

«سأطعمك الوقيعة وأظن أنها تعجبك، فهي من الدقيق والسمن والعسل، وبدون لحوم.»

«لكن الثريد بلبنه وخبزه ولحمه قد يكون أسهل من السمن الذي تتحدث عنه في الوقيعة. ألا توجد عندكم خضروات أو فواكه أو حبوب بقول مثل العدس والفول.» ارتفع صوت أبي طالب بالضحك من شكوى جندب. وأبلغه أن ما لا يعجبه هو خيرة أطعمة الأغنياء والسادة في مكة، ووعده أن يذيقه أطعمة مركبة من اللبن والدقيق فقط مثل الرغيد والرهيدة والعصيدة.

«ربما كان والدك على حق في قلة حديثه لك عن الأصول والأنساب والأقارب، فهذه الأمور نعمة ونقمة في آن، والقرابة لا تعفي من الاختلاف والصراع.» قال العجوز وقد اتكأ بظهره إلى جدار الكعبة. «أنتم بالتأكيد من

أحد الأفخاذ التي رحلت عنا وعاشت سلالتها في الدول الفتية العربية، ثم استقر الكثير منهم في مدن الشام. ونحن نلتقي بعضهم في رحلات الصيف التجارية إلى هناك ونتعاون مع العاملين منهم في التجارة.» توقف العجوز عن الكلام وأخذ يراقب طفلة تقترب منهما وتحمل قربة ماء. «هذه زينب ابنة محمد الأمين، ابن أخي عبد الله، وقد واظبت على أن تجلب لي ماء زمزم البارد في هذا الوقت.»

«هل أقرباؤك كثر في مكة؟» ارتفعت ضحكات أبي طالب من سؤال جندب، وتناول قربة الماء من زينب التي سألته عن سبب انبساطه.

«اجلسي يا زينب، هذا الشاب ضيف في مكة، وقد سألني إن كان أقاربي كثر، هل بوسعك تعداد الأقربين؟»

«نعم يا جدي.» قالت زينب لعم والدها الذي كان بمثابة المربي له بعد موت جدها عبد الله، وموت جد أبيها عبد المطلب. نظرت إلى وجه جندب وتأملته وهي تجلس قبالتهم على الأرض وقالت: «أعمام وعمات والدي عددهم خمسة عشر، عشرة ذكور وخمس إناث، وكلهم من صلب عبد المطلب. وقد أنجب هؤلاء العديد من الأبناء والأحفاد، وجدي أدرى بهم.»

«أبناء عبد المطلب هم: الزبير، وأنا أبو طالب واسمي عبد مناف، وعبد الكعبة، وأم حكيم البيضاء، وهي توأمة عبد الله، جد زينب، وتزوجها كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس، فولدت له عامر وأروى وهي أم عثمان بن عفان الذي شاهدته اليوم. وأما أختي عاتكة بنت عبد المطلب، فتزوجها أبو أمية بن المغيرة المخزومي، الذي أكلنا عنده الثريد، فولدت له زهيراً وعبد الله ابني أبي أمية. وبرة بنت عبد المطلب، تزوجها عبد الأسد بن هلال بن عبد الله

المخزومي، فولدت له أبا سلمة بن عبد الأسد، ثم خلف عليها أبو رهم بن عبد العزى أخو حويطب بن عبد العزى بن أبي قيس بن عبدود، من بني عامر بن لؤي، فولدت له أبا سبرة. وأميمة بنت عبد المطلب تزوجها عمير بن وهب بن عبد بن قصي فولدت له طليب بن عمير، وأم هؤلاء جميعاً فاطمة بنت عمرو ابن عائذ بن عمران بن مخزوم.» دارت رأس جندب من كثرة المعلومات، وصدق حدسه بأن التعداد لم ينته بعد. «أما حمزة والمقوم والمغيرة وصفية فأمهم هالة وهي ابنة عم آمنة زوجة أخي عبد الله وجدة زينب. عندما ذهب والدي ليخطب آمنة بنت وهب بن عبد مناف لابنه عبد الله، خطب لنفسه ابنة عمها وتزوجا سوياً، ولذلك فمحمد وعمه حمزة في العمر نفسه. وقد تزوجت صفية من الحارث وبعده من العوام وأنجبت لكل منهما. ومن زوجة ابي الثالثة، نتيلة، ولد العباس، وضرار الذي توفي قبل عامين. ومن صفية بنت جندب ولد لعبد المطلب الحارث وقثم الذي مات صغيراً. ومن لبنى الخزاعية ولد عبد العزى الذي لقبه والدي، أبا لهب، لحسن مظهره، وكان وحيد أمه. أما الغيداق، أو نوفل، فهو ابن ممنعة بنت عمرو.» صمت أبو طالب قليلاً ثم سأل جندب: «كم زوجة أحصيت؟»

«ست زوجات ولكني لم أحص الأبناء.» قال جندب وهو يأمل أن لا يضطر لسماع تفاصيل زيجات ونسل أخوة وأخوات أبي طالب. «لا أظن أنكم تعيشون في وئام تام.»

«كنا في وئام أثناء حياة أبي، ومن قبله جدي هاشم.» صمت قليلاً ثم استدرك «الاختلافات من طبيعة الأمور، وفي الحقيقة إنّ صراعاً قد نشب بين جدي هاشم وابن عمه أمية بن عبد شمس، وربما تكون أنت يا جندب من سلالة

أمية هذا لأنه رحل مع فخذه إلى الشام». تنبهت ملامح جندب وتحفزت زينب فتشجع العجوز ليسرد ويبسط الأمور: «كان جد هاشم، قصي، يحكم مكة ويدير شؤونها وينمي تجارتها كونه صاحب تجربة وأسفار. عاش قصي في صباه على حدود الشام مع أخوته لأمه. وبعد وفاته قبل مئة وخمسة وعشرين سنة تنافس أبناؤه وأحفاده على السلطة لإدارة مكة وانقسموا إلى جبهتين، أحدهما تزعمها بنو عبد الدار والأخرى نحن، بنو عبد مناف. في النهاية اتفقوا ووزعوا المهام، فكانت الحجابة والندوة واللواء في أيدي عبد الدار، والسقاية والرفادة في عبد شمس بن عبد مناف، وكان هذا مشغولاً بالأسفار والأعمال فسلم المهمة إلى أخيه هاشم، التاجر الغني الذي وضع أسس التجارة لمكة وأقام المعاهدات مع الدول والممالك المجاورة، مثل بيزنطة، وأمراء غسان ليسمحوا بحرية حركة تجار مكة. بعد هذا الإنجاز ثارت غيرة أمية بن عبد شمس وأراد استرداد الصلاحيات من عمه، وغضب ونافر عمه هاشماً على خمسين ناقة سود الحدق تنحر في مكة وجلاء عشر سنين. خسر أمية المنافرة وخرج إلى بلاد الشام واستغل خبراته في الشام وما عرفه في مكة من شؤون تجارية. وعندما مات جدي هاشم في غزة قبل خمسة وتسعين عاماً ركز أبي وأخوته جهودهم للإشراف على إدارة مكة وتدبير شؤونها الدينية، أما بني أمية فقد تحولوا إلى التجارة بين مقرهم في الشام وبين مكة وصاروا يعدون الرحلات التجارية والقوافل، ويقودهم الآن أبو سفيان.»

«أمي من غزة، ولكني لم أمر بتلك المدينة حتى الآن. لقد كانت رحلتنا من إيلياء إلى البتراء إلى أيلة على رأس البحر.» صمت جندب وهو يتذكر مصير والده، ومسح أبو طالب على رأسه ليخفف عنه إذ عرف ما جرى لسفينتهم

وطاقمها مما رواه عمر، وقالت زينب إن شرف السقاية من ماء زمزم أحسن لبني هاشم من أرباح تجارة بني أمية.

«هذا ما فعله جدك عبد المطلب منذ عثوره على زمزم، والحقيقة إن من يشرف عليها لا يجد الوقت لتجارة وسفر وحماية قوافل.» قال أبو طالب لزينب بنت محمد. وعندما استفسر جندب إذا كانت زمزم قد ضاعت وعثر عليها مجدداً أسرعت زينب وشرحت له: إنها عين ماء فجرها الطفل إسماعيل ابن النبي إبراهيم الذي تركه مع أمه هاجر.

«كان أبي ينام القيلولة هنا داخل الكعبة، ولم يكن له آنذاك من الأولاد سوى شقيقي الحارث. على عدة أيام تكرر حلمه بمن يطلب منه حفر زمزم التي يعرف العرب بقصتها ولا يعرفون موقعها منذ أن طمرها جرهم، إثر هزيمته من بني خزاعة وبقية العرب. وكان قوم جرهم قد فسقوا وظلموا فعادوا بعد الهزيمة إلى اليمن. خرج أبي إلى قريش وقال لهم إنه قد أُمر بحفر زمزم، فسألوه إذا كان الوحي قد أخبره بموقعها، فنفى، فطلبوا منه أن ينام مجدداً، فإن جاء الوحي فليطلب منه تحديد موقعها، وإن لم يزره في نومه فقد كانت وسوسة شيطانية. وبالفعل عاوده الوحي وطلب والدي منه تحديد موقعها، فأخبره إنها عند قرية النمل وسينقر غداً الغراب موقعها فتعرفه. خرج أبي وأخي وشاهدا الغراب ينقر بين الوثنين إساف ونائلة، حيث تنحر قريش ذبائحها. ضرب عبد المطلب بالمعول فجاءت قريش ترده لأن الموقع مقدس لهم، فأصر على الحفر وطلب من الحارث أن يذود عنه، وكادوا يغلبون أبي وأخي، وضايقوهما قبل أن يسمحوا بالحفر رويداً رويداً. هنا نذر عبد المطلب لئن ولد له عشرة أولاد، ثم بلغوا الرشد حتى يمنعوه ويشدوا أزره، ليذبحن

أحدهم عند الكعبة. فلم يحفر إلا يسيراً حتى بدا له الطمي فكبر، وتمادى في الحفر حتى وجد غزالتين من ذهب، كان جرهم قد دفنهما، ووجد أسيافاً ودروعاً. فقالت له قريش: يا عبد المطلب لنا معك في هذا شرك وحق، فأنكره عليهم واقترح أن يضرب الأقداح فوافقوه. خصص للكعبة قدحين أصفرين، وله قدحين أسودين، ولقريش قدحين أبيضين، ثم أعطوا الأقداح لضاربها عند الإله هبل. النتيجة أن قدحي قريش تخلفا فلم يكن لهما نصيب وفازت الكعبة بالغزالين وأبي بالسيوف فصنع بابا للكعبة وصهر الذهب وزين به الباب، وأقام السقاية للحجاج من زمزم، فأقبلت عليها قريش أيضاً لمكانتها الدينية وابتعدوا عن شرب الآبار الأخرى الكثيرة التي كانت في مكة، وافتخرت بنو هاشم بزمزم، بئر إسماعيل بن إبراهيم، ولا زلت أرعى شؤونها.» قال أبو طالب بنغمة لم يتلمس فيها جندب شيئاً من الفخر.

«أنت الوريث وصاحب الشرف لهذه المهمة، وبالطبع تدر عليك بعضاً من المال.»

«ليتها كذلك يا صغيري.» قال العجوز وقد تمدد على الفراش مما يوحي بأنه قد يستسلم للقيلولة. «هي شرف لراعيها من دون شك، وكل قريش تتوق لهذا الشرف، ولكنها مهمة مكلفة جداً. في العام الماضي استدنت من أخي العباس عشرة آلاف صرفتها في الحجيج، وبدل السداد فإني استدنت هذا العام أربعة عشر ألفاً على أن أعيد إليه الأربعة والعشرين في العام المقبل أو أسلمه السقاية ليقوم بها ويورثها لأبنائه وأحفاده.» وتمتم أبو طالب بأن الأمور لا تسير كما يتمنى.

«لماذا لا تجني النقود من الحجيج بدل الماء والرعاية الدينية...»

«لا يجوز هذا يا جندب، فهذه مهام تشريف لا يتصدى لها إلا من يتحمل أعباءها المالية، كما أن والدي لم يحل زمزم لمغتسل، وبنى حوضين واحداً للشرب والآخر للتطهر، وهذه أمور لا يمكن أن يطلب فيها مال. إنهم يبيعون ويشترون ويربحون من الحجيج وأنا علي سقايتهم.»

«أخبره يا جدي عن جدنا كعب بن لؤي.»

«زينب تعرف تفاصيل تلك القصة عن ظهر قلب، والأرجح أن أباها محمداً أخبرها بها مراراً حتى حفظتها، فدعها تخبرك بها وأنتما في الطريق إلى بيتي لترتاح هناك، قد تجد طالباً في البيت وهو في سنك تقريباً. احفظ الطريق لتعود هنا في العصر إن رغبت».

«طاب يومك يا عماه» قالت هالة بنت خويلد وكرر ابنها التحية على أبي طالب وقد خرجا لتوهما من الكعبة، ولم تكن زينب قد انطلقت بعد مع جندب. رد الجميع تحيتهما ومررت هالة يدها على رأس بنت أختها وقد انفرجت أساريرها وهي تتبادل النظرات مع ابنها لقيط بن الربيع القرشي.

«عسى أن تكون الآلهة قد لبت مطالبكم، وفرجت عنكم.»

«لقد فعلت يا عماه، وتأكد ذلك الآن.» قالت هالة من دون توضيح ولم يستفسر أبو طالب أكثر كون الأمر لا يقع ضمن اختصاصه، ولكنه يعرف أن من يزور الآلهة في هذا الوقت يبتغي تحقيق مطلب أو الإجابة عن استفسار عبر القداحين.

«ما رأيك يا بني؟» سألت هالة ابنها وهما يسيران خلف زينب وجندب، وأضافت همساً قبل سماع الإجابة «ولكن ذلك قد يعني الانتظار فهي لا تزال صغيرة.»

«لا بأس في الانتظار، إذا كانت هي من اختارتها الآلهة لي زوجة.» كان

والد زينب كثيراً ما يزور منزل هالة فهي التي زوجته من أختها، ورغم فارق السن فإنه صديق أيضاً لابنها لقيط الذي يغشى بيت محمد وخديجة ويعرف بناتهم وأولادهم حق المعرفة.

«إنه التفسير الوحيد لقول القداح، أخرج وانظر وستراها تنتظر، فهي أول أنثى نراها بعد الخروج من باب الكعبة، وهي ابنة أختي ونعرف أصلها وفصلها.» عند افتراق الطريق نادت هالة على زينب أن تحمل التحيات إلى أمها وأبيها.

«جدنا كعب بن لؤي...»

«تمهلي يا زينب.» قاطع جندب زينب وهما في الطريق إلى بيت أبي طالب ولم يسمعا شيئاً من حديث هالة وابنها عن الزواج. «لقد تحدث أبو طالب عن نذر أبيه عبد المطلب بذبح أحد أولاده إذا بلغ تعدادهم العشرة، فهل أوفى بالنذر؟»

«كان سيذبح جدي عبد الله، ولو فعل لما ولد أبي، ولكن عم أبي، العباس، أوقف التنفيذ وسحب جدي عبد الله من تحت قدم أبيه وأصابت السكين وجهه ولا تزال آثار الجرح في العباس.» توقفت زينب عن الحديث، ولكن جندباً حدجها بنظرة فهمت منها أنه يريد التفاصيل. «أنت عاشق للروايات على ما يبدو. سأعطيك القصة كلها، ولكن عليك أن تحدثني عن قصص بلادك وما يدور عند الروم.» وافقها بإيحاء من رأسه فأكملت: «جمع عبد المطلب أولاده وأخبرهم بالنذر ودعاهم للوفاء فأطاعوه. كتب كل منهم اسمه ووضعه في قدح، جمعها أبوهم ودخل بهم إلى جوف الكعبة حيث هبل والبئر التي تجمع فيها الهدايا للكعبة، وسبعة أزلام يتحاكمون إليها ويأخذون الاستشارات ويستقسمون بها. وجاء الاختيار على ابنه الأصغر عبد الله، وهو

أحبهم إلى عبد المطلب. أخذ الشفرة وذهب مع أولاده إلى إساف ونائلة ليوفي بالنذر بينهما، لكن أولاده ترددوا في اللحظة الأخيرة وتجرأ العباس وسحب عبد الله من تحت قدم أبيه.» انتبهت زينب إلى علامات دهشة واستغراب على وجه جندب. «لم يذبحه في النهاية واقترحت قريش أن يذهب إلى عرافة في الحجاز، وهي سجاح، فيسألها المشورة. في يثرب سألوا العرافة ما العمل، فسألتهم كم هي الفدية في بلادهم فقالوا عشرة من الإبل. قالت إذاً قربوا صاحبكم والإبل واضربوا عليهم بالقداح، فإن جاءت على الإبل فاذبحوها بدلاً منه، وإن جاء القداح على صاحبكم فزيدوا عشرة وكرروا حتى يأتي القداح على الإبل. وهكذا فعلوا، ولكن القداح جاء كل مرة على جدي عبد الله حتى وصل عدد الإبل إلى مئة، فنحرها عبد المطلب وتركت لا يُصد عنها إنسان ولا سبع».

قبل أن تطرق زينب الباب الخشبي الذي يتوسط جداراً طينياً، سمعا صوت طالب من خلفهما وهو يلتقط أنفاسه، وأخبرهما أنه مر بوالده عند الكعبة فأرسله في أثرهما. دخلت زينب مع طالب وجندب، واتجهت إلى بيت أم طالب، فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف بن قصي، فسلمت عليها وألقت نظرة على آخر أطفالها، علي، الذي لم يتجاوز السنتين من عمره. وكانت زينب تسمع من والدها أن فاطمة هي أول هاشمية تلد هاشمياً، وتعرف أن فاطمة هي ابنة أسد أحد أخوة عبد المطلب، وإذا كان هاشم جدها فكيف لا يوجد من سبقها من الهاشميات والهاشميين في إنجاب طفل؟ لم تطرح تساؤلاتها على أم طالب، ولم تمكث معها طويلاً وعادت إلى أهلها، بينما صعد طالب وجندب إلى مظلة على السطح واستلقيا بعد شرب جرعات من الماء.

3

«أنا هنا منذ ثلاثين عاماً أجيز الحجاج من مزدلفة كل موسم.» قال أبو سيارة لجندب وهو يجر خلفه أتاناً عوراء في طريقهما إلى دار الندوة.

«وهل صاحبتك هذه الحمارة كل تلك السنوات؟»

«هذا صحيح، وقد ضاعت عينها من جراء أحد حجارة الحُجاج الذي تسرع بالرمي، وكان أحول فقيراً فسامحته، ولا أدري إذا كانت الأتان قد فعلت أيضاً، لكنها على الأرجح قد نسيت الآن، فهي لا تملك ذاكرة البعير.» ربط أبو سيارة الحمارة في زاوية مخصصة للدواب بالقرب من مدخل دار الندوة المقابلة للكعبة من الغرب. «هذه الدار بناها قصي، وهو الذي أعاد تجميع قريش وأنزلها في بطحات مكة وظواهرها.» كان جندب قد عرف من طالب قبل أن ينطلق للتجوال في السوق، بأن دار الندوة تشهد كل يوم تقريباً الفصل في إحدى الخصومات أو إزاحة بعض المظالم أو عقد نكاح أو تدرع جارية، لذلك توافق مع أبي سيارة، حين تعرف إليه في السوق، أن يذهبا إلى دار الندوة سوياً. وأبو سيارة هو عميلة، أو العاص بن الأعزل من بني عدوان الذين استعادوا شرف الإجازة من قصي حين خلّص مكة من بني خزاعة. وقد أخبره طالب إن هذا الرجل يحفظ كل تاريخ مكة ويسرده كل موسم على من يستمع إليه من الحجاج.

«على الأرجح أن بني هاشم قصوا عليك قصصهم، لكن مكة أقدم من ذلك بكثير، ومنها أصل كل العرب، ومن لم يكن أصله منها فليس عربياً لكنه مستعرب.» قال الرجل وقد أخرج بعض التمر من جراب يحمله قبل أن يجلس مع جندب في زاوية من ظل معرش الجريد الممتد أمام ثلاث غرف متلاصقة. بين الباب والمعرش توجد نخلة طويلة، وعلى مقربه منها حوض ماء.

«وعرب اليمن والشمال والشام والحيرة والبتراء...»

«رويداً رويداً، أنا لا أطعن في عروبة أحد، ولكني أقول إن مكة هي الأصل، والسبب أن إسماعيل بن إبراهيم هو مؤسس مكة وهو أب العرب.» صمت جندب وأخذ تمراً من جليسه الذي تابع: «ترك إبراهيم وليده إسماعيل وأمه هاجر في وادي جبال فاران التي تحيطنا، وكانت منطقة بلا أنيس أو حسيس. كان ذلك حين عجز إبراهيم عن تهدئة غيرة سارة، العاقر، من إنجاب هاجر لإسماعيل. وكانت سارة هي التي قد رضيت لزوجها أن يتزوج هاجر، لأنه كان يتشوق لإبن وقد اقترب العمر من نهايته. لكن عندما أنجبت الضرة، أصرت سارة على ترك هاجر وابنها في القفار والرحيل عن الوادي. إنهن سبب المشكلات وسيبقين كذلك.»

«أعرف ذلك، وقد فجر إسماعيل ماء زمزم، فماذا بعد؟»

«يقال إن إبراهيم صار فيما بعد يزور هاجر وإسماعيل سراً على البراق من دون أن تعرف سارة. المهم أنه قبل أن ينتهي مخزون طعام هاجر وإسماعيل وصلت إليهما طائفة من العرب العاربة وهم قوم جرهم، وقبلت هاجر أن يقيموا عندها حتى تستأنس بهم ولكن بشرط أن ليس لهم في الماء شيئاً إلا ما يشربون منه. ولأنك في عجلة من أمرك لن أطيل عليك كيف كبر إسماعيل

وتزوج من جرهم وكان إبراهيم يزوره سراً، ولكن أعرف أنه طلق بعضهن حتى عثر على واحدة غير لحوحة وشاكرة. أنجبت هذه لإسماعيل اثني عشر ذكراً وأنثى واحدة اسمها نسمة، وهي التي زوجها جدها إبراهيم إلى حفيده ابن إسحاق، بن سارة، وهو العيص، فأنجبت له الروم والفرس، بينما أنجب أبناء إسماعيل قبائل العرب. وعرب الحجاز كلهم يرجعون إلى اثنين من أولاده، نابت وقيذر، بينما بقية العرب من الأولاد العشرة الباقين. أصبح نابت حاكم الأمور في مكة حتى تغلبت جرهم على البيت الذي بناه إبراهيم وإسماعيل، وذلك طمعاً من جرهم في أولاد أختهم فحكموا بمكة وما والاها عوضاً عن بني إسماعيل مدة طويلة. كان أول الجراهمة مضاض، إذ أخذ الحكم وسكن أعلى مكة، في قعيقعان، وسكن زعيم آخر منهم، السميدع، بقومه في أسفل مكة، وصار كل منهما يأخذ العشر ممن مر به مجتازاً إلى مكة. ولأن البلد تعتمد على زمزم وعلى حجاج البيت الحرام، كان لا بد من حسم الصراع. مات السميدع واستقل المضاض بالأمر ولم يعترض أولاد إسماعيل وأحفاده لأن جرهم أخوالهم. توارث أبناء مضاض وأحفاده الحكم ثم بغت جرهم وأفسدت.» صمت أبو سيارة قليلاً وشرب من قربة يحملها. «إذا كنت ترى ذلك كله مملاً فاعرف إنّ إساف ونائلة كانا بشراً من قوم جرهم وقد فحشا في الكعبة فسُخطا صنمين، ووضعا قرب الكعبة ليكونا عبرة. لكن الجراهمة لم يعتبروا ولم يعودوا إلى دين إبراهيم فثارت خزاعة على جرهم، وخزاعة أيضاً من اليمن من ذرية عمرو بن عامر الذي هاجر بعد توقعه السيل العرم الذي سيهدم السد. عند الهزيمة أخذ زعيم جرهم غزالين ذهبيين وسيوفاً كانت تزين الكعبة ودفنها في زمزم وطمها وارتحل عائداً إلى اليمن. بقي أمر مكة في يد

خزاعة ثلاثمئة سنة حتى تزوج قصي بن كلاب ابنة آخرهم، خليل بن حبشية، وهي حبى، فولدت لقصي أربعة هم عبد الدار وعبد مناف وعبد العزى وعبدا. وقصي هذا هو ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، ويمتد نسبه إلى إسماعيل.»

«وقد أخذ قصي الحكم من نسيبه كما أخذه من قبل مضاض من أولاد أخته، أبناء إسماعيل.» قال جندب وهو ينظر إلى ثلاث جوارٍ يفرغن جرار الماء في الحوض.

«هناك من يقول إن خليلاً أعطى قصياً الحكم لكثرة أولاده، ولكن غيرهم يقولون إن قصياً استنجد بأخوته من أمه وببني كنانة وقضاعة، وببقايا من قريش يقطنون حول مكة، فأجلى خزاعة عن مكة، وأخذ ولاية البيت، وأبقى إجازة الحجيج مع بني عدوان. لكن القوم لم يعودوا إلى دين إبراهيم وواصلوا عبادة الأوثان. ذلك أن أحد رؤسائهم من زمن خزاعة، عمرو بن لحي، كان غنياً جداً وفقأ عين عشرين بعيراً مما يعني أن عنده عشرون ألفاً. وكان يذبح للحجيج ويكسوهم كل عام ويطعم العرب، ويحيس لهم الحيس بالسمن والعسل، ويلت لهم في السويق، ولذلك كان قوله وفعله فيهم كالشرع. وذات سفرة له إلى الشام رأى في البلقاء ولد العماليق يعبدون الأصنام، فأخذ صنماً اسمه هبل وجلبه إلى العرب، وأمر الناس بعبادته. وأثناء حكم جرهم وخزاعة، هاجر الكثير من أحفاد ولد إسماعيل عن مكة، وكانوا يأخذون معهم بعض الحجارة من كعبة أبيهم ليطوفوا حولها في غربتهم، وصار أولادهم يعبدون الحجارة، والعرب يقلدون ويعبدون حجارة جميلة يجدونها في الصحراء، وإن لم يجدوا حجارة كانوا يحلبون شاة فوق كوم رمال ويطوفون حولها.

هكذا احتفظوا بشيء من دين إبراهيم مثل تعظيم البيت والطواف والحج والعمرة ووقوف عرفات والمزدلفة مع إضافة الأصنام والأحجار.»

«هل يعرف أحد الآن ما هو دين إبراهيم وإسماعيل؟» سأل جندب أبا سيارة الذي أعطاه إشارة بخفض الصوت. «لقد فهمت أن الناس كانوا يطوفون منذ أيام الكعبة الأولى، وأن الحجر الأسود هو الأهم في الكعبة.» أضاف جندب بصوت منخفض.

«لدينا الآن في مكة مجموعة من الأتقياء يعارضون عبادة الأصنام، ويجهرون بذلك في سوق عكاظ، ويجادلون الناس ويناقشونهم، كما أن الخبر قد شاع في مكة منذ سنوات باقتراب موعد بعث نبي قرشي يجدد دين إبراهيم.»

«أليس اليهود على دين أبيهم إبراهيم ويحفظونه في كتب لديهم؟»

«لقد غيروا وبدلوا كما غيرنا وبدلنا، وهم لم يطوفوا بالكعبة ولا يعترفون بها، وإنما يوجهون صلاتهم إلى بيت المقدس. الأقرب لدين إبراهيم بيننا الآن هو قس بن ساعدة، وممن سبقونا يوجد أحناف من قبائل وأماكن مختلفة يربط بينهم رفض عبادة الأصنام، ودعوا إلى الإصلاح، مثل عمرو بن نفيل وأمية بن أبي الصلت، وقبلهم أرياب بن رثاب وسويد بن عامر المصطلقي وأسعد أبو كرب الحميري، وقبلهم أشهر أجدادي وهو عامر بن الظرب العدواني قاضي العرب وحكيمهم، وهو الذي جعل الدية مئة بعير. ولا يمكن نسيان الحنيف كعب بن لؤي وهو والد قصي وكان قد عاش في زمن خزاعة. يمكنك السؤال عن أفعال وأقوال هؤلاء، والاستماع إلى قس بن ساعدة في موسم عكاظ الذي اقترب موعده».

«لماذا يسمونك أبا سيارة؟» قال جندب وقد شعر أن جليسه أراد تغيير موضوع الحديث إذ دخل قوم إلى دار الندوة.

«لأني لا أسير إلا بدابتي من تحتي، وأتميز في المواسم بذلك فقالوا أبا سيارة. إن أردت يمكن أن تقول لي العاص، أو أبا عدوان.»

«هل ستحملك دابتك إلى عكاظ؟»

«إنها لا تقوى على مسير ثلاث ليال، سنركب الجمال مثل بقية أهل مكة، وسأمكث هناك عشرين يوماً الموسم، وشهراً آخر بعدها، فمضارب القبيلة قرب عكاظ وبعضنا يقطن في الطائف، وجدي الحنيف الذي ذكرته لك كان من أول مؤسسي اللقاء السنوي في عكاظ حيث كان يُحكم بين الناس ويخطب فيهم، وقد عمر أكثر من مئتي عام.»

«هلموا إلى جفنة ابن جدعان، هلموا إلى جفنة ابن جدعان...» ارتفع الصوت من فوق الكعبة يدعو إلى الطعام. أوضح أبو عدوان لجندب أن عبد الله بن جدعان قد حسن من طعام جفنته، فبدل إطعام التمر والسويق وإسقاء اللبن صار يقدم البر والشهد والسمن. والسبب في هذا التعديل أن أمية بن أبي الصلت قال في طعامه:

ولقد رأيت الفاعلين وفعلهم فرأيت أكرمهم بني الديان

البر يلبك بالشهاد طعـــامهم لا مـــا يعللنا بنو جدعان

«هكذا أرسل ابن جدعان إلى الشام ألفي بعير جلبت البر والشهد والسمن، وكل ليلة ينادي المنادي إلى جفنته.» قال أبو عدوان وقد وصل مع جندب وآخرين إلى جفنة ضخمة مليئة بالطعام، يغترف منها القوم ما شاؤوا. بعد وهلة، كثر الزحام والتدافع، وتعرف جندب إلى محمد الأمين وهو يتحمل

دفعات من رجل قوي، فدفعه الأمين فوقع الرجل إلى ركبته وانهشمت وسال دمه، وقال أبو عدوان لرفيقه الصغير إن المجروح هو عمرو بن هشام، الذي غادر الساحة وهو يعرج ودمه يسيل ويلطخ جلبابه، وتذكره جندب من حفلة زواج عمر. «قبل شهرين وقع صغير في الجفنة فغرق.» قال أبو عدوان، وتذكر جندب أنه شاهد أناساً وقت الظهيرة يستظلون تحت الجفنة.

«من أين لابن جدعان هذه الأموال لإطعام الناس كل يوم وجلب البر والشهد من الشام؟»

«هذا هو السر.» قال أبو عدوان لجندب وهما يبتعدان عن الجفنة ويتمشيان حول الكعبة حيث علقت الأشعار على جدارها ونصبت مئات الأصنام حولها وفوقها. «قبل أن يصبح هذا الرجل من الكرماء المطعمين كان فقيراً وشريراً يكثر من الجنايات، فبغضه أهله حتى خرج يوماً في شعاب مكة باحثاً عن الموت. رأى شقاً في جبل فتمنى أن يكون فيه شيء ضار يريحه من الحياة. شاهد ثعباناً، فأخذ يحيد ويثب عنه ولكن الثعبان لا يتحرك، اقترب منه وعرف أنه من الذهب وأنّ عينيه ياقوتتان، فكسره وأخذه ودخل الغار، فإذا فيه قبور ملوك جرهم وعندهم الجواهر واللآلئ والذهب والفضة. أخذ حاجته وعلّم باب الغار وانصرف إلى قومه يعطيهم ويطعمهم حتى أحبوه وسادهم، وهاهو يطعم قريشاً ورواد الكعبة. وكلما نقصت عليه النقود يذهب إلى الغار فيأخذ حاجته.»

«إنه رجل كريم وحكيم أيضاً.» قال جندب وقد توقف أمام جدار المعلقات «سوف يكسب الشهرة لآلاف السنوات المقبلة، وربما نسي الناس هذه الأشعار، ولكنهم سيتذكرون كرمه.» فكر جندب أن ما شاهده حتى الآن بين العرب لا يؤهل أغنياءهم بالاستمتاع بالمال، فماذا عساهم أن يصنعوا

بأموالهم غير اقتناء العبيد واستبدال النساء وتحسين مفيد لأنواع الطعام. لو كانت الأموال لدى أناس من الشام أو القسطنطينية أو روما لما تكرموا بها، ولوجدوا مئات الطرق لإنفاقها في البذخ أو في البنيان، فقصر واحد في الشام قد يعادل كلفة نصف أبنية مكة الطينية.

«أعتقد أن شهرة الكرم سوف تلتصق بغيره.» قال أبو عدوان، ولم يكن يعرف ما سرحت إليه أفكار جندب، وأكمل مفسراً «ففي طي يوجد حاتم الطائي، أبو عدي، وهو ابن عبد الله بن سعد بن الحشرج بن امرئ القيس، الذي لا يملك مالاً ولكنه يجود بما لديه للآخرين ويحرم نفسه وعياله، بل إن زوجته قالت إنها لم تأكل هي وإياه طعاماً من دون أن يشاركهما فيه ضيف. وقد بلغ حاتماً قول الشاعر المتلمس:

قليل المال تُصلحه فيبقى   ولا يبقى الكثير على الفساد
وحفظ المال خير من فناه   وعسف في البلاد بغير زاد

فاعتبر حاتم هذا القول تحريضاً على البخل، فرد عليه:

فلا الجود يفني المال قبل فنائه   ولا البخل في مال الشحيح يزيد
فلا تلتمس مالاً بعيش مقتر   لكل غد رزق يعود جديد
ألم تر أن المال غاد ورائح   وأن الذي يعطيك غير بعيد»

«أظن أن حاتماً هذا من أهل الكتاب كما يبدو من شعره، ومن قوله إن الذي يعطيك غير بعيد، كما أن أكثر من معلقة هنا تذكر الله وربما كان امرؤ القيس نصرانياً، وكذلك عنترة بن شداد، ولعجبي كيف يوافق الوثنيون من قادة قريش على تعليق بعض هذه الأشعار حول كعبتهم وأصنامهم.»

«سترى يا جندب في عكاظ وتسمع كلاماً أوضح مما في المعلقات أو

في شعر الطائي. وهذا منتشر بين العرب منذ القدم، فقد كان كعب بن لؤي يجمع قومه يوم الجمعة، وكانت قريش تلقبه بالعروبة، فيخطب فيهم قائلاً: أما بعد فاسمعوا وتعلموا وافهموا واعلموا، ليل ساج، ونهار ضاح، والأرض مهاد، والسماء بناء، والجبال أوتاد والنجوم أعلام، والأولون كالآخرين، والأنثى والذكر، فصلوا أرحامكم، واحفظوا أصهاركم، وثمروا أموالكم، فهل رأيتم من هالك رجع؟ أو ميت نشر؟ الدار أمامكم، والظن غير ما تقولون، حرمكم زينوه وعظموه، وتمسكوا به فسيأتي له نبأ عظيم، وسيخرج منه نبي كريم.» نظر أبو عدوان إلى جندب فتأكد من استماعه باهتمام ثم أضاف: إن كعباً عاش قبل خمسمئة سنة. «أما جدي عامر فقد خطب في بني عدوان كثيراً ومما قاله حول الإيمان: من خط له شيء جاءه، رب زارع لنفسه حاصد سواه، ولولا قسم الحظوظ على غير الحدود ما أدرك الآخر من الأول شيئاً يعيش به، ولكن الذي أرسل الحياة أنبت المرعى ثم قسمه أكلاً لكل فم بقلة ومن الماء جرعة، إنكم ترون ولا تعلمون، لن يرى ما أصف لكم إلا كل ذي قلب واع، ولكل شيء راع، ولكل رزق ساع، إما أكيس وإما أحمق، ما رأيت شيئاً قط إلا سمعت حسه ووجدت مسه، وما رأيت موضعاً إلا مصنوعاً، وما رأيت جائياً إلا داعياً، ولا غانماً إلا خائباً، ولا نعمة إلا ومعها بؤس، ولو كان يميت الناس الداء لأحياهم الدواء، فهل لكم في العلم العليم؟ قيل ما هو؟ قد قلت فأصبت وأخبرت فصدقت. فقال لهم أموراً شتى وشيئاً شيأً، حتى يرجع الميت حياً ويعود اللاشيء شيئاً، ولذلك خلقت الأرض والسماء!! فكان القوم يتولون عنه عند سماعهم ذلك وهو يكرر لهم: ويلها نصيحة لو كان من يقبلها.»

«إن هذا الكلام أشبه بما كتب في التوراة والإنجيل.» قال جندب وسأل صديقه ليدله على بعض النصارى في مكة.

«إنهم كثر هنا، والأقرب لنا الآن هو جبر الذي يملك بيعة عند المروة، وهو من عبيد بني الحضرمي.» توجه أبو عدوان غرباً إلى حجر المروة وهو يخبر جندب عن جبر وقال له إن الكثير من أهل مكة يجتمعون عند النصارى للاستماع إلى قصص الأنبياء وأخبار السابقين. «كل الحجاج عليهم السعي بين الصفا والمروة التي أمامك الآن سبع مرات.» كانا قد ابتعدا عن الكعبة قليلاً وشاهد جندب أن البنائين كادوا أن ينتهوا من السقف، فتذكر والده وطاقم السفينة المنكوبة وهو ينظر إلى ألواح خشبها وقد استقرت في هذا المكان المقدس لدى العرب. تعرف جندب وجبر إلى بعضهما، وتواعد أبو عدوان مع جندب على اللقاء قبل أن يتركه، وكان قد اتفق مع جندب على السفر مع المكيين إلى عكاظ.

«جزاك الرب خيراً عن خشب الكعبة، ورحم والدك وأسكنه جنته مع الصالحين من ركاب السفينة.» لقد انتشر خبر جندب بين كل أهل مكة، وكان الناس ينظرون إليه ببعض الشفقة على مصابه والاعتزاز بجلب الخشب من جدة.

«شكراً يا جبر، ولكن الفكرة والتنفيذ كانا لعمر بن الخطاب.» قال جندب مصارحاً وسأل جبر عن الحياة في مكة.

«كما تراها، ليس بها ماء جار إلا بعض العيون وما يتجمع من برك ماء السماء، ولا توجد بمكة شجرة مثمرة، وإنما تأكل من خيرات الطائف وثمار البوادي. أهلها ليسوا مثلنا، فهم يتعبدون لمئات الأصنام ولألوان من الحجارة. والحياة هنا مواسم، الحج مثلاً حيث يحضر الناس من كل فج يطوفون حول الكعبة عراة، ثم يروحون ويغدون هنا بين الصفا والمروة، وينطلقون إلى مزدلفة

خلف صديقك أبي سيارة، وعندما يرون الشمس على قمة جبل ثبير ينطلقون من المزدلفة إلى جبل عرفات ويذبحون الشياه والإبل ويكثر الطعام والبيع والشراء. وهناك مواسم الأسواق، وتجهيز القوافل وتوديعها واستقبالها...»

«كيف؟ يحجون عراة؟ ماذا تقصد، عراة الرأس أو الجسد؟» قاطع جندب جبر.

«عراة كما ولدتهم أمهاتهم. إن الحياء هنا شبه معدوم. قريش تطوف بقمصان، وكل من يمنحه الحمس قميصاً يطوف به، ولكن بقية الحجاج من الذكور والإناث يطوفون عراة، والقميص الذي يطاف به يحرق حتى لا يستعمل مرة أخرى. هكذا بوسع المتحمسين لدينهم من قريش أن يستروا من يشاؤون ويتفرجوا على عورات من يريدون...»

«هل الحمس قبيلة قرشية؟»

«بل هم جماعة من كل القبائل، يجمع بينهم التشدد في الدين.» قال جبر ولاحظ أن جندب لم يكتف بتلك الإجابة، فأضاف: «إنهم يعظمون الحرم تعظيماً زائداً يلزمهم البقاء فيه حتى ليلة عرفة، فلا يقفون بعرفات مع علمهم أن الوقوف هو من شعائر إبراهيم عليه السلام. وأثناء إحرامهم لا يدخلون بيوتاً من شعر، ويمنعون الحجيج والعمار أن يأكلوا إلا من طعام قريش، ولا يطوفون إلا بثياب قريش، ومن لا يُمنح ثوباً من الحمس يطوف عرياناً ولو كانت امرأة، ولهذا كانت الأنثى تقول وهي تضع يدها على فرجها:

اليوم يبدو بعضهُ أو كله ... وبعد هذا اليوم لا أُحلُّهُ»

«ليتهم تعلموا عن سيدنا المسيح مقولته: إياكم والنظرة فإنها تزرع في القلب شهوة، وكفى بها فتنة.»

«إنهم لا يتجنبون الفتنة يا جندب، بل هم يسعون إليها، لا يهمهم نصيحة داوود لابنه أن لا يمشي خلف امرأة ويمشي خلف الأسود، ولا قول يحيى إن النظر يؤدي للتمني وهذا يوصل إلى الزنى. إن الزنى هنا مُشرع.» كانت تقاسيم وجه جندب تنطق بالتعجب وهو يستمع إلى إيضاحات جبر الذي أخبره أن أنواع النكاح في مكة أربعة. النكاح بتعاقد ومهر، ونكاح الاستبضاع إذ يرسل الزوج زوجته إلى رجل آخر لتحمل منه، والنكاح بدخول أقل من عشرة على امرأة ينكحونها برغبتها وعندما تحمل وتلد تجمعهم وتقرر من هو والد المولود، ونكاح الباغيات اللواتي يرفعن رايات أمام بيوتهن للإعلان عن استقبال الزبائن، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها تجمع كل زبائنها وتقرر هي من كان منهم والد الطفل ثم يلحقونه به ويُدعى ابنه، لا يمتنع من ذلك أحد منهم.»

«هذه أمور غريبة وتنم عن حرية للإناث لا مثيل لها، وليس كما هو عند النصارى في الشام وبقية البلدان.»

«لا أدري إذا كانت حرية.» قال جبر وشرح لجندب أسباب صعوبة المقارنة، فأخبره أنهم يئدون البنات عند الولادة خوفاً من أن يسببن العار لأهلهن لاحقاً، ولذلك فتعدادهن أقل من الذكور. وهذا يجعلهم يبدلون النساء بكثرة فيما بينهم، يتزوج الواحد أنثى أو أكثر، ثم يطلقها ليتزوجها ذكر آخر ويحتفظ الزوج بما أنجبته من أولاد. هذا بين أغنياء القوم ولكن الفقراء فإنهم يبيعون أطفالهم، من الجنسين، للأغنياء عند الولادة تحفظاً من انعدام القدرة على إطعامهم. وقال جبر عن العبيد إنهم ملك لأسيادهم يتصرفون بهم وبهن كما يريدون.

«لا يزال بين النصارى من يحلل زواج الاثنتين، وعرفت من قصص المعلمين أن فئة كانت تظن أنها نصرانية ويتبادل رجالها النساء بينهم، فلا تعرف لهم أنساباً، وما زال الملوك والأمراء والأغنياء يتصرفون بالإناث كما يحلو لهم وبدون رغبتهن، وهذا على عكس ما تحدثت عنه هنا في مكة، بل إن جواريهم لهن حق التدرع إذا لجأن إلى دار الندوة.» توقف جندب عن الحديث ليرد مع جبر تحية محمد الأمين الذي مر بهما واعتذر عن دعوة جبر له بالجلوس لانشغاله بشأن آخر، وواصل مسيره غرباً إلى جبل قعيقعان.

«إنه كثيراً ما يجلس عندي فنتحادث في شؤون شتى، يبدو أنه في طريقه إلى خلوة وتعبد.» علق جبر على مرور الأمين وأضاف رداً على جندب، بأن العرب يتزوجون البنات وهن صغيرات، ويتزوجون قريباتهم، فقاطعه جندب بأن مريم العذراء حملت وهي ابنة ثلاث عشرة سنة. «لم تحدثني عن نفسك يا جندب، فيبدو أنك ملم بأنواع العلوم وطرق الحديث بالرغم من صغر سنك، وأنا لا أعرف عنك سوى حادثة المركب وجلب الخشب مع عمر، وبالطبع قوة صبرك وجلدك على فقدان والدك.» قال جبر بتواضع رغم فارق السن بين الاثنين.

«لقد تعلمت لغة الروم وقرأت في كتبهم ودرست في إيلياء تاريخ البشر وحفظت الكثير من مجرياته وخصوصاً منذ ميلاد سيدنا المسيح. لا أعرف كل التفاصيل طبعاً ولا زلت أتعلم، من الكتب والمعلمين ومن التجربة واللقاءات مع أهل المعرفة.» أبدى جبر إعجاباً بما سمع، وتمنى على جندب أن يطلعه على ما يعرف من التاريخ منذ ميلاد المسيح، وقدم لضيفه بضع حبات من التين المجفف الذي يبيعه لأهل مكة مع بضائع أخرى.

«أعرف أنها فترة طويلة تزيد عن ستة قرون، يكفي أن تحدثني بما تتذكره مما تعلمت، وأن تزورني كلما تمكنت ورغبت في ذلك.» وأضاف جبر: إن معرفته بالدين والروايات أخذها عن أهله النصارى، وجمعها من روايات التجار النصارى الذين يصلون إلى مكة.

«في سنة تسع وثلاثمئة من تأريخ الإسكندر الأكبر ولد السيد المسيح، وكانت هذه سنة ثلاثة وأربعين من حكم القيصر أغوسطس. وقد ولدت مريم طفلها في بيت لحم لأنها حضرت مع يوسف من الناصرة إلى إيلياء لإثبات اسميهما في سجل السكان الإجباري الجديد.» قال جندب وهو منتشٍ قليلاً بإقرار جبر له بالمعرفة واستعداده للاستماع والتعلم. «عندما حضر المجوس بالهدايا للمسيح، عرف بأمرهم هيروذيس، المسؤول في الإقليم، وقابلهم وسألهم عن سبب الاهتمام، فأبلغوه أن الطفل سيكون له شأن عظيم، فطلب منهم البحث عن الطفل وإبلاغه بمكانه حتى يركع له هو الآخر مثلهم. لكن المجوس لم يعودوا إليه، ولهذا أمر هيروذيس بذبح كل أطفال بيت لحم حتى سن العامين، ولكن يوسف كان قد عاد مع مريم إلى الناصرة، وبعد معرفته بما حدث هربا بالمسيح إلى مصر. بعد ثلاثين سنة عُمد المسيح نبياً وأفشى سر الآيات وملكوت الله والحث على العمل بسنة الفضيلة فضلاً عن سنة العدالة. منذ بداية العالم البشري إلى مجيء المسيح أربعة آلاف ومئتان وعشر سنين بمقتضى التوراة التي بيد اليهود. ولكن حسب الأناجيل في يد الروم فالمدة هي خمسة آلاف وست وثمانون سنة بالتقريب. لقد أنقص اليهود الفترة لإبطال البشارة بالمسيح كما وردت في كتبهم، بأنه سيظهر في أواخر هذا الزمان، الذي يبلغ عندهم سبعة آلاف سنة. هكذا جعلوا ظهور المسيح

في أواسط الزمان ليقولوا إنه ليس المنتظر. ثم ظهر رجل يسمى قورينثوس وكان يقول إنه في ملكوت الله أكلاً وشرباً ونكاحاً، وذلك للاستهزاء بالجنة التي وعد المسيح بها أهل التقوى. بعد أربعين سنة من صلب المسيح تحققت مقولته عن أورشليم إنه ستأتي أيام تحيط بك أعداؤك ويكبسونك وبنيك فيك. إذ هجم طيطوس ابن القيصر إسفسيانوس على المدينة وقتل زهاء ستين ألفاً وسبى نيفاً ومئة ألف نفس، ومات فيها من الجوع خلق كثير وتشتت الباقون وخرب الهيكل. وكانت علامات قد ظهرت قبل ذلك منها نجم طويل من نار يلمع، وفي عيد الفصح جاء اليهود ببقرة الذبيحة فولدت حملاً وسط الهيكل، وفتحت أبواب النحاس لوحدها وكانت تحتاج إلى عشرين رجلاً، وكان الناس يسمعون في الهيكل أصواتاً تقول:إنّا سنقتل من هاهنا.» توقف جندب عن الحديث وأخذ يراقب ويستمع إلى امرأة مرت بهم وهي تنادي بأن عدتها قد انتهت، وكانت تحمل بعراً في يدها وهي متجهة شرقاً إلى الكعبة. كان جبل أبو قبيس شرق مكة قد اكتسى بضوء الغروب الأحمر، وهو جبل أرفع وأعلى من قعيقعان.

«لقد مر عام على موت زوجها وهي الآن سترمي البعرة لإعلان نهاية الحداد، وبوسعها أن تخرج من حفشها الوضيع الذي سكنته لعام، وتغير الخشن من لباسها وتتزين كما تريد.» قال جبر موضحاً لجندب تصرفات المرأة. «إن حياتهم وقيمهم متناقضة جداً، فالعذاب للزوجة سنة بعد موت زوجها لا معنى له، وللرجل حين يموت أبوه أو حموه الحق في امرأته، إن شاء أمسكها أو حبسها حتى تفتدى منه بصداقها أو تموت فيذهب بمالها. وفي المقابل يحق للنساء الاشتراك في التجارة والتقدم بخطوبة لزوج، وحرية

ممارسة الجنس، كما أنهن يسرن في الأسواق، وفي كل مكان متبرجات متطيبات، يبعن ويشترين.» توقف جبر لوهلة وقال لجندب: إن نساء العرب يمكنهن خلع أزواجهن، وإن أول من خلع ابنته من ابن أخيه هو عامر بن الظرب العدواني.

«لم يخبرني أبو سيارة بذلك، ولكن ما الذي يساوي بعرة عند الأرملة الآن، هل هو كفافها لسنة أو كل حياتها الزوجية؟»

«إنها ترمي الماضي معلنة أنه لم يعد يهمها أو يساوي عندها بعرة.» قال جبر وهما يشاهدان المرأة وقد رمت ما بيدها، ثم عادا لما انقطع من حديثهما.

«بعد مئة عام من صعود المسيح، أي قبل خمسمئة عام بالتقريب من الآن، اشتهر جالينوس وكتب مئة كتاب في الطب والفلسفة، وأستاذه كان إليانوس، وهو الذي حمل الترياق إلى أنطاكية حين وقع الموتان في أهلها، فمن شرب منه قبل أن يمرض نجا، والذين شربوه بعد المرض بعضهم نجا وبعضهم هلك. وقال جالينوس في شرحه لكتاب أفلاطون في الأخلاق: إن النصارى قوم تراهم قد بنوا مذهبهم على الرموز والمعجزات وليسوا بأقل من الفلاسفة الحقيقيين بأعمالهم، إذ يحبون العفة ويديمون الصوم والصلاة ويتجنبون المظالم، وفيهم أناس لا يُدنسون بالنساء. وفي ذلك الزمان وجد بطليموس القلوذي الرياضي وهو أول من سطح الأرض واخترع خط الإسطرلاب وله كتب مشهورة في الجاوغرافيا وأحكام النجوم. كما جرت بين جالينوس والإسكندر الأفروديسي محاورات حول كتب أرسطاطاليس المنطقية والحكمية.» توقف جندب ليرى إذا كانت ملامح جبر تستغرب هذا الحديث، ثم أضاف: «مع وجود هذه الأسس للعلم والمنطق والفضيلة والدين، إلا

أن ممارستها بقيت محصورة في نخبة من الناس. فالقياصرة والملوك كانوا يتزوجون أخواتهم، ويتناوبون على ظلم المسيحيين وإنصافهم، ونادراً ما مات قيصر لكبر في السن، ولكنهم قتلوا غيلة أو في فتنة أو وثوب الغلمان عليهم. لقد أحسن القيصر فيليبوس إلى النصارى ورام الاجتماع مع المؤمنين لكن الأسقف قال له لا يمكنك الدخول إلى البيعة حتى تنتهي عن المحارم وتكتفي بزوجة واحدة من غير ذوات القربى، فكان يحضر الصلاة ويقف خارج البيعة مع الذين لم يكملوا دينهم. في عهد فيليبوس ظهر قوم من أصحاب البدع قالوا: إن من كفر بلسانه وأضمر الإيمان بقلبه فليس بكافر. ولم يخل الأمر من بعض المدعين للنبوة، مثل طيطيانوس الذي قال بوجود عوالم كثيرة كعالمنا، وإن التزويج كله زنى وشر، وإن بعد الموت أكلاً وشرباً ونكاحاً. كما ظهر مونطانس القائل عن نفسه إنه الفارقليط الذي وعد المسيح أن يوجهه إلى العالم. وظهر أيضاً ابن ديصان من مدينة الرها، وسمى الشمس أبا الحياة والقمر أم الحياة، وأنهما في أول كل شهر يتجامعان بعد أن تخلع أم الحياة لباسها من النور، فتلد أولاداً يمدون العالم السفلي بالنمو. حكم فيليبوس سبع سنين وجاء بعده ذوقيوس الذي بغض سابقه وبغض النصارى وشدد عليهم حتى كفر الكثير منهم، ثم بعد مقتل ذوقيوس قدموا التوبة، لكن القسيس ناباطيس رفض توبتهم وقال لا مغفرة لمن أخطأ بعد المعمودية، فوعظه الآباء وسألوه الرجوع إلى رأي الجمهور فلم يقبل حتى اجتمع عليه ستون أسقفاً وأبعدوه عن البيعة وقبلوا التوبة للمرتدين. وفي زمان ذوقيوس كان الفتية السبعة أصحاب الكهف الذين هربوا منه إلى مغارة فعلم بأمرهم وسد بابها عليهم، فألقى الله عليهم سباتاً إلى يوم انبعاثهم من رقادهم. آنذاك كان ملك فارس هو سابور

بن أردشير الذي حكم إحدى وثلاثين سنة. القيصر التالي حكم سنتين وقتل في سوق فلامنيوس في رومية، والذي تلاه حكم تسع سنوات وشدد على النصارى فغزاه سابور ملك فارس ومصر وأسره في المعركة وسجنه في بابل، وتولى الحكم ابنه غالوس الذي أزال الاضطهاد عن النصارى خوفاً مما نزل بأبيه، كما أن أورلينوس الذي جاء بعد ثماني سنوات هادن سابور ملك فارس وزوجه ابنته، فبنى لها سابور مدينة أشبه ببوزنطيا وسماها جنديسابور، وكان القيصر قد أرسل مع ابنته إلى فارس جماعة من الأطباء اليونانيين وهم الذين بثوا الطب البقراطي في المشرق.» أصبح جبر يسجل موجزاً لما يقوله جندب على رقع، وكلما انتهى من واحدة يتوقف جندب حتى يجلب أخرى. «في تلك الأثناء اشتهر ماني الثنوي، وكان قسيساً في الأهواز يعلم ويفسر الكتب ويجادل اليهود والمجوس والوثنيين، ثم أعلن ذاته مسيحاً واتخذ اثني عشر تلميذاً وأرسلهم إلى بلاد المشرق وحتى الهند والصين ورعوا علم الثنوية، أي أن للعالم إلهين أحدهما من نور وهو الخير والآخر من الظلمة وهو الشر، وكان يقول بالتناسخ ويفرط في تعظيم النار، باختصار فقد جدد مذهب الفرس القديم وشيده بالحجج ليصبح نبياً لهم يسهل عليهم تصديقه. لقد تغير آنذاك في غضون سنتين أربعة قياصرة حتى حكم ذيوقليطيانوس لعشرين سنة وأشرك معه ثلاثة في الحكم، منهم ابنه الذي أقام برومية وقسطنطينوس في بوزنطيا وختنه مكسيميانوس في مصر والشام. وثار أهل مصر فأرسلت لهم الجيوش فأهلكوهم ودمروا الكنائس وأحرقت كتبهم، وزرعهم، وأصابت البلاد كلها مجاعة عظيمة وبلغ ثمن القفيز الشامي من الحنطة ألفين وخمسمئة درهم، فاعتزل القيصر وختنه الحكم واختلطوا بالعامة وبقي في الحكم مكسانطيس

وقسطنطينوس، وكان ملك فارس آنذاك هرمزد. واعتبر الأقباط ذلك الحدث في مصر بداية لتاريخ الشهداء الذي يوافق ثلاثمئة وثلاث سنوات بعد صعود المسيح، أي قبل ثلاثمئة سنة من يومنا هذا. ومن غرابة الأقدار أن ذلك الزمن الوسيط هو بداية صعود النصرانية في العالم، فقد جاء إلى الحكم قسطنطيس الكبير وبعده قسطنطينوس القاهر. كان الكبير مصاباً بالبرص فوصف له خدم الأصنام أن يذبح أطفال المدينة ويغتسل بدمائهم ليشفى، فأخذ جماعة من الأطفال ولكن حدثت مناحة عظيمة في المدينة فلم يذبحهم. في تلك الليلة رأى في منامه منادياً أن يرسل لإحضار أسقف رومية ليبرئه من المرض، وهكذا فعل، وشفي، وأعاد إعمار الكنائس وتعمد. أما القاهر فقد انتقل من غاليا إلى بوزنطيا ووسعها وسماها القسطنطينية، ثم استعد لغزو رومية لأن حاكمها لم يبايعه. وبينما هو يفكر إلى أي آلهة يلتجئ في هذه الغزوة رأى في منتصف النهار راية الصليب في وسط السماء فاتخذه شعاراً وديناً وفتح رومية وعمد من يهودها وعبدة الأصنام فيها زهاء اثني عشر ألفاً خلا النساء والصبيان. والأهم أن أمه هيلاني تنصرت هي الأخرى وسافرت إلى أورشليم حاجة، وطلبت الصليب الذي صلب عليه المسيح فحصلت على واحد وحملته إلى القسطنطينية. ومنذ ذلك الزمن انتشرت النصرانية في الأمم المجاورة لرومية من الجلالقة والصقالبة وبرجان والروس ووصلت الديانة إلى الحبشة والنوبة وأصناف الترك، وبنى القاهر كنيسة عظيمة سماها آجياصوفيا، أي حكمة القدوس.»

«إنه تاريخ حروب واغتيالات ومارقين وتعذيب للمؤمنين.» قال جبر بينما كاد ضوء الشمس أن يغيب عن قمة جبل أبي قبيس، وقد أخذ يلم بضاعته

ليحملها معه. «كلما جاء نبي إلى أمة، فإما أن يكذبوه ويخذلوه في حياته، أو يختلفوا ويقتتلوا من بعده لأن كل فئة تدعي الفهم الأصح لما قال وأراد نبيهم.»

«والملوك والقياصرة يستغلون الأديان حسب حاجتهم، حيناً يحاربون ويعادون الأديان وأحياناً يناصرون ويدعون التعبد، بل يجمعون بين الملوكية والأبوية الدينية سعياً للاحتفاظ بكرسي الحكم وتوريثه.» قال جندب مثنياً على ملاحظات جبر، وصار يساعده في تعبئة بضائعه في الأكياس، واستجاب لرغبته في إكمال الحديث في يوم آخر.

4

«لقد رأيتك في عكاظ تنصت إلى قس بن ساعدة وهو يخطب من على جمله الأحمر، فهل حفظت كلامه؟»

«أيها الناس، اسمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، ليلٌ داجٍ، ونهار ساجٍ، وسماء ذات أبراج، ونجوم تزهر، وبحار تزخر، وجبال مرساة، وأرض مدحاة، وأنهار مجراة، إن في السماء لخبراً، وإن في الأرض لعبراً، ما بال الناس يذهبون فلا يرجعون، أرضوا بالمقام فأقاموا أم تُركوا فناموا، يقسم قس بالله قسماً لا إثم فيه، إن لله ديناً هو أرضى له، وأفضل من دينكم الذي أنتم عليه، إنكم لتأتون من الأمر منكراً». كان جندب يكرر بعض ما جاء في خطبة قس، ويقلد حركاته من فوق الجمل، بينما عثمان غارق في الضحك وهو يوازيه على جمله ويتجاذب معه أطراف الحديث. «لكن أجمل شيء في عكاظ هو موقعها في وادي النخيل ووفرة المياه، وكثرة الزوار وتنوعهم، ولم أفهم سبب وجود مقنعين كانوا بين الذين تعبدوا للحجارة.»

«هؤلاء على الأرجح بعض شيوخ القبائل أو أناس يعتبرون أنفسهم من ذوي الشأن، فيتنكرون عن العامة خوفاً من بطش عدو بهم، أو الذهاب رهينة بعدما يغادرون السوق، ولهذا يتنكرون هم وبعض رجالهم حتى لا تقع العين

على قلة متنكرة. زوار موسم عكاظ يا جندب يأتون من كل مكان للاستماع إلى الأشعار والمجادلات وإلقاء دلوهم وتمجيد قبائلهم، فيعكظ بعضهم بعضاً بالحجج. وبها تعقد المعاهدات وتعلن أسماء من تخلعهم قبائلهم فتسقط حقوقهم.» قال عثمان، وأبلغ إلى جندب أنه ولد في الطائف القريبة من عكاظ وإن والده عفان يملك مزرعة كبيرة هناك تمد مكة بالثمر والحبوب.

«إنها خليط عجيب من الفلاسفة والمتنبئين والشعراء والمصارعين والبياعين، كل له قبته أو حلبته، وبين هؤلاء تتجول الإناث متعطرات متبرجات يستعرضن أنفسهن.» توقف جندب عن الكلام ثم ابتلع ريقه وقال لعثمان: «سمعت أنكم بني أمية سوف تقتتلون مع أبناء عمومتكم بني هاشم...»

«هذا تنجيم قديم تفتقت عنه أذهان الكهان» قال عثمان مقاطعاً، وأضاف موضحاً: «عندما ولد هاشم والد عبد المطلب، وعبد شمس والد أمية، كانا ملتصقين ببعضهما. وعند فصل قدم هاشم عن رأس توأمه، جد جدي عبد شمس، سال بعض الدم، فقيل إن الخلاف سيدب بين أحفادهما وتسيل الدماء بينهم. وها نحن الآن بخلافات لا تتميز كثيراً عما يختلف فيه أولاد العمومة.»

«لكن النبوءة لم تحدد الزمان والمكان...» أفلتت الكلمات من جندب ثم استدرك: «بمشيئة الرب لن يحصل بينكم إلا الخير».

«لقد أصبح الجندب ملماً بخفايا قريش وقصصها في أقل من عام.» وصلهما صوت عمر بن الخطاب عالياً من خلفهما، وكان قد استمع لما دار في آخر الحديث بينهما. «من المؤكد أنه يحن إلى أصوله العربية وسيعود إلينا على الدوام.» كان عمر ضمن المشتركين في هذه الرحلة إلى الشام، ومنهم أيضاً خاله عمرو بن هشام، وعمرو بن العاص، وأبو سفيان بن حرب، كل

منهم يحمل تجارة، ومعهم ما يقارب الخمسمئة بعير تحمل البضائع الهندية واليمانية إلى الشام.

«حضر كل أيام عكاظ، وخالط بني عدوان في الطائف ستة أشهر تعلم فيها الفروسية والطعان بالسيف واللسان، وأصبح خبيراً في شعاب مكة والوديان. والليلة سيسهر على أمن القافلة.» أيد عثمان عمر في مديح جندب، ولكن هذا أعلن أنه يحبذ الطائف عن مكة.

«لست وحدك في هذا الحب، فكل أغنياء قريش لهم ضياع في الطائف وعبيدهم يحرثون ويزرعون فيها، ويرحلون إليها مع عوائلهم كلما اشتعل صيف مكة.» قال عمر وهمهم على بعيره ليسرع الخطى في اتجاه مقدمة القافلة.

«صديقي لا يعتبر نفسه من أغنياء مكة...»

«بل هو والخطاب وبني نفيل من الأغنياء وعلية القوم، ولديهم تجارة وعبيد وجوارٍ، ولكنهم لا يملكون ضياعاً في الطائف.» قاطع عثمان جندباً، وأخبره أن الخطاب يلتقي مع أبناء عبد المطلب عند جدهم كعب بن لؤي.

«إن بلادكم عجيبة، فهي تتراوح وتتبدل بين الجحيم والنعيم خلال فترات قصيرة من الزمن، وهذا ما لا أراه في بلاد الشام أو بلاد الروم.» أنصت عثمان وأظهر الاهتمام لملاحظة جندب الذي واصل حديثه وهو يتمرجح جالساً على سنام ناقته: «عبيدكم مُضطهدون، وبدونهم لا يمكنكم العيش إذ لا يملك الناس مهناً وصنائع، ويعتبرون العمل اليدوي مهانة. نجار نصراني يبني لكم سقف الكعبة، وبالرغم من غناكم قصرتم في إعادة بناء الكعبة على أساس بناء أبيكم إبراهيم. والتجار يجلبون لكم البضائع من اليمن والهند والسند،

والعبيد يجلبون الثمار والفواكه من أطراف مكة الجرداء إلا من الجبال، بينما الخضار والنخيل قربها.» كان عثمان يضحك ويؤيد ملاحظات جندب بإيماءة من رأسه. «جبال وحرارة، وصحارى يتوه فيها الدليل، وكل بضعة أيام تعثر على نبع ماء أو بركة في قرية تتجمع فيها مياه الأمطار. وأكثر من الينابيع لديكم الزيت القذر الذي يرشح من الصخور ولا يستفاد منه.»

«بل إنه يُنقل إلى مصر والإسكندرية ويباع بأثمان جيدة.» صمت عثمان لينظر إلى وجه جندب المستغرب لهذه المعلومة فأضاف: «إنهم يستعملونه هناك منذ مئات السنين لتحنيط موتاهم من الملوك والرهبان والأثرياء.»

تستغرق القافلة من مكة إلى معان، أول بلاد الشام، قرابة شهر، وثلث هذه الرحلة يوجد بين مكة ويثرب، وهو الثلث الأسهل. فبعد الخروج من يثرب تجتهد القافلة ثلاثة أيام في الوادي بدون استراحات إلى هدية، خوفاً من الضياع، وفي هدية ماء زعاق لا يمكن شربه. استراحة قصيرة ثم أربعة أيام إلى العلا، وهي قرية كبيرة تحيطها بساتين نخيل وبها مياه عذبة. هناك استراحت القافلة أربعة أيام حتى فجر اليوم إذ انطلقوا إلى الحجر. وقرية العلا هي منتصف الطريق بين الشام ومكة، وبها ينزل تجار بُصرى الشام ومعظمهم لا يتجاوزونها جنوباً. لقد استدارت القافلة مع مجرى الوادي واتجهت شمال شرق إلى الحجر. ومنذ الضحى وجندب يلاحظ تحركات إضافية لقوى الحراسة وقادة القافلة، وعرف من عثمان أن الحجر بلدة قديمة مهجورة يتشاءم منها الناس، وهي أيضاً مخبأ لقطاع الطرق الذين يهاجمون القوافل القادمة من الشام والمنهكة من المسافة الصحراوية بين تبوك والعلا.

«قد يحصل قتال إذاً» قال جندب وهو يتحسس سيفاً أهداه له مدربه

العدواني «إنني أفضل القتال من على فرس، كيف يمكن الطعن من فوق هذا البعير الذي بالكاد يستجيب لأوامر التوجيه والتوقف...»

«لا تقلق على الأرجح لن يكون هناك قتال، فالطلائع التي سبقتنا لم ترسل أي إنذار، وجوانب القافلة ومؤخرتها محمية بالمقاتلين.» قال عثمان بينما جندب يكرر إن الخيل لا تنفع في هذه المناطق والمسافات. «تنفع جداً ولكن مؤنتها وشرابها تجهد صاحبها، لهذا فالجمال هي سيدة الصحارى يا جندب، تحملك لأيام من دون أن تشرب، وتسقيك اللبن، وهي لحوم متحركة إذا شح الطعام، ومن وبرها تصنع الخيام، وجلودها متعددة الاستعمالات، وبعرها يشعل النار. الجمال هي التي قربت المسافات وأخرجت سكان القرى من عزلتهم وربطت عبر الصحارى بين البلاد البعيدة.»

لم يكن جندب قلقاً، لقد سمع وعرف أثناء الاستعداد للقافلة في مكة وطوال الطريق حتى الآن أن القوافل القرشية في مأمن من الهجمات بفضل معاهدات وعقود مع قادة المناطق والقبائل التي سيمرون بها، كما أن هذه القافلة بالذات تجمع لها أعلام من قريش وجمعوا لها قدراً من الحماية يخيف كل من يدخل بلادهم. لكن جندباً يعرف أيضاً أن الغدر والطمع من شيم البدو الفقراء، كما أن اللصوص لا يرتبطون بمعاهدات ولا يستفيدون من أعطيات القوافل إلا إذا أخذوا ما يمكنهم بالعنف. ثقته بقادة القافلة وحسن سيرها حتى الآن، وثقته بنفسه بعد تدربه لنصف عام في الطائف مع فتيان من قريش، لم تمنحه السكينة التامة في هذه الأجواء الجبلية الصحراوية القاسية. إنه لا يتمنى أي تأخير للركب تشوقاً إلى مناخ الشام وإيلياء حيث تنتظر والدته، التي لا تعرف، على الأرجح، أن زوجها غرق في بحر جدة.

«هل وصلنا البتراء؟ كيف؟» قال جندب وهو ينفض رأسه ويغمض ويفتح عينيه، ولم يكن بجانبه أحد يسمعه. لا يمكن أن أكون قد نمت، وحتى لو نمت أسبوعاً فلا يعقل أن نكون في البتراء الآن. تمهلت الجمال وارتفع صوتها في المقدمة وهي تبرك على الرمال إلى جانب بعضها في أشباه دوائر. في أماكن متقاربة ظهرت صخور متعددة الأحجام، بعضها متصل ببعضه وأخرى تعزلها الرمال، وكل منها فيها نحوت لبيوت بدت جديدة تلمع في شمس العصر وكأنها نحتت في الصخور الحمراء ونعمت بالأمس. أبواب بأطر مزخرفة من حولها وبروز فوقها وكأنه طرف السطح تعلوه درجات مهندسة على الطرفين. إنها نسخ مصغرة من بيوت البتراء وتحديداً بيت الخزنة الضخم في مدخلها. «إنها أشبه ما تكون بأبنية البتراء.» قال جندب بعد أن نزل عن بعيره وشاهد عمر، «ولكنها أصغر منها، والموقع مختلف تماماً، فالبتراء مختفية بين الجبال ويربطها بالعالم الظاهر ممر ضيق بين جبلين.»

«لا تترك ناقتك والقافلة الآن» نادى عمر على جندب ليثنيه عن الذهاب إلى داخل البيوت الصخرية «هناك أفاعٍ ورماد عظام بشر في داخلها، كما أن عليك أن تبقى مع الناقة حتى يأتي دورك وترويها من بئر ثمود. أمامنا من هنا خمسة أيام صعاب إلى تبوك وسط وادٍ لا ينجو منه الناس إلا ببركة الآلهة، وقد لا نجد نقطة ماء وربما واصلنا المسير ليل نهار، فأحسن إلى ناقتك الآن، ولا تظلمها كما ظلموا ناقة النبي صالح.» أثار عمر اهتمام جندب بهذه التلميحات ثم أضاف إنه سيخبره بالقصة لاحقاً إن كان لا يعرفها.

لم تكن القافلة بحاجة إلى استراحة طويلة هنا، فقد أقاموا ثلاث ليال في العلا وغادروها هذا الفجر، ولكن القوافل في العادة تستفيد من كل موقع

ممكن على الطريق. سحب جندب ناقته إلى حوض السقاية، وكان جملاً قد رُبط على البئر ليسحب دلواً من جلد الماعز جيئة وذهاباً ينضح المزيد من ماء البئر العميقة ويصبها في حوض السقاية.

«هنا كانت تشرب ناقة النبي صالح.» قال أحد كبار السن ممن يرافقون القافلة وقد وقف يسقي جمله. «ولكنك من أهل الكتاب وتعرف بالطبع تلك الرواية.»

«لا أعرفها، فلا يوجد في كتبنا شيء عن النبي صالح أو ناقته التي تتحدثون عنها، وإذا وجدت في الكتب فلا علم لي بها.» قال جندب للرجل وأبلغه أنه لا يحفظ ما جاء في الكتب عن ظهر قلب. لم يرغب في أن يجزم بشيء أو يتهم محادثه بقلة المعرفة، فسأل: «هل عاش النبي صالح هنا؟»

«هذا ما تتناقله الروايات.» قال الرجل وهو يربت على عنق جمله. «ظننت أن قصص الأنبياء وأخبار الأولين قد خطت في كتب النصارى واليهود.» لم يتلق من جندب سوى نفي بالرأس وتعجب برفع الكتفين. «تنبأ صالح بين أهله، قوم ثمود، هنا، فطالبوه بإثبات صحة نبوته، وطالبوه بناقة ذات أوصاف محددة. صلّى لربه فأخرج لهم من الصخر تلك الناقة، فتاب بعضهم واهتدى وبقي بعضهم على الضلال. كانوا يتركون الناقة تأكل أنى تريد، وتشرب من هذه البئر، ثم يحلبونها في اليوم التالي ويشربون منها الكثير حتى تمرد بعض فتيانهم فعقروها وقطعوها بالسيوف، فحل عليهم الغضب بعد ثلاثة أيام وأصبحت دورهم كما تراها الآن، خاوية من الطير والبشر.»

«لهذا يتهيب القوم من دخول هذه البيوت إذاً، أولم يكن أهل صالح عبدة أصنام كما هم أهل مكة، فلماذا يخافون من دخول البيوت؟» قال جندب

وأضاف: «إذا عرجنا على البتراء سترى أن الذين بنوها هم الذين بنوا هذا المكان أيضاً. إنهم عرب نبطيون سيطروا على مناطق واسعة ضمت الشام ووصلت إلى مصر، وعلى ما يبدو أنهم وصلوا إلى هنا وأقاموا هذه المدينة البائدة.» كان جندب يتكلم برقة مع رفيقه الذي يحادثه لأول مرة، وبثقة من يعرف أن لا ذكر لنبي اسمه صالح في كتب اليهود والنصارى، كما أنه ملم بقصة البتراء ومؤسسيها من العرب الأنباط، ويظن بقوة أن هذه الأبنية عائدة لهم، وأنهم هجروها لسبب أو لآخر، وربما بسبب تقلص دولتهم. وخطر في باله أن لا يجرح شعور رفيقه فقال: «ربما كان النبي صالح يقطن مكاناً آخر، هل تعرف زمانه؟»

«لقد أُرسل صالح بعد آدم وإدريس ونوح وهود، وقبل إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويوسف ويونس وموسى.» ارتاح جندب لسعة معرفة وعلم رفيقه الذي أطلعه أنه ذاهب في ثاني جولة دراسية إلى مدن الشام والإسكندرية، فتمنى عليه جندب البحث في تاريخ البتراء، فربما لم تكن بمثل ذلك العمق في التاريخ. «لكن يا بني ربما كان هذا الموضع أقدم من البتراء، وربما تعلم النبطيون أسلوب البناء من هنا وليس العكس كما تظن أنت!»

«صدقت، هذا ممكن، ولكني ظننت أن البتراء هي الأصل كونها أكبر من هذه الرقعة بكثير، ولأن أهلها حكموا ما حولها حتى الشام وربما إلى هنا. لو صح ظني وأن هذا الموقع صنع بعد البتراء لما كان النبي صالح قد سكن هنا».

«تقول ذلك بحزم لأن كتب اليهود ذكرت مرور النبي موسى وأخيه هارون في منطقة البتراء، وهو بعد النبي صالح بزمن طويل.» قال الرفيق مبتسماً لنباهة جندب الذي أيده وقال: إن مدينة البتراء لم تكن قد بنيت عند مرور موسى وموت هارون هناك بعد تيه بني إسرائيل.

تركا دابتيهما مع بقية الدواب البارخة وذهبا سوياً في جولة بين البيوت الصخرية الخاوية. لقد شاهد كل منهما مثل هذه الأبنية من قبل، جندب رآها في البتراء، ورفيقه حسان الأزدي مر من هنا مراراً، ولكن التعجب والتساؤل لم يتركهما! كيف أقيمت هذه البيوت نحتاً في هذا الصخر الصلد؟ أي معدات استعملوا ليصبح الصخر أملس كالحرير ومن دون نتوء أو ميلان في الجدران؟ ماذا تعني الزخارف الهندسية المتنوعة على مدخل كل باب؟ ألم يكن من الأسهل البناء من الطوب والحجارة؟

«شاهدت في مصر أبنية منمقة تشبه هذه أو أكبر منها، ومزخرفة برسوم أدق ولبعضها ألوان زاهية في صورها، وهي من صنع فراعنة مصر الأقدمين منذ عهد موسى وقبله، ولكن بنيانهم من الحجارة الضخمة، وليست منحوتة في الصخر كما هذه.» قال حسان وهو يتحسس براحة يده جدار مدخل بيت تتطابق زخرفته مع مدخل مجاور مقام في الصخرة ذاتها. «أتعرف أن العرب يظنون أنها من بناء الجن؟»

«يمكن بسهولة تصديق هذا القول لمن لم يشاهد قصور بُصرى والبتراء وجرش والشام ومصر والقسطنطينية وروما. طبعاً إذا قارنت هذه الأبنية بالبناء في مكة ويثرب والطائف، فتلك من صنع البشر وبعضها لأغنياء القوم. أما هذه هنا فلكل من سكن البلدة، فإما كلهم ملوك وأغنياء، أو أنهم من الجن الذين يبنون أفضل منها في رمشة عين.» كان جندب يتبسم ولا يعرف رأي حسان في مقولة إن الجن بنوها، وأضاف: «إذا كانت للجن فأين هم ولماذا رحلوا؟» كانا يدخلان البيوت الباردة والمعتمة من الداخل إذ لا نوافذ لها، فيشاهدان في بعضها رمماً وعظام حيوانات أو سحالي وحراذين وجعارين،

وشاهدا من مدخل أحد البيوت أنه مأهول بعقارب سوداء فارتدا عنه مهرولين وعادا إلى القافلة خشية اللقاء مع عقرب أو ثعبان. «أحصيت مئة بيت تقريباً في المنطقة، والأجدر بسكان العلا أن ينظفوها ويقطنوها، فهي لطيفة وباردة في لهيب الصيف، تحمي سكانها من سيول الشتاء، ولا تحتاج إلى ترميم يذكر، فقط صنع أبواب خشبية.»

«هذا من المستحيل أن تراه اليوم أو في المستقبل، فالعرب اليهود والنصارى والوثنيون يؤمنون بالجن والشياطين، ألا ترى أن اللصوص يرفضون حتى الاحتماء بهذه البيوت، والقوافل لا تبيت فيها أو بالقرب منها؟ هذه المدينة ستبقى خربة خالية طالما وجد عرب من حولها.» قال حسان وقد وصلا إلى جمليهما وبدأت مقدمة القافلة في المسير. «أمامنا يا جندب خمسة أيام صعاب حتى نصل إلى تبوك. لقد هبت رياح السموم ذات عام على قافلة في الوادي الذي ينتظرنا، فنشفت المياه وانتهت شربة الماء بألف دينار ومات البائع والشاري.»

«إنها بلاد قاسية على أهلها، وآلهة لا ترحم المخطئين».

«ماذا تعني يا جندب أن الآلهة لا ترحم المخطئين؟» سأل حسان من على جمله وهو يسير محاذياً لناقة جندب.

«أقصد آلهة اليهود والنصارى، وإله النبي صالح الذي لا أعرف إلى أي دين كان يدعو. الأصنام طبعاً لا علاقة لها بالأمر لأنها لا تأمر ولا تنهى مثل الأنبياء الذين يوصلون كلمات الآلهة من السماء.» توقف جندب عن الحديث لرد تحية عمرو الذي حاذاهم وتوافق مع مسيرهم حين سمع حديثهم. «كل الأنبياء جلبوا الانتقام الإلهي على أهلهم، في عهد نوح أغرق الرب الأرض بالماء، وقبله طرد آدم من الجنة، ثم قتل قابيل هابيل ليفوز بأخته، وقتل أقوام

بالصيحة، وآخرون بريح صرصر، وأنت قلت إن قوم النبي صالح خسفوا...»
سكت جندب قليلاً بينما عمرو وحسان يضحكان من حديثه.

«أترى، إنّ اللات والعزى وبقية آلهة قريش لا تنتقم منهم، ولكنها ترزقهم وتنمي تجارتهم، وتحمي ديارهم.» قال عمرو بصوت مجلجل وهو يضحك.
«أخبرنا عن أقوام أخرى انتقمت منهم آلهتهم.»

«في العام الماضي، قبل أن نركب البحر من أيلة في طريقنا إلى الحبشة حدثني كاهن مسن بقصة الذين تحايلوا على السبت. الغالب على أهل أيلة الآن هم النصارى، وصاحب المدينة الآن نصراني وهو يوحنا بن رؤبة، ومدينتهم صغيرة دافئة في الشتاء، وتكثر على شواطئها حيتان البحر، وكان بها يهود ولكن تقاتهم رحلوا عنها بعد أن سخط الرب أشقياءهم الذين خانوا السبت...»

«تقصد مقناه على بحر القُلزُم، القريبة من هنا؟» سأل حسان جندب.

«نعم. قال لي الكاهن في أيلة إن الرب اختبرهم بإبعاد السمك عن شواطئهم طيلة الأسبوع، ثم كثره أيام السبت حيث تأتيهم الحيتان ظاهرة آمنة مسترسلة. الفاسقون من أهل مقناه احتالوا في اصطيادها يوم السبت بأن نصبوا الحبال والشباك والشصوص وحفروا الحفر التي يجري معها الماء إلى مصائد أعدوها سابقاً، إذا دخلها السمك لا يستطيع أن يخرج منها. صاروا يجهزون ذلك في أيام الجمع فتعلق الحيتان حين تأتي يوم السبت ويأخذونها بعد خروج سبتهم...»

«إنهم يستحقون مكافأة على ذكائهم ونشاطهم هذا.» قال عمرو من دون أن يظهر إن كان جاداً أم لا.

«الأتقياء منهم احتجوا، كما روى الكاهن، وقرروا اعتزال الذين خانوا السبت.» عاد جندب إلى روايته، وأكمل: «وذات صباح لم يخرج الأشقياء من بيوتهم، وعندما نظر القوم في البيوت وجدوا قردة تسرح بها وتقفز إلى الناس، فظنوا أنهم سُخطوا، وأن القردة تتعرف إلى الناس وهم لا يعرفونها.»

«ولماذا لا يكون الأمر كذلك، وأنهم سُخطوا قردة؟» قال حسان وقد لاحظ أن جندباً لا يصدق قصة الكاهن، وأضاف: «يبدو أن هذه القصة لم ترد هي الأخرى في كتب اليهود والنصارى!»

«على الأرجح أن الفاسقين ملوا من المؤمنين وهجروا البلد في الليل، فاحتلت القردة البيوت بحثاً عن طعام، فهي كثيرة في الجبال والشعاب. أليست مقناه بين جبال تقطنها قردة؟» قال عمرو مفسراً قبل أن يرد جندب على سؤال حسان.

«بل هي كذلك، وتحيطها جبال صخرية ذات عروق سوداء وحمراء تنتشر فيها أنواع قليلة من الأشجار...» توقف جندب وأنصت إلى النداءات التي وصلتهم من الخلف، كل يصرخ ليسمع من هم أمامه، بعضهم يستدير ويعود بجمله، أو يقفز عن الجمل ويسلم مقوده لمن يجاوره ويعود راكضاً. كل هذا منظم مسبقاً تحسباً لهجوم مضاد. استدار عمرو بسرعة، وعندما استدار جندب بالناقة لم ير عمراً أمامه، وصار الجميع على الخيل أو الجمال أو الكعابية يسبقونه إلى الخلف. عندما وصل عرف أن قطاع الطرق خرجوا من كمين بين الجبال وهاجموا مؤخرة القافلة، شاغل بعضهم الحراس بينما خطف الآخرون أربعة جمال محملة بالبضائع وانطلقوا بها إلى الحجر، وقد تبعهم عمر وبقية الخيالة ورماة السهام من على الجمال. بقية الحرس والمرافقين عادوا وانتشروا مع طول القافلة تخوفاً من كمين آخر.

قبل صعود القمر من خلف الجبال كان عمر ومن معه والجمال الأربعة قد لحقوا بالقافلة، وكما انتشر الصراخ، جاءت الأهازيج من الخلف بنجاح المهمة، وعرف الجميع أن قطاع الطرق لجأوا إلى الحيلة التقليدية بالتخلي عن الغنيمة والانتشار في الشعاب حتى لا يطاردهم أحد من المهاجمين. لو لم ينجح عمر في استرداد الحمولة لتجرأ قطاع الطرق على مواصلة النهب بين المحطات، ولكان ذلك عار ومسؤولية على قادة القافلة، ومنهم بعض سادة قريش، وأشهر فرسانها. لقد أودعت معظم عائلات مكة الكثير من أموالها في هذه القافلة، كل من يريد من الرجال والنساء، الأشراف أو الرعاع، يمكنه الاشتراك بنصيب في القافلة، ويحسب له سهم من الربح بمقدار ما دفع. بهذا المال يشتري قادة القافلة من مكة بضائع تصلهم من الهند والصين واليمن، فيحملونها إلى الشام لبيعها هناك وشراء بضائع شامية يعودون بها إلى مكة فتباع هناك وتنقل عبر موانئ اليمن إلى الهند والصين. في الماضي كانت القوافل أكثر مما هي عليه الآن، السفن العربية تنقل البضائع من الهند إلى عدن، ومنها إلى مكة براً ثم الى غزة ومنها عبر البحر الرومي إلى بقية العالم. أما الآن فالسفن الرومية وسفن البطالمة، أحفاد الإسكندر، أصبحت تصل الهند وتوسعت في نقل البضائع من هناك، أو جلب العبيد والحيوانات من الحبشة وأفريقيا عبر البحر إلى مصر، وعبر الخليج إلى فارس، وخفت حركة القوافل البرية عبر مكة. لو نجح اللصوص في نهب القوافل لقطعوا بقية أرزاق قريش وأهل مكة، لأن الجميع سينتقل حينها إلى النقل البحري. ولهذا كان لا بد من تأمين الطريق وحماية البضائع، حلي وحرير وأقمشة وتوابل من الهند، وذهب وبخور من اليمن، وحرير وأطباق وأصباغ من الصين.

5

بعد أربعين يوماً من المسير والاستراحات وصلت القافلة إلى مسافة قريبة من مدينة مادبأ وكنيستها. كان جندب طوال الأسبوع الماضي يفكر في والدته وكيف سيخبرها بموت والده، وماذا ستفعل، هل تمكث حيث هي في إيلياء أو ستعود إلى أهلها في غزة؟ لو انطلق الآن سيكون عندها في مساء الغد، لكن عمر ومعظم الذين عرفهم عن قرب في الرحلة، مثل حسان وعثمان وعمرو وغيرهم، تمنوا عليه البقاء معهم حتى بُصرى، حيث يستريحون هناك لبضعة أيام ويتحسسون وضع السوق في الشام. ووافق جندب على تمديد الرحلة حين أخبره عمرو بن العاص أنه سيمكث في الشام ريثما تباع البضائع ثم سيذهب إلى إيلياء، وسوف يزوره فيها إذا مكث معهم حتى بُصرى. شرح جندب لعمرو كيف يصل إلى بيتهم في إيلياء، وأنه سيكون على الرحب والسعة. بضعة أيام إضافية على سنام الجمل لن تؤثر فيه، ولن تضره زيارة الراهب بحيرة، الذي تعرف إليه حين كان مع والده في طريقهما إلى الحبشة. كان تشوقه إلى رؤية والدته يقابله رغبة منه في تأجيل معرفتها لما حصل مع زوجها، وهذا يعني تأجيل اللقاء معها. يومان عبر عمون إلى بُصرى وأربعة أيام بالقرب من الراهب بحيرة بعيداً عن سنام الجمل، ثم يومين إلى إيلياء، إنها فترة تشجع على التفكير في أشياء أخرى الآن.

بين عمون وبُصرى تغير مزاج القافلة من الترقب إلى الفرح، فمعظم المشاركين في الركب كانوا قد مروا ببُصرى ولهم فيها معارف، ويعرفون شوارعها المرصوفة بالحجارة، وبيوت الاستقبال فيها وحمامها الروماني، وكنيستها، وأسواقها، وبالطبع محراب راهبها الشهير، بحيرة، الذي يستقبلهم ويدعوهم إلى الطعام كل مرة ويُكثر من السؤال والاستفسار عن أخبار قريش ومكة والكعبة. وبالرغم من طول المسافة بين مكة وبُصرى، إلا أن التواصل مع أهلها سهل، فهم يعيشون على التجارة وإطعام القوافل، ويتحدثون بعدة ألسن مثل النبطية والعربية واليونانية. لقد أصبحت عاصمة للنبطيين بعد البتراء وهي المدينة الرئيسة لما تبقى من دولة الغساسنة حتى الآن، كما أنها تتبع مباشرة إلى الحكم البيزنطي وتدار من حاكم الشام. وصلت القافلة في المساء إلى مدينة مضاءة الشوارع والبيوت، تستقبلهم بالتهليل والترحاب، ويوجه شبانها الجمال إلى مرقدها في وسط المدينة، ويتكاثر المرشدون وبائعو الحلوى والأطعمة والمشروبات والخمور، حول رجال القافلة، ويتقابل المعارف والزبائن من الطرفين.

في صباح اليوم التالي وصلت إلى رؤساء القافلة دعوة من الراهب بحيرة لتناول الغداء في المضافة المقابلة لصومعته، فقرر جندب استباق رفاقه وتوجه إلى الصومعة لشكر الراهب، وليبلغه بما جرى مع والده وضياع الحمولة التي كانت مخصصة للكنيسة في الحبشة. وجده يطالع في نسخة من إنجيل برنابا، وتذكره الراهب فوراً فرحب به، وتروى في السؤال عن والده حين رآه وحيداً، لكن جندباً أخبره فوراً بما جرى، وتقبل منه التعازي والدعاء لوالده بالجنة ونيل موقع قريب من الرب.

«كيف أحوال أصحابك في القافلة، وكيف تركتم مكة؟» سؤال عام أراد به الراهب إشغال ذهن جندب عن ذكريات غرق والده.

«قافلة ضخمة ورؤساء عدة من سادة قريش، بعضهم يعرفونك وآخرون يخرجون إلى الشام في أول رحلة لهم. ومكة على حالها تضج بالأصنام والجواري والعبيد والفقراء والأغنياء. إنها في واد جاف مقحل إلا من بعض عيون الماء.» قال جندب وقد طالع عنوان الإنجيل الذي أغلقه الراهب، وتحركا خارج الصومعة. «بعض رجالات القافلة نصارى، ولكن أغلبيتهم وثنيون. هل طباع النصارى العرب هنا حول بُصرى أقرب إلى الوثنيين أم إلى النصارى في روما وبيزنطيا؟»

«الدين يا بني لا يغلب على الطبع، فكون العرب الغساسنة نصارى منذ مئات السنين، لا يعني أنهم يتقاربون في الطباع مع نصارى الروم الغربيين في روما أو الشرقيين في بيزنطيا. الطبع الموروث يغلب التطبع يا جندب، ولذلك تُعذب الأقوام أنبياءها وتُحور الأديان حتى تناسبها.» أجاب الراهب على تساؤل جندب الذي سأله على الفور عن مصير دولة الغساسنة النصرانية التي عاشت هنا. «دولة الغساسنة لم تنته تماماً ولكنها ضعفت وتقسم عربها إلى خمس عشرة قبيلة، وهذا ليس في مصلحتهم ولا في مصلحة التجارة التي تمر عبر بلادهم ولا في مصلحة بيزنطيا التي اختلفت وتقاتلت معهم. حدود ومقاطعات بيزنطيا الآن عرضة لهجمات الفرس وأنصارهم القدامى، اللخميون، سكان الحيرة. طريق التجارة تضعف إذا انعدم الأمان والضمان في المسير، وهي حركة أصبحت قليلة بسبب التحول إلى نقليات السفن، وعزوة ديننا تتراجع بارتداد القبائل إلى الأصنام مكايدة منها لبيزنطيا.» كانا

يسيران على الطريق المُعبد بالحجارة من الصومعة باتجاه الحمام الروماني المجاور للكنيسة. «لقد عايشت حقبة طويلة من دولة الغساسنة طوال حياتي، وعندما كنت يافعاً شهدت بعض مجدها، وها هي تذوب قبل أن ألتقي ربي. سأحدثك عما وقع من غرائب عندما نصل إلى الكنيسة ونرتاح في ظلها ورطوبة أجوائها.»

«أشكر لك هذا الاهتمام وأطال الرب في عمرك.» قال جندب من دون أن ينظر إلى أعلى فقد كان الراهب يرتكز بثقل على كتفه. لقد تعرف إليه عندما مر مع والده من هنا قبل عام في طريقهم من الشام إلى أيلة لركوب البحر إلى الحبشة. كانت قافلتهم آنذاك مئتي جمل محملة بالرخام والزخارف والزجاج والصلبان والعمال الصناع لتجديد الكنيسة في الحبشة، وبلع بحر جدة كل شيء، ولكنه لفظ جندباً. «سوف يسعدني الاستماع إلى رؤيتك في أمر دولة الغساسنة.»

«إنهم يروون عن أجدادهم بأنهم هجروا مأرب عندما هُدم سدها وخربت البلاد. نزلوا في تهامة قرب بئر غسان ومكثوا هناك زمناً، فلقبوا غساسنة، وهم من بني جبلة من قبائل الأزد. عندما وصلوا إلى هنا تغلبوا على قبيلة الضجاعمة التي كانت بدورها قد هزمت قبيلة تنوخ سابقاً، وخدمت مع الرومان. تنصر الغساسنة في موقعهم الجديد، وهم من أصحاب مذهب اليعاقبة، مثلنا، وليس مثل أهل بيزنطيا. أول حكام الغساسنة يعود عهده إلى أربعمئة عام، والذي تعرفت إليه أنا هو الحارث بن جبلة الذي ورث عن أبيه، والذي أيدته بيزنطيا منذ ما قبل خمسة وسبعين عاماً، حتى توفي قبل خمسة وثلاثين عاماً، وقد جالسته مراراً هنا في بُصرى، فقد كان يحضر القداس كل أحد في هذه الكنيسة،

عندما يكون في المدينة. في العادة كان يفضل البقاء في الخيام والتجوال بين القبائل المتحالفة في دولته حتى يحافظ على تماسكها.» وصل الكهل والصبي إلى الكنيسة وجلسا على أحد كراسيها الخشبية المتراصة في صفوف متتالية. التقط بحيرة أنفاسه وواصل ضخ المعلومات على مسامع جندب. «عندما ثار اليهود والسامريون طلب القيصر مساعدة الحارث في قمعهم. آنذاك، عام 529 أصدر القيصر قوانين ضد السامريين واليهود تمنع تملكهم للأرض والعقارات، وهدمت معابدهم، وتعاظم الضغط عليهم، فثاروا في بيسان وقيسارية ونهبوا الكنائس وأحرقوها وقتلوا أسقف نابلس وقساوسة آخرين، ونصبوا زعيماً اسمه يوليان جمع الضرائب من نابلس وأقام سباقاً للعربات، وزعم أن الله أرسله ليعيد تأسيس مملكة سامرية. هكذا استعان الروم بالحارث بن جبلة ملك الغساسنة للقضاء على الثورة. قتل الحارث زعيمهم وأرسل رأسه إلى القسطنطينية، وقتل منهم عشرين ألفاً وهرب غيرهم إلى بلاد فارس، وأسر الحارث عشرين ألفاً من أبنائهم وبناتهم باعهم عبيداً في أسواق فارس والهند. وبسبب ذلك الخراب من أفعال الثوار وقمعهم ذهب وفد فلسطيني للإمبراطور عام 531 وطالبه بالإعفاء من الضرائب تعويضاً عن الدمار الذي حل بالبلاد. مات الحارث بعد أن تلقى الخلع والألقاب وزار قسطنطينية واستقبله القيصر ووالدته ثيودورا في القصر وشكروه على مثابرته في قتال الفرس وأنصارهم العرب اللخميين وهزيمة الثوار. توفي الحارث في عام خمسمئة وتسع وستين وهو على مذهبه اليعقوبي وكان قد تهرب من مطالب القيصر وأمه بتغيير مذهبه، وتسلم الحكم من بعده ابنه المنذر. لقد قاتل الغساسنة إلى جانب بيزنطيا ضد الفرس مراراً، أحياناً كانوا ينهزمون كما

حدث عام 531 في قنسرين، وأحياناً ينتصرون، لكنهم كانوا أيضاً يتسببون في الحروب. فبسبب الصراع بين العرب الغساسنة والعرب اللخميين على قيادة قبائل تدمر توسعت الحرب إلى قتال بين الفرس والروم كما حدث عام 541، وبعد ذلك بثلاثة أعوام تجددت الحرب حين وقع أحد أولاد الحارث في الأسر وذبحه الفرس وأنصارهم العرب كقربان للعزى وأفروديت.»

«سمعت أبي يقول لصديق له في القسطنطينية إن القيصر طيباريوس كان ذكياً لأنه استقبل المنذر بن الحارث في القصر وخلع عليه تاجاً ملكياً، وذلك على عكس خلفه الذي اعتقل المنذر».

«والدك كان محقاً في قوله يا جندب. بل إن القيصر طيباريوس عقد معاهدة صلح وتعاون مع المنذر وقعت في مدينة الرصافة، وبعد ذلك استضافه في القسطنطينية. وقد تصدى العرب والروم إثر ذلك لغزو فارسي، وطاردوا المهاجمين وسبوا منهم ألف نفس نقلوهم إلى جزيرة قبرص. في ذلك العام تزلزلت الأرض، وأمطرت السماء في الصيف وأظلم الجو وظهر جراد كثير أكل عامة الزرع والعنب والبقول، ولم تعفِ الإمبراطورية المزارعين من دفع الضرائب. في السنة الرابعة من حكمه زوج القيصر ابنته بقائد الجيش، موريقي، ثم تنازل له عن الحكم ومات. هذا القيصر العسكري الجديد كان يظن أن جيوشه قادرة على حماية الحدود بدون العرب، وأنا أعتقد أنه أراد التخلص من أعباء الاقتتال العربي العربي، يعني بين الحيرة وقبائلها المنطوية في خدمة الفرس وبين القبائل مع الغساسنة، والحقيقة يا جندب أن كثيراً من الحروب بين الفرس والروم جاءت نتيجة للحروب بين العرب، حلفاء الفريقين.»

«لكن العرب يقتلون بعضهم لإرضاء الفرس والروم وللدفاع عن حدود

الإمبراطوريتين، ولو اتحدت قبائل الحيرة والغساسنة وجنوب العرب في مكة وما خلفها لشكلوا قوة ثالثة يمكنها هزيمة فارس وبيزنطيا، كل على حدة. قصدي إن قتال العرب لبعضهم كان هدفه استرضاء الفرس والروم، وخطأ أن يُعاقب المنذر من قبل القيصر موريقي.» قال جندب مقاطعاً رواية بحيرة عن مصير دولة الغساسنة وملوكها.

«تعاطفك مع العرب من كل الملل طبيعي، ولكن أهل المدن منهم ذوو أصول وطباع بدوية مثل بقيتهم، وهؤلاء لا يملأ عيونهم سوى النهب والغزو والكسب السهل، ولا يوقفهم عند حدهم إلا من هو أقوى منهم، ولا أدري أين وكيف ومتى يمكن أن يتوحدوا في دولة واسعة الأطراف مثل فارس أو روما الغربية أو الشرقية. هم الآن تبع لورثة الإسكندر، وقريبهم وبعيدهم يعتاش من روما وفارس، وحتى أصحابك من مكة لا حياة ولا مال لهم من دون تجارتهم وبيعهم وشرائهم مع بيزنطيا.» صمتا قليلاً ثم استأنف الراهب روايته عن الغساسنة والمنذر. «لقد اعتقلوا المنذر قرب حمص، ونفوه إلى القسطنطينية، ثم نقلوه مع عائلته إلى جزيرة قبرص وانقطعت أخباره بعد ذلك. أولاد المنذر الأربعة تسببوا في ثورة انتقاماً لأبيهم، وهاجموا القوات البيزنطية، لكن الروم قمعوا الناس بشدة وأسروا أحد أبناء المنذر، ونقلوه رهينة إلى القسطنطينية، وتشتتت قوى القبائل العربية وتفرقت. الذي ساعد موريقي على القيام بهذه الخطوة هو انقلاب الفرس على ملكهم هرمز وسلمهم عينيه قبل قتله، لذلك ظن موريقي أنه لا يحتاج إلى العرب. لم ينج من عائلة ملك الفرس في ذلك الانقلاب سوى ابنه كسرى أنوشروان الذي تخفى وهرب واخترق بلاد فارس كمتسول حتى وصل إلى نصيبين ثم الرها ومنبج حيث كتب إلى القيصر

موريقي يستعطفه الدعم ضد الانقلابيين. صورة عن نص الكتاب وعن رد القيصر موجودة عندي ويمكنك أن تطالعها.» انشرحت أسارير جندب لهذه الثقة من الراهب الذي واصل حديثه: «كانت النتيجة أن موريقي نصر كسرى بن هرمز، وأرسل له المال والجند وشجعه على منازلة بهرام الذي سلبه الملك وقتل عائلته. وهذا ما كان، فأحسن كسرى للنصارى في بلاده وبنى كنيستين، خصوصاً وأن الإمبراطور موريقي زوجه ابنته، وأقام لها كسرى في فارس مدينة على غرار القسطنطينية. وبالطبع عقدت معاهدات سلام بين الطرفين مما شجع القيصر على الاستهتار بالغساسنة والاستغناء عن خدماتهم. اللخميون من عرب الحيرة أصابتهم، على الناحية الأخرى، كراهية كسرى كذلك، لأنهم لم ينصروا عائلته وتعاملوا مع خصمه بهرام. ولأن فارس، في ظل معاهدة السلام، لم تعد بحاجة للحماية من الغساسنة والروم، عزل كسرى قبل أربعة أعوام المنذر الخامس عن إمارة الحيرة وسلمها إلى إداريين فرس، وهذا ما تسبب في هجوم قبائل بكر كل عام على أطراف دولة الفرس حتى الآن.»

«السلام بين طرفين يعني الحرب مع أطراف أخرى.»

«ليس هذا فقط يا جندب، بل إن السلام هذه المرة تسبب في صراعات بين الروم أنفسهم. لقد استمر حكم القيصر موريقي عشرين سنة، ولكن حقبة السلام مع الفرس انقلبت عليه. اطمأن لسلامة الحدود وضمن شر العرب، فقطع أرزاق جنوده. وحدث في عام حكمه السادس عشر مطر شديد أغرق المدن وأهلها ودوابها، ولم يتحمل أغنياء الروم وجندهم قطع الأرزاق في هذه الظروف، فانقلبوا عليه، وهرب منهم متنكراً، فأمسكوا به وقتلوه وملكوا عليهم أحد البطارقة الذي لا ينتمي إلى العائلة المالكة، وهو القيصر الحالي،

فوقا، وهو الذي استقبل والدك في العام الماضي. وفوقا متعصب لدين الدولة ويكره اليعاقبة ويضغط علينا بعدة طرق. ولك أن تتخيل أن كسرى عندما سمع أن الروم قتلوا القيصر موريقي نصيره وصهره، تحلل من معاهدة السلام، ورفض استقبال رسول من الإمبراطور المنصب، فوقا. ثم هاجم بيزنطيا في العام الماضي، وافتتح دارا وآمد وحلب ورجع إلى قنسرين والرها، ولم يكن هناك بالطبع غساسنة يحمون تلك المناطق.»

«نعم لقد شاهدت القيصر فوقا مع والدي قبل الانطلاق في الرحلة، وتبادلت معه بضع كلمات».

«ربما وجب عليك يا بني أن تذهب إلى القسطنطينية لتقابل القيصر وتخبره بما جرى، فتصله الصورة صحيحة ويوصي بك وبوالدتك خيراً.» راقت الفكرة لجندب على الفور فأضاف الراهب ناصحاً: «أخبر حاكم إيلياء أولاً فربما كان له عمل في القسطنطينية فيذهب معك، أو يعرف بسفرك فيتوقع نتيجة لتلك الزيارة.»

بعد الظهر امتلأت قاعة الضيافة برؤساء القافلة وكبار رجالها وقادة الحراس المرافقين للقافلة، إلى جانب الراهب وجمع من تجار بُصرى. أكلوا مناسف من لبن وخبز ولحم ضأن، وحُملت المناسف بعد ذلك إلى الخارج، فأضيف إليها المزيد من اللحم واللبن، واجتمع حولها بقية رجال القافلة في حلقات مزدوجة، الصف الأول جلوساً والصف التالي وقوفاً من خلفهم. كانت وجبة ساخنة دسمة وسريعة. عاد رجال القافلة إلى جمالهم يستريحون بالقرب منها، وبقي في القاعة مع الراهب ما لا يتجاوز الخمسة عشر رجلاً، منهم عمر بن الخطاب الذي كان متشوقاً للحديث مع الراهب، وعثمان بن

عفان، أحد أغنياء تجار مكة، وحسان الأزدي الورع طالب العلم، وعمرو بن هشام خال عمر، وعمرو بن العاص أحد فرسان العرب وتجارهم، وأبو سفيان بن حرب زعيم قريش وأحد حكام مكة، وصديق لأبي سفيان وهو أمية بن أبي الصلت الثقفي، وغيرهم. وكان جندب قد لاحظ أثناء الرحلة أن أبا سفيان وأمية كثيراً ما يسبقان القافلة ويجلسان حتى تلحق بهما، وكانا أحياناً يقضيان ليلة لوحدهما بعيداً عن الآخرين.

«هل ظهر نبيكم قرب الكعبة؟» لم ينتظر الراهب كثيراً من الحديث حين طرح هذا السؤال على القوم، ويبدو أن أمية وأبا سفيان كانا يتوقعان السؤال، أو يتمنياه، إذ انخرطا فوراً في الحديث في هذا الشأن، وكأنهما يستأنفان حديثاً قد انقطع بينهما.

«لم يظهر بعد، صفه لنا فربما عرفناه قبل أن يُشهر نفسه.» قال ابن أبي الصلت باختصار وتلهف لسماع الإجابة.

«من صفاته أنه يجتنب المظالم والمحارم، ويصل الرحم ويأمر بصلتها، وهو محوج كريم الطرفين، متوسط في العشيرة، وسيكون أكثر جنده من الملائكة...»

«ومن أين هو؟» قاطع ابن أبي الصلت حديث الراهب.

«إن صاحبنا قد سمع عن تنبوئك هذا ويظن أنه هو النبي المنتظر.» قال أبو سفيان والابتسامة ملء شدقيه.

«إنه رجل من العرب، ومن أهل بيت تُحجه العرب...» قال بحيرة وهو يتفحص ابن أبي الصلت الذي كان يهز رأسه وكأن الوصف يلائمه، وواصل: «وهو من إخوانكم، من قريش.» فانقلبت سحنة ابن أبي الصلت الثقفي كون

هذه الصفة لم تنطبق عليه. «لست أنت المقصود، ولم تكن يوماً كذلك. فأنا أعرف النبي المنتظر، رأيته طفلاً، وزارني يافعاً، واجتمع معي بعد أن تزوج مراراً، وإنما لا نعرف متى سيبعث نبياً.» تعالت بضعة أصوات تتمنى أن يخبرهم الراهب باسم النبي المنتظر، ولكنه أشاح بوجهه.

«إن نبيكم لا يعرف أنه النبي المنتظر، والأمر بيد الرب.» حسم بحيرة الأمر، ولكن خطر له أن الرسالة نزلت ولكن الرسول يبقيها الآن سراً.

«كيف عرفت إذاً أنه النبي المنتظر؟» قال أبو سفيان وهو ينظر إلى وجه صديقه المصدوم، وظن أن التشكيك قد يعيد له بعض الأمل.

«أنا أؤمن بالرب الواحد صانع السماء والأرض والبشر، وبأنبيائه المرسلين ونبيه عيسى بن مريم، وبما جاء في الإنجيل...»

«أي الأناجيل تقصد يا مولانا، فهي كثيرة وبها تضارب وبعضها مُنع من التداول؟» سأل حسان بتواضع وعيناه إلى الأرض.

«هذا صحيح، لقد حصل التباس واختلاط في جمع التعاليم، وحاولت المجامع الكنسية ضبط الأمر، وألغى البابا جلاسيوس قبل مئة عام إنجيل برنابا، وفيه أقوال جلية من المسيح تؤكد أن الخلط في التعاليم سيقع، وأن نبياً عربياً سيأتي ويصحح ما اختلط، وفي ذلك الإنجيل وجدت الصفات للنبي المنتظر.» سكت الراهب ولم يتحدث أحد من الحضور لوهلة حتى سأل عمر بن الخطاب عن سبب إلغاء إنجيل برنابا.

«الأسباب جمة. البعض لم يعجبه أن النبي المنتظر ليس من قومهم، فغيروا في صفاته، كما أن تجديد المسيحية جاء على يد الإمبراطور ووالدته هلينيا قبل ثلاثمئة عام، فتغيرت في الأناجيل الجديدة صفات عيسى ووالدته

مريم، وتطورت عندهم عقيدة الثالوث. هذه الأمور تناقض ما جاء في إنجيل برنابا فاتفق على منعه من التداول بين القساوسة.» كف بحيرة عن الكلام وفهم الحضور أنه لا يريد الخوض في شؤون دينية محرمة، فطلب عمرو بن العاص الإذن في توجيه سؤال يحيره.

«أجالس النصارى في مكة وأستمع منهم إلى قصص الأنبياء، وقد شد انتباهي على الدوام أن كل نبي واجه معارضة من أهله وعشيرته وقومه، ومعظمهم استعان بربه في عقاب القوم، فسحقهم الإله. واسمح لي أيضاً بالاستفسار عن مبرر الإشارات الكثيرة للبغاء ونكاح المحارم فيما خُط في الكتب؟»

«الأكل والشرب والنوم هي أسس الحياة، والنكاح هو الاستمرار في الحياة. عندما يختل هذا التوازن لدى قوم يرسل الرب نبياً منهم ليرشدهم ويعيد تهذيبهم. لكن بني آدم عندما يشبعون يستغنون ويفسقون ويطلبون المعجزات، ثم يتنكرون للأنبياء الذين يأتون بها، فيأتيهم العقاب. وحتى الآن فإن الكتب تحوي بعض تعاليم الرب المنزلة على نبي، وبعض قصص ودروس ما كان في زمن ذلك النبي، ومنها قصص النكاح. لكن لا تظن أن كل تلك القصص صحيحة، فكتب اليهود تم التلاعب بها ولهذا أرسل الرب نبيه عيسى ليصحح وينصح، ولكنهم أنكروه، ثم تلاعبوا بتعاليمه. ولأن الرب كان يعرف ذلك فقد أشار في إنجيله إلى نبي جديد منتظر.»

«إذاً، سنحارب نبينا المنتظر، وسيشمل كتابنا قصصنا.» قال عمرو بن هشام ضاحكاً.

«لا يوجد ما يسركم في ظهور النبي بينكم. فهم يُرسلون إلى القوم

الفاسقين، وإذا لم تنصاعوا فسيشملكم عذاب أليم، ولا أظن أن الرب سيسمح بتزييف تعاليمه مرة أخرى. أتمنى لو جاء كتابكم كله منزلاً من الرب، وألا يحتوي على كلمة واحدة من البشر.» كان هذا اتهاماً مباشراً لقريش وأهل مكة بأنهم وصلوا من الكفر والفسوق ما يتوجب إرسال نبي إليهم ليرشدهم سواء السبيل أو يبيدهم إذا كابروا.

«هل تتكرم بإخبارنا عن قصة الكتاب المقدس.» جاء الرجاء من حسان تخفيفاً للأجواء، واستباقاً لأي توتر محتمل.

«طوال المئة وخمسين عاماً الأولى بعد سيدنا، استعمل النصارى كتب اليهود، حتى جمعوا بعض أقوال المسيح وأصحابه والمعجزات التي قام بها، وما أوحي إليه من الرب. بالطبع رفضت أقوال مما جُمع، وقبلت أخرى، ولم يكن هناك من مقياس لصحة ما عثر عليه من نصوص وروايات سوى آراء القساوسة وحكمهم. هذا الحال سهل صعود المبتدعين والمدعين ومهد لخلافات بين أصحاب التوجهات الدينية المتضاربة. الاختلاف الأول جاء بسب آراء قسيس الإسكندرية، آريوس، فطلب القيصر قسطنطين من القساوسة الحضور إلى مدينة نيقيا للتشاور. اجتمع هناك ثلاثمئة وثمانية عشر أسقفاً في العام 325 وزيفوا كلام آريوس الإسكندراني. الاختلافات بسبب الآراء الدينية لم تنحصر بين القساوسة، ولكن الممالك وأبناء الملوك اختلفوا واقتتلوا. فبعد موت قسطنطين، القاهر، تملك أبناؤه الثلاثة، ولما عرف سابور، ملك الفرس، بموت القاهر غزا نصيبين وحاصرها ثلاثين يوماً ورجع عنها خائباً. فبسبب دعوات القديس مار افرايم، في نصيبين، سلط الرب على جيش الفرس بقاً وحشرات هزمت فيلتهم وخيلهم.»

«إنها كالطير التي خرجت من البحر ورجمت فيلة أبرهة في مكة.» قاطع أبو سفيان الراهب وسط إيماءات تأييد الآخرين وإنصاتهم.

«في السنة السادسة لحكم أبناء القاهر...» واصل بحيرة سرده الموجز للتاريخ المسيحي «..وقعت بأنطاكية رجفات وزلازل، وقتل الأخ الأكبر في حرب مع الأخ الأوسط الذي نصب ابن أخيه المقتول على القسطنطينية، ولكن هذا الابن عصى على عمه لاحقاً، فسير العم إليه جيشاً وقتله ونصب أخاه يوليانوس. عما يوليانوس قُتلا في حروب بينهما واستقل يوليانوس بالحكم، ولقبوه بالمارق لأنه ارتد وانقلب على النصارى ومنعهم من كتبهم وكتب الفلسفة، ونهب الكنائس، وسلب أموال النصارى الذين رفضوا أكل ذبائح الأصنام. ووثب الوثنيون على النصارى في كل مكان، ووقع بلاء عظيم في الإسكندرية إذ قتل خلق كثير من الجانبين. اندفع هذا المارق وعزم على قتال الفرس، وقال له خادم الصنم إنه سينتصر ويقهر الأعداء على نهر دجلة. في المعركة رماه الفرس بسهم فجرح ثم مات، وبقي عسكره بدون ملك، فاختاروا قائد الجيش، ولكنه رفض أن يكون ملكاً على وثنيين، فقالوا له إنهم نصارى ولكنهم أخفوا ذلك خوفاً من المارق. هكذا جرى الصلح مع سابور وسار معهم إلى نصيبين فمنحها له القيصر الجديد وأخرج الروم منها وأصبحت تابعة للفرس.»

«حتى الآن لا أرى أن البيزنطيين استفادوا من تجديد النصرانية واعتناقها سوى الكوارث والاقتتال والحروب، إذا كان نبينا سيجلب كوارث مشابهة فالأفضل أن نقضي على دعوته في المهد...»

«بل الأفضل أن نناصره وننشر دعوته ونغزو بها بقاع الأرض.» قال عثمان

مقاطعاً تشاؤم عمرو بن هشام، وأضاف: «لنستمع إلى الأب بحيرة عما حدث بعد صلح الفرس وبيزنطيا.»

«هذا الصلح انتهى، بعد عام من توقيعه، حين مات القيصر الجديد. وبالتقريب فإن كل قيصر جديد بعد ذلك عايش إما حرباً مع الفرس، أو صراعاً داخلياً، أو كوارث مثل برد كالحجارة تنزل على القسطنطينية، أو زلازل كما تكرر في أنطاكية، أو انخساف مدن مثل نيقيا التي عقد فيها المجمع الكنسي الأول. وبالطبع لم يتوقف سيل البدع بين العامة والفلاسفة والقياصرة ومنهم لأولنطيانس الذي تجاوز الناموس، وتزوج بامرأة حسنة الصورة إلى جانب زوجته الأولى، وأطلق للناس أن يجمعوا بين زوجتين. وفي زمانه ظهر المصلون الذين يقولون: كل من صلى وصام اثنتي عشرة سنة يأمر الجبل أن ينتقل من مكانه فينتقل. فكان إذا تعبد بعضهم المدة أمروا الجبل بالانتقال فلا ينتقل فيصابون باليأس ويأكلون ويشربون ويفسدون. من زمن أولنطيانس حتى يومنا هذا تداول على حكم الروم عشرة قياصرة، وفي زمن الخامس منهم أفاق أهل الكهف من رقدتهم، فخرج القيصر ثاوذوسيوس ومعه أساقفة وقسيسون وبطاركة فنظروا إليهم وكلموهم، فلما انصرفوا من عندهم ماتوا في مواضعهم. وفي زمن القيصر التاسع اقتتل الروم والفرس كما هي الحال المتكررة، وغرق من الروم في الفرات الكثير من الخلق وسقط ثلج كثير أفسد الزرع والأشجار مع الكروم، وبعد سنة قلت الأمطار وعزت الغلات ونقص ماء الينابيع، وتبعها حر شديد دام ست سنين، فأرسل القيصر يوسطينيانس وفداً إلى المنذر ملك العرب ليصالحه ويوقفه عن مواصلة غزو أطراف الروم. وكان المنذر قد فعلها بسبب اضطهاد القيصر للآباء القائلين بالطبيعة الواحدة

للمسيح، لأن النصارى العرب يعتقدون اعتقاد اليعقوبية لا غير. في أواخر عهده أشرك هذا القيصر ابن أخته في الحكم ثم تنازل له، وحكم هذا ثمانياً وثلاثين سنة وجمع أصحاب القول بالطبيعة الواحدة ليقنعهم برأي مجمع خلقيذونيا بالقول بالطبيعتين والأقنوم، ولكنهم رفضوا. وفي السنة التاسعة من حكمه انكسفت الشمس لسنة وشهرين وظهر جراد كثير وجاء الشتاء شديد البرودة كثير الثلج ولم تنضج الثمار.»

استغل عمرو بن العاص فرصة تناول بحيرة لقدح من الماء وسأله عن سبب تنصيب القيصر لابن أخته قبل وفاته.

«لم تكن هذه حادثة فريدة، فقد سبقه قيصر نصب حفيده، ابن بنته وهو طفل، وعند موت الجد احتالت الأم على ولدها أن يجلس أبوه على السرير ويضع التاج على رأسه، وبعد أيام مرض القيصر الصبي ومات وتنصب أبوه قيصراً، واستراب الناس بأبويه أنهما قتلاه. كما أن القيصر الذي نصبه خاله، نصب هو الآخر ابن أخته قبل مماته ليضمن له الخبرة والاستمرار في الحكم لاحقاً.»

«لكن الذين نصبوا، قبل وفاتهم، أبناء بناتهم وأبناء أخواتهم، هل كان لهم أبناء؟»

«دعنا من هذا يا عمرو، فالنصرانية تحرم نكاح الأقارب، وتمنع زيجات أبناء العمومة والخؤولة وغير ذلك مما نمارسه نحن في مكة، والراهب يحدثنا عما في كتب التاريخ التي بين يديه، ولم يعايش تلك العهود.» رد عثمان على إلحاح عمرو، وعاد الراهب إلى حديثه بلهجة مستعجلة وبإيجاز.

«عندما انشغل الروم بالحرب مع جيرانهم الصقالبة هجم عليهم الفرس

وأخذوا أنطاكية وسبوا أهلها إلى بابل، وفتحوا أفاميا والرقة ودارا وحلب. لما انتهى الروم من الصقالبة عطفوا على الفرس ودامت الحرب لسنتين تبعها في المشرق جوع شديد ووباء عظيم أصاب الناس والبقر حتى تصالح الفرس مع الروم. وفي عامه الأخير كتب القيصر يوسطينيانس إلى الأساقفة أن يعملوا عيد الميلاد في الخامس والعشرين من كانون الأول والغطاس لستة أيام من الشهر التالي، فامتثلوا لأمره عدا الأرمن. وهذا القيصر هو ابن أخت الذي سبقه. وفي عهده ظهر يولياني القائل إن جسد المسيح غير مخلوق وهو جوهر لطيف روحاني لم يصلب في الحقيقة ولم يمت وإنما كان ذلك كله خيالاً. وظهرت في عهده نار في السماء من ناحية القطب الشمالي، وصار ينزل من الجو شبه الهشيم والرماد، وفي عامه الثالث صار الشتاء كالصيف وتزلزلت الأرض، وفي السنة الرابعة غزا كسرى مدينة دارا وأقام عليها ستة أشهر، وقبل أن يهم يوسطينيانس لغزو الفرس أصابه مرض، وبايع رجلاً يونانياً من حاشيته اسمه طيباريوس الذي أرسل الجند بقيادة موريقي لرد الغزو الفارسي، ثم زوج ابنته لموريقي، وبايعه وملكه البلاد، ومات. وموريقي هو القيصر الذي دعم ابن هرمز، كسرى الفرس، على استرداد ملكه من الذين قاموا على والده وسملوا عينيه عام 590 فأصبح القيصر وكسرى صديقين تعاهدا على السلام، حتى انقلب الروم هذه المرة على موريقي وقتلوه ونصبوا فوقا الحالي مكانه.»

6

كلما حاول التركيز على تذكر تجربته مع العرب في مكة والطائف، واسترجاع وداعه لأصدقائه من القافلة في بُصرى، كان ذهنه يأخذه إلى والدته في بيت المقدس، وماذا وكيف سيقول لها ما حدث لوالده. لم يخطط لما سيقوله، وكان يتهرب من التفكير في اللقاء المقبل بعد يومين أو ثلاثة، لكن ذهنه كان يعيد ويكرر عليه ما جرى لهم في بحر جدة، ويخيل إليه وجه أمه وهو يخبرها بما حدث في ذلك اليوم الرهيب. هكذا انقضى يومه الثاني على ظهر ناقته بين مدينتي أذرعات وجدر، حيث قضى ليلته في هذه المدينة المطلة على بحيرة طبرية. لم يمر جندب بجدر قبل الآن، وحدثه صاحب الخان أنها من تأسيس الإسكندر الأكبر «قبل ألف عام، وقد جدد الروم عمارتها ومسارحها وأسواقها، وكانت قبل البيزنطيين مدينة لهو ومرح يأتيها الروم من كل البلدان.» كان جندب يعرف أنها من ضمن المدن الرومانية العشر المتحالفة في المنطقة، وهي مقربة من سكينوبولس عاصمة ولاية فلسطين الثانية. عندما يغادرها متجهاً للغرب على الطريق المعبد، سيكون عليه بعد اجتياز نهر الأردن أن يتجه جنوباً إلى العاصمة، ثم يواصل طريقه إلى بيت المقدس، إحدى أكبر مدن ولاية فلسطين الأولى. لم يعرف أبداً سر اتخاذ البيزنطيين لقيسارية كعاصمة لفلسطين الأولى وليس بيت المقدس.

قبل أن يخلد إلى النوم في جدر، عرفه صاحب الخان على بعض النزلاء، وكان بينهم يهود من طبرية، وآخرون من الحمة، أسفل جدر في قعر الواد. عرف منهم أن يهود بيت المقدس قد ثاروا الآن ضد الدولة مرة أخرى، وأن العنف والفوضى تعم عدة مدن فلسطينية. ألحوا عليه للبقاء في جدر ريثما تهدأ الأحوال، لكن ما سمعه أصابه بالقلق على والدته، وشدد من عزمه على السفر مبكراً. «لماذا ثار أخوتكم هذه المرة في بيت المقدس؟» سأل جندب أحد النزلاء اليهود.

«قبل ثلاثين عاماً ساءت العلاقات اليهودية البيزنطية وأصبح التدهور يتتابع، والسبب الرئيسي هو تأليب حزب الخضر الدولة ضدنا. أيام القيصر موريقي اتهمونا بتدنيس أيقونة لمريم العذراء في أنطاكية، وشنوا علينا أبشع الهجمات وطالبوا بطردنا من عاصمة سوريا، لكن القيصر لم يسمع منهم وحافظ على سياسة التوازن بين الأديان، أما القيصر الحالي، فوقا، فخضع لمطالب نصارى أنطاكية، لأنه متعصب ضد اليهود والنصارى العرب، وأمر بطرد اليهود من العاصمة فحضر الكثير منا إلى طبرية والحمة وصفد وأريحا وبيت رملة وأذرعات وبيت رمثه.» واصل جندب والحضور الاستماع للعجوز الذي بدا من حديثه أنه أنطاكي الأصل، ولم يقاطعه بسؤال عما أثارته هذه المعلومات الجديدة لديه. «الآن لم يعد الخضر يكتفون بطردنا من مدينتنا، بل أقنعوا فوقا أن يعمدنا وينصرنا بالقوة، وهذا ما سبب ثورة أخوتنا في أورشليم، وتمددها إلى مدن فلسطينية أخرى.»

«وهل قتلتم قساوسة وأحرقتم كنائس كما فعلتم في ثورتكم السابقة؟» جاء السؤال من عجوز آخر يعمل في الخان ويبدو أنه قد عايش ثورة اليهود والسامريين آنذاك.

«أنا غير ملم بتفاصيل تلك الثورة، ولكن العرب والبيزنطيين آنذاك قتلوا آلاف الأبرياء منا، وهرب من استطاع الهرب إلى الجبال وفارس، وبيع الأطفال في أسواق العبيد، ولذلك نأمل أن تهدأ الأوضاع بسرعة هذه المرة.» أراد جندب أن يذهب إلى فراشه تاركاً القوم يتناقشون، ولكنه رأى أن الذوق يتطلب عدم مغادرته فجأة في هذه الأجواء، فسأل العجوز الأنطاكي عن حزب الخضر وقوته. «حزب الخضر ينضم إليه العمال وصغار التجار والحرفيون، وعموم من يقطنون المناطق الصناعية في المدن. وكما تعرف، فإن حزب الزرق يمثل العائلات الكبيرة والتجار والأغنياء والملاك من سكان المناطق الراقية. أصل التسمية للحزبين جاءت من نشاطهما الرياضي، ولكنهما تحولا إلى مجال العمل السياسي والعسكري ولكل منهما إدارة وقيادة، وكثيراً ما يتحاربان في مدن الإمبراطورية. نحن يهود أنطاكية كنا نشايع الزرق ضد الخضر كلما تقاتلا، ولسوء حظ اليهود أن القيصر يحابي الخضر ويسترضيهم.»

قبل بزوغ الفجر اعتلى جندب سنام ناقته وانطلق باتجاه عاصمة فلسطين الثانية. لقد وضع، قبل أن يغمض جفنه بالأمس، خطة للمسير السريع. قرر أن لا يمر بالمدن، وأن يتجه جنوباً مع وادي الأردن حتى قبيل أريحا، ثم يعرج غرباً إلى بيت المقدس. إذا صادفه الجنود سيظهر لهم فوراً أنه نصراني، وإذا صادفه ثوار يهود سيتظاهر بأنه راعي إبل يهودي ضاعت منه مواشيه. في وادي الأردن ستجد ناقته الماء والكلأ طوال المسير، أما هو فلايزال يحمل الكثير من التمر الذي زوده به عمر بن الخطاب قبل أن يفترقا، كما أنه يحمل السيف العدواني، وقوساً ونبالاً هدية من عمرو بن العاص. كانت خطته أن يصل بدون اشتباك مع أحد أو إثارة للشكوك، ولكنه يُذكر نفسه للاحتياط

بما يحمله من سلاح، وبقدراته الجديدة على قيادة الجمال وهي مسرعة، والنوم على ظهرها وهي سائرة. تنبهت حواسه كلها، وأصبح همه الوصول بسرعة ليكون بجانب والدته في ظروف الفوضى التي تعم مدينتهم، وحين تسترخي حواسه قليلاً كان يفكر فيما آلت إليه أوضاع الإمبراطورية بسبب الصراع على الكرسي، قتل أباطرة، وانقلابات، وأحزاب متقاتلة في المدن، وثورات متوالية من اليهود والسامريين، والآن اضطهاد للنصارى اليعاقبة ومنع القيصر اجتماعاتهم وإيقاف الدعم المالي لكنائسهم. إن فوقا يريد فرض دين الدولة على كل سكانها، بدل أن يترك لهم حرياتهم ليتضامنوا مع الإمبراطورية في صد هجمات الفرس الذين أوصلوا حدود إمبراطوريتهم الآن إلى غرب الفرات وجنوبه واستسلمت لهم كل مدن الجزيرة.

قضى رحلته مستذكراً ما سمعه وما تجمع لديه من معلومات حول اليهود وأسباب ثوراتهم المتوالية. لقد فازوا مثل غيرهم بحقوق التبعية الرومانية، وأصبحوا مثل بقية الأجناس تحت حماية القانون، ولكنهم تميزوا عن الوثنيين بالاحتفاظ بحقوق خاصة مثل ممارسة الختان، والاعتراف لهم بالكنيس مكاناً للتعبد، وظلت المحاكم اليهودية مستقلة، لكنهم لم ينالوا الوظائف المدنية والعسكرية مثل بقية المواطنين، ومُنعوا من اقتناء العبيد وحرم عليهم ختان من ليس يهودياً، ومن يخالف منهم تُصادر أملاكه ويُنفى إلى الأبد من الإمبراطورية. وصل جندب إلى أطراف نعران قبل الغروب، وكان يعرف أنها وبيت رملة من معاقل الثوار اليهود، ينطلقون منها في غارات على المدن والقرى المجاورة.

التقى على أطراف البلدة بعجوز يرعى أبقاراً مختلفة الألوان والأحجام،

وتبادلا تحية السلام بالعبرانية. ترجل جندب عن الناقة استجابة لدعوة العجوز، وباشر الحديث عن الأبقار أملاً منه في إبعاد الحوار عن وضعه. لكن العجوز أجاب بسؤال عن منطلق جندب وهدفه. «كنت عند أعمامي في أذرعات، وعندما وصلتنا أخبار الاضطرابات في أورشليم قررت العودة سريعاً لأكون بجانب والدتي، فقد يهاجم النصارى بيتنا.» قال جندب وأضاف إن قلقه تعاظم إثر ما سمعه في جدر.

«هل مررت بالعاصمة، بيت شان، قبل الوصول إلى هنا؟» سأل العجوز وعرف من إجابة جندب أنه ابتعد عن مدن الإقليم مثل طبرية والناصرة واتجه مسرعاً من جدر إلى هنا، وأنه عازم على الدخول عبر حدود الإقليم الأول إلى أورشليم بسرعة. «أردت أن أعرف أحوال أخوتنا في عواصم الأقاليم مثل بيت شان وقيسارية وبترا.» قال العجوز بينما جندب يعطي إشارات بالجهل عن وضع اليهود هناك. «على الأرجح أن أوضاعهم في المدن أفضل منا في الريف.» قال العجوز وقد رمى حجارة خلف البقرات ليحثها على المسير، ثم واصل حديثه شارحاً لجندب معاناة المزارعين. قبل الوصول إلى بيت العجوز في نعران كان جندب قد عرف أن الزراعة هي عماد الحياة والاقتصاد لكل الإمبراطورية. منها تُجمع الضريبة ونفقات الدولة، وعليها تعتمد الصناعات والتجارة. ومن الزراعة يأتي دخل الكنيسة وكبار الملاكين ودخل الإمبراطور نفسه الذي يملك أراضي، ويستحوذ على أراضي المعابد الوثنية والمصادرات لأراضي المنفيين، والاستيلاء على أراضي عديمي الورثة ومن لم يوصوا بوريث، وهذا مجال واسع للتزييف والظلم. الفلاحون المستأجرون للأرض هم الأكثر بين الفلاحين، وينقسمون إلى ثلاث فئات: منهم من هم أشبه بالعبيد

ولكنهم لا يباعون مع الأرض، ومن يرثون العمل في الأرض عند أسيادهم ولهم حقوق، والمستأجرون لأمد قصير ولهم حرية أوسع في التصرف، ولا فرق هنا بين وثني ونصراني أو يهودي. يكون الإيجار نقداً أو نسبة من الغلة، حسب نوعها. وعرف جندب أن أهل الأرياف يدفعون ضريبة رأس ويعفى منها أهل المدن! بالإضافة إلى ذلك يعاني الفلاح من عسف المكاييل والموازين لغير صالحه، وبخس أثمان الغلة، وعسف الجابي، ولا رحمة إذا عجز عن دفع بدل الإيجار. إن الوضع بإيجاز، حسب رؤية العجوز: غش متعمد للفلاحين وابتزاز وتلاعب بالأوزان، والعملة، واستغلال سذاجة الفلاح، ثم رسوم تدفع للجباة أيضاً وبكمية أكبر مما تخصصه الدولة لهم. هكذا صار الفلاحون يدفعون رشوة لقائد الولاية ليحميهم من الجابي والملاكين مقابل إطعام جند الحراسة وكمية الرشوة. لم يكن جندب يعرف هذه التفاصيل عن حياة الفلاحين في الأرياف، فقد تربى في أورشليم ولم يختلط مع فلاحين حين زار بترا مع والده، عاصمة الإقليم الفلسطيني الثالث، ومدينة الإقليم أيلة، ولم يعاشر فلاحين أثناء الإقامة في مكة ويثرب والطائف.»

«أشكرك على كرم استضافتي الليلة. إنني بالفعل بحاجة إلى نوم آمن قبل الانطلاق إلى أورشليم.» كانا قد أغلقا الباب على الأبقار في الزريبة، وربط جندب ناقته في ساحة البيت، ثم استقر بهما الحال تحت معرش أمام غرفتين.

«لماذا الاستعجال يا بني، أمكث عندنا بضعة أيام، فلن تهرب أورشليم منك.» قال العجوز إسحاق، بينما وضعت ابنته سارة أمامهما طبقاً من القش عليه صحون فخارية فيها زيت مملح وبيض مسلوق وخبز. «في الغد تعد لنا سارة طعاماً يليق بضيف.»

«كما تريد يا أبي، هذه فكرة جيدة.» قالت سارة قبل أن يُعلق جندب على الدعوة، وكانت الفتاة قد تبسمت وهي تنظر إلى جندب الذي يظهر كأنه أكبر من سنوات عمره.

«بمشيئة الرب سوف أزوركم في المستقبل القريب، ولكني قلق على والدتي، وأنوي الرحيل فجراً، وسأتجه من شمال أريحا إلى أورشليم مباشرة.» هكذا أراد جندب إشعارهما باستعجاله السفر إلى درجة عدم المرور بأريحا.

«إنها مدينة يهودية آمنة، بوسعك الاستراحة فيها قبل الوصول إلى القلاقل.» قال إسحاق ثم أضاف فوراً: «اليهودي آمن هذه الأيام في طبرية وصفورية وأذرعات وأريحا وتل الرامة، فهي محرمة على غيرنا.» وأكمل إسحاق حديثه وهو يقضم من الرغيف بعد أن بلله في صحن الزيت: «إذا وجدت الأمن مخيفاً لوالدتك في أورشليم، اذهب معها إلى غزة، فهي مدينة مختلطة وآمنة جداً وبها كنيس يهودي.» لم يقل جندب لمضيفيه إن أمه من غزة، ولكنهساير العجوز مبدياً بعض الاستغراب من هذا الاقتراح كون إسحاق لم يقترح الرحيل إلى مدينة يهودية صرفة. «هناك مدن مختلطة يتعرض فيها اليهود للأذى، مثل أورشليم، وأخرى وضع اليهود فيها آمن مثل غزة وأشكلون جنوباً، وعسفيا في الشمال.» استحوذ إسحاق على انتباه جندب وسارة، فأكمل حديثه: «المدن اليهودية مثل طبرية وصفورية وأذرعات وأريحا وتل الرامة، يمكن أن تتعرض لغزو وهجمات من الجند إذ لن يحتاجوا إلى التفريق بين ضحاياهم من سكانها.»

«لكن الإمبراطورية لم تحاول إبادة مدينة يهودية كاملة، أو طرد كل اليهود إلى خارج حدودها، وفهمت من حديثك في الطريق من المراعي إلى هنا أن الاضطهاد يشمل الوثنيين والنصارى واليهود.»

«هذا صحيح إلى حد ما، ولكن نهج الإمبراطورية النصراني، وبإيعاز من القساوسة يريد الحفاظ على بقاء اليهود وعدم انقراضهم أو تحويلهم إلى النصرانية، لأن بقاءنا هو الشاهد على انتصارهم، ولأنهم يؤمنون بتحولنا إلى النصرانية عندما يعود المسيح، وحتى ذلك الحين فهم بحاجة إلينا، ولكن تحت السيطرة.»

«هل يمكن أن يطلبوا منا التنصر ويكرهوننا على ذلك؟»

«كل شيء ممكن توقعه من نصارى القسطنطينية، ربما كان الأفضل لنا لو احتل الفرس كل إمبراطوريتنا.» أجاب إسحاق ابنته، وانتقلوا إلى أحاديث أخرى عرف منها جندب أن سارة وحيدة أبيها، وأن أمها ماتت منذ سنوات.

من الفجر إلى الفجر التالي لم يترجل جندب عن ناقته التي أوصلته إلى قرية عناتا شمال بيت المقدس. كان هدفه الوصول إلى مدينته مباشرة، ولكن المسير ليلاً واتباع نصيحة إسحاق بتجنب الأماكن المأهولة والنقاط المضاءة بالنار، حيث يفترض وجود دوريات الإمبراطورية، أو مجموعات الثوار، كل ذلك أوصله إلى شمال المدينة. انتظر بزوغ الشمس، ودخل عناتا مطمئن البال، ولم يجد صعوبة هناك في الاتفاق مع فلاح على رعاية ناقته لبضعة أيام حتى يعود إليها أو يرسل في طلبها من بيت المقدس، فقد قرر دخول المدينة على قدميه لإبعاد الأنظار عنه. قبل الظهر كان قد وصل البيت وعرف من خادمهم أن والدته ذهبت إلى غزة عند أهلها، وأنها لم تعرف شيئاً عن مصير ابنها وزوجها، ولكنها كانت قلقة ومتوجسة، حسب ما عرف من الخادم. اختلطت مشاعره، ولكنه شعر بارتياح خفي لتأجيل اللقاء مع أمه وإطلاعها على مصير والده. لم يستفسر من الخادم عن تفاصيل أخبار المدينة وشغب الثوار فيها،

فقد كان عازماً على زيارة حاكمها في الصباح عملاً بنصيحة الراهب بحيرة، وهناك سيعرف أي تفاصيل مهمة.

«من المؤسف ما حدث لوالدك والبحارة والسفينة وحمولتها. لقد كنت إلى جانب الإمبراطور عندما شاهدتك مع والدك قبل الانطلاق إلى تلك الرحلة.» حاول جندب دون جدوى تذكر وجه المتحدث ولم يعد يسمع ما يقوله. لقد عرف قبل أن يدخل إلى مقر الحاكم أن الرجل اسمه جورجي، وأن الإمبراطور فوقا أرسله إلى بيت المقدس للاطلاع على أحوال المنطقة وثورة اليهود. كان حاكم القدس وبطريركها موجوداً إلى جانب جورجي، وتلفظا أيضاً بالترحم والأسف على والد جندب، عندما أخبرهما بما حدث، ولم يشيرا إلى ضياع السفينة وحمولتها.

«شكراً لكم على مشاعركم. نعم أتذكر تفاصيل رحلتي مع أبي إلى القسطنطينية. إنها أعظم المدن التي شاهدتها حتى الآن، كم أتمنى زيارتها مرة أخرى.» تمتم جندب من دون أن يؤكد رؤيته لجورجي آنذاك. «أتمنى أن تكون قد تركت الإمبراطور بصحة وافرة. نسأل الرب أن يكون بخير، ونمتع أعيننا برؤيته مجدداً.» تحدث جندب أمام القوم حديث الواثق من نفسه. «كيف ترى سيادتك نهاية الفوضى والشغب؟» لم تكن مهمة جورجي سرية، ولكنه نظر بقليل من الاستغراب إلى الفتى وسأله بابتسامة، لا يفهم منها شيء، عن رأيه في سبل إنهاء الاضطراب. فقال جندب: «لقد مررت في طريق عودتي ببعض مدن وقرى وتجمعات يهودية، وسمعت منهم التذمر من كثرة الضرائب.»

«هم دوماً يتذمرون. يمسكون بالتجارة ويملكون المزارع والحرف، ولا يرغبون في دفع الضرائب مثل بقية مواطني الإمبراطورية. هل رأيت نصارى أو

وثنيين يتذمرون؟ هذه ليست أول ثورة لهم، ولن تكون الأخيرة، ولا نستبعد أن يتعاونوا مع الفرس ضدنا. لماذا يحرقون الكنائس ويقتلون الكهنة ويخربون أملاك غير اليهود؟» هز البطريرك رأسه مؤيداً أثناء تحدث مبعوث الإمبراطور.

«هذا هو السؤال يا بني، لماذا التعصب ورفضهم ديننا، وخيانتهم الإمبراطورية مع الوثنيين الفرس عبدة النار؟» كان سؤال البطريرك موجهاً إلى جندب وكأنه قصد التبسيط للفتى، ولكن موقف الكنيسة بدا جلياً ومتلاحماً مع موقف مبعوث الإمبراطور في هذه القضية. لم يقدم جندب إجابة عن تساؤلات الرجلين، ولكنه تذكر وجه سارة بوضوح وكأنها تقف أمامه الآن بابتسامتها التي لم يعرف كيف يفسرها، هل كانت تأمل أن يحبها ويتزوجها، أم أنها عطفت عليه بعد أن لاحظت أنه أصغر منها سناً، أو هي كذلك دوماً ودودة مع الجميع؟ لم يتمكن من التفسير في تلك الليلة التي كان فيها يهودياً، ولا يعرف الآن لماذا تذكرها.

«مهاجمة ديننا وخيانة الإمبراطورية شؤون لا يمكن التساهل فيها، لكن الحذر واجب، ومن الضروري بالطبع التمييز بين اليهود.» مر بذهنه أن نصارى القسطنطينية يضطهدون أخوتهم نصارى الشرق اليعاقبة، وأن محاولات الأباطرة ورجال الكنسية فشلت طوال قرون في توحيد الموقف النصراني على رب واحد أو طريقة مشتركة للعبادة. «ربما لو أضيفت لهم بعض الحقوق قد يكثر عدد الذين يتقبلون الواجبات.» أضاف جندب.

«لديهم من الحقوق أكثر من غيرهم، لم يعد ينقصهم سوى حق الانخراط في الجيش والاشتراك في السياسة والإدارة. بل أصبح بوسعهم المشاركة في عضوية مجالس المدن.» أجاب جورجي على تساؤل جندب الذي

لاحظ بدوره أن حاكم المدينة لم يتدخل في الحوار وأن الرجلين يتجاوبان مع تساؤلاته وكأنهما يوجهان الحديث إلى بقية المستمعين أو لإقناع ذاتهما بموقف صعب عليهما تبريره. «كل ذلك وغيره سأضعه قريباً أمام الإمبراطور ليقرر ما العمل وما هي الحلول للقضاء على الثورات اليهودية المتتالية.» هكذا حسم جورجي الأمر بترك القرار للإمبراطور.

لقد أصيب جندب بلحظات من الفزع الداخلي عندما انتقل من رصيف ميناء يافا إلى سطح السفينة التي نقلته مع جورجي وحاشيته، فقد تذكر تلك الرحلة التي فقد فيها والده ومن تعرف إليهم، وارتهب من البحر، وطاف خيال صديقه عمر بن الخطاب أمامه إذ حدثه مراراً عن غدر البحر. بالإضافة إلى ذلك كانت السفينة أصغر بكثير من تلك التي أبحر بها مع والده، ويبدو أن قبطانها قد بناها بنفسه، وهي من النوع المجوف وعلى الركاب الجلوس تحت السطح معظم الوقت. لكنهم الآن يقتربون من ميناء عاصمة الإمبراطورية بعد رحله هادئة في البحر الرومي. تعمقت علاقته مع جورجي أثناء الرحلة، وكان عليه أن يظهر التفهم والاهتمام لآراء وأحاديث المبعوث الإمبراطوري، فإليه يعود الفضل في هذه الرحلة التي ستوصله مى رة أخرى إلى مشاهدة الإمبراطور فوقا، بل إن جندباً لم يبذل الكثير من الجهد لإقناع جورجي بمرافقته إلى القسطنطينية يوم لقائهما في مقر الحاكم. في ذلك اليوم طلب من خادمه الاستعداد للسفر على ظهر الناقة إلى غزة. شرح له ما يقوله لوالدته، لتعرف ما جرى لزوجها، وبأن ولدها اضطر إلى السفر لرؤية الإمبراطور، وأنه سيزورها فور عودته من القسطنطينية. استمع جندب أثناء الرحلة أيضاً إلى جورجي يتحدث عن تجربته وجولاته في الشمال الأفريقي، في قرطاج، وفي

جزيرة قبرص، وعن معارفه من القادة هناك وآرائهم والمصاعب التي تواجه الإمبراطورية، من الخارج، والآن من الثورات الداخلية.

«سأحدث الإمبراطور عما جرى لوالدك، وسأعلمه بوجودك.» قال جورجي في صباح اليوم التالي وهو يتناول الفطور مع جندب ومع أهل البيت في منزلهم. «بوسعك الحضور إلى القصر ظهراً لحضور الاستقبال اليومي، أو أخذ قسط من الراحة اليوم والذهاب معي غداً إلى القصر.» كان جندب قد وافق على الاستضافة من جورجي، وتأكد من الحديث معه أثناء الرحلة أن برنامج الإمبراطور اليومي لم يتبدل عما كان سابقاً. في الصباح تفتح أبواب القصر، ويطرق الوصيف ثلاث مرات على باب غرفة الإمبراطور لإيقاظه، ثم يتجه إلى قاعة الاستقبال بعد الاغتسال واللبس الإمبراطوري. هناك يصلي أمام أيقونة، ثم يجتمع مع مستشاريه ويتخذ القرارات، وبعد ذلك يستقبل المنتظرين من عامة الشعب، حتى تعلن أصوات أجراس نهاية اللقاء فيغادرون وتقفل أبواب القصر قبل العصر.

«سأكون بين المنتظرين ظهراً لإلقاء التحية على الإمبراطور، ثم ألتقيه معكم في اليوم التالي إذا كان هذا مناسباً.» قال جندب لجورجي وهو يغادر المنزل، فلم يرغب في التأخر عن واجب الزيارة في اليوم الأول. «سأذهب الآن للصلاة في آجياصوفيا ثم أتوجه إلى القصر.» عندما أنهى جملته شاهد جندب إبهام اليد اليمنى لجورجي مرتفعاً بالموافقة من دون أن يسمع منه أي تعليق وبدون أن يلتفت إليه.

آجياصوفيا بالنسبة إلى جندب، ولمعظم زوار العاصمة، تمثل قمة البهاء والرقي العمراني البيزنطي. فمنذ أن خطط لها وأشرف على بنائها ايزودروس

الصغير قبل خمسة وأربعين عاماً، وهي تمثل أعظم الكنائس المسيحية حجماً ومكانة. حين زارها في المرة السابقة لم ينفك عن السؤال كيف تقف قبتها العظيمة من دون أعمدة أسفلها أو قربها. لم يستوعب شروحات والده آنذاك، ولكنه يتذكر ما قاله له إن وظيفة القبة هي استقبال الإلهام الرباني السماوي بشكل مباشر للمصلين في الكنيسة. عرف أن القباب في روما أصغر قطراً من قبة آجياصوفيا، وشاهد في رحلاته قباباً صغيرة فوق صوامع، لكن لا شيء يضاهي هذه القبة في الاتساع والارتفاع والديكور. اكتسب جندب حب العمران من والده، وكان يتأمل الأبنية القائمة على أقواس، وكذلك الجسور، ولكنه ينجذب إلى الضخامة والغرابة، وكان يتمنى مشاهدة الجسر على الفرات الذي قال والده إنه يعتمد على قوس مدبب الرأس وليس على قوس نصف دائري كما هي العادة.

انتظر مع الزوار الإذن لهم بالدخول إلى قاعة الاستقبال. كانوا من الطبقة المتوسطة، تجار من المدينة، وبعض ملاك الأراضي، وامرأة تعمل طبيبة كما اتضح له لاحقاً، بالإضافة إلى ثلاثة رهبان. لم يكن بينهم فقراء فقد شاهد جندب الحراس يسألون بعض المراجعين عن سبب الزيارة ويمنعون البعض من الدخول. اقتنع جندب أن الطبقة العليا، من موظفي الدولة وضباط الجيش وكبار ملاك الأراضي، تخصص لهم أيام معينة للزيارة أو أنهم يلتقون الإمبراطور في زيارات انفرادية، إذ لم يشعر بوجود أي منهم. وقد تحققت ظنونه حول سبب توتر التجار حين تحدث واحد باسمهم مطولاً وتمنى على الإمبراطور الحد من الضرائب، مدعين أن حجم المبيعات انخفض بينما الضرائب تؤخذ منهم بكميات ثابتة. كانت شكواهم تهدف في الواقع إلى

عدم زيادة الضرائب، وليس تخفيضها، ولكنهم بالغوا في المطالب اتقاء للشر المقبل. كان الإمبراطور بشعره الأحمر المنكوش يستمع باهتمام ويهز لهم رأسه ولحيته المدببة على شكل مثلث، من دون أن يعرفوا إذا كان يوافق على حديثهم أم أنه يحذرهم من المبالغة.

عندما أُذن لأكبر الرهبان بالحديث، اعتدل الإمبراطور فوقا في جلسته، وأخذت علامات الدهشة ثم الابتسام تسيطر على ملامح وجهه. قال الراهب: إن رجال كنيسة قد شوهدوا يدخلون بيوت الليل من خمارات ومواخير، حيث توجد العاهرات، وطالب الإمبراطور بإغلاق مثل هذه الأماكن في العاصمة وفي كل الإمبراطورية. «على الكنيسة أن تحكم رجالها، ليس لنا منعهم، أو تحريم أقدم مهنة في التاريخ.» قال فوقا وحول نظره إلى جندب إذ كان التالي بين الجلوس، وبعد لحظات من همس جورجي في أذن الإمبراطور، تقمص وجهه مسحة من الجد والحزن، وتفوه بتعزية وترحم على باقوم، والد جندب. «يجب أن نستمع إليك بالتفصيل، وتخبرنا عن معاملة العرب لك.» وافق جندب بإيماءة من رأسه بينما عاد جورجي ليهمس في أذن الإمبراطور، الذي أحاط به مستشارون وقادة جيش. تقدمت الطبيبة بطلباتها مكتوبة على رقاقة من ورق البردي المستورد من مصر، ووعدها الإمبراطور بمطالعتها وإيصال الرد إليها لاحقاً.

كان الرهبان الأتعس حظاً في هذا الاستقبال، ومع ذلك لم يتحول الجرح الكبير في وجه فوقا إلى اللون الأحمر، وهذا ما يحدث عندما يغضب. ويبدو أن الرهبان من فئة دينية فرعية أرادوا التشكيك ببقية رجال الكنيسة وتقديم طلباتهم بطريق آخر غير المتبع بين الإمبراطور والكنيسة. لقد أخذ فوقا الحكم

بانقلاب مدعم من زملائه في الجيش وتخلصوا من موريقي قبل خمس سنوات، وهذا ما جعل الإمبراطور أسيراً للكنيسة والبابا في روما حتى يتواصل الرضا عنه، وعليه الاستماع إلى طلباتهم بلقاءات منظمة وليس عبر رهبان غير ملتزمين. القسطنطينية ليست بذلك الانفلات الذي أوحى به الرهبان، فالكنيسة تمنع أصلاً هدر الوقت على الكباريهات والمسارح ولا تحبذ الغناء. لكن هذه المجالات، والخمارات، تدر ضرائب على الإدارة التي لولا دخل القرى لأفلست منذ زمن. وبالطبع لا يعقل إغلاق هذا الدخل في المدن، أو منع الترفيه لأن الناس ستجد طرقاً أخرى لا تستفيد منها الإدارة. الترفيه الرسمي، حسب الكنيسة، هو مواسم واحتفالات دينية فقط، لكن سكان القسطنطينية يخرجون لتناول الأكل والشراب في بيوت الطعام، ويزورون المسارح الشعبية التي تمثل فيها قفشات ناقدة للإدارة، ويتفرجون على البهلوان والسحرة.

«هذا هرقل، قائد قواتنا في أفريقيا.» قال جورجي وهو يُعرف جندباً إلى الضيف الذي رافقهم من القصر إلى المنزل، وقد شاهده أثناء الاستقبال يجلس إلى جانب جورجي.

«ابن قائد أفريقيا، هرقل.» قال الضيف ثم أضاف مبدداً علامات استفهام اكتست بها ملامح جندب، إنه ووالده يحملان نفس الاسم. «في الحقيقة إن والدي حاكم أفريقيا، وأنا مسؤول عن القوات هناك.» كان الضيف معتدل الطول وبصحة جيدة تناسب ابن الثلاثين، وله لحية مهذبة وشعر رأس كثيف مجعد. اعتمر عباءة بيضاء بحواف من خيوط مذهبة، ولكن لا يصعب التخمين بأنه رجل عسكري.

«أنا متشوق إلى سماع تفاصيل عن الحياة في أفريقيا.»

«وأنا مثلك فيما يتعلق بحياتك مع العرب.» قال هرقل وقد وصلت بهم العربة إلى منزل جورجي. كانت المائدة شبه جاهزة بأنواع المقبلات والخبز والشراب، ثم جلب إليهم الطاهي أطباق طعام ساخن فيها لحم طيور وصيد.

«هذا من إنتاج المزرعة.» قال جورجي وهو يشجع ضيفيه على الطعام، وصب النبيذ لزوجته ثم لهرقل، وسأل جندب بإشارة من يده إذا أراد بعضه فاعتذر، وتخطى ابنته التي جالستهم على المائدة بعكس ما يحصل في العائلات الفقيرة والمتوسطة إذ لا تجالس الفتيات إلا الأخوة والأعمام، لكن للأغنياء طباع لا تماشي التقاليد المسيحية. لم يتحرج جندب كثيراً على المائدة، فقد كان يعرف القوانين، وضع منشفة على ركبتيه منذ لحظة جلوسهم حول الطعام، ومسح الزبد بالسكين على قطعة من الخبز، وقطع قطعة نقانق إلى شرائح رقيقة وغطى بها الخبزة قبل أن يقضمها، ثم أعمل لاحقاً السكين والشوكة في الطير بالرغم من أن جورجي استعمل يديه في التعامل مع الطير المقلي وأشار إلى جندب أن يقلده، لكن الأخير واصل أسلوبه.

«طعام طيب، نقانق لحم خنزير رائعة المذاق.» قال هرقل ثم أثنى على مهارة ربة البيت في اختيار البهارات مع النقانق، فتشكرت لملاحظته. هذه النقانق تصنع للأغنياء في بداية الشتاء عندما يذبحون خنازير في مزارعهم، وكل منطقة، بل كل ربة بيت لها لمسة خاصة حين تشرف على الخدم وهم يصنعون النقانق أو يقددون اللحم أو يطبخونه بالملح ثم يُعلق في الهواء ويستعمل طوال شهور. «هل لديكم صياد خاص بكم؟»

«في المزرعة ثلاثة صيادين وكلاب كثيرة تساعدهم.» قال جورجي ثم أضاف بين قضمات الطعام إنهم يعملون عنده لصالح مجموعة من الأصدقاء،

ومع نهاية مواسم الصيد يهتمون بالأغنام، التي لا يقدر على تربيتها وتناول لحومها سوى الأغنياء جداً.

«الماعز هي الطعام المفضل والأوفر عند العرب.» تدخل جندب في الحديث.

«الماعز غير الخراف، لحمها أقرب إلى الصيد البري، أما الخراف فمرفهة أكثر، ولحومها طرية.» قطع جورجي بسكين بعضاً من لحم الوعل البري وقدمه إلى هرقل، ثم أضاف مخاطباً جندباً: «لم تخبرني إذا كنت قد أكلت لحم الجمال، وما طعمه؟»

«إنه حيوان مهم جداً عند العرب، وبدونه سيكونون أسرى وسط الصحراء، فهو سر ثروتهم التجارية. لكنهم يأكلونه إذا استدعت الحاجة، لحم صغير السن منه سلس وطري، لكن الجمال الكبيرة تتطلب طهواً لمدة طويلة حتى تذوب وتثرد مع الخبز والمرق.»

«إنها إذاً مثل الأبقار في بيزنطيا، تربى من أجل العمل في الأرض وتؤكل إذا استدعت الحاجة أو حين يُعجزها الكبر عن العمل.» قال جورجي بعد أن ارتشف قليلاً من كأس النبيذ، ونظر إلى هرقل الذي كان يشرب بعد كل قضمتين. لقد ولد هرقل في أفريقيا حيث عمل والده بطريركاً هناك ثم اكتسب موقع الحاكم بعد أن أبلى في المعارك ضد الفرس عام 590، وهكذا تربى هرقل وأخته مارية بعيداً عن أرض آبائهم، أرمينية. أخبرهم هرقل أن قرطاج لا بقر فيها ولا جمال أو خراف، بل خنازير برية وبيتيه، وماعز تسرح مع الرعيان في سفوح الجبال الخضراء. عندما انتهوا من الطعام ومسحوا أصابعهم بالمناديل، تذكر جندب المثل القائل إن بوسعك الحكم على مكانة الرجل من مائدته.

«إذاً ينطبق على العرب المثل البيزنطي، إن الطباخ الكسول يغلي كل شيء؟» ضحك جندب لسؤال هرقل وهم ينتقلون من صالة الطعام إلى صالة الاسترخاء، وتذكر أن طعام العرب بالفعل مطبوخ مغلي ومفتوت ومثرود، وقبل أن يُعلق أضاف هرقل «إذا كان الجمل هو سبيلهم الوحيد إلى العالم، فإن سبيل العالم إليهم هو الجمل أيضاً؟»

«ليس تماماً، فقد وصلتهم أنا بحراً في ذلك الحادث. لكن ما قلته صحيح لأنهم يكرهون البحر وركوبه، بل لا يأكلون الأسماك. يمكنك الوصول إليهم كما وصلت من قرطاج إلى هنا، بحراً، ولكن بعد الوصول إلى أيلة أولاً والعثور على سفينة مناسبة هناك.»

«وماذا لديهم يا جندب غير التجارة والجمال؟»

«الصحيح أن عندهم الجمال، وعندهم موقع تجاري في مكة، وإذا ذهب واحد ذهب الآخر.» رد جندب على هرقل ثم فطن فجأة أن القائد قد يكون يفكر في مكاسب لو غزا العرب، فأكمل: «ولديهم الكعبة، وهي معبد يضم 360 صنماً، يتعبد إليها العرب، ويزورونها في مواسم حج كل عام، وتدر عليهم دخلاً.»

«الكنائس عندنا تطالب الإمبراطور بالهبات والناس يدفعون الأموال للرهبان ليخلصوا أرواحهم وأرواح موتاهم، بينما كعبة العرب تدر عليهم الأموال!» قال هرقل وهو ينبطح على جنبه ويضع إبطه فوق مسند.

«نعم، وإذا تعرضوا للغزو ستخرب التجارة وتبور الكعبة، ويخسر الغازي والمغزي.» تبسم هرقل وهو يستمع إلى تعليق جندب، وأخبره أن الإمبراطورية لا تفكر في الغزو بقدر ما تفكر في صد الغزوات الخارجية

والقلاقل الداخلية، فالفرس يهاجمون من الجنوب، والقوط من الغرب والسلافيون من الشرق، واليهود من الداخل. وطلب هرقل من جندب أن يحدثهم عن الفوارق بين العرب والبيزنطيين. فقال: «يفرحون بالأولاد مثلنا، ويكرهون البنات أكثر منا، إذ يدفنونهن بعد الولادة.» تلفت جندب حوله ليرى إذا كانت ابنة جورجي أو زوجته على مرمى السمع، ولكنهما كانتا قد انسحبتا بعد الطعام إلى غرفة خاصة بالسيدات، فأضاف: «طبعاً ليس كلهم يفعل ذلك وإلا لكانوا قد انقرضوا، ولكن الكثير منهم يفعلها. أما الولد فيضعونه ليومين تحت وعاء فخاري ليختبروا صحته، فإذا صمد أعطوه لمرضعات مقابل أجرة، ويبقى عندهن لبضع سنوات حتى يفطم عن الحليب فيعود إلى أهله. وهم مثلنا يزوجون البنات في سن الثانية عشرة أو أصغر، أحياناً بترتيب من الأهل، وأحياناً أخرى بتوفيق من الخطابة بين الطرفين... يعني كما هو الحال في بيزنطيا. الاختلاف أن الرجال هناك يحق لهم الزواج بأي عدد يقدرون عليه من النساء، ويمكن للرجل أن يتزوج حفيدة صديقه.»

«لكن ماذا عن نظامهم العسكري وطبقات مجتمعهم؟» سأل هرقل، ثم قرر أن يُفسر سؤاله للصبي فربما لم تتسع مداركه بعد. «يعني هل لديهم جيش منظم فيه جند وقادة وعتاد؟ وهل توجد قواسم مشتركة بين الأغنياء وبعضهم وبين الفقراء وبعضهم؟»

«هم مجموعة عشائر متحدة، كل عشيرة متكافلة سوياً ويساعد أغنياؤها فقراءها، فإذا حصل الخلاف بين عشيرتين يكون خلافاً بين كل أفراد الطرفين. ولا تملك أي عشيرة جيشاً، لديهم فوارس يتدربون على الفروسية منذ الصغر، ولكن لا يوجد تدريب مشترك، أو تنظيم لجماعات مقاتلة، أو قلاع، أو مناجق.

يتحاربون سوياً، وبعضهم متخصص في اللصوصية وقطع الطرق. زعماء القبائل يملكون المال من التجارة، وكل واحد من أهل مكة يحق له الاشتراك بماله في رحلات القوافل، ويقبض رأس ماله وأرباحه بعد كل رحلة.»

«لا توجد لديهم إدارة إذاً، ولكن وضعهم القبلي أكثر عدلاً من وضعنا المشرع بالدين والقانون.»

«ليس تماماً يا هرقل، ولكن لأنهم لا يدفعون ضرائب لقائد أعلى، ولا يملكون دولة تحتاج إلى نفقات ورواتب جند وإداريين فإن فرص الأفراد بينهم متساوية.» قال جورجي لهرقل بينما جندب التزم الصمت. «لا توجد لدى العرب إدارة يمكن أن تفسد، أو نظام جباية يمكن أن يغضب الفلاحين والموظفين والأغنياء والنبلاء، ويقلق الجيش حين تنقطع رواتبه.» شعر جندب بتناغم منظم بين الرجلين وتلميحات لم يستوعب غاياتها، فقرر الإنصات وعدم التدخل إلا للإجابة عن سؤال مباشر.

«رأيتك تطيل الحديث اليوم مع سيرجيوس الأول، هل يريد وساطتك لهبات جديدة للكنيسة؟»

«انصب اهتمامه على تقويمي للوضع في أورشليم، وكيف أرى الحل، وماذا سأقترح على الإمبراطور؟» قال جورجي ثم أضاف: «قال لي، لو تمكنت من حل قضية اليهود فإنه سيضمن أن أتولى إدارة إقليم العاصمة.» سكت لحظات ثم سأل هرقل رأيه إذا كان يعتقد بقدرة البطريرك على إقناع الإمبراطور بتنصيبه والياً لإقليم العاصمة.

«نعم سيرجيوس يستطيع ذلك، فعلاقته مع البابا جيدة، وفوقا لا يخالف أي طلب لقداسته الآن. كل الأسباب التي دفعت بالانقلاب ضد موريقي

مازالت قائمة بعد خمس سنوات، والكنيسة هي الوحيدة الآن التي لها تأثير في النبلاء والفقراء والإمبراطور. لكن كيف تفكر في حل قضية اليهود؟» وضع جورجي إصبعه على رقبته بإشارة للذبح ثم قال: إن هذا لن ينفع، وأخبر هرقل إن سيرجيوس اقترح إقناع الإمبراطور بتنصيرهم.

«الكنيسة لا تزال ترفض مسامحتهم على ما فعلوه في أنطاكية وذبحهم لقساوستها. وأنا شخصياً لا أعتقد أنهم سيقبلون التنصير، ولكنه الحل الأسهل لنا ولهم.» كاد جندب أن يعلق على كلام جورجي، إذ تذكر ما سمعه في نعران من تظلم اليهود، ولكنه سكت. ولكن جورجي لاحظ تحفزه فسأله عن رأيه في أهل مدينته.

«لقد سمعت أننا بحاجة إليهم لإثبات نصرنا الدائم عليهم. ولكن لو أصبحوا نصارى فسينتهي تذمرهم الدائم، وبالطبع سينالون حقوقهم، وستخسر خزانة الإمبراطورية.» ضحك هرقل وجورجي بصوت مرتفع حين انتهى جندب.

«ملاحظة ذكية جداً يا جندب، فهذه هي المعضلة فعلاً.» قال هرقل، وتبادلوا بعض الحديث عن حرمان اليهود من توريث أبنائهم ممتلكات ثابتة، وهذا ما يدفعهم للعمل في المال وإخفائه عن العيون، فلا تعرف إذا كان اليهودي يملك الكثير أو القليل.

«علي استكمال جولاتي في الولاية والتعرف إلى النبلاء والجنود القدامى أصدقاء الوالد، مهمتي هنا تكاد تنتهي ولا بد من العودة إلى قرطاج بسرعة.» قال هرقل وهو يستعد للمغادرة وطلب من جورجي أن يتشكر لربة البيت.

«متى تتزوج يا رجل، لقد انتظرت طويلاً؟»

«في الحقيقة لقد خطبت فابيه قبل حضوري إلى هنا.» قال هرقل وعرف جورجي باسم والدها، روجاس، وهو من كبار ملاكي الأرض في أفريقيا. «أعرفها منذ الصغر، وتصغرني بخمس سنوات فقط؟» ثم نظر إلى جندب وقال ممازحاً «وليس مثل أصحابك الذين يتزوج شيوخهم طفلاتهم.» شد على يد جندب وتمنى عليه أن يزوره قبل سفره « وفي كل الأحوال أنت مرحب بك لدي في كل زمان ومكان.»

7

كانت عشرة أيام مليئة بالأحداث، تلك التي قضاها جندب في القسطنطينية، وحمد ربه كثيراً على الفرص التي أتيحت له، بداية بالسفر من بيت المقدس إلى العاصمة مع جورجي، ثم الإقامة في ضيافته، واللقاء مع هرقل، الذي مال قلبه إليه، ومشاهدة القيصر فوقا، بالرغم من عدم حصوله على أموال منه ولكن على كتاب يوصي بحسن معاملته أينما حل في الإمبراطورية شاسعة الأطراف. ثم ها هو عائد إلى فلسطين مع جورجي الذي يبدو أن القيصر قد كلفه بمهمة سريعة بإعادته إلى البلاد المقدسة. كان من الصعب عليه التركيز على أي من المواضيع التي تجول في ذهنه أثناء الرحلة، أو التمتع بذكرى زياراته لكبرى كنائس الإمبراطورية، وجولاته في شوارع العاصمة ليلاً ونهاراً، واشتراكه مع جورجي في رحلة صيد للوحوش، وهكذا لجأ إلى تسجيل بعض الملاحظات، خصوصاً وأن مرافقته لجورجي الآن تعطيه المزيد من المعلومات التي قد يسأل عنها أو التي يستنتجها من الأحاديث.

«أنت تعرف الإمبراطور موريقي، هل كان بالفعل بذلك السوء الذي استدعى الانقلاب عليه أم أن الأمر كالعادة، ذم الأموات والمهزومين؟»

«لم يتم انقلاب منظم ضد الإمبراطور السابق، ولكن الجيش تململ والنبلاء غضبوا والزرق والخضر لم يعجبهم الحال بعد عشرين سنة من حكم

موريقي. الكثيرون الآن وبعد خمس سنوات من الإدارة الجديدة يتذمرون أيضاً.» قال جورجي لجندب وهما يقفان سوياً إلى جانب سارية الشراع. «موريقي لم يكن من صلب العائلة الإمبراطورية، لقد تسلم قيادة الجيش الشرقي عام 577 وحقق انتصارات على الفرس، فزوجه الإمبراطور طيبيرياس قسطنطين من ابنته قونستنتينه، وتنازل له عن الحكم فأصبح إمبراطوراً في صيف 582. بعد ثماني سنوات أسس موريقي مقاطعة أكزاراك في أفريقيا، ونصب هرقل الأب بطريركاً وحاكماً لها، كان هرقل قد شارك هو الآخر في الحرب ضد الفرس. سارت شؤون الإمبراطورية بشكل سلس خصوصاً وأن الفرس انشغلوا بحروب داخلية وأبيدت العائلة المالكة ما عدا شاب صغير السن هرب ووصل إلى موريقي وطلب دعمه. وهذا ما كان...»

«نعم وزوجه ابنته، ونصره ضد خصومه حتى عاد كسرى وحكم فارس».

«صحيح الجميع يعرف ذلك، فقد زوجه ابنته الكبرى مريم، وهي التي تُحرك الفرس الآن للانتقام لمقتل أبيها وأخوتها الخمسة واستعباد بقية عائلتها. ما لا تعرفه، ربما، أن موريقي كان يرى حل مشاكل الإمبراطورية في تقليص مساحتها بتقطيعها إلى أجزاء يمكن حكمها. ثم كتب وصية عام 597 تقضي بشق الإمبراطورية بعد مماته وتوزيعها على أولاده، جزء شرقي، وآخر غربي تكون روما عاصمته، وثلاث مناطق أخرى من الإسكندرية حتى أنطاكية، ليكون لكل ولد منطقة خاصة به. هذا لم يعجب العامة وعارضه النبلاء الذين لديهم امتداد مصالح في كل الإمبراطورية. العامة والخاصة يريدون بلاداً واسعة قوية متحدة ساسياً واقتصادياً، بينما الإمبراطور يعمل على التقسيم لتسهيل التوريث. من هنا بدأت المشاكل الفعلية لموريقي، وتذكر الكثيرون

حينها أنه ليس من السلالة الإمبراطورية بعكس كل سابقيه. اتُهم أيضاً بالفساد لجمعه مال الإمبراطورية والاستحواذ عليه، لأن الناس لم تصدق تبرير تراجع المداخيل. لقد قبض بالفعل رشى وهدايا، مثل بيعه لمنصب بيشوب باريس إلى التاجر السوري أوسيبيوس عام 591 والذي دفع أيضاً إلى البابا، لكن كما اتضح بعد موته، فلم تظهر لدى ورثته تلك المنهوبات الكثيرة التي ظنها الناس.»

«كيف انتهى به الحال؟» سأل جندب وقد لاحظ حيادية في حديث جورجي عن موريقي.

«بأسوأ ما يمكن أن ينتهي به حال إنسان. هرب مع أولاده وبناته على متن مركب، فهبت عليهم رياح ألجأتهم إلى جزيرة صغيرة. وبعد تنصيب الجيش لفوقا إمبراطوراً في كنيسة سانت جون المعمدان، أرسل من يلاحق عائلة موريقي، فضبطوها، وأعدموا الذكور وخلعوا ملابس الأباطرة عن الإناث وألبسوهن ملابس الخدم وأودعوهن في دير نسوي.» ورغم مرور خمس سنوات على هذه الأحداث وخدمة جورجي في بلاط فوقا، إلا أن الأسى غطى ملامح وجهه وهو يتحدث. «وكأن هذا لم يكن كافياً فقد أسروا ألكسندر، صهر موريقي، وصديقه الفيديس بعد أن سرت شائعة أن ألكسندر يسعى لاستعادة الحكم. أمر فوقا بنفيهما مكبلين بالسلاسل إلى الإسكندرية، وأرسل معهما أمراً بقتلهما حال الوصول إلى هناك. كانت لهما شعبية في القسطنطينية فلم يُعدما فيها حتى لا تثار القلاقل.»

«لم أعرف أي من هذه المعلومات في زيارتي السابقة للقسطنطينية. ولكن هل تقبلت الكنيسة هذه التقلبات من دون اعتراض؟» ارتسمت مرارة

على ملامح جورجي بعد الاستماع لاستفسار جندب، ثم نظر إلى البحر وهو يمسك عباءته بيمينه والساري بيساره.

«الرياح أسرعت، وعما قريب سترتفع الأمواج...» قال جورجي وأضاف: «تحرك ثوار من أنطاكية إلى مصر، وحرضوا على الثورة في خمس مدن وقتلوا حاكم مردة هناك واستولوا على الإدارة. عندما وصلت الرسل إلى فوقا في القسطنطينية بما جرى أرسل الجنرال بونسس إلى أنطاكية، فوجد رجال الكنيسة من الإقليم الشرقي مجتمعين، وكانت التعليمات للجنرال واضحة بقمع المعارضة. قبل أن يعلنوا أي رأي وصل الجيش إلى الكنيسة وقتل كل المجتمعين، وأرسل من يلاحق رجال الدين والثوار في فلسطين ومصر. بعد كل ذلك اعتقل الجنرال كل المعارضين وجعلهم يمثلون أمامه على هيئة نساء، ثم خنق بعضهم، وحرق غيرهم، وقتل فئة أخرى بالغرق، ورمى آخرين إلى الحيوانات المفترسة، أما الذين شاركوا في الثورة من الزرق والخضر فقد أكرمهم بحد السيف مراعاة لأعضاء الحزبين.»

كان جندب يتمسك بالساري ويتذكر ملامح الإمبراطور فوقا وهو يستمع لهذا الإرهاب، فجأة أصبحت الحواجب الكثيفة المتصلة فوق عينين مستطيلتين، وفوق جرح غائر ترك ندبة عريضة حمراء، أصبحت تمثل وجه الشيطان في مخيلة جندب، وكاد أن يسأل جورجي كيف تطاوعه نفسه بخدمة رجل كهذا، ولكنه تحلى بالصبر وأخذت بعض الأفكار تطبخ في ذهنه. واستجابا إلى نصيحة القبطان بالنزول إلى الطابق السفلي إذ توجب إغلاق النوافذ على السطح خوفاً من مياه الأمواج التي أخذت تضرب جانبي المركب.

«الخبر الجيد أننا اقتربنا من ساحل يافا، والخبر السيئ أننا لن نتمكن من

الوصول إلى الميناء إلا بعد أن تنخفض الأمواج.» قال مساعد القبطان للركاب تحت السطح وعاد إلى أعلى ثم أقفل الكوة عليهم.

«لو هبطنا من القسطنطينية إلى أنطاكية براً، ثم واصلنا المسير إلى فلسطين بالبحر أو البر، لكان أفضل من أن نضع أنفسنا تحت رحمة الأمواج.» كاد جورجي أن يضحك من تعليق جندب ولكنه تذكر موت والده غرقاً في البحر.

«في البحر أسرع يا جندب، فأنت هنا تنام وتصحو وتأكل وتتمشى بينما المركب يواصل المسير، أما براً فعلينا التوقف عند الطعام والنوم والقيام بزيارات مجاملة في المدن والقرى. الوضع هنا آمن، فنحن أصلاً لا نبتعد كثيراً عن الشواطئ أثناء الإبحار. بعد يومين سنكون في بيت المقدس بمشيئة الرب.»

فكر جندب أنه لو توجه من يافا إلى غزة مباشرة، فسيكون عند والدته قبل أن يصل جورجي إلى بيت المقدس. استبعد الفكرة، فمن بيت المقدس إلى غزة مسيرة قصيرة هي الأخرى، كل الساحل الفلسطيني ومن البحر إلى النهر منطقة صغيرة نسبياً يسهل التحرك عبر مدنها وقراها الكثيرة والعامرة بالناس والزرع. «سأرافق جورجي إلى بيت المقدس لأرى ما هي تلك المهمة التي أعادته بهذه السرعة إلى فلسطين.» قال لنفسه، وتجاهل التفكير في والدته التي عرفت الآن بالطبع من خادمهم ماذا جرى، ولا تنتظر عودة ولدها بهذه السرعة من القسطنطينية.

منذ الصباح، بعد أن ترجلوا من المركب، وحتى ما قبل المساء، كان جندب وجورجي وثلاثة من مرافقيه قد وصلوا بيت المقدس على ظهر خمسة خيول أخذوها من المحمية في يافا، ومروا في بيت دجن، واللد. قبل مغادرة يافا

سمع جندب جورجي يطلب من قائد القوات هناك أن يرسل على وجه السرعة رابياً أو أكثر من اليهود في يافا إلى بيت المقدس. قال له القائد إن تعداد اليهود في يافا ومحيطها قليل جداً، لكن جورجي أصر عليه بإرسال من يمثلهم، وأرسل من هناك رُسلاً إلى كنيس اليهود في كل من طبرية وصفورية وأذرعات وأريحا وبيت رمثة والحمة وعسفيا وجرش وعسقلان وغزة. أصبح من الجلي بعد ذلك لجندب أن يخمن تعلق مهمة جورجي بالأقلية اليهودية الصغيرة في فلسطين، وأنه يريد إنجازها بسرعة. «بالتأكيد لا يريد اغتيال هؤلاء الممثلين، فالعدد صغير، والأمر سيسبب مشاكل إضافية للإدارة البيزنطية في فلسطين وما حولها، لأن الأغلبية النصرانية التي تسكن فلسطين غير راضية عن السياسة البيزنطية، وسيتخوفون جداً من غدر الإمبراطورية بيهود فلسطين.» لم يفصح جندب عما يدور في ذهنه، واستبعد هذه الأفكار. «قريباً سنعرف الهدف، ولو كانوا يريدون قتلهم فعليهم التخلص أولاً من يهود أنطاكية، فعددهم أكثر ومشاكلهم لا تتوقف.»

قضى جندب أياماً بين النوم والاستراحة في منزلهم في بيت المقدس، وفي اليوم السابع على وصولهم كان موعد اللقاء الذي قرره جورجي مع يهود بيت المقدس ومن حضر من المناطق المجاورة. أجلسهم في الساحة أمام كنيسة القيامة وأحاط بالمكان جند بكامل لباسهم وعدتهم الحربية فامتلأ الجو بالرهبة الدينية والخوف والترقب.

«أجمعكم هنا اليوم بأمر من سيدكم، إمبراطورنا المبجل فوقا.» صاح جورجي فيهم وهو يعتلي منصة خشبية أمام الحضور الواقفين. «هنا صُلب سيدنا بخيانة من أجدادكم.» أكمل جورجي، وسمع جندب أحد الحضور

يهمس بأن الذين صلبوه هم أجدادكم أنتم الرومان. «لو انصعتم آنذاك للدين الجديد لتغير مجرى التاريخ. نريدكم الآن أن تصلحوا ذلك الخطأ الجسيم.» تململ الحضور وسمعت تعليقات هامسة وأخذ الجند وضع الاستعداد وضربوا رماحهم على الدروع، ثم ارتفع صوت جورجي: «أنتم عبيد سيدنا الإمبراطور، هل تنكرون ذلك؟» ارتفعت أصوات عديدة بينهم تؤكد هذه الحقيقة وهم لا يعرفون بعد ما سيقول. «إن سيد الأرض يأمركم أن تتعمدوا.» صمت ليسمع جوابهم، وصمتوا بدورهم لا يعرفون ما يقولون. «لماذا تصمتون؟» سألهم جورجي.

«كل ما يأمر به سيد الأرض نطيعه، إلا ما ذكرت الآن فلا يمكن فعله، لأن وقت العماد المقدس لم يحن بعد.» قال الرابي يونا، بينما تحرك جورجي من مكانه وتوجه إليه وصفعه على وجهه بعد ثوانٍ من إنهاء كلامه.

«إن قبلتم أن تكونوا عبيداً فعليكم طاعة مولاكم.» صاح جورجي غاضباً في الحضور، وأصدر أوامره بتعميدهم فوراً، وتعميد بقية اليهود في فلسطين. «يهود بيت المقدس الثلاثة آلاف يجب أن يصطفوا أمام الكنائس ليتعمدوا يوم الأحد المقبل وتسجل أسماؤهم.» عاد جورجي يصرخ بغضب لم يره جندب في الرجل أثناء رفقته في الأسابيع الماضية. «وأنتم أبلغوا بقية اليهود أن يسرعوا إلى الكنائس في مناطقهم ليتعمدوا ويسجلوا أسماءهم.» التأكيد على تسجيل الأسماء يعني للجميع أن من لن يجدوا اسمه بين المعمدين سيواجه العقاب الذي اشتهر به فوقا وجنرالاته، وهذا يشمل رميهم للوحوش. لم يقترب جندب من جورجي وتمنى أن لا يراه لأن ذلك قد يعرض حياته للخطر، كما أن جندب لم يتقبل الفكرة بسهولة، فهو مثل الكثير من النصارى لا يريدون تنصير اليهود

بالإكراه لأنهم سيبقون يهوداً ويمارسون طقوسهم ويحولون زياراتهم إلى الكنيسة يوم الأحد إلى ملهاة. عاد إلى المنزل وهو يفكر في غباء هذا القرار، فالإمبراطورية شبه مفلسة من الحروب والقلاقل وبحاجة إلى أموال، وها هو الإمبرطور فوقا يعمد اليهود ويحرم نفسه من الضرائب الإضافية عليهم، ومن مصادرة ثرواتهم وما يرثون، الآن يصبحون مثل الآخرين وسيكون بوسعهم التملك واقتناء المزارع والعبيد. كان يسير في الشارع الرئيسي الممتد من بوابة يافا إلى بوابة الأسد، يتأمل أعمدة الرخام على جانبي الشارع، والرصيف أمام المحلات حيث يتسوق أهل المدينة الثلاثون ألفاً وآلاف الحجاج النصارى الذين يزورون المدينة كل عام. في منتصف الطريق استدار جنوباً في الشارع الرئيسي الآخر الذي يمتد من بوابة الشام إلى البوابة الجنوبية ويتقاطع مع الشارع الأول في وسط المدينة. كانت أفكاره مشتتة عندما استدار غرباً في الشارع الفرعي حيث منزلهم، والمؤدي إلى الهيكل أيضاً، فجأة تدافع أمامه من زقاق فرعي مجموعة من الناس يتعاركون، استوعب بسرعة أن ثلاثة من اليهود يهاجمون قساً نصرانياً، بينما رجل بملابس العرب يهددهم ويردعهم عن قتل القس. انتهى العراك حين أشهر العربي سيفه فهرب المهاجمون.

«شكراً لقد أرسلك الرب لنجدتي في اللحظة الأخيرة، لو لم تظهر فجأة لكنت الآن في عداد الأموات.» قال القس باللاتينية الدارجة للعربي، الذي لم يرد عليه على الفور، ولكنه طمأنه باللغة العربية. تقدم منهما جندب وقد استوعب الموقف. قبل أن يترجم كلام القس للعربي نظر إلى وجهه ثم أخذ الإثنان يقهقهان ويتحاضنان وسط حيرة القس. لقد كان عمرو بن العاص، حضر إلى بيت المقدس ووصل إلى بيت جندب حسب ما وصفه له في

بُصرى، وأخذ يتجول في الشارع انتظاراً لعودته حتى شاهد اليهود يهاجمون القس فأنقذه.

«علينا أن نبتعد عن هذا المكان، أليس كذلك؟ قد يتجمع علينا اليهود.» توجه القس بحديثه إلى جندب متوقعاً منه الترجمة لعمراً. كانت لكنته اللاتينية مختلفة عن أهل بيت المقدس، ولاحظ جندب أن ملابسه أيضاً تدل على أنه من حجاج المدينة الضيوف. أخبر عمراً بما ظن، وسأل القس عن بلاده ولغته الأصلية، فأخبره أنه من الإسكندرية حيث يتكلمون هناك اليونانية رسمياً والقبطية هي السائدة بلهجاتها الأربع. ساروا من دون دعوة مع جندب ووصلوا إلى المنزل القريب من دون أية مشاكل، وأخبرهما جندب أن الإمبراطور قد أبلغ اليهود للتو عبر رسوله جورجي أن عليهم أن يتعمدوا، وهذا قد يؤدي إلى قلاقل وتدخل من الحراس. أجل عمرو وجندب حديثهما عما فعل كل منهم منذ آخر لقاء، وأخذا يتجاذبان أطراف الحديث مع القس عن ظروف سفره وطباع أهل بلاده ليهدئا من روعه.

«سوف أترككما قليلاً ريثما أشتري بعض الحاجات.» قال جندب ثم أبلغ عمراً أنه أرسل خادمه إلى غزة ليُطمئن والدته، وأنه الآن وحيد هنا. لم يترك لهما فرصة لرفض خروجه لشراء الطعام، وصاح به عمرو قبل أن يغادر البيت أن لا يشترى الشراب فقد أحضر معه من الشام ما يكفي.

«لقد تركت ناقتي في الخان خارج باب الشام.» قال عمرو للقس بطرس بعد أن ترجم له جندب ما قال، إذ شاهد عمرو التساؤل على ملامحه حول المشروب الكافي الذي يتحدث عنه. «كيف حضرت إلى هنا؟» لم يستوعب بطرس ما قاله عمرو الذي أخذ بدوره يعيد سؤاله بإشارات يدوية واستعمال مفردات مثل الإسكندرية وغزة حتى فهم بطرس ما يعنيه.

«ركبت مع ثلاثين حاجاً البحر من الإسكندرية إلى ميناء غزة، ثم ركبنا الحمير من هناك إلى هنا.» كرر بطرس حديثه بالقبطية واليونانية وقد بدأ يستعيد هدوءه: «أنا أدين لك بحياتي، وبودي أن تزورني في الإسكندرية، إنها أجمل مدينة في الدنيا.» وعندما رفع عمرو حاجبيه مستغرباً أضاف بطرس: «نعم لقد زرت القسطنطينية وروما وأنطاكية وبيت المقدس، والإسكندرية أجملها... سترى ذلك عندما تزورنا.» كان استغراب عمرو ناتجاً من رطانة بطرس وكونه لم يفهمه، وفطن القس أنه بحاجة إلى مترجم، فاستعمل يديه ليعبر عن الجمال بين كلمات الإسكندرية وأنطاكية وروما، ففهم عمرو مراده.

«كل مدينة في عين ابنها هي الأفضل خصوصاً عندما يبتعد عنها، أما حين يعود إليها فهو يشتاق إلى الرحيل عنها، تذكر ذلك حين تعود إلى الإسكندرية.» امتد بهما حديث الإشارات وتبادل المعلومات عن مكة والإسكندرية حتى عاد جندب بالطعام ليجد أنهما لم يجهزا أي شيء سوى وضع أكواب على منضدة الطعام وتبادل الأنخاب من قربة جلدية مليئة بالخمر فكها عمرو عن وسطه بعد أن تحرر من بعض ملابسه وسلاحه. وضع جندب خبزاً وأجباناً وزيتوناً ولحماً مقدداً على المنضدة، وأحضر صحوناً خشبية وسكاكين وماء للشرب، وباشر كل منهم بتناول الطعام، ويتصرف كأنه في منزله.

«لم تشاهد والدتك إذاً حتى الآن؟» سأل عمرو صديقه الشاب بعد أن عرف إنه توجه إلى القسطنطينية مباشرة.

«نعم، عندما وصلت هنا وجدتها قد سافرت عند أهلها في غزة.» سكت جندب بعد أن ترجم بإيجاز ما قاله لعمرو، وامتنع عن قول إنه يريد السفر لرؤيتها الآن حتى لا يبدو ذلك تملصاً من الضيوف.

«إذا رغبتم، يمكننا السفر سوياً إلى غزة، جندب يزور والدته وأنت وأنا نواصل إلى الإسكندرية... طبعاً يمكن لجندب مرافقتنا على الرحب، ويمكن الانتظار بعض الوقت في غزة ثم السفر سوياً. إنها مدينة جميلة جداً وأهلها طيبون.» كان بطرس يوجه حديثه إلى عمرو ثم يصمت ريثما يترجم جندب ما قال. لم يتمنع عمرو، بل قال إنه شاهد معظم بيت المقدس وإذا كان السفر بعد يومين فيمكنه التوسع في التعرف إلى المدينة وأسواقها قبل مغادرتها.

في صباح اليوم الثالث اجتمعوا، حسب الاتفاق، عند الخان أمام بوابة الشام حيث يستريح بعير عمرو. ركب بطرس حماراً أبيض قوياً، اكتراه للرحلة ودفع رهناً يسترده حين يُسلم الحمار إلى الخان في غزة، بينما اعتلى جندب وعمرو البعير بعد أن أعدا مقعداً إضافياً خلف السنام. اخترقوا المدينة وخرجوا من الباب الجنوبي باتجاه بيت لحم وهبرا ليهبطوا من هناك إلى الساحل، لم يكن ذلك أقرب الطرق ولكنه أسهلها. قبل أن يبتعدوا كثيراً لاحظوا عجز حمار بطرس عن مسايرة بعير عمرو، فربطوا رسنه بذيل البعير وأصبح عليه أن يحث الخطى، وهكذا أيضاً سهل التفاهم بين الاثنين في علوهما وبطرس الذي لم يعد يصرخ وهو يحادثهما عن غزة والإسكندرية. قال جندب لرفيقيه إنه لا يعرف مدينة غزة مثلما يعرف غيرها من المدن، فقد زارها مرة واحدة وهو صغير، كما أن أخواله يقطنون في ميماس غزة (الميناء) وهو يبعد عن المدينة ثلاثة كيلومترات. «جدي وأخوالي يعملون مع المراكب، وأخبرني جدي حين زرتهم أنه مختص في تنزيل وتحميل الحيوانات.» قال جندب ثم لف رقبته إلى الخلف ليسمعه بطرس بوضوح: «لقد اعتنى جدي بزرافتين أرسلتا من ماكيورتس هدية إلى الإمبراطور جوستين الثاني.» أدار جندب وجهه إلى

الأمام، وشعر أن الحديث ليس مريحاً إلا اذا كان يحادث عمراً أمامه، فهو يترجم بينهما ويعيد ما يقول من العربية إلى اليونانية ومن هذه إلى تلك، فقرر التقليل من الكلام.

«نعم، ميماس غزة هو الأنشط في حوض البحر الرومي، ويختص عن غيره في نقل الحيوانات، زراف، وأسود، ونمور، وقرود، وحتى فيلة. تستريح في غزة قليلاً ثم تواصل طريقها إلى من يشتريها، وأحياناً حين يتجمع الكثير منها فإنها تشارك في عروض ويتم استعراضها في الشارع الرئيس وسط المدينة. هذا ما سمعته من البحار الذي نقلنا في مركبه من الإسكندرية إلى غزة.»

«كيف رأيت أنت المدينة؟» سأل عمرو بطرس بصوت جهوري من دون أن ينظر إلى الخلف، ثم ترجم جندب السؤال إلى اليونانية.

«إنها تشبه بيت المقدس، مدينة مسورة بأربع بوابات، وعلى كل بوابة برجان، والمدينة كلها على تلة عالية ويمكنك مشاهدة البحر بسهولة رغم المسافة بينها وبين الساحل وفيها شارعان متقاطعان بأعمدة على الجانبين وأرصفة للمشاة، شارع كاردو ماكسيموس، وشارع ديكومانيس. كاردو ماكسيموس يربط بين بوابة هبرا في الشرق وبوابة ميماس في الغرب، بينما الشارع الآخر يوصل بين بوابة الدارون في الجنوب إلى بوابة عسقلان، ويتوزع من الساحة الى شوارع فرعية صغيرة أحدها يوصل إلى بوابة عسقلان في الشمال...» لم يتذكر جندب هذه التفاصيل التي يتحدث عنها رفيقه، فقد كانت زيارته داخل الأسوار قصيرة، فأصغى باهتمام إلى بطرس، الذي أكمل:

«... بل إن غزة تتميز عن بيت المقدس بوجود مسرح نصف مستدير على مقربة من الساحة عند البوابة الشمالية. وأيضاً قبل الوصول إلى البوابة الغربية

توجد ساحة أمامها نافورة مياه يلتقي فيها السكان في المساء، وفي المدينة ثلاث كنائس إحداها بازيلكا كبيرة، أقيمت عام 440 فوق بقايا معبد لزيوس مارناس، أي الخالق زيوس كما كانوا يسمونه قبل النصرانية التي تحول إليها غالبية السكان الآن.»

«ماذا عن البشر الذين يقطنونها، هل هم طيبون مثل جندب؟»

«سترى يا عمرو بعينيك روعة غزة، المليئة بالجماليات. بالطبع ليس كل الناس في طيبة وشهامة جندب، ولكن الغزيين أخواله. إنهم أناس طيبون لديهم روح حرة، غير متعصبين ويحبون الحجاج كثيراً.» صمت بطرس قليلاً ثم رفع صوته ليسمعه عمرو: «أعتقد أن أكثر شيء سيعجبك في غزة هو حماماتها الشتوية، وأفضلها عمره سبعون عاماً، وتغطي جدرانه الرسومات الجميلة، وسقفه عليه رسومات الفلك بألوان زاهية.»

«ما هي تلك الرسومات الجميلة على الجدران؟»

«إنها كما تخمن يا عمرو، بالإضافة إلى أشجار وزهور وشلالات مياه.» أجاب بطرس بينما الثلاثة يضحكون. «لكن لا ننسى أن في غزة واحدة من أشهر مدارس علوم المنطق والخطابة، ويأتيها الطلاب من بقاع الإمبراطورية، ودرس فيها الكثير من القيادات على مر العقود، وتعلموا فيها فنون الحديث والقيادة والديالكتيك، وتُدرس فيها أيضاً مواد تاريخية وميثيولوجيا، ويدرس كل زوارها الأدب إلى جانب علومهم التخصصية. وقد عرفت أن لهذه المدرسة علاقات علمية مع مدرسة الرهبان في المدينة.»

تشعب بهم الحديث، ومرت أيضاً فترات صمت طويلة لإراحة حناجرهم. وصلوا إلى قرية بيت تزور عصراً، وقرروا مواصلة المسير إلى هبرا واستعدوا

لقضاء ليلتهم خارجها، إذ حملوا من بيت المقدس كل ما يحتاجونه لهذه الرحلة. جمع عمرو وبطرس بعض الأعشاب لإطعام الدواب، بينما أشعل جندب النار، وجلسوا يتسامرون عبر ترجمة جندب ويأكلون مما حملوا معهم. أثناء اليومين التاليين للقاء بين عمرو وجندب في بيت المقدس، أخبر الفتى صديقه بالكثير عما شاهده في القسطنطينية، وتعرفه إلى هرقل، وتضعضع وضع الإمبراطور فوقا، وعندما طلب بطرس من جندب أن يحدثهم عما سمع من القصص في القسطنطينية، رأى أن يخبرهم بقصة البطريرك، فم الذهب، الذي عاش ومات في عصر الإمبراطور أرقاذيوس، أي قبل اثني عشر إمبراطوراً قبل فوقا الحالي.

«في ذلك العهد قام يوحنا فم الذهب بطريركاً على القسطنطينية، ووضع تفاسير للإنجيل ليقربه إلى غير القساوسة، ومنع الكهنة من ممارسة أمور فساد كثيرة سادت آنذاك، فحسدوه وجعلوا يترقبون عليه عثرة ليوقعوا به، حتى تجرأ ونهى الإمبراطورة أودكسيا، امرأة أرقاذيوس، عن اختلاسها كرم امرأة أرملة. ولأنها أبت إعادة كرم العنب، رشقها يوحنا في بعض خطبه ذات يوم وشبهها بإزابيل، زوجة ملك يهوذا التي أخذت كرماً من أرملة أيضاً.» كان جندب يتحدث بلغة عربية فصحى حين يترجم لعمرو أو يبادله الحديث وذلك ليسهل على بطرس الفهم تدريجياً، ثم يقرأ في عيون القس أنه لم يفهم أي شيء فيعود للترجمة. «أوصل الحاسدون الأمر إلى أودكسيا، فركبت ومعها تسعة وعشرون أسقفاً ممن عادوا يوحنا فم الذهب، واجتمعوا في مدينة خلقيذونيا، وحرّموا أقواله وأفعاله، وأسقطوا من مرتبته بحجة أنه ما زال يطالع كتباً وأناجيل ممنوعة. فاضطرب أهل القسطنطينية لذلك وهموا بإحراق قصر

الإمبراطور، فخافهم أرقاذيوس وبعث إلى فم الذهب وأعاده إلى مرتبته. فلما رجع أزال تمثالاً للإمبراطورة من جانب الكنيسة، وخطب ذات يوم وشبه أودكسيا بالملكة هيروذيا، أي التي قتلت يحيى بن زكريا المعمدان. فغضبت زوجة الإمبراطور ووجهت كتباً إلى أسقف قبرص وسائر الأساقفة وجمعتهم كلهم في القسطنطينية، فحرموه ثانية ونفوه إلى جزيرة في بحر نيطوس حيث مات هناك.» قبل أن يُنهي جندب حديثه، رفع بعير عمرو رقبته وتنبه عمرو وبدت عليه علامات الإنصات والترصد.

«هناك من يقترب نحونا على دابة.» قال عمرو ثم عاد للإنصات وأكمل: «وأسمع أصواتاً من جهة هبرا.» أيده جندب وبطرس فقد وصلت الأصوات إلى آذانهم أيضاً.

«شلاما، مساءكم سعيد يا أصحاب النار، اسمحوا لي بالاقتراب منكم بسلام.» وصلهم الصوت، فرحبوا بصاحبه بصوت مسموع وتبادلوا بعض التعابير الترحيبية حتى وصلهم راكب على حصان، فقاموا للترحيب به وبث الطمأنينة في نفسه. «تأخرت في الوصول إلى هبرا، ورأيت ناركم...»

«أهلاً وسهلاً بك.» قاطع عمرو الضيف وقد فهم كلمته الآرامية الأولى، وخمن بقية كلامه باللغة اليونانية. «سنمر في الصباح على هبرا، يمكنك المبيت عندنا الليلة وننطلق في الصباح.» كان الضيف يتفحص الثلاثة بعد أن ترجم له جندب كلام عمرو، ليقرر إذا كان مبيته عندهم قراراً حصيفاً، أم يعتذر لهم ويواصل المسير متحدياً مخاوفه. «تفضل الطعام.» قال عمرو ومد إليه مما تبقى أمامهم، لكن الضيف اعتذر وأكد أنه تناول طعامه قبل قليل وهو على ظهر حصانه. عادت الأصوات لتصلهم مع نسمات الهواء، فنظر كل منهم إلى

الآخر. «هل هبرا قريبة إلى هذه الدرجة لنسمع أصوات سكانها؟»

«في العادة لا يمكن سماع أصواتهم من هنا، لكنهم الآن في أسبوع المهرجان، والرياح الليلة جنوبية تحمل إلينا الضجيج.» قال الضيف تيوثيوس بعد أن عرفهم بنفسه وتعرف إليهم، وأخبرهم أن بوسعهم لو ساروا معه الآن أن يصلوا هبرا خلال ساعة ويشاركوا في المهرجان. لم يخبرهم سبب لجوئه إليهم، وشكوكه أن ضبعاً تربص به.

«الأفضل لك ولنا أن نرتاح هنا الليلة ونصابح القوم غداً.» أجاب عمرو بينما تيوثيوس أكمل إراحة حصانه من السرج، وجلس معهم حول النار، وأخذ يحدثهم باليونانية والآرامية عن المهرجان عندما لاحظ أنهم غرباء ولا يعرفون المدينة وما يجري فيها. كان عمرو وجندب يفهمان بعض ما يقوله الرجل بالآرامية، ولكنهما استقرا بسرعة على حديث اليونانية وترجمة جندب.

«ألم يمنع الإمبراطور قسطنطين هذا المهرجان؟» سأل بطرس بعد أن تذكر ما سمعه منذ زمن عن المهرجان. «أعتقد أن حماته زارت الاحتفالات وكانت تظن أنها للصلاة والتعبد، ولم يعجبها ما شاهدته، فأبلغت زوج ابنتها الذي قام بمنع المهرجان ليرتاح من مناكفة حماته.»

«هذا صحيح، المنع قائم ولكن الاحتفالات لم تتوقف، لقد تغير موقعها فقط. كانت في البداية تحت شجرة كبيرة وحولها، ثم انتقل المكان بعيداً عنها إذ أقيمت بجانب الشجرة كنيسة كبيرة تضم قبر النبي إبراهيم.» قال الضيف وهو يمد يديه إلى النار ثم أضاف: «زعماء الدين اليهود منعوا أيضاً رعاياهم من زيارة المهرجان، ولكنهم يأتون مثل غيرهم من كل بقاع فلسطين، ومن حولها، عرب، وفينيقيون، ويهود ونصارى ووثنيون.»

«لقد شوقتنا لهذا المهرجان، فما سبب كل هذا العداء للاحتفالات؟» سأل بطرس.

«التعصب هو السبب، ولأن هذه الاحتفالات وجدت قبل الديانات.» نظر تيوثيوس في وجوه الثلاثة ليرى رد فعلهم على ما قال، فهو لا يعرف دياناتهم، أو طباعهم، ثم أضاف: «إنهم يشربون النبيذ الذي تصنعه هبرا وتشتهر به، ويناموا في خيام بدون سواتر، وتلبس النساء أفضل ملابسهن ويتجملن بحرية تامة.» صمت لثوانٍ ووجدهم مصغين ومنتبهين تماماً ثم قال: «ولكن الرجال لا يجامعون نساءهم طوال فترة الاحتفالات. هناك بيع وشراء ولهو ورقص وموسيقى وخمر، وأيضاً إشعال البخور، وذبح الضحايا من بقر وماعز وديوك ربيت وسمنت عند أصحابها طوال العام لتذبح في المهرجان تزكية عن صاحبها أو أقاربه أو عن روح شخص ميت أيضاً. في أوقات محددة يتوقف النصارى فيصلون ثم يعودون للاحتفال، ومثلهم اليهود، بينما الوثنيون يوقدون الشموع والقناديل. ويُصب النبيذ للجميع ويتبرع الناس بالكعك، بل هناك من يوزع نقوداً أو بخوراً.» قبل أن ينتهي الضيف، لاحظ استغرابهم مما قال، فأخبرهم أنهم سيشاهدون ذلك بأنفسهم غداً.

«هل الاحتفالات ليل نهار؟» سأل جندب بشيء من الحيرة، إذ لم يكن من المقرر البقاء في هبرا مدة طويلة.

«النوم فجراً وصباحاً، والبيع والشراء والتعبد نهاراً، والشرب والرقص والمرح ليلاً...»

«...لا تقلق يا جندب.» قاطع عمرو إجابة الضيف تيوثيوس وربت على ظهر جندب «لن تهرب منا غزة والإسكندرية، دعنا نرى كيف يحتفل

الهبراويون.» لم يمانع بطرس ما قيل، وتحدث الضيف مشجعاً إياهم على قضاء يوم في هبرا، واستعد أن يقدم لهم خدمة ابن البلد، وأخذ يحدثهم عن هبرا وأهلها وعن عمله في بناء المباني الحجرية. كانت مخاوفه قد تبخرت قرب النار في صحبة الثلاثة، لكن حصانه وبعير عمرو تنبها لخطر ما، فعم التنبه وجوه الثلاثة وعاد القلق إلى الضيف الذي أخبرهم فوراً عن ظنونه بملاحقة ضبع له.

«هل شاهدته يتعقبك؟» سأل عمرو تيوثيوس.

«أظن أنني شاهدته عن بعد، وقد شعر به حصاني قبل أن أرى ناركم.»

«عموماً لا داعي للقلق، طالما النيران مشتعلة فلا خوف من الضباع أو الذئاب.» قال عمرو ورمى على النار جذعاً له أفرع جافه فارتفعت النيران. «لدينا ما يكفي من الحطب حتى بزوغ الفجر.» أضاف عمرو مطمئناً رفاقه.

«هل صحيح أن الضبع إذا بال على ذنبه ورشق الماشي أو الراكب بذلك فإن المصاب يتبعه كما لو كان مُغيباً؟ » سأل بطرس الحضور مؤكداً أنه سمع قصصاً تؤكد ذلك. لم يسمع إجابة فورية، فقد كان جندب يجهز سيفه، بينما أخرج عمرو قوساً وسهاماً من جعبته وركز ناظريه حيث توجد الدواب الثلاث.

«القصص عن الضبع أشبه بالأساطير عن الغول.» قال الضيف وواصل يحدثهم بصوت هادئ عن قوة فك الضبع وقدرته على كسر أي عظام يمكنه التقاطها في فمه، وكيف أن سكان ريف هبرا يفقدون بعض مواشيهم، وحين يعثرون على بقاياها يعرفون أي حيوان افترسها.

«قد يكون الضبع مفترساً، وقذراً، ولكنه بالتأكيد ليس غبياً ليهاجمنا الآن.» طمأنهم عمرو واقترح أن يواصلوا سهرتهم، وحين يقررون النوم سيبقى اثنان

منهم متيقظين حتى منتصف الليل، ثم يوقظون الاثنين ليواصلوا نوبة الحراسة حتى الفجر. «هذا يتطلب قيلولة طويلة غداً في هبرا. سأسهر حتى منتصف الليل مع بطرس، وعليكما بقية الليلة.»

عندما دخلوا هبرا صبيحة اليوم التالي، كان تيوثيوس يخبر كل من يلتفت إليهم أن جندباً هو الذي قتل الضبع الذي يحمله خلفه على ظهر حصانه. «رماه بالسهم من مسافة بعيدة.» كان الضبع ينتظر أن تخمد النيران بعد أن توقف الأربعة عن الحديث، لكن ضوء القمر بعد منتصف الليل كشف موقع الضبع، فتناوله جندب بقوس عمرو وتركه يتضرج في الدماء حتى الصباح، فقرروا أن يحملوه معهم الى هبرا، وذلك نزولاً عند طلب تيوثيوس.

تناولوا بعض الطعام واستحموا في بيت مُضيفهم الميسور جداً، كما تبين لهم، والشاكر للصدف التي أنقذته من فك الضبع. عندما انطلقوا إلى المهرجان وجدوا أن خادم تيوثيوس قد وفر لهم خيمة بين خيام القوم الأغنياء، وجلس هناك ليسهر على راحتهم. عاد جندب قبل العصر إلى الخيمة ليجد بطرس وعمراً قد أفاقا من القيلولة والمضيف قد وصلهما للتو، فعرفهم جميعاً على ميجستريا: «بنت جيران لأخوالي في غزة.» قال لهم، وشرح أنهما تقابلا بالصدفة، وأن عائلة ميجستريا هنا منذ أيام وسيعودون غداً إلى غزة. لم يخبرهم بانبهارها به حين سمعت أناساً يشيرون إليه كقاتل للضبع، وأنها هي التي بادرت بالتعرف إليه.

«طالما أنكما جيران، فيمكن أن نسافر معاً صباح الغد إلى غزة، أما بقية اليوم والليلة فعلينا استكشاف هذا المهرجان.» قال عمرو من دون أن يغض بصره عن الفتاة. كان شعرها مجعداً فاحم السواد، وعيناها زرقاوين، وحواجبها

معقودة تحتها رموش طويلة في وجه جميل وتعابير لم تنتقل تماماً من الطفولة إلى الأنوثة. كانت على الأغلب في عمر جندب، لكن البنات تبدو أنضج من الفتيان في تلك المرحلة.

«سأعرض الأمر على أبي، سيكون مسروراً لمرافقتكم.» قالت بنعومة هادئة واثقة وهي تسحب قماش فستانها على رقبتها وتغطي جزءاً من صدرها. كانت حركة وقائية تلقائية لا تغير من واقع حال أن فستانها مربوط من جهة واحدة وأن كتفها الآخر عارٍ، لكن عمراً تحول بنظره إلى جندب المجاور لها. شرحت لهم أن عائلتها كانت في زيارة سياحة وعمل، وأن والدها اشترى خموراً ومنتجات أخرى للعنب، مثل الزبيب الجاف، ومربى العنب، وألواح العنابية الجافة، وستنطلق المسيرة في اليوم التالي إلى غزة.

8

خلال مسيرة الأيام الثلاثة من هبرا إلى غزة تعززت العلاقات بين جندب وميجستريا إذ كانا على الدوام في نهاية المسيرة حيث يتلاصق رأسا بغليهما معظم الوقت، ولا يكفان عن الكلام. حيناً يحدثها عن الفترة التي قضاها في مكة والطائف، أو عن زيارته للقسطنطينية، وحيناً يستمع إليها تتحدث عن غزة، وتعلمها لعزف الموسيقى وزياراتها مع العائلة للمسرح. عندما وصلوا في عصر اليوم الأول إلى بيت جبرين، طلبت ميجستريا من والدها أن يبيتوا هنا بدل مواصلة الطريق إلى تل لاشيش، حيث من المقرر أن يقضوا ليلتهم هناك. استجاب والدها لرغبتها بهدر ساعتين من مسيرة النهار، وأخبرته أنها تريد زيارة مغارات بيت جبرين مع جندب، وأنهما سيعودان قبل غياب الشمس. تملكتها رغبة أن تختلي بصديقها، لكن والدها أرسل معهما مرافقاً. كانت المغائر مقابر منذ عهود مضت وتضم قوارير فيها رماد الموتى. على باب المغارة الأقرب لبيت جبرين نزل الثلاثة عن بغالهم، وطلبت من المرافق أن يهتم بالدواب بينما اتجهت هي وجندب إلى المغارة التي أخذ مدخلها ينخفض حتى تطلب منهما الحبو على أربع. تبعها مطمئناً لكونها تعرف الطريق، وعندما كاد رأسه أن يلامس مؤخرتها تذكر احتمالات أن تواجههما عقارب أو ثعابين، فتباطآ طلباً للحذر، وحجباً للشهوة. لم يحبوا لأكثر من بضع أقدام أخرى، فإذا بهما في

مغارة اتضح لهما، بعد إشعال شمعتين، أنها على شكل جرس كنيسة، وتزينها رسوم زاهية الألوان وتحتها كتابات قديمة يبدو أنها أسماء وتواريخ للموتى. تقدموا في المغارة فإذا بهم يصلون عبر دهليز إلى مغارة أخرى مشابهة، ثم ثالثة ورابعة حتى تأكد جندب أنها مُغر من صنع البشر.

اقترب بالشمعة في يده اليمنى من الجدار ليتفحص الصخور، فشاهد أنها بيضاء سهلة النحت. استدار ليخبر ميجستريا فإذا بصدريهما يتلامسان. ضمته بذارعيها، فأطبق هو الآخر عليها وأصبحت الشمعتان خلفهما. شعر بنبض قلبها، وأخذ صدرها يصعد ويهبط بسرعة وارتبك صوتها فلم يفهم ما تقول، ولكن أنفاسها أحاطت برقبته، وشعر بسرعة تدفق الدماء في أطرافه. لم يكن جندب قد عاشر النساء من قبل ولم يكن ملماً بأي تفاصيل، ولم تكن هي أيضاً صاحبة أي خبرة بالرغم من جرأتها ومبادرتها بالضم ثم الانتقال إلى التقبيل. ارتعب عندما فقد السيطرة على حركات جسمه، وخجل حين شعرت به ينتفض. أرخى يديه عن خصرها فتجاوبت معه وانفصلا من دون أن يتحدثا. خرجا من المغارة وهما مطمئنان أن أمامهما ليلتين أخريين على الطريق، وأياماً مقبلة في غزة، وعمراً طويلاً. عندما وصلا إلى البغال تعمد عندما شرب من القربة أن تتساقط مياهها لتغرق صدره وأسفل بطنه. في تلك الليلة لم يفترق عن عمرو وشروحاته، ولم يكف عن الأسئلة وتكرارها حتى ظن، من أجوبة عمرو وشروحاته، أنه أصبح يعرف كل شيء عن النساء والنكاح.

طوال اليوم الثاني من المسيرة كانت تحدثه عن موقع بيتهم من حارة أخواله، وعن ظنها أنها شاهدت والدته، وسألته عن تفاصيل ما ذكر لها بالأمس عن قصة إعادة بناء الكعبة، وبيت الأصنام، ومقر الحية الرهيبة في

البئر. شعرت بأنه تعب من الحديث ومل من محتواه، فسألته إذا كان يناسبه أن تحكي له قصة غزاوية، فوافق.

«كانت هناك عائلة طيبة تسكن ريف غزة، خارج السور، ولهم جار يعتبر نفسه ذكياً. ذات يوم فكر هذا الجار أن يحتال على الجارة. بعد خروج الزوج للفلاحة، تخفى الجار في ملابس بياعين وغير ملامحه، وصار ينادي أمام بيت جيرانه: أنا بياع أسامي! اللي بدها إسم جميل! أنا بياع الأسامي.» قالت ميجستريا بدلال وهي تروي وتنظر إلى وجه جندب محاولة تلمس ما يفكر فيه.

«هذه قصص عجائز على ما يبدو.» قاطعها وقد وضع ساقاً فوق السرج وترك الأخرى متدلية، وعدل ظهره حتى لا يصاب بآلام من طيلة الجلوس.

«قلت إنك تريد سماع الحكاية، وهذه حكم وليست قصص عجائز.» ردت بنبرة خلت من الدلال أو الغضب، فسكت وأومأ لها أن تكمل.

«كانت الجارة تخبز في الطابون، فتركت عملها عندما سمعته وخرجت لترى ماذا يبيع المنادي.» أكملت ميجستريا، وأظهر جندب الاهتمام، فقد صار يريد إبعاد أفكاره عما حدث مساء الأمس في المغارة.

«ماذا تبيع يا عمي؟»

«أبيع أسامي جميلة، ما هو اسمك الحالي لنرى اذا كان يناسبك أم لا؟»

«إسمي فلاكس.» قالت له باعتزاز.

«فلاكس! هذا اسم حديدة لقطع الزرع، أنت بحاجة إلى اسم أنثى، كيف قبلت بهذا الاسم حتى الآن؟ من يقبل أن يُسمى منجلاً؟ أهلك ضحكوا عليك.»

«طيب يا عمي بيعني إسم حلو، لكن ما هو الثمن؟» سألته بعد أن شككها

في إسمها. قالت ميجستريا وكانت طوال الحديث تمثل شخصية الجار والجارة، ثم تعلق بأسلوب الراوي.

«الاسم الجيد يساوي رأس بقر.» أخبرها الجار المتنكر كبياع، وهو يعلم أن لديها في البيت بقرتان تستعملان في مواسم الحراثة.

«موافقة إذا كان الإسم جميلاً.»

«أسميك أناستازيا، المنبعثة.» قال البياع وطلب منها أن تترك عملها المنزلي وتستحم وتلبس ثياب الأفراح، وتجلس على أحسن فراش في البيت بعد أن تغلق الباب الخارجي للدار بالمفتاح. «حين يعود زوجك إلى المنزل وينادي عليك باسمك القديم فلا تجيبي ولا تفتحي الباب إلا حين يقول أناستازيا افتحي الباب.» استفسرت لماذا المنبعثة، فأخبرها أن الإسم الجديد يعني التجديد والانبعاث من بعد الموت. وافقت على قوله، ورضيت أن يكون انبعاثها الآن، وسلمته البقرة ونفذت ما أخبرها وجلست شامخة على الفراش.

عاد زوجها من الفلاحة، وكانت الأمطار تنهمر، نادى عليها عندما وجد الباب مغلقاً فلم ترد عليه. صارت المياه تهطل من ملابسه، وصوته يرتفع منادياً، حتى يئست زوجته من تعرفه إلى اسمها الجديد ففتحت له الباب. «لا تناديني فلاكس، اسمي أناستازيا، المنبعثة.» رغم حاله المزري سألها الزوج عن سبب هذا التغيير، فأخبرته بما فعلت.

«طيب يا أناستازيا، المنبعثة والمتجددة، أنا لن أدخل البيت الذي أنت فيه، إلا إذا بحثت ووجدت أناساً مجانين كثراً مثلك، حينها سأعود مغلوباً على أمري.» استدار عن الباب وسار إلى المدينة حتى وصل إلى قبور النصارى خارج الأسوار. جلس بين شاهدين وانتزع ثالثاً ووضعه فوقهما ليحتمي

من المطر. في صباح اليوم التالي سطعت الشمس، فخلع ملابسه كلها حتى تجف، وإذا بمجموعة سيدات حضرن لزيارة القبور فشاهدنه عارياً. بعضهن زوجات شابات فقدن أزواجهن، وغيرهن فقدن أخوة أو أبناء أعزاء.

«يا لسوء حظه.» علق جندب وهو يتأمل ميجستريا التي انغمست تماماً في الرواية.

«ماذا تفعل هنا، وهل أنت إنسي أم جني؟ »

«الرب يستر عرضكن يا أخواتي استرن علي.» أجابهن وأضاف إنه خرج من القبر للتو وحضر ليبشرهن بأن أموات النصارى سوف يعودون غداً. «لكن لا ملابس أو نقود لديهم، وقد أرسلوني لأخبركن بذلك، وقالوا إنكن ستعرفن ماذا ستفعلن.» ثم أكد لهن أهمية عدم إخبار أي شخص آخر الآن. اتفقن معه أن ينتظرهن ريثما يذهبن إلى بيوتهن لإحضار المطلوب، وانطلقن ركضاً. بعد وهلة قصيرة عادت الإناث محملات بصرر الملابس والطعام، وبعضهن جلبن معهن حلي بناتهن أو أخواتهن الميتات. أخذ ما حملن وأخبرهن بالحضور صباح اليوم التالي هنا لاستقبال المنبعثين. «ستجدونهم هنا لابسين وبانتظاركن.» في اليوم التالي عدن إلى المكان المتفق عليه في المقبرة، وطال انتظارهن دون جدوى، فقررن إخبار رجالهن وأقاربهن بما كان. ركب هؤلاء حميرهم وخيولهم وانطلقوا يطاردون العريان ويسألون كل من واجههم إذا صادف رجلاً يحمل صرر ملابس.

عندما شعر الفلاح، زوج أناستازيا، باقترابهم منه، أخفى الصرر في مغارة، ووقف ينتظرهم. «هل رأيت رجلاً يحمل صرر ملابس؟» سألوه، فأخبرهم أن الرجل الذي يبحثون عنه قد صعد على قدميه إلى التلة الموحلة. هموا

باللحاق به، فأخبرهم أن الدواب لن تتمكن من الصعود لأن الطريق موحل، وأن جزمهم ستضيع في الطين كما ضاعت جزمته وهو نازل من هناك. ربطوا الدواب وخلعوا الأحذية وباشروا في المطاردة بينما الفلاح يؤكد لهم بأن حامل الصرر ليس ببعيد كونه شاهده قبل فترة بسيطة.

«سأبقى عند دوابكم وأحذيتكم حتى تعودوا فلا تقلقوا.» طمأنهم، فشكروه وأسرعوا يطاردون هدفهم. ما إن أداروا ظهورهم حتى جمع أحذيتهم وسحب دوابهم وحملها الغنائم من المغارة واتجه بها الى الجنوب. لم يعد بوسعه الآن دخول غزة لأن الحفاة سوف يبحثون عنه فيها بالتأكيد عندما يتعبون من المطاردة ويكتشفون الحيلة. بعدما قطع الوادي شعر بالجوع إذ لم تدخل معدته أي أطعمة منذ هجر المنبعثة أناستازيا. شاهد فلاحاً يحرث الأرض، فاقترب منه ثم خاطب دابته «هيش، يلعن أبو صحابك، لو واحد أطعمني شوربة عدس بدلك لرضيت.» سمعه الحراث، فطلب منه الانتظار ليحضر له شوربة العدس ويبادلها بالدابة.

انطلق الحراث ركضاً إلى زوجته في المنزل، طلب منها أن تعمل شوربة عدس، وأخبرها بالقصة. «حصان مقابل طبخة عدس، هذه رزقة من السماء.» قال لزوجته الحامل، ثم طلب منها حبلاً ووتداً ليحدد مكاناً يربط فيه الحصان ويجرب إذا كان سيصيب أي واحد يمر من خلفه. دق الوتد في الأرض وربط الحبل في رجله، وطلب من زوجته أن تمر من خلفه. رفسها برجله الأخرى للاختبار فإذا بها منبطحة على الأرض ودمها تحتها. «الآن تمرضي، خليك عندما أعود بالفرس سأرى ما نفعله.» ترك زوجته وقد فقدت الجنين، وحمل طبيخ العدس وعاد مسرعاً حيث ترك الثيران والمحراث وجائع العدس. لم

يجد زوج أناستازيا أو الثيران أو أي دابة. عثر على المحراث وقد ترك الزائر غائطه على قمته. حك رأسه وقال: «ما قاهرني إنه ضحك علي أو أخذ الثيران، أو الزوجة طرحت، لكن كيف طلع على رأس المحراث وعملها هناك؟»

«يا أناستازيا، يا زينة غزة، لقيت مجانين، مثلك لا يعدون، افتحي الباب.» فتحت الباب لزوجها العائد بالغنائم وتركته يقبلها على جبينها بعد أن تقبل جنونها، ثم عادت وجلست على الفراش وكأنها عروس في ليلة الدخلة.

«طلع زوج أناستازيا أذكى من كل نساء ورجال غزة.» قال جندب بعدما انتهت الرواية.

«صح أذكى لأنه عاد إلى زوجته، وبدأ معها حياة جديدة لكل منهما فيها شخصيته.» ردت عليه ميجستريا، فسرح ذهنه بعيداً وتأكد أن ما أخبره به عمرو لا يتعدى بعض معلومات عن المضاجعة، أما الإناث فهن سر لا يعرفه إلا خالقهن. تنبه لصوت عمرو يناديه من مقدمة القافلة، فاستأذن من رفيقته بحركة من رأسه وحث البغل على الاستعجال إلى الأمام.

عندما أدركهم جندب سمع والد ميجستريا يقول بعربية ركيكة ثم يترجم لليونانية: «أهل المدينة جاء إيمانهم متأخراً.» ثم أكمل بعد لحظات ترك خلالها مستمعيه ينتظرون التفسير لهذه الظاهرة: «كان الغزيون يؤمنون بقوة بإلههم زيوس، إله المطر، ويعتقدون بجوبيتر بلوفيوس، ووضعوا صور آلهتهم على النقود. هذه العقيدة كانت أشد خصوم النصرانية منذ البداية في كل مكان، وفي غزة كان الكفار أشد بأساً. هكذا مر قرن من الزمان بين تبني سكان الميناء ومحيطها للنصرانية وتبني سكان مدينة غزة لديننا.»

«طبعاً نشبت حروب بين أهل الميناء وأهل المدينة؟» سأل عمرو مُحدثهم.

«ليس في السنوات الثلاثين الماضية، ولكن قبل ذلك، فقد حدثنا الأهل عن حرب أهلية طويلة كانت تشتعل حيناً وتهدأ حيناً آخر. أعتقد أن هذا الأمر قد حدث في كل البلدان.»

«وما زال يحدث في كل البلدان، بل أشد العداوات وجدت بين طوائف النصارى أنفسهم حتى الآن، وقد قتلنا من بعضنا أكثر مما قتل الكفار.» علق بطرس على حديث التاجر، وشرد ذهنه إلى أحوال الإسكندرية ومصر، وقرر أن يخبر رفيقيه بما يدور هناك قبل أن يفاجئهم الوضع.

«عموماً أخذت غزة تعويضات ودعماً من كل الأباطرة، قبل انتشار النصرانية وبعدها، كونها أهم مدينة وميناء في جنوب فلسطين.» وأضاف التاجر بعد أن شعر بالحيرة بين مستمعيه عن سبب الإغداق على غزة: «كان لدينا منذ مئات السنين وحتى الآن مجلس شيوخ يضم خمسمئة عضو من النشطاء وأصحاب الدراية في جلب الدعم. كما أن تنوع سكان المدينة يجلب لها الخير، فمنا الفلسطة، والكنعانيون، والفنيقيون، والإغريق، والرومان، واليهود، والفرس، والبدو. هذا الأمر بحد ذاته مصدر رزق وغنى للمدينة، فكل فئة لديها مزايا ومهارات تتحول إلى نقود وخيرات. لذلك لا غرابة أن الإمبراطور هيدريان زار غزة عام مئة وثلاثين وافتتح المسرح وحضر حفلات مصارعة وملاكمة واستمع إلى مباريات الخطب الرنانة التي يشتهر بها أهل بلادنا.» كان التاجر يبحث في جيبه أثناء الحديث ثم أخرج قطعة نقود معدنية عليها رسم لهيدريان وعلى الوجه الآخر مارناس، إله غزة المحلي في عهد الإمبراطور هيدريان. تناقلت الأيدي القطعة المعدنية حتى عادت إلى صاحبها.

«لم أشاهد آثاراً للديانات الأخرى عندما تجولت في الميناء وفي غزة قبل

سفري إلى بيت المقدس.» قال بطرس طالباً تفسيراً، فأخبره التاجر أن غزة كان فيها معابد كثيرة متنوعة بقيت لعقود طويلة بعد بدايات النصرانية التي انتشرت في غزة منذ عام 250 بعد ميلاد المسيح. في عام 402 نشط الأب بيبيروس في تعميم النصرانية فأمر بهدم كل المعابد في غزة، وقد دعمته الإمبراطورة إيليا أيدوكيا لاحقاً، فأمرت ببناء كنيسة ضخمة فوق معبد مورناس، وكان هو المعبد الأهم في غزة. هكذا فالنصرانية هي الطاغية الآن على الجميع، ولا يوجد لليهود سوى كنيس صغير، أما الوثنيون فلا وجود رسمياً لهم أو لأصنامهم ومعابدهم.

«إيليا أيدوكيا، إمبراطورة شهيرة في تاريخ بيزنطيا، وهي يونانية أصلاً، وابنة فيلسوف.» قالت ميجستريا التي انضمت إلى المجموعة في مقدمة القافلة، ثم نظرت إلى جندب وأكملت: «بوسعك مطالعة الكثير عنها في مكتبة الإسكندرية.» وافقها بإيماءة من رأسه ولم يعلق أو يدقق النظر فيها حتى لا تفضحه نغمته أو نظراته أمام والدها. لقد صار يشعر بشوق واندفاع إليها، ولكنه غير متأكد من موقفها الآن بعد أن أحجمت عن الاندفاع الجسماني نحوه من دون أن تكف عن التقرب إليه وملاطفته لفظياً.

«كلامها صحيح يا جندب، فلا بد أن تمكث طويلاً في الإسكندرية حتى تراجع بعض ما تضمه مكتبتها، فهي الأكبر والأشمل في كل العالم.» قال بطرس وهو يوزع نظراته بين جندب وميجستريا ويحث حماره على مجاراة بقية الدواب.

«وهل زرت مكتبة الإسكندرية؟» وجه جندب السؤال إلى ميجستريا بأسلوب حيادي إلى درجة يمكن تفسيره بعدة أشكال. لكن والدها أسرع بالإفادة أنها ذهبت معه إلى الإسكندرية، وزارت المكتبة مراراً.

«لقد سافرنا على إحدى سفن الكنيسة المصرية من غزة إلى الإسكندرية.» قالت ميجستريا، ثم تدخل بطرس موضحاً أن للكنيسة القبطية ثلاث عشرة سفينة تبحر بالتجارة بين الإسكندرية وغزة وصقلية وموانئ البحر الرومي وحتى بريطانيا، وقال: إن الكنائس الأخرى لديها سفن تجارية أيضاً، ولكن القبطية هي الأغنى إذ لدى البطريرك ثمانية آلاف رطل من الذهب.

«هذه كمية ضخمة من الذهب.» تمتم عمرو وقد رفع حاجبيه وارتسمت على وجهه علامات الاستغراب، ثم سأل كيف جمعت الكنيسة القبطية كل هذا الذهب؟.

«مصر بلاد شاسعة وكثيرة السكان وبالطبع الكنيسة غنية لأن معظم السكان أقباط، هناك طوائف نصرانية أخرى، وأجناس متنوعة ولكنهم أقليات.» قال بطرس، ثم شرح نظام الضرائب على الفلاحين وأخذ الكنيسة نصيباً منه، وتحدث عن التجارة الداخلية والخارجية والنقل البحري الذي يدر أموالاً إضافية على الكنيسة.

«يفترض في الكنيسة أن توزع ما يفيض عن حاجتها على الناس المحتاجين، أو تعمر الطرقات والمزارع والبيوت.» قال عمرو بصوت منخفض وكأنه يفكر بصوت مسموع، ثم أضاف «أي نظام أو ديانة لا توزع الثروة على الرعية ستواجه الثورة ولن تصمد، أو تطاع أو تُتبع.»

«الإمبراطورية والكنيسة تعتصران الفقراء والأغنياء، الكنيسة غالباً ما تكدس الأموال، بينما الإمبراطورية تنفق على الجيوش والحاشية، والمتنفذون فيها يكسبون أموالهم بالفساد، وما أكثر طرقه.» قال والد ميجستريا بنغمة الواثق والمطلع على مجريات الأمور. أثنى عمرو على هذا الرأي مؤكداً أنه

لا يجوز لإمبراطورية أو ديانة أن تتقبل غنى ورخاء أفراد ومدن ومناطق معينة وفقر غالبية المواطنين وبقية المناطق التابعة للإمبراطور أو للديانة الواحدة.

«هذا هو سر صعود وسبب سقوط الإمبراطوريات والديانات حتى الآن، وعلى الأرجح لن يتغير هذا الأمر في المستقبل. يمكنك أن تظلم وتقهر أو تتحايل على الناس لفترة، ولكن بعد زمن تتكشف العورات وتحدث الانقلابات أو الثورات.» كان البعض يستمعون إلى بطرس ويعلنون تأييدهم بحركات أجسادهم. لكن جندباً أخذ يحرك رأسه تلقائياً يسرة ويمنة ويمط شفتيه من دون أن يعرب عما يدور في خلده هذه اللحظة. فكر في والده وغرقه في البحر أثناء مهمة لنقل مواد لبناء كنيسة، أي إنفاق أموال من الإمبراطور لتعزيز الدين في منطقة بعيدة جداً عن القسطنطينية، ثم تشتت ذهنه بين والدته التي تنتظره في غزة، وبين معنى رحلة والده مما يتحدث به رفاقه. اطمأن قليلاً حين تذكر أن خادمهم قام بإبلاغ الوالدة بما جرى لوالده، وظن أن الزمن الذي مر بعد معرفتها بالأمر، ووجودها بين أهلها سيهون عليها الذكرى حين تلقاه.

«يبدو أنك من القساوسة الملكيين يا بطرس.» قال والد ميجستريا، وعندما لم يسمع نفياً استكمل حديثه: «بلادكم تعاني من الاقتتال الديني منذ عقود، وبصراحة فإن الأقباط يعيشون مضطهدين في بلادهم من أخوتهم في الدين المدعمين من الإمبراطور، وحسب كلامك فإن نهاية الإمبراطورية ستكون قريبة في مصر!»

«هم يرفضون التعايش والاستجابة، ويحرضون على الثورات...»

«الإمبراطور هو الذي يلاحقهم ويرسل بطاركة بمسؤوليات عسكرية ويهاجمون المؤمنين وينفون قيادات الكنيسة القبطية إلى الصحراء.» قاطع

والد ميجستريا بطرس بهذا الكلام بينما البقية تنبهت حواسهم لهذا الحديث المتصادم بهدوء.

«لقد رفضوا تقبل لغة الإمبراطورية، ورفضوا توصيات المجمع الخلقدوني، وينشر قادتهم رسائل تحرض على العنف ضد سلطات الإمبراطورية، لو تعايشوا لعاشوا بأمان.»

«العنف يا بطرس لا يحل مشاكل.» قال جندب لرفيقه وواصل: «لماذا لا تتركهم الإمبراطورية يتعبدون كما يشاؤون، ولماذا يُعمد اليهود، بينما لا يُكره أحد الملحدين على اعتناق المسيحية؟»

«لقد قتل الأباطرة نصف المصريين في أقل من قرن وخربوا البلاد...»

«قتلهم الطاعون...» أسرع بطرس بالدفاع مقاطعاً والد ميجستريا «..والفقر والتخلف، بل هم الذين قتلوا نصف سكان الإمبراطورية.» لم يعترض أحد ولكن ارتفعت الحواجب بانتظار التفسير. «لقد بدأ الطاعون في مصر وانتشر على ضفاف البحر ووصل إلى القسطنطينية حيث كان يموت في اليوم عشرة آلاف، وذات يوم مات ثلاثون ألفاً.» لم يكن جندب وعمرو قد تعرفا إلى توجهات بطرس الدينية قبل ذلك، ولم يكن عندهم إلمام بالوضع المصري، فقررا، دون اتفاق، سحب المعلومات من بطرس ووالد ميجستريا عبر أسئلة استطلاعية غير اتهامية. عرفا أن الطاعون، الذي لم يصل أبداً إلى جزيرة العرب الصحراوية، قد خرج من مصر في عهد قسطنطين، وأن الجرذان أخذت تنقله عبر مدن وقرى الإمبراطورية، وأينما حل كان يقتل حوالى نصف السكان، بل إنه عندما انتهى من القسطنطينية عاد إليها مجدداً في عام 579 وخصصت الإمبراطورية قاضياً كبيراً وموظفين للإشراف على نقل الموتى براً وبحراً

ودفنهم في مقابر جماعية. كما أصيبت الإمبراطورية أثناء القرن المنصرم بزلازل وفيضانات وثورات داخلية وهجمات حربية من الفرس والبرابرة عبر حدودها. لقد أدت الكوارث إلى نقص البشر والضرائب والعمال والمجندين إلى درجة تجنيد مرتزقة برابرة رغم شح المال. غاليا وإيطاليا وأفريقيا ضُربت هي الأخرى بالطاعون آنذاك، بل إن نقص سكان إيطاليا وجيوشها تسبب باحتلال البلد من قبل اللمبارد. عموماً اضطرب الأمن وانهار النظام في كل المدن والبلدان المصابة وانتشرت المجاعات، وعندما هدأت الأحوال كان سكان الريف قد هربوا إلى المدن للحماية داخل الأسوار. كانت آخر موجة طاعون قد حلت في أواخر عهد الإمبراطور السابق موريقي.

ما عرفه عمرو أيضاً أثناء الرحلة إلى غزة أن كل الأباطرة من قسطنطين الأول الذي توفي عام 565 مروراً بقسطنطين الثاني ثم طيبيرياس ثم موريقي ثم الإمبراطور الحالي، فوقا، قد اضطهدوا الأقباط في مصر، وأن هؤلاء لم يستسلموا رغم المذابح والاستيلاء على كنائسهم وتشتيت قياداتهم الدينية المنتخبة إلى الصحارى، والعيش بين القبور في المعابد الفرعونية. كل الأباطرة ساندوا بشدة البطريرك المعين من القسطنطينية. بالطبع لم تكن الأمور بنفس الحدة دوماً، كانت الخلافات بين القسطنطينية والإسكندرية أثناء عهد قسطنطين الثاني وطيبيرياس أرحم مما هي أيام موريقي والآن، وهكذا ثار المصريون قبيل سنوات أيام فوقا، وقاد الثورة مينا وأخواه أبو شقيرون ويعقوب، وهزموا قوات بيزنطيا بالفعل، وهنا لجأ فوقا إلى الحيلة، فأرسل لهم بطريركاً جديداً، أيولوجيوس وهو من أصل سوري، وأعلن أن هدفه هو الحوار والتفاهم، ولكنه أوصاه بضبط رؤوس الثورة وقتلهم، وقد تخطى

البطريرك التعليمات إذ هوجمت الكنائس وقتل روادها وهرب كل القساوسة القبط وباشروا التواصل مع الرعية عبر رسائل هن بردي وفخارية، ولايزال الوضع مضطرباً حتى الآن بعد أن أفشل أيولوجيوس محاولات التهدئة، وبث الأخبار الملفقة للإمبراطور بأن البابا المنتخب يعقد اجتماعات ويعارض مقررات خلقدونيا.

هكذا هي الديانات، تخلق الطوائف والتحارب فيما بينها، فقد تقاتل اليهود مع بعضهم ومع غيرهم، والآن النصارى يكررون القصة.

9

كان جندب أكثر انشراحاً من عمرو طوال الرحلة البحرية من غزة إلى الإسكندرية، فقد ارتاح للوضع الذي وجد فيه والدته، وهو متشوق الآن إلى الدراسة في مكتبة الإسكندرية لفترة طويلة من الزمن، وعندما تسيطر ميجستريا على أفكاره، يتذكرها كما شاهدها وهي تلوح له مودعة في الميناء بثوبها الأبيض المزين بمستطيلات مذهبة وقد التف حول قوامها بينما شعرها تتلاعب به الريح. أما عمرو الذي تردد في ركوب البحر، فكان نادماً على ترك بعيره عند أخوال جندب إلى حين مروره بغزة عائداً إلى بلده. «سيشغلونه قليلاً بدل إطعامه والعناية به.» قال جندب لرفيقه وسأله عن مدة مكوثه في مصر.

لقد انزعجا مما سمعاه حول الوضع في مصر من والد ميجستريا أثناء الرحلة من هبرا إلى غزة، ولكن بطرس أكد لهما أثناء الإقامة في غزة أن الأمور ليست بذلك السوء وأقنعهما أن الظروف متغيرة وربما ستكون أفضل حين وصولهما إلى الإسكندرية. كان موقف بطرس مخالفاً تماماً لما قيل، فهو من المؤيدين للسياسة الإمبراطورية منذ صغره، فقد نذره أبوه كهدية إلى الكنيسة إذا تعافى من مرض أوشك أن يودي بحياته، وعندما أوفى الأب بنذره، أرسلت الكنيسة بطرس الصغير ليخدم متنقلاً بين الأديرة. كان حظه أفضل من غيره من الذين يقدمهم أهلهم للكنيسة كخدم، فقد تمكن من التعلم والتدرج حتى

أصبح قساً. كل الذين يرسلهم أهلهم إلى الكنيسة يصبحون ملكاً لها حسب توثيق مصدق، وإذا ورثوا شيئاً من أهلهم يصبح من حق الكنيسة، وإذا تزوجوا وأنجبوا، تلاقي زوجاتهم وأبناؤهم المصير نفسه.

«لن أبقى في الإسكندرية طوال فترة الزيارة، أحبذ التجول في وسط البلاد وربما جنوبها، ثم أعود إلى البعير وننطلق إلى مكة عبر بترا.» قبل أن يعلق جندب على حديث رفيقه ويعرب عن قلقه لأن هذا الطريق صعب وخطر الآن، انطلق بطرس في ترغيب عمرو بالمكوث فترة طويلة في الإسكندرية، ثم اقترح عليه التجوال في البلاد بواسطة مراكب النيل التي تربط أقصى الجنوب بالإسكندرية.

«سوف أساعدك في الحصول على تصاريح للتنقل بين مقاطعات البلاد.» نظر عمرو وجندب إلى رفيقهم بانتظار توضيح لكلامه، فأضاف بطرس: «مصر الآن أربعة أجزاء، والتنقل بينها يحتاج إلى تراخيص وموافقات وذلك لمنع تسلل الثوار من منطقة إلى أخرى.»

في اليوم التالي لوصولهم إلى الإسكندرية ترك عمرو وجندب أسلحتهم في بيت مضيفهم، وخرجا يتمشيان مع بطرس ليتفرجا على بلد الإسكندر الصاخبة على شاطئ البحر الرومي. شوارع مرصوفة بالحجارة تسير العربات والدواب في وسطها، والبشر على طرفيها حيث الأسواق في محلات متراصة ومستقلة ونظيفة، وبائعون وبائعات يدعون المشاة إلى الشراء. فوق المحلات بيوت من عدة طوابق تتصل ببعضها عبر سلالم داخلية. روميات بملابس زاهية ينزلن من عربات تجرها الخيول وخلفهن غلمان أو جوار. كان ذهن عمرو يلاحق عينيه ويردد أين هي المشكلات والثورة، وأين كل ذلك من مكة.

وصل ثلاثتهم إلى ساحة كبيرة بين البحر والعمران وتقع على مقربة من منارة الإسكندرية التي أرشدت بضوئها مركبهم حين وصلوا في الليل إلى الميناء. تجمع غفير كبير من الناس، وكان الكبار من الإناث والذكور يتلاقطون كرة فيما بينهم، بينما الصغار يتفرجون ويهللون. كلما التقط أحدهم الكرة أعاد رميها أينما شاء. شرح لهم بطرس أن أهل الإسكندرية يتجمعون هنا مرة كل عام لهذه اللعبة، وأنهم الآن يتدربون قبل الرمية الرئيسة. من يلتقط الكرة بيديه قبل أن تسقط على الأرض سيكون أحد حكام الإسكندرية في المستقبل. اشترك جندب وعمرو وبطرس في اللعبة بينما الإسكندريون يضحكون وينكتون. أعلن عن نهاية التدريب واستعد الجميع للرمية الحاسمة من يد بطريرك الإسكندرية، الذي أمسك الكرة بيده ودار حول نفسه مرتين وقذف الكرة فإذا بها تحط بين يدي عمرو. ضج الحضور بالضحك كون أجنبي أعرابي أمسك بالكرة، وقال بعضهم إن الفرصة معدومة لهذا الشخص وطالبوا بإعادة الرمي، لكن البطريرك رفض وتمنى لهم حظاً أطيب في العام المقبل. كان الجميع يعرف أنها مجرد لعبة وتسلية سنوية، كما أن أياً من الفائزين في الأعوام الماضية لم يحكم الإسكندرية حتى الآن. «إنها فأل خير» قال بطرس وأيده جندب، فوعدهما عمرو بمراكز مرموقة إذا حكم الإسكندرية.

قبل أن يستجيبا لطلب بطرس بالسير إلى الحي الشرقي في المدينة، أصرّا على معرفة السبب الذي سيبعدهما عن هذا الاحتفال والجمال والفرح في عيون الصغار والكبار. «سأريكما عجيبتين لم تريا مثلهما.»

«هذا الاحتفال ليس بالشيء العادي يا بطرس.» قال عمرو، وقد استجابا لبطرس وسارا معه باتجاه الشمال الشرقي في شارع معبد عريض ترتفع الأعمدة

على جانبيه، ولا تتوقف فيه حركة العربات والخيول التي تنقل أصحابها، أو الحمير التي تحمل الماء أو الخضار أو الخبز، البياع ينادي على حمولته، فينزل إليه الخدم يشترون ويصعدون إلى بيوت مخدوميهم. بعض النسوة كن ينادين على البياع من الشرفة، وينزلن سلة مربوطة بحبل، فيأخذ البياع النقود ويضع المطلوب في السلة لتسحبها السيدة مجدداً من دون تحمل عناء هبوط السلالم وصعودها. «هذه هي العجيبة التي سترينا إياها، نساء يسحبن السلال؟»

«هذا شيء منها يا عمرو.» بعد وهلة من إجابة بطرس أطلوا على ساحة مجاورة للمسرح وتتوسطها مسلة عالية. تبعت أعينهم حركة رأس بطرس إلى أعلى ليشاهدوا رجلاً نحيفاً جالساً في أعلى المسلة. «هذه هي العجيبة.» وقبل أن يستغربوا من اعتبار وجود شخص على المسلة عجيبة أضاف بطرس: «هذا هو الصالح المشهور، ثيوفولس، إنه يرقد على رأس المسلة منذ خمس وعشرين عاماً حتى الآن.» نظر جندب وعمرو إلى بطرس مستهجنين ما سمعوه منه، فعاد وأكد لهم ما قاله.

«وكيف يأكل ويغوط ويتحمل الرياح والأمطار في الشتاء؟» كان جندب يسأل بينما الثلاثة ينظرون إلى أعلى في محاولة لاستبيان طرق صمود ثيوفولس في قمة المسلة. شاهدوا دائرة من القش تتوسطها فتحة يمر منها أعلى المسلة، ثم شاهدوا حبالاً تربط أطراف الدائرة بقمة المسلة المدببة، وبالتالي يمكن لساكن الفضاء أن يدور حول قمة المسلة ويحتمي بها من الرياح، أو ينام متكوراً فوق القش وحول المسلة.

«لكن لماذا يعذب هذا المعتوه نفسه طوال هذه السنوات؟» سأل عمرو وقد خفضوا رؤوسهم وتحركوا باتجاه أحد المقاعد الحجرية التي تحيط

بالساحة. لم يكن هناك إلا بعض الأطفال، فكل الإسكندريين يشاركون في الاحتفال السنوي بعيداً عن ثيوفولس.

«هكذا هو قريب من السماء.» قال بطرس وأجاب بالنفي عن سؤال جندب إذا كان الرجل نصرانياً. «إنه روحاني لا يتبع أي ديانة، ولكن السكان يحترمونه لصموده، والأغلبية تؤمن بامتلاكه لقدرات رؤية المستقبل.» سكت بطرس لوهلة ثم أكمل مفسراً «وهكذا يجد من يسأله، ويرسل إليه الطعام بالسلة، ويأخذ بقاياه بعيداً عن هنا كل ليلة.» نهض جندب وأخرج من جيبه قطعة نقدية، وتوجه إلى مسافة قريبة من قاعدة المسلة، وسأل ساكنها بصوت مرتفع بالإغريقية إذا كان الفائز في ضبط الكرة هذا العام سيحكم الإسكندرية فعلاً. ساد الصمت لهذا السؤال المفاجئ، وتقدم صبي كان يجلس على مقعد وهو ينظر إلى أعلى، ثم سار إلى حيث توقع أن تهبط قصاصة من ورق البردي، فالتقطها وسلمها إلى جندب بيد، ومد الأخرى ليتسلم الثمن، فأنقده جندب القطعة النقدية وعاد إلى عمرو وبطرس من دون أن يطالع ما في ورقة البردي.

«نعم، ولكن بعد حين.» ترجم جندب لعمرو ما كتبه ساكن المسلة كرد على سؤاله، وأعطاه ورقة البردي، فوضعها عمرو في كيس نقوده بعد أن تأملها وهو يكرر ما سمع من ترجمة جندب.

«لا تستهن بالأمر يا عمرو، فالكثير من نبوءات هذا العابد قد تحققت، والإسكندريون لا يمنحون ثقتهم لأي إنسان بسهولة، ولن تجد هنا من يهزأ من هذا الرجل.»

«بشارتان في يوم واحد، إنه يوم سعدك.» أثنى جندب على كلام بطرس.

«لنرى إذا كانت العجيبة الثانية ستؤكد لنا الأمر مرة أخرى.» قال عمرو

بين الجد والمزاح وقد نهض عن المقعد، فقام بطرس، واتجهوا إلى الميناء غير البعيد عن الساحة والمسرح. كان الوقت عصراً، ووصلوا إلى آخر اللسان الأرضي الممتد داخل مياه الميناء المغلق بسور من الشرق تليه فتحة في آخر الميناء تدخل منها السفن، ثم على جانب الفتحة ارتفعت الفارو، منارة الإسكندرية، على الطرف الشرقي لجزيرة في البحر ترتبط بأرض الإسكندرية عبر جدار في الماء. وهكذا فلا مجال للسفن إلى دخول الميناء إلا بمحاذاة الفارو. مكث الثلاثة بعض الوقت وحدثهم بطرس أن السفن التي تدخل إلى الميناء يتوجب عليها أن تحمل كتاباً على الأقل لمكتبة الإسكندرية، ومن لا يحمل كتباً كهدية لا يتم التعامل معه إلا في الظروف النادرة.

«العجيبة التي تريدنا أن نراها عن قرب هي الفارو التي أرشدتنا، أليس كذلك؟»

«نعم يا جندب» قال بطرس ثم أضاف: « سيتضح الأمر بعد قليل عندما تغيب الشمس، وتشتعل الأضواء في قمة المنارة لتهتدي بها السفن ليلاً.

«وهل تضاء كل ليلة؟»

«صحيح يا جندب، وذلك منذ أكثر من ثمانمئة وثمانين عاماً. لقد بناها عالم يوناني اسمه سوستراتوس في عهد بطليموس الثاني قبل 280 عاماً من ميلاد سيدنا المسيح.» كسب بطرس اهتمام صديقيه اللذين استغربا عمر الفارو كونها لا تزال تبدو من بعيد بحالة جيدة لا تدل على قدمها. بناء ضخم من عدة مستويات، السفلي به 300 غرفة لسكن العاملين في الفارو ومخازن للوقود، كما قال لهم بطرس الذي زار بناية الفارو سابقاً. «في أعلاها مرآة ضخمة عجيبة، مقعرة ويمكن أن تشاهد فيها صور السفن قبل أن تراها العين

البشرية. أما ضوء المنارة فتشاهده السفن ليلاً من مسافة سبعين ميلاً، لأن ارتفاعها عن سطح البحر يعادل 120 متراً.»

«إنها تحتاج إلى حطب لا يمكن أن توفره كل أشجار الجزيرة العربية.» قال عمرو بعد أن حاول تخيل الكمية اليومية المطلوب إحراقها، ثم حجمها طوال تلك السنوات والقرون. «ومن ينقل هذا الحطب إلى ذلك الارتفاع كل يوم؟»

«عشرات الحمير تصعد على الطريق الحلزوني محملة بالحطب، وهناك من يفرغ حمولتها ويرسلها عائدة إلى أسفل لتجد من يحملها ويوجهها إلى القمة مجدداً.» رفع الثلاثة أعينهم إلى أعلى بينما بطرس يحدثهم بما يعرف، ولم يكن من السهل عليهم رؤية أي حركة لحمير من مكانهم على طرف الميناء. لكن جندب تنبه إلى وجود تمثال فوق المنارة، فأخبره بطرس إنه تمثال إيزيس ربة الفارو «إيزيس فاريا.»

«إنها أجمل من آلهتنا.» قال عمرو تلقائياً، وتذكر ذا الشرى، الذي يشبه شكل الكعبة، واللات والعزى ومناة وكلها قريبة من شكل الإنسان ولكنها تُصنع بدون دقة وجمال، بينما آلهة المصريين عبارة عن أصنام دقيقة التفاصيل زاهية الألوان. «هل هناك تشابه بين آلهتكم القديمة والجديدة.» لم تظهر في عيون عمرو الدعجاء أي إشارة يمكن لبطرس أن يفهم منها حالته النفسية ومغزاه من هذا السؤال. طوال رحلتهم من بيت المقدس ظن بطرس أنه تعلم قراءة أفكار عمرو وحالته من النظر إلى عينيه الثاقبتين شديدتي السواد.

«نحن لا نعبد الأصنام.» أجاب بطرس بعد تروٍ وبشيء من الاستهجان على سؤال عمرو. «هناك تماثيل ورسومات لسيدنا المسيح وللعذراء...»

«وما الفارق بين الأصنام والتماثيل؟» قاطع عمرو رفيقه وقد عقد بين حاجبيه الكثيفين، بينما تنبه جندب للتوتر الذي نشب بين الاثنين.

«المسيحية دين سماوي، والمسيح ابن الله، ولا يعقل أن نقارن بينها وبين عبادة الأصنام.»

«عمرو لم يعادل أو يقارن، وإنما لا يرى فارقاً بين صنم وتمثال.» تدخل جندب بين رفيقيه وأضاف: «إلا في حسن المصنعية، فأهل مصر فنانون بالوراثة.» ولم يرغب في التوقف عن الحديث حتى لا يعود الجدال، فاستدرك وهو ينظر إلى عمرو: «لقد رأيت تماثيل للعزى وهي قريبة في الشكل والجمال لتمثال فينوس الإغريقية، وتماثيل العرب الأنباط ومنحوتاتهم في البتراء غاية في الروعة والجمال، كما سترى يا عمرو في طريق عودتك.»

لقد تعود جندب على فك المناكفات المسائية بين عمرو وبطرس أثناء الإقامة في الإسكندرية، فهو مضطر للترجمة وبالتالي تلطيف الأجواء، وكثيراً ما سأل عمرو «لماذا لا تطلب المعلومات الدينية من بطرس على شكل أسئلة بدل الاستفزاز؟»

«إذا سألته سيجيب بترو ويتفلسف ويحاول هدايتي، أما الهجوم فيظهر مخزونه بصراحة.» آخر المناكفات جاءت حين سأل عمرو بطرس إذا كان يؤمن بالرب ومشيئته، فأجاب القس بنعم. «إذاً كمصري ومسيحي تؤمن بأن ما يحصل من حولنا هو إرادة ربانية لا راعيَ لها، وأن الرب يعمل ذلك لمصلحتنا؟»

«الرب يكافئ وأيضاً يختبر الإيمان بزج الرعية في مصائب دنيوية.» أجابه بطرس بهدوء.

«الطاعون والزلازل والفيضانات والقتل والتشريد والحروب مع العرب والفرس والصراع الديني بين فصائل المسيحية، ليست اختباراً كما أظن، وإنما

هي بلاء من الرب لأنه غير راض عما يجري على الأرض. هو يسلط عليكم الطبيعة والأعداء وأنفسكم لسبب ما، فهل يمكن أن تخبرني بالسبب؟» كان بطرس يرد على مثل هذه المقولات بسؤال عمرو إذا كانت آلهتهم أفضل، ثم يسارع جندب إلى تلطيف الأجواء وتغيير الموضوع.

مكث عمرو في الإسكندرية أكثر مما خطط في البداية، فالمدينة من كبريات مدن العالم، وهي عاصمة للإقليم المصري بفروعه الأربعة ويقطنها خليط من البشر يفوق تعدادهم ستمئة ألف، بعضهم من مسيحيي أنطاكية وسوريا الذين هربوا من بطش السلطة وطوائف أخرى نصرانية، وفي المدينة يهود وإغريق ورومان ووثنيون عانوا من بطش النصارى الذين لا يكفون عن محاولات تنصيرهم. لحسن حظه جاءت زيارته أثناء تولي البابا القبطي أنسطاسيوس بعد وفاة سابقه دميان. يقال عن البابا الجديد إنه قوي القلب ومتضلع في الكتب، وهو ابن لأبوين من الوجهاء، وكان قساً وله خبرة، فنشط لاسترداد الكنائس التي استولى عليها البطريرك الملكي التابع للإمبراطور، ويقال في الإسكندرية إن وشايات وصلت إلى الإمبراطور عن هذا البابا وبالتالي فأيامه معدودة، وسيكون عليه إما مواجهة الموت أو الهروب إلى الصحراء. كل ذلك كان شيقاً جداً لعمرو ولكنه في النهاية تشجع بعد حصول بطرس على التصاريح له ولمرافق يتحدث العربية واليونانية والقبطية، فقرر القيام بجولته النهرية إلى وسط وجنوب البلاد ليطلع على جغرافيتها ويتعرف إلى حياة سكانها وطباعهم خارج العاصمة، على أمل العودة إلى الإسكندرية ليودع جندباً قبل الانتقال بحراً إلى غزة. لم يكن عمرو بحاجة لأيام كثيرة للاستراحة من أي سفر متعب، فهو شاب قوي البنية قصير القامة عريض المنكبين وتعود جسده على احتمال المشاق.

قبل أن يعود عمرو من سياحته في الربوع المصرية، كان جندب قد انتقل للإقامة من بيت بطرس إلى الغرف المخصصة للطلاب والباحثين في مكتبة الإسكندرية التي مازالت من أشمل مكتبات الأرض للكتب والأوراق ولفائف البردي الفرعونية، ولكنها كانت أغنى قبل تعرضها إلى عدة حرائق وقع آخرها قبل مئتي عام. جمع جندب معلومات عن تاريخ المكتبة بأنها تأسست زمن البطالمة، منذ أيام بطليموس الأول، قبل تسعمئة عام وشملت في قمة مجدها أكثر من خمسمئة ألف كتاب ولفافة من العصور السابقة. وبطليموس الأول هذا كان أحد قادة الإسكندر الأكبر، ومكث في الإسكندرية وأسس سلالة البطالمة. كان على كل من يريد نسخ كتاب من كتب المكتبة أن يحضر إليها كتاباً آخر. ولم يكن يُرحب بالسفن في ميناء الإسكندرية إذا لم تحمل هدية إلى المكتبة. الحريق الأول كان في عام سبعة وأربعين قبل المسيح أثناء الحرب الأهلية في مصر بين كليوباترا وأخيها بطليموس الثالث عشر، وهو زوجها أيضاً، حين لم يتوفقا في تنفيذ وصية أبيهما بالحكم سوياً. في تلك الأثناء انتصر يوليوس على خصومه في روما وأصبح قيصراً لأعظم قوة فحاول كل من الأخوين الزوجين المتخاصمين كسبه إلى جانبه، وفازت الأخت به، وعشقت القيصر، وأنكر الروم لاحقاً أنهما تزوجا، فحاصرهما الأخ في الإسكندرية، فما كان من قيصر روما إلا أن جمع الكتب والحطب وأقام ساتراً من النار حول القصر والميناء كسباً للوقت ريثما تصله النجدات. بعد بضع سنوات أهدى قيصر روما الجديد مارك انطونيو، الذي انقلب على يوليوس، أهدى كتباً إلى كليوباترا تعويضاً عما حُرق، وتزوجها، وأنجب منها ثلاثة أطفال، وكانت قد أنجبت من يوليوس ابنها الأول، قيصرون، الذي حكم لأيام بعد انتحارها ثم قطعوا رأسه. وضربت النيران المكتبة مرتين أخريين،

في عام 272 من قبل الإمبراطور الروماني لوسيوس، وفي عام 391 في عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الأول الذي أمر بتدميرها.

كان جندب يعرف مسبقاً أن عليه تقديم كتاب على الأقل إلى المكتبة فأحضر معه من غزة ما يُرضي الإدارة. لو كان باحثاً أو مؤلفاً لطلبوا منه بعض كتبه، ولكنهم سهلوا له مهمة الاطلاع على المترجم من أوراق الفراعنة التي كانت في معابدهم ولم يسمح قديماً لغير الكهنة بالاطلاع عليها، وبالطبع الاطلاع على الكتب الإغريقية التي زاوجت بين الحضارتين الفرعونية والإغريقية. لم يسأله الإداريون بشكل مباشر عن دينه أو جنسه، ولكنه تبرع بإطلاعهم على أصله وقدراته اللغوية، بعد أن شعر أن بطرس قد أخبرهم بما يعرف عنه، وأنه بالغ في المعلومات حتى يقضي على أي ممانعة.

في الأيام الأولى على مطالعته اختار جندب لنفسه طريق الاطلاع وعدم الخوض في التمحيص والسؤال، أراد جمع أكبر قدر من المعلومات ومن ثم يستفيد منها عقله لاحقاً. السبب في اختيار هذا النهج كان اطلاعه على موعظة جديدة قالها بابا روما، جريجوري الكبير، في العام التالي على توليه المنصب الذي مازال يشغله إلى الآن. قال إن مريم المجدلية هي ذاتها الخاطئة والزانية. ومريم هذه رافقت المسيح بعد أن تابت، ولكن المراجع تختلف في تحديد هويتها، ويقال إن هناك ثلاث نساء سمين بمريم، وإن المجدلية ليست الزانية لكن بابا روما حسم الأمر قبل عقد من الزمن وقال في الموعظة التي شاءت الظروف أن يطلع عليها جندب في بداية عهده بالمكتبة: «نحن نؤمن أن هذه المرأة المجدلية هي التي دعاها لوقا بالمرأة الخاطئة، وهي التي يدعوها يوحنا مريم الزانية وهي التي يقول عنها مرقس إنها التي أخرج منها الرب

سبعة شياطين.» والأخيرة هي التي يجمع النصارى أنها مريم المجدلية، ولكن البابا، الذي لا يتحدث اليونانية، حسم الأمر بالرغم من قلة المراجع المتاحة له باللاتينية، وفسر هذا الموقف بأن الشياطين السبعة تمثل الخطايا الرئيسة ومنها خطيئة الشهوة الجنسية، وقال البابا إنها مريم المجدلية التي مسحت قدمي المسيح بشعرها المطيب بذات الطيب الذي استعملته لجسدها في الأعمال الممنوعة، وبالطبع «فإنها حولت كل جرائمها الى فضائل ككفارة لكي تخدم الله كلية.»

لو حاول جندب مثلاً التعمق في هذا الأمر لكان عليه سؤال الأساتذة في المكتبة، ومراجعة الكتب المقدسة والروايات المسجلة ولاستغرق ذلك منه زمناً طويلاً من دون أن يخرج بنتيجة، لأن كبار رجال طوائف الدين المسيحي لم تتوحد آراؤهم حول هذه القصة لرفيقة المسيح. هكذا قرر اتباع نهج المطالعة لكسب الكثير من المعلومات في زمن قصير نسبياً.

عندما كان جندب وبطرس يلتقيان ويتذكران صديقهما، لم يقدم جندب عن عمرو سوى معلومات عامة، أبلغ بطرس أن عمراً هو ابن العاص بن وائل السهمي، وأن أمه تدعى سلمى بنت حرملة من بني عنزة، وأن لعمرو أخوة من أمه هم عروة بن أثاثة العدوي، وعقبة بن نافع بن عبد القيس الفهري. لقد عرف جندب بذلك أثناء الرحلة من مكة إلى الشام، ولكنه لم يخبر بطرس بما سمعه أثناء تلك الرحلة، بأن أم عمرو قد سبيت من قومها وبيعت في سوق عكاظ ولقبت بالنابغة، فاشتراها الفاكه بن المغيرة، ثم باعها لعبد الله بن جدعان، وصارت من بعده للعاص فولدت له عمرو. بل سمع جندب من يتحدث أثناء الرحلة أن أبا سفيان ادعى أنه من وضع عمرو في رحم أمه ولكنها أصرت على أبوة العاص لأن أبا سفيان بخيل بماله.

﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

10

«يا للهول، يا رحمة الله لا تفارقينا، إنا لله وإنا إليه راجعون.» لقد شحب وجه والي الكوفة، وبدت فاجعته بالخبر الذي وصلنا للتو في ديوانه، أعظم منا جميعاً. ثم سأل الرسول ليتأكد من الفاعل: »هل قلت إن أبا لؤلؤة هو الذي قتل الخليفة؟»

«أي والله طعنه وطعن ثلاثة عشر رجلاً في المسجد ومات منهم سبعة، وكنت ضمن من أرُسلوا لإبلاغ الأمصار.» قال الرجل ولم يكن قد نفض غبار السفر عن ملابسه، وبدت عليه مظاهر الجوع والعطش، وكأنه لم يسترح طوال الرحلة الطويلة من المدينة إلى الكوفة.

«هل غادرت مدينة الرسول قبل أو بعد اختيار الخليفة الجديد؟» أعاد المغيرة السؤال قبل أن يأمر بشراب وطعام للرجل.

«بل بعد، لقد أوصى الخليفة عمر وهو يحتضر باختيار واحد من بين ستة شيوخ خلال مدة أقصاها ثلاثة أيام، وقد اختاروا عثمان بن عفان من بينهم وبايعه الناس في المسجد.»

«استرح قليلاً فعلينا الركوب إلى المدينة فوراً لنبايع ونرى ما الأمر.» قال المغيرة وأوعز إلى بعض رجاله أن يتكفلوا بالرسول وأن يعدوا العدة للركوب.

«ستذهب معي يا جندب، أليس كذلك؟»

«إن شاء الله سأعود معك إلى المدينة.» لم يخبر جندب مضيفه بأن الخليفة عمر قد كلفه بمهمة جديدة وهي جمع معلومات عن القسطنطينية، وكيف يمكن للمسلمين فتحها، أخبره فقط أنه في طريقه إلى الشام، وقد عرج على الكوفة ليتعرف إلى مدينة المغيرة سيئة الصيت إلى درجة أن الناس صاروا يضربون به وبها أمثالاً، فكان الرجل يقول للآخر: غضب الله عليك كما غضب أمير المؤمنين على المغيرة، عزله عن البصرة وولاه الكوفة. الآن عليه العودة الى المدينة مع المغيرة بعد اغتيال صديقه وأميره، عمر بن الخطاب، وعليه تحسس رغبة الخليفة الجديد الذي يعرفه هو الآخر جيداً. لقد التقى جندب بالمغيرة مراراً، واشتركا سوياً في عدة معارك، وكان آخر لقاء بينهما حين تمت المواجهة بين المغيرة وجماعة البصرة الذين اتهموه بالزنى، وبالرغم من سقوط التهمة عنه، وجلد شهود الزور، إلا أن الخليفة عمر عزله عن البصرة وولاه لاحقاً الكوفة. كانت أول ولاية للمغيرة قبل ذلك في البحرين، وهناك ابتلى عليه نفر من أهلها زوراً فعزله الخليفة بالرغم من ثبوت براءته آنذاك أيضاً. كانت سياسة الخليفة عمر تقوم على تطبيق العدل، ولكن مع استرضاء الناس أيضاً، ولهذا لم تشفع للمغيرة براءته من التهمتين، وعزل عن الإقليمين.

«قد تكون هذه الضربة هي القاضية للمغيرة.» سمع جندب اثنين يتهامسان في مقر الوالي الذي خرج ليستعد للسفر، فطلب منهما أن يفسرا له مبرر كلامهما.

«ألا تدري؟» قال أحدهما ولم يسمع من جندب جواباً، فأضاف: «فيروز أبو لؤلؤة المجوسي اللعين كان عبداً للمغيرة، وهو الذي أقنع الخليفة بدخوله إلى المدينة المحظورة على غير المسلمين، وقال له إن لديه صنائع ويمكنه أن

يخدم بها المسلمين.» أسرع جندب خلف الرسول ليستشف منه المزيد من المعلومات، وتحديد حراجة موقف المغيرة.

«هل حاكموا القاتل، وعرفوا أسبابه ومن وراءه؟»

«لا، بل حبسوا عبيد الله بن عمر لقتله الهرمزان.» قال الرسول وهو يبتلع الطعام بينما جندب يستغرب ما سمع وينتظر تفسيراً. «أبو لؤلؤة انتحر بعد أن تمكن منه الناس في الجامع.» توقف لشرب الماء ثم واصل وجندب صامت: «عندما عرف الناس القاتل، قال عبد الرحمن بن أبي بكر إنه شاهد أبا لؤلؤة والهرمزان وجفينة يتناجون قبل طعن عمر بيوم، ولما رأوه سقط منهم خنجر له مقبض في وسطه ورأسان، وهو الخنجر الذي طُعن به عمر وانتحر به فيروز، أبو لؤلؤة. عندما سمع عبيد الله ذلك ذهب إلى الهرمزان وقتله على الفور. وقبل مغادرتي المدينة إلى هنا كانوا يتشاورون في أمر عبيد الله، وقد أشار علي بن أبي طالب وبعض صحابة الرسول (ص) بالقصاص من عبيد الله، لكن الخليفة متردد ولا أدري ماذا حصل.»

إذا لم يروا في اجتماع فيروز والهرمزان وجفينة، ومعهم الخنجر، مؤامرة، فإن أحداً في المدينة لن يشك في أي دور للمغيرة بن شعبة بذريعة أن القاتل كان عبداً له. قال جندب لنفسه وتذكر أن الهرمزان قائد فارسي سابق غدر بالمسلمين ثم اعتنق الإسلام، وجفينة من أصل نصراني من أهل الحيرة الذين كانوا يخدمون الفرس، وفيروز لم يسلم أصلاً، لماذا لا يكون هؤلاء قد دبروا الانتقام من الإسلام بقتل الخليفة على أمل أن يتشتت الصف الإسلامي؟ وهل يتشتت المسلمون بمقتل عمر؟ إذا لم تكن هذه مؤامرة خارجية، فهل تكون من تدبير داخلي؟ ولكن من هو المستفيد من غياب الخليفة عمر؟ سرح

ذهن جندب إلى أيام تولي عمر الخلافة بعد أبي بكر، وكيف تمناها علي بن أبي طالب آنذاك، لكن أبا بكر طلب من عمر أن يصلي بالناس خمسة عشر يوماً أثناء مرضه، وطلب من عثمان أن يكتب العهد لعمر، ففعل وقرئ على المسلمين فأقروا به وأطاعوا. وقد فعل أبو بكر ذلك حتى لا يختلف المسلمون كما اختلفوا يوم مات الرسول عليه الصلاة والسلام. آنذاك أيضاً تمنى علي الخلافة بعد وفاة ابن عمه، واعتكف علي والزبير وجماعة معهما عن مبايعة أبي بكر، ولم يبايع علي إلا بعد موت زوجته فاطمة الزهراء. لكن بفضل الفتنة التي كادت أن تقع بين المهاجرين والأنصار يوم دفن الرسول (ص)، تقبل علي خلافة أبي بكر، ربما لأن الرسول (ص) أثناء مرضه كان قد أمر أبا بكر أن يصلي بالناس، وعندما استعاد بعض عافيته تعكز على العباس وعلى علي ودخل المسجد ولكنه لم يؤخر أبا بكر عن الصلاة بل صلى إلى جانبه جالساً. عاد جندب ليتفكر أن علياً لا يمكن أن يتآمر على الخليفة عمر، ولا يمكن أن يتقبل مثل ذلك العمل من أحد أتباعه، كما أنه لم يصبح خليفة بعد مقتل عمر. ناهيك عن كون عمر كان صهره، زوج ابنته أم كلثوم، حفيدة الرسول (ص). لا بد من التعرف إلى تفاصيل كيف آلت إلى عثمان، وبعد أن يشبع ويرتوي هذا الرسول سيكون هناك الكثير من الوقت لأخذ كل المعلومات منه أثناء المسير إلى المدينة.

«لما دُفن الخليفة، بعد أن صلى عليه صهيب، جمع المقداد بن عمرو أصحاب الشورى الذين حددهم عمر قبل وفاته، جمعهم في بيت المسور بن مخرمة، وكانوا خمسة وهم: عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، ومعهم عبد

الله بن عمر كمراقب، إذ رفض عمر أن تؤول الخلافة إلى ابنه، بينما سادس أصحاب الشورى وهو طلحة بن عبيد الله غائب خارج المدينة. كان أبو طلحة الأنصاري يحرسهم، ويحجبهم من أن يدخل الناس إليهم.» قال الرسول عامر التيجاني بعد أن تركوا الكوفة على خمسة خيول نشطة. «عرفنا ما جرى بينهم بعد ذلك، فقد تداولوا الأمر وتكلم كل منهم مشفقاً على الأمة من الفرقة، ثم قال عبد الرحمن بن عوف: أيكم يُخرج منها نفسه ويتكلف أن يوليها أفضلكم؟ فلم يجبه أحد، فقال أنا أنخلع منها. على الفور قبل عثمان أن يتولى عبد الرحمن الفصل فيمن يصبح خليفة.»

«نعم إنه من قال عنه الرسول، عليه الصلاة والسلام، أمين في الأرض أمين في السماء. إنه أعدل من يحكم بينهم.» قال المغيرة وكان على يسار عامر بينما جندب يستمع على اليمين وهم على ظهور الخيل، وخلفهم اثنان من الحراس. وتذكر جندب أن عبد الرحمن هذا من أغنى أغنياء المسلمين سابقاً والآن، فإنّ همه الأول هو تنمية تجارته، وكسب الحسنات من توزيع بعض الأموال، كما أنه صهر عثمان إذ تزوج أخته من أمه، أم كلثوم بنت أروى وبنت عقبة بن أبي معيط.

«بعد عثمان قال القوم قد رضينا وعلي ساكت، فسأله عبد الرحمن: ماذا تقول يا أبا الحسن؟ قال: أعطني موثقاً لتؤثرن الحق ولا تتبع الهوى، ولا تخص ذا رحم، ولا تألُ الأمة،فقال لهم عبد الرحمن: أعطوني مواثيقكم على أن تكونوا معي على من بدلّ وغيّر، وأن ترضوا من اخترت لكم، وعليّ ميثاق ألا أخص ذا رحمٍ لرحمه، ولا آلو المسلمين. فأخذ منهم ميثاقاً وأعطاهم مثله.» داهية وأمين، هكذا أبعدها عن علي إذاً، قال جندب لنفسه وهو يستمع إلى

بقية الرواية. «أخذ عبد الرحمن علي إلى جانب فقال له: إنك تقول: إني أحق من حضر بالأمر لقرابتك وسابقتك وحسن أثرك في الدين، ولم تبعد، ولكن أرأيت لو صُرف هذا الأمر عنك فلم تحضر، من كنت ترى من هؤلاء الرهط أحق بالأمر؟ قال: عثمان. ثم خلا عبد الرحمن بعثمان، فقال له: تقول: شيخ من بني عبد مناف، وصهر رسول الله (ص) وابن عمومته، لي سابقة وفضل، ولم تبعد، فلن يصرف أمر الخلافة عني. ولكن لو لم تحضر فأي هؤلاء الرهط أحق به؟ فقال عثمان إنه علي بن أبي طالب. ثم خلا بالزبير فكلمه بمثل ما كلم به علياً وعثمان، فقال الزبير علي. ثم خلا بسعد، فكلمه، فاختار عثمان.»

«وهكذا حُصر الأمر بين علي وعثمان، وأصبح الأمر بيد عبد الرحمن بن عوف أيهما يختار هو فيُرجح الكفة.» قال المغيرة الذي شدته الرواية ونسي مخاوفه من تهمة الضلوع بمقتل الخليفة على يد عبده فيروز. ثم سأل الرسول «وطبعاً اختار عبد الرحمن عثمان؟»

«لا ليس على الفور، بل استفاد من الأيام الممنوحة وخرج يستشير الناس، ودار يلقى أصحاب رسول الله (ص) ومن وافى المدينة من أمراء الأجناد وأشراف الناس يشاورهم، فكان أكثرهم يشير إلى عثمان، حتى إذا كانت الليلة التي يستكمل في صبيحتها الأجل وهو ثلاثة أيام، أتى منزل المسور بن مخرمة بعد ابهيرار الليل، فأيقظه فقال: ألا أراك نائماً ولم أذق هذه الليلة كثير غمض، انطلق فادع الزبير وسعداً.»

«يبدو أن عبد الرحمن رغب أن ينهي القضية بين أصحاب الشورى بالذات بالمناقشة، وأن يدع رأي من استشار خارجهم. طلب الإثنين عسى أن يوفق في كسب رأي الزبير وسعد إلى جانب أحد صاحبي الأمر عثمان أو علي. لماذا إذن أقلق الناس بالاستشارة؟» علق المغيرة ثم صمت ليسمع النتيجة.

«بعد اجتماعه بالزبير ثم بسعد رأى أن رأيهما لا يزال كالسابق، عندها حزم رأيه أن يأخذ البيعة لواحد أمام الصحابة والناس حتى لا يستطيع أحدهما أن يعترض أو يظن شيئاً. وبعد أن صلى المسلمون الفجر في المسجد، جمع عبد الرحمن أصحاب الشورى، وبعث إلى من حضر من المهاجرين وأهل السابقة والفضل من الأنصار، وإلى أمراء الأجناد، فاجتمعوا حتى غصّ المسجد بأهله. فقام عبد الرحمن وقال: أيها الناس، إن الناس قد أجمعوا أن يلحق أهل الأمصار بأمصارهم وقد علموا من هو أميرهم. فأبدى بعض المسلمين رأيهم فتكلم سعيد بن زيد وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأعطى رأيه لصالح عبد الرحمن إذ قال: إنّا نراك لها أهلاً، فقال عبد الرحمن: أشيروا عليّ بغير هذا فقام عمار بن ياسر وأيد علياً، ووافقه المقداد بن عمرو، ثم قام عبد الله بن سعد بن أبي سرح فأيد عثمان ووافقه عبد الله بن أبي ربيعة. وكادت الأصوات تعلو، وعندها وقف سعد بن أبي وقاص وقال: يا عبد الرحمن، أفرغ قبل أن يفتن الناس، فاستدرك عبد الرحمن بن عوف الخطر وقال: إني قد نظرت وشاورت، فلا تجعلن أيها الرهط على أنفسكم سبيلاً، ودعا علياً، فقال: عليك عهد الله وميثاقه لتعملنّ بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده؟ قال علي: أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي، ودعا عثمان فقال له مثل ما قال لعلي، فأجابه: نعم أفعل، فبايعه، ومثله فعل الناس جميعاً وبايعوا عثمان.» لم يعلق جندب أو المغيرة على نهاية الحدث فأضاف الراوي أن طلحة بن عبيد الله، المرشح السادس، عاد الى المدينة في نهاية يوم المبايعة، فسأل عثمان إذا كانت قريش قد بايعته، فقال نعم، وسأله إذا كان كل الناس بايعوه أيضاً، فقال عثمان نعم، ومن ثم بايعه طلحة.

«هل كنت ستحكم بغير هذا لو كلفت بالأمر؟»

ضحك المغيرة بعد سماعه هذا السؤال من جندب، فشد على حصانه قليلاً وانحاز نحو جندب فتأخر عامر خلفهما. «لم يكن بوسع عبد الرحمن أن يحكم بغير ذلك. لقد أضر علي بقضيته منذ البداية، فالرسول (ص) لم يوص له، وكان عليه الصلاة والسلام يرفض تنصيب من يطلب المنصب. لقد طلب العباس من علي أثناء مرض الرسول (ص) أن يطلب منه بوصية، فرفض علي السؤال وقال للعباس: لو رفضها علينا بعد السؤال فلن يقبل بنا مسلم فيما بعد. وكما قلت، لقد أضر علي بنفسه لأنه طالب بالخلافة لنفسه ولآل الرسول (ص)، وحين يأخذها فلن تخرج من نسله وستصبح ملكية، بينما الخلافة حتى الآن تعُطى بالشورى بين قبائل قريش.» صمت المغيرة قليلاً ولم يعلق جندب سوى بإيماءات من رأسه. «ابن عوف وابن عفان من أغنى أغنياء قريش، وابن أبي طالب متقشف يتطلع الى تطبيق عدل الأنبياء، وأظن يا جندب أن الناس ضجوا من صرامة ابن الخطاب، وكثر عليهم الخير ويريدون بعض متاع الحياة، ولهذا فعثمان كان اختيار عبد الرحمن، وهكذا كنت سأحكم لو خُولت بذلك.»

«من حضر البيعة من الولاة؟» التفت المغيرة إلى الخلف وسأل عامر بصوت مرتفع ولكن ذهنه شارد يفكر كيف أبعدوها مجدداً وبلباقة عن بيت الرسول (ص)، وبشكل لا يقبل الطعن في عثمان أو في أسلوب الاختيار.

«نافع بن عبد الحارث الخزاعي، والي مكة، وسفيان بن عبد الله الثقفي، والي الطائف، وكان في المدينة والي صنعاء يعلى بن منبه. وخرجت الرسائل إلى بقية الولاة، إلى والي الجند عبد الله المخزومي، وإلى والي البصرة أبي موسى الأشعري، وإلى معاوية في الشام، وإلى عمير بن سعد في حمص، وعمرو بن العاص في مصر، وأيضاً إلى والي البحرين عثمان الثقفي.»

شد الركب على الخيول وسرح كل منهم بأفكاره لهضم هذه الأخبار الموجزة عن الاغتيال وسير أمر الشورى، والتفكر بها. أسعد الولاة بخبر مبايعة عثمان سيكون ابن عمه معاوية بن أبي سفيان. فكر جندب وقد تذكر القصة التي سمعها في صباه بمكة وسأل بشأنها عثمان آنذاك، أن الدم سوف يسيل بين أبناء أمية وأبناء هاشم. لو بقيت الخلافة بعيدة عن الطرفين لكان أفضل للإسلام والمسلمين، أن يختاروا كل مرة خليفة ذا دين وكفاءة خير من نيلها لقرب أحدهم من الرسول (ص)، ثم تأسيس بيت ملوك يتوارثونها كما هو الحال في بيزنطيا المنهارة التي فقدت مناطقها، وكما كان في فارس التي أصبحت أثراً بعد عين. أما الآن فإن بني هاشم سيشعرون بالقهر حتى وإن بايعوا وابتلعوا ما يرونه ظلماً.

«أين وصلت يا جندب؟» فاجأه سؤال المغيرة، إذ تلمس في صوته بعض الارتياح، يبدو أنه قد حسب الأمور وتأكد من سلامة العواقب، هذا الرجل مر بالكثير، وأقل ما فيه تفرده في الولاية على ثلاثة أمصار، وتزوجه وطلاقه حتى الآن لأكثر من خمسين أنثى. ابتسم جندب وهو يتذكر ما سمعه حين جرح المغيرة في بطنه أثناء موقعة القادسية، فقد حضرت أنثى جميلة من قبيلة طيء لتخيط بطنه، فسألها إذا كانت متزوجة!

«أقول لك الحق بأني متشائم من بداية حسم الأمور بالاغتيالات، ورغم حبي لعمر، وقلقي على الأمة، إلا أنني أشعر بارتياح كون أبي لؤلؤة هذا تصرف من نفسه، كما يبدو. الحمد لله أنه انتحر، فقد كان بوسعه أن يكذب ويتسبب بفتنة لا نهاية لها.» تغيرت ملامح المغيرة من المرح إلى الجد، فأضاف جندب حتى لا يُساء فهم كلامه: «تصور لو لم ينتحر وادعى أن عليّ بن أبي طالب

أو أحد أنصاره هو الذي أوعز إليه، كان ذلك سيدمر الأمة. أقول ذلك كوني تذكرت محادثة بين ابن عباس والخليفة عمر.»

«وما هي وما محتواها؟»

«جلست مع آخرين إلى الخليفة فأسمعنا بعضهم شعراً يمدح بني غطيف، فقال الخليفة: والله وما أعلم أحداً أولى بهذا الشعر من هذا الحي من بني هاشم لفضل رسول الله، (ص)، وقرابتهم منه. وأشار إلى عبد الله بن عباس. فرد عليه ابن عم النبي: وفقت يا أمير المؤمنين ولم تزل موفقاً! فقال الخليفة: يا ابن عباس، أتدري ما منع الخلافة عنكم بعد محمد، (ص)؟ فكره ابن عباس الرد وقال: إن لم أكن أدري فإن أمير المؤمنين يدريني! فقال عمر: كرهوا أن يجمعوا لكم النبوة والخلافة فتبجحوا على قومكم بجحاً بجحاً، فاختارت قريش لأنفسها فأصابت ووفقت. فأجابه ابن عباس: يا أمير المؤمنين، إن تأذن لي في الكلام وتمط عني الغضب تكلمت. قال عمر: تكلم. فقال: أما قولك يا أمير المؤمنين: اختارت قريش لأنفسها فأصابت ووفقت، فلو أن قريشاً اختارت لأنفسها حين اختار الله لها لكان الصواب بيدها غير مردود ولا محسود. وأما قولك: إنهم أبوا أن تكون لنا النبوة والخلافة، فإن الله، عز وجل، وصف قوماً بالكراهة فقال: (ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم). فقال عمر: هيهات والله يا ابن عباس، قد كانت تبلغني عنك أشياء كنت أكره أن أقرك عليها فتزيل منزلتك مني. فقال: ما هي يا أمير المؤمنين؟ فإن كانت حقاً فما ينبغي أن تزيل منزلتي منك، وإن كانت باطلاً فمثلي أماط الباطل عن نفسه. فقال عمر: بلغني أنك تقول: إنما صرفوها عنكم حسداً وبغياً وظلماً. فقال: أما قولك يا أمير المؤمنين: ظلماً، فقد تبين للجاهل والحليم، وأما قولك: حسداً، فإن آدم حسد ونحن ولده المحسدون. فقال عمر: هيهات

هيهات! أبت والله قلوبكم يا بني هاشم إلا حسداً لا يزول. فقال: مهلاً يا أمير المؤمنين، لا تصف قلوب قوم أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً بالحسد والغش، فإن قلب رسول الله(ص)، من قلوب بني هاشم. فقال عمر: إليك عني يا ابن عباس. فقال: أفعل. فلما ذهب ليقوم استحى عمر منه فقال: يا ابن عباس، مكانك! فوالله إني لراع لحقك محب لما سرك. فقال: يا أمير المؤمنين، إن لي عليك حقاً وعلى كل مسلم، فمن حفظه فحظه أصاب، ومن أضاعه فحظه أخطأ. ثم قام فمضى.»

«لقد كانت الخلافة في خاطرهم منذ وفاة الرسول عليه الصلاة السلام، ولا أدري إذا كانت تولية عثمان سترضي بني هاشم في يوم من الأيام.» قال المغيرة وزاد الظن في ذهنه بأن رواية عامر لسير أمر الشورى غير دقيقة، ولا بد أن يكون قد ترك الحديث فيما حصل من خلافات. «لعن الله أبا لؤلؤة الذي عجل علينا بهذه الحال.»

«إنه صنايعي مجوسي من عبدة النار.» تدخل عامر وواصل حديثه: «لقد طالب الخليفة بتخفيض المئة درهم التي ضربت عليه، فقال له عمر، رحمه الله، ماذا تحسن من العمل فذكر له إنه حداد نقاش نجار، فقال عمر إن ما فرضه عليك المغيرة ليس بكثير. وبعد ليالٍ مر العبد بالخليفة فدعاه وسأله عن صحة قوله إن بوسعه لو شاء أن يصنع رحى تطحن بالريح، فالتفت العبد ساخطاً عابساً إلى عمر ومع عمر رهط، فقال لأصنعن لك رحى يتحدث بها الناس، فلما ولى العبد أقبل عمر على الرهط الذين معه فقال لهم أوعدني العبد آنفاً!!» شعر جندب بارتياح بعد هذا الخبر، فالأمر يبدو من تدبير شخص غاضب وكافر.

جال في خاطر المغيرة ما سمعه بأن أبا لؤلؤة كان يمسح على رؤوس الأطفال من سبي نهاوند وهو يبكي حين أرسلوا إلى المدينة، وقال آنذاك إن عمر قد أدمى قلبه وأكل كبده. وتذكر المغيرة أنه أول من نادى عمر بن الخطاب بأمير المؤمنين بعد المبايعة له بالخلافة، وهاهو عبده المجوسي يقتل أميره الذي فتحت جيوشه بلاد فارس والروم.

«هل شاركت في كل الغزوات مع الرسول عليه الصلاة السلام؟» سأل جندب المغيرة، وكان يعرف الكثير عن الرجل ولكنه أراد أن يطيب خاطره ويعيد إليه الثقة بتذكيره بمكانته.

«ليس كلها، فقد أسلمت عام الخندق، وشاركت في أكثر من مئة معركة حتى الآن، لكن فخري أنني خرجت مع الرسول عليه الصلاة والسلام في الحديبية، وردعت عنه عمي عروة بن مسعود حين جاء يفاوض على الصلح، فقد كان يمد يده إلى لحية الرسول (ص)، فأنذرته أن يكف وإلا لما عادت إليه.»

«لم أعرف أنك أسلمت قبل خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وطلحة بن أبي طلحة؟»

«نعم قبلهم وقبل كل الطلقاء والكثيرين غيرهم.» قال المغيرة وهو يتنهد: «لقد أرسلني النبي عليه الصلاة والسلام مع أبي سفيان لنهدم اللات في ثقيف بعد أن جاء وفدهم إلى مكة إثر فتحها وأسلموا. الطليق أبو سفيان الذي أصبح جد المؤمنين وابنه معاوية خالهم بعد أن تزوج الرسول (ص) من أم حبيبة بنت أبي سفيان وصارت من أمهات المؤمنين. وكانت قد أسلمت وهاجرت إلى الحبشة قبل فتح مكة.»

«عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة» ذكر جندب رفيقه بما جاء في سورة الممتحنة بعد أن شعر بحسرة في صوت المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود الثقفي. هذا الرجل شهد بيعة الرضوان وكل المشاهد بعدها مع الرسول (ص)، وحين وقعت الردة أرسله الخليفة أبو بكر إلى أهل حصن النجير في اليمن حيث تجمع أهل الردة مع الأشعث بن قيس، ثم شهد اليمامة وفتوح الشام وجرح في القادسية وفقئت عينه في اليرموك، واشترك في معارك فتح بلاد فارس. وكان جندب قد سمع بقصته مع أهل البحرين فطلب منه أن يعيدها عليه، وقصده أن يبعد همومه التي تجول في رأسه الآن.

«استعملني عمر في بداية خلافته على البحرين، فتصرفت مع أهلها بعدل وبشدة لأن إسلامهم ضعيف وعقولهم، مثل كل أهل الجزر، لا تتحمل التغيير. لم يتوقفوا عن الشكوى إلى عمر حتى أعادني إلى المدينة، ولكنهم خافوا أن أعود إليهم، فأرسلوا مئة ألف دينار مع أحد دهاقنتهم إلى الخليفة وادعى أنها لي وقد اختلستها من مال الله وأودعتها عنده، وأن ضميره يؤنبه ولهذا جاء يعيد النقود إلى بيت المال. وعندما استدعاني عمر، رحمه الله، سألني الأمر والرجل يستمع، فقلت للخليفة إن الرجل يكذب لأن المبلغ الذي أودعته كان مئتي ألف. فاستعلم عمر مني عن سبب الاختلاس، فادعيت إنها الحاجة وكثرة العيال. هنا طلب عمر من الدهقان بقية المال، فقال الرجل: لا والله لأصدقنك ما دفع إلي قليلاً ولا كثيراً.»

«إنك بالفعل داهية العرب.» قال جندب وتذكر كيف اكتسب المغيرة شرف أنه آخر الناس عهداً برسول الله (ص). فعندما خرج علي من القبر قبيل دفن النبي، ألقى المغيرة خاتمه وقال: يا أبا الحسن خاتمي. فأذن له علي أن ينزل

ليأخذه، فنزل ومسح بيده على الكفن الطاهر فأصبح آخر الناس عهداً بالرسول (ص). بعد البحرين ولي البصرة، وأثناء ثلاث سنوات هناك قاد الجيش وفتح بيسان، ودست بيسان، وأبز قباذ، ولقي العجم بالمرغاب فهزمهم، وفتح سوق الأهواز، وغزا نهر تيرى ومغاذر الكبرى، وفتح همذان، وشارك في نهاوند وكان على ميسرة الأمير النعمان بن مقرن، وكان عمر قد كتب حينها: إن هلك النعمان فالأمير حذيفة، فإن هلك فالأمير المغيرة. ورغم الانشغال بتلك الفتوحات إلا أنه كان أول من وضع ديوان البصرة وجمع الناس ليعطوا عليه.

«لقد اقتنع الخليفة ببراءتك من تهمة الزنى في البصرة، فلماذا عزلك عنها؟» كان جندب يكاد أن يضحك وهو يسأل المغيرة إذ تذكر كيف أوقع عمر بمن اتهموا المغيرة.

«لقد توافقت تلك القصة مع شكوى أهل الكوفة من أبي موسى الأشعري، وكانوا هم الذين رفضوا عمار قبل عام وطالبوا الخليفة بتولية أبي موسى عليهم.» اعتلت وجهه تعابير غضب وحزن وأضاف: «شكاه الوليد بن عبد شمس لأن غلام أبي موسى باع عليهم العلف وهم يريدونه مجاناً. فعزله الخليفة عن الكوفة وأرسله إلى البصرة بدلاً مني واستبقاني في المدينة حتى رأيته قد خلا في ناحية المسجد ونام، فأتيت فحرسته حتى استيقظ، فقلت: ما عزلت أبا موسى يا أمير المؤمنين إلا من عظيم. فقال: وأي شيء أعظم من مئة ألف في الكوفة لا يرضون عن أمير ولا يرضى عنهم أمير؟ وقال لأصحابه الذين حضروا للاستماع: إن أهل الكوفة قد عضلوه. واستشارهم فيمن يوليه. وقال: ما تقولون في تولية رجل ضعيف مسلم أو رجل قوي مسدد؟ فقلت له: أما الضعيف المسلم فإن إسلامه لنفسه وضعفه عليك، وأما القوي المسدد

فإن سداده لنفسه وقوته للمسلمين. فولاني الكوفة، وقال لي آنذاك: يا مغيرة ليأمنك الأبرار وليخفك الفجار.

«ألم يغلبك أحد في الدهاء؟» سأله جندب.

«لم يغلبني أحد في الدنيا إلا شاب من قبيلة بلحارث بن كعب. لقد خطبت امرأة فقال لي الشاب: أيها الأمير لا تنكحها فإني رأيت رجلاً يقبلها. فانصرفت عنها، فتزوجها الشاب. وحين سألته، ألم تقل إنك رأيت رجلاً يقبلها؟ قال بلى، رأيت أباها يقبلها وهي صغيرة.»

«رحم الله عمر وتقبله شهيداً.» قال جندب وصمت في تردد، ولكنه أكمل حين التفت إليه المغيرة: «لكل إنسان أخطاء مهما صغرت، فما هي بعض أخطاء أمير المؤمنين في رأيك؟»

«محاسنه وإنجازاته تفوق أخطاءه بمئات المرات، وأعتقد أن تصرفه مع خالد بن الوليد، ابن خاله، سيبقى صعباً على الهضم. كان أول عمل قام به عمر بعد وفاة الصديق أن عزل خالداً عن الجيش وهو يحارب في اليرموك، وولى أبا عبيدة، وذلك لكلام زور بلغه عنه، وكتب عمر إلى أبي عبيدة: إن كذب خالد نفسه فهو أمير على ما كان عليه، وإن لم يكذب نفسه فهو معزول، فانزع عمامته عن رأسه وقاسمه ماله نصفين. فلما قال أبو عبيدة ذلك لخالد قال له خالد: أمهلني حتى أستشير أختي، فذهب إلى أخته فاطمة، وكانت ترافق الجيش مع زوجها، فاستشارها في ذلك، فقالت له إن عمر لا يحبك أبداً، وإنه سيعزلك وإن كذبت نفسك. فقال لها: صدقت والله، فقاسمه أبو عبيدة حتى أخذ إحدى نعليه وترك له الأخرى، وخالد يقول: سمعاً وطاعة لأمير المؤمنين.» كان جندب يستمع للمغيرة ويصادق بحركات من جسمه على ما

يقول، فقد كان هو الآخر قد شارك في اليرموك تحت إمرة ابن الوليد ثم بقيادة ابن الجراح، وسمع وشاهد ما جرى مثل بقية الجيش.

«كنت أعرف أن عمر يكره خالداً، ولكني لم أجرؤ طوال سنوات علاقتي معه على سؤاله عن السبب.»

تبسم المغيرة وقال لجندب إن الإثنين تقاتلا وهما صغيران، فكسر خالد رجل عمر، وبقي الأول صاحب دهاء في المعارك، وببصيرته وخططه انتصر الكفار يوم أحد، وأضاف: «خالد ابن دنيا ودين ولم يرع الغنم في حياته، ولذلك تحمل كل قساوة ابن خاله ومات على فراشه في حمص.»

«كان علي وعمر يعرفان أن الخليفة سيموت على يد أعجمي!» جاء الصوت من خلفهما فأفسحا لعامر التيجاني ليقترب بحصانه بينهما ليسمعا تفسيره وليكمل ما قال. «قبل أيام من طعنه بخنجر أبي لؤلؤة، ذهب الخليفة إلى أسماء بنت عميس لتفسر له رؤيا. قال لها إنه رأى في المنام ديكاً نقره أسفل سرته نقرتين، فقالت له أسماء، إحدى زوجات علي بن أبي طالب، إن رجلاً أعجمياً يصيبك. وهذا ما كان، وقد انتشرت القصة بعد مقتل عمر في مدينة رسول الله عليه الصلاة والسلام.»

«أسماء الخثعمية زوجة جعفر بن أبي طالب، شهيد مؤتة، والتي تزوجت أبا بكر بعد انقضاء عدتها، ثم تزوجها علي بعد موت الصديق وموت فاطمة الزهراء.» قال المغيرة بصوت منخفض وتذكر أن علياً يربي أولادها من أخيه، جعفر، وابنها محمد بن أبي بكر، مع أولاده منها ومن غيرها. «إنها التي قال لها الرسول (ص) إن للناس هجرة واحدة ولكم هجرتان. كانت قد غضبت من ابن الخطاب حين قال لها: يا حبشية سبقناكم بالهجرة، فقالت لعمر: لقد

صدقت، كنتم مع رسول الله يطعم جياعكم ويعلم جهالكم، وكنا البعداء الطرداء، أما والله لأذكرن ذلك لرسول الله. وعندما فعلت قال لها الرسول (ص) ما قال وطيب خاطرها وأصبح مهاجرة الحبشة يجتمعون إليها ليسمعوا هذا التكريم والخصوصية.»

«إذا كان الخليفة يستمع إلى تفسير الرؤيا، وعرف أنه سيطعن من أعجمي، فلماذا لم يأخذ بالحذر؟» سأل جندب بصوت مرتفع، ثم أجاب بنفسه: «ربما لأنه لا يصدق بذلك في صميم نفسه ولكن يتسلى به.»

11

«أي جندب، إنك دارس لتاريخ الروم والعجم على مدار سنوات طوال في الإسكندرية وغزة وبيت المقدس والقسطنطينية، فأخبرني، هل تأثرت ممالكهم بسبب نسب وحسب ملوكهم وقياصرتهم؟» أراد المغيرة بهذا السؤال الابتعاد عن أحاديث قد يفسرها مرافقهم عامر لاحقاً بشكل مغاير، كما أن توسع الفتوحات الإسلامية وقيام إمبراطورية قيد الاتساع يدفع بالعاقل للتفكر في مصير الإمبراطوريات الزائلة.

«كان القيصر أوغسطوس هو الذي أنهى الحروب الأهلية بين الرومان والتي كادت أن تدمر بلادهم، وأسس لعهد من الأمن والازدهار دام لمئتي عام من بعده، وقد كان قيصراً في الفترة من 23 قبل المسيح عليه السلام، حتى 14 عام من بعده، وكان نجاحه معتمداً على تنظيم الإدارة في الإمبراطورية. لكن بداية تخلخل قوة الإمبراطورية ولدت مع الفضائح في عهد غاليوس، بعد 25 سنة، ثم قسوة وظلم القيصر نيرون الذي تخلص منه العسكر وباتوا مؤثرين في عملية اختيار القياصرة، وبالطبع أكثروا من اختيار قياصرة من بينهم بدل نبلاء روما.» كان جندب يتحدث بصوت معتدل ومطمئن لإنصات المغيرة بينما تواصل الخيل ركضها بسرعة متوسطة على الطريق من الكوفة إلى المدينة.

«في القرن الثاني حالف الحظ روما إذ حكمها قياصرة حكماء مثل تراخان،

وحضريان، وأنتونينوس بيوس، ومارك أوريل، وقد تتابعوا على الحكم حتى عام 180. كانت الإمبراطورية واسعة الأطراف وقد قسمت إلى عدة مناطق تدار محلياً، وكل من اشترك في الإدارة وأعمالها منح لقب مواطن روماني ونال حقوقه. وكان للدولة دين موحد، ولكن سُمح لشعوب الإمبراطورية أن يعظموا آلهتهم وأصنامهم الخاصة طالما أنهم لا يمارسون طقوس التضحية بالبشر. وبالطبع كان على الجميع احترام القيصر وتقديم القرابين إلى آلهة الرومان، ومن هنا تحديداً بدأت المشاكل بين كل من اليهود والنصارى مع روما، إذ رفضوا احترام آلهة الرومان. كان على شعوب الإمبراطورية أن يقلدوا معيشة الرومان، وأقيمت لهم في جرمانيا وفلسطين وأفريقيا مدن رومانية تجري فيها المياه من تحت شوارعها وبها حمامات ومسارح وكل مغريات الحياة ونعمها المتوافرة للرومان في بلدهم. الجيش ساعد أيضاً في نشر أسلوب حياة الرومان، وكان بوسع سكان الأقاليم الانضمام إلى وحدات الجيش، ومن ينضم فعليه تعلم اللاتينية وهي لغة الإمبراطورية الرسمية، وبعد الخدمة يصبح مالكاً لحقوق المواطنة ولا يعد من الطبقات الدنيا.»

«إنه أمر مختلف عما فعل المسلمون مع سكان البلاد المفتوحة، فهم لم يفرضوا الجزية مثلنا، ولكن يفرضون الضرائب ويفسحون المجال لمواطنة مثيلة بين الجميع.» علق المغيرة وأخذ يقارن في سره بين الأسلوبين، بينما يواصل استماعه لجندب.

«في عام 212 أُعلن كل سكان الإمبراطورية كمواطنين بحقوق وحلت اللاتينية محل لغاتهم الأصلية ما عدا المناطق الشرقية التي تمسكت باليونانية. عم الأمن داخل حدود الإمبراطورية، فتحسنت التجارة لانعدام الحرب والقرصنة، وصكت النقود، ووجدت داخل الحدود معظم متطلبات الناس،

الزراعة في الأرياف أطعمت المدن، وأكبرها مدينة روما التي كانت تستورد 800 الف امبورا (400 ألف طن) حبوباً من مصر وأفريقيا وصقلية سنوياً وكان الجيش لوحده يستهلك 200 ألف امبورا (100 ألف طن) حبوباً سنوياً وكل ليجن كان يحتاج إلى جلود 54 ألف عجل لصناعة خيامه. كل الأقاليم ترابطت بشوارع مرصوفة أقيمت أساساً لخدمة تحركات الجيش، ولكنها ساهمت في تنشيط التجارة وحركة الشعوب، إذ كان مجموع طولها 60122 ميلياريوم (88500 كيلو متر) وبالطبع أكثروا من مواصلات السفن فهي أسرع من السير على الطرقات. لقد أنتجوا كل ما يحتاجونه واستوردوا العطور والبخور والحرير والتوابل والجواهر من الصين والهند وشرق أفريقيا. في القرن الثالث بدأ انهيار الإمبراطورية إذ توجب عليهم حماية الحدود الواسعة من هجمات الشعوب المتخلفة المحيطة بهم وهجراتها وارتفعت نفقات الجيش وقلت رواتب جنده وزادت الضرائب على الشعوب وارتفعت أسعار المواد. كلما فشل قيصر في معارك حماية الحدود صار الجند يشاركون في انقلابات ضده، ثم انتخبت قطعات الجيش في المناطق المتباعدة قياصرة لها، وبالطبع صاروا يتنافسون ويتقاتلون فيما بينهم، هذا إلى جانب الحروب عبر الحدود، فسهل على الجرمان والفرس احتلال مناطق واسعة من أطراف الإمبراطورية.» كان جندب يستحضر هذه المعلومات من كتب التاريخ التي كتبت باليونانية لاحقاً وطالعها أثناء إقامته في الإسكندرية، والدراسة لسنوات في مكتبتها. كل من الامبراطورية الفارسية والرومانية وصلت الى أقصى حدودها وقوتها، ثم لم تعد تجلب لنفسها وللآخرين سوى التشنجات المدمرة بعد أن أفلست اخلاقياً وفسدت إدارياً وهذا هو مصير الحضارات تنهض وتزول.

«صمدوا قرنين من الزمن قبل بداية تنازع الأقاليم، وفي الكوفة لم يدم زمن

الهدوء لعشر سنوات. كلما أرسل لهم الخليفة والياً يتآمرون ضده ويلحون لتغييره.» دمدم المغيرة بصوت منخفض وجالت في ذهنه ذكريات الردة بعد موت الرسول (ص)، وتمنى أن تسير الأمور بسلاسة الآن في عهد عثمان. ثم رفع صوته ليسمعه جندب: «هل تدري أن أهل الكوفة تظلموا من سعد بن أبي وقاص، ومن ضمن الاتهامات ضده بأنه لا يحسن الصلاة؟ وقال سعد في هذه القصة: لقد أسلمت خامس خمسة، ولقد كنا ومالنا طعام إلا ورق الحبلة حتى تقرحت أشداقنا، وإني لأول رجل رمى بسهم في سبيل الله، ولقد جمع لي رسول الله، (ص)، أبويه وما جمعهما لأحد قبلي، ثم أصبح بنو أسد يقولون: لا يحسن يصلي. وقد عزل عمر سعداً وأقر نائبه عبد الله بن عتبان، ثم اشتكوا منه فعزله عمر وأقر زياد بن حنظلة وتكرر الأمر معه ومع عمار بن ياسر الذي طلب أن يُعزل عن القوم، فأرسلني عمر من البصرة إلى الكوفة، فاشتكوا مني وعدت إلى المدينة ولكن الخليفة أعادني إليهم وكاد أن يرسل جبير بن مطعم بدلاً مني.» قهقه جندب إذ تذكر كيف تحايل المغيرة على العودة إلى الكوفة. فبعد أن عين عمر جبيراً طلب منه عدم الحديث في الأمر، لكن المغيرة عرفها بالحدس، فأرسل زوجته إلى زوجة جبير تعرض عليها طعاماً للسفر، فقالت لها أحضريه. هنا تأكد المغيرة وذهب إلى عمر يبارك له التعيين، فغير الخليفة رأيه في جبير وأعاد المغيرة.

«بين أعوام 235 و284 حكم 26 قيصراً ولم ينجُ من القتل سوى قيصر واحد.» عاد جندب لروايته عن قيام الإمبراطوريات وزوالها.

«يا ألطاف الله.» قال المغيرة وصمت لبقية رواية جندب، وقد ارتعب من فكرة تكرار ذلك التقتيل والغدر في الدولة الإسلامية.

«بعد مرحلة الاغتيالات والتآمر جاء القيصر ديوكلتان، وهو الذي أقر أن الإمبراطورية واسعة وأكبر من أن يحكمها قيصر واحد، فقسمها إلى نصف غربي وآخر شرقي ولكل منهما عاصمة وقيصر، روما في الغرب والقسطنطينية في الشرق والتي حكمها قسطنطين القاهر وخلفه من بعده. لكن ذلك تطلب زيادة في الجيش وبالتالي نفقات للجنود وضرائب على الناس أدت إلى فقرهم. الجديد هنا هو أن روما الغربية باشرت اللجوء إلى جنود غرباء من جرمانيا، مرتزقة. الغربية كانت أوسع مساحة وأقل كثافة سكانية فصمدت حتى 476 حين انقلبوا على آخر قياصرتهم واحتُلت بقية بلادهم، بينما الشرقية تقلصت ولكنها لا تزال صامدة. ضاعت منهم الآن بلاد الشام ومصر للمسلمين، بينما أخذ الفرنجة والفاندال سابقاً بلاد شمال أفريقية والأندلس من روما الغربية.»

«والعبرة من كل ذلك هي أن لا تضغط على الناس مالياً حتى لا يكرهوك، وأن يكون عندك المال لرواتب جندك، وأن تعدل بحزم حتى لا تفلت الأمور من بين يديك.» قال المغيرة بعد انتهاء حديث جندب بينما الخمسة يقتربون من مضارب بني غطفان على مسيرة نصف يوم من المدينة. كانوا طوال رحلتهم لا ينامون سوى قليلٍ ويستبدلون الخيول المتعبة بغيرها من القبائل المنتشرة بين الكوفة والمدينة، مثل لخم، وذهل، وطي، وعبس، وكان المغيرة يعرف هذا الطريق وأهله إذ سلكه مراراً في السنوات العشر المنصرمة.

«الإمبراطورية الأكثر خسارة في مسلسل التاريخ إلى الآن هم الفرس.» قال جندب وقد تذكر معركة ذي قار التي نجحت فيها قبائل عربية في هزيمة الفرس وعملائهم من القبائل العربية، الذين كانوا يناطحون آنذاك بيزنطيا. لكن الفرس نجحوا بعد هزيمتهم في ذي قار باحتلال بيت المقدس والشام

والإسكندرية لسنوات حتى نجح الإمبراطور هرقل بتحرير البلاد منهم. «لقد تجلى غرورهم في عام إعلان الدعوة النبوية، فكانت النتيجة هزيمتهم من قبائل عربية مسيحية.» لم تكن قصة ذي قار تخفى على المغيرة فقد سمعها مراراً بأشكال عدة من الذين شاركوا فيها آنذاك، ولكنه صمت ليسمع رؤية جندب لتلك الأحداث، كيف انتقلت من الأفواه عبر الأقوام حتى خُطت على الورق.

«في ذات جلسة لكسرى بن هرمز وصل الحديث إلى تحديد معايير الجمال وأي النساء أجمل، الفارسيات أو الروميات أو الإناث العربيات. قال أحد الحضور، وهو زيد بن عدي: أيها الملك، إن في بيت النعمان بن المنذر أكثر من عشرين من بناته وأخواته وأهله على الصفات التي ذكرتها. وكان النعمان، ملك ما تبقى من الغساسنة، قد أسر والد زيد هذا وقتله، ولم تعد بيزنطيا تحالف أو تحمي النعمان بل قتلوا والده، المنذر، وأسروا أخاه وتشتتت القبائل من حوله ولم يبق له سند ضد الفرس. هكذا أرسل كسرى على الفور زيداً هذا إلى النعمان ومعه مرافق فارسي، لا يتقن اللسان العربي، حتى يخطبا البنات العربيات لكسرى ولبعض رفاقه. عندما التقيا النعمان قالا له: إن كسرى أراد إكرامك بهذا الطلب وعليك تخصيص زوجات بالصفات المطلوبة. شق على النعمان الأمر، وقال للرسولين:ألا يوجد في مها السواد وعين فارس ما يبلغ به كسرى حاجته؟ فسأل المرافق الفارسي زيداً ماذا يعني بالمها والعين، فرد عليه زيد بالفارسية إنها البقر، فسكت الرسول، وقال زيد للنعمان: إن كسرى أراد إكرامك ولو عرف أن الأمر يشق عليك لما فعل، فقال النعمان لزيد أن يعذره عند كسرى.»

«لقد سمعت هذه القصة كثيراً، ولكن لم يروِها أحد من منظور جمال النساء والجنس.» قال المغيرة وانتظر من جندب أن يكمل روايته.

«عندما عاد زيد إلى كسرى أبلغه برأي النعمان قائلاً إنه رفض، وطلب من كسرى سؤال المرافق الفارسي، فقال هذا لكسرى إن النعمان قال: أما في بقر السواد وفارس ما يكفيه حتى يطلب ما عندنا؟ وقع الغضب في قلب كسرى فقال: رب عبد قد أراد ما هو أشد من هذا. فشاع هذا الكلام حتى بلغ النعمان، وسكت كسرى أشهراً على ذلك، وجعل النعمان يستعد ويتوقع، حتى أتاه كتاب كسرى يستقدمه، فعرف النعمان أنه مقتول لا محالة.» تمتم المغيرة بكلمات عن انشقاقات القبائل، واستأنف جندب الرواية: «كان النعمان متزوجاً من طيء، فحمل أسلحته وحريمه وذهب إلى جبل طيء مستجيراً بأصهاره، ولكن القوم أبوا خوفاً من كسرى، وقالوا له: لولا صهرك لقتلناك، فإنه لا حاجة بنا إلى معاداة كسرى ولا طاقة لنا به. فأقبل يطوف على قبائل العرب وليس أحد منهم يقبله، إلا بني رواحة من قطيعة بن عبس قالوا له: إن شئت قاتلنا معك لمنة كانت له عندهم فقال: ما أحب أن أهلككم، فإنه لا طاقة لكم بكسرى، ولكن حافظوا على أهلي ريثما أجد مخرجاً. تركهم وسار سراً إلى بادية بني شيبان، فلقي هانئ بن مسعود الشيباني، وكان سيداً منيعاً، فاستجار به فأجاره، وقال له: قد لزمني ذمامك، وأنا مانعك مما أمنع نفسي وولدي منه، ولكن ذلك غير نافعك، لأنه مهلكي ومهلكك، وعندي لك رأي، لست أشير به عليك لأدفعك عما تريده من مجاورتي، ولكنه الصواب. فقال: هاته. قال له ابن مسعود: إن كل أمر يجمل بالرجل أن يكون عليه إلا أن يكون بعد الُملكِ سُوقة، والموت نازل بكل أحد، ولأن تموت كريماً خير من أن

تتجرع الذل أو تبقى سوقة بعد الملك، هذا إن بقِيتَ، فامض إلى صاحبك، واحمل إليه هدايا ومالاً، وألق بنفسك بين يديه، فإما أن صفح عنك فعدت ملكاً عزيزاً، وإما أن أصابك فالموت خير من أن يتلعّب بك صعاليك العرب وتتخطفك ذئابها، وتأكل مالك وتعيش فقيراً مجاوراً أو تقتل مقهوراً. فقال النعمان: كيف بحرمي؟ قال: هن في ذمتي لا يخلص إليهن حتى يخلص إلى بناتي. فقال: هذا وأبيك الرأي الصحيح ولن أجاوزه.»

لقد وقع ذلك الحدث في الفترة التي استغنى فيها كل من الفرس والبيزنطيين عن خدمات القبائل العربية الواقعة بين الإمبراطوريتين، وكانت القبائل تساند هذا الطرف أو ذاك مقابل منافع، ولكن خلافات العرب فيما بينهم كانت أحياناً تجر فارس وبيزنطيا للحرب. أما بقية هذه الحادثة، التي وقعت في العام الأول على تولي هرقل قيادة بيزنطيا، وإشهار الرسول (ص) لنزول الوحي، أن النعمان اختار خيلاً وحللاً وجواهر وأرسلها مع كتاب اعتذار وطلب زيارة إلى كسرى الذي قبلها وأمره بالقدوم. أودع النعمان أهله وأمواله وثمانمئة درع عند هانئ بن مسعود وتوجه إلى كسرى، فلقي زيد بن عدي الذي قال له متشفياً: أنج نعيم إن استطعت النجاء. فرد النعمان عليه: أنت يا زيد فعلت هذا! أما والله لئن انفلت لأفعلن بك ما فعلت بأبيك. فقال له زيد: إمض نعيم فقد والله وضعت لك عنده أخية لا يقطعها المهر الأرن. فلما بلغ كسرى أنه بالباب بعث إليه فقيده وبعث به إلى خانقين حتى وقع الطاعون فمات فيه.

لم يكتفِ كسرى بموت النعمان، ولكنه كلف أمير الحيرة الجديد، إياس بن قبيصة الطائي، الاتصال مع هانئ بن مسعود لإحضار وديعة النعمان من

الحريم والأموال والدروع، فأبى هانئ بالرغم من التهديد بالسبي والقتل. غضب كسرى، وأرسل إلى إياس الطائي، واستشاره في الغارة على قبيلة بكر، فقال له: ماذا ترى؟ وبكم ترى أن نغزوهم من الناس؟ فقال له إياس: أرى أن تبعث عليهم العيون حتى ترى غرة منهم، ثم ترسل حلبة من العجم فيها بعض القبائل التي تليهم، فيوقعون بهم وقعة الدهر ويأتونك بطلبك. فقال له كسرى: أنت رجل من العرب، وبكر بن وائل أخوالك، فأنت تتعصب لهم ولا تألوهم نصحاً. فقال إياس: رأي الملك أفضل. فقام إليه عمرو بن عدي بن زيد أخو زيد بن عدي وكان كاتبه وترجمانه بالعربية وفي أمور العرب، وقال له: أقم أيها الملك، وأبعث إليهم بالجنود يكفونك. وكان عنده النعمان بن زرعة التغلبي وهو يحب هلاك بكر بن وائل فقال لكسرى: أمهلهم حتى يقيظوا ويتساقطوا على ذي قار تساقط الفراش في النار فتأخذهم كيف شئت. فوافقه كسرى وأقرهم، حتى إذا قاظوا جاءت بكر بن وائل فنزلت بالحنو، حنو ذي قار. لما عرف كسرى بذلك عقد للنعمان بن زرعة على تغلب، وخالد بن يزيد البهراني على قضاعة وإياد، وجعل إياس بن قبيصة على العرب كلها ومعه كتيبتاه الشهباء والدوسر، وكانت العرب ثلاثة آلاف، وعقد للهامرز على ألف من الأساورة، وعقد لخنابرين على ألف، وعهد إليهم كسرى إذا شارفوا بلاد بكر ودنوا منها أن يبعثوا النعمان بن زرعة يأخذ منهم وديعة النعمان ومئة غلام منهم يكونون رهناً بما أحدث سفهاؤهم، أو القتال، وقد كان كسرى قد عاقب بني تميم عندما نهبوا قافلته إلى عامله في اليمن، لذا فالعرب وجلة وخائفة من كسرى.

سار هانئ بن مسعود حتى انتهى إلى ذي قار فنزل به. وأقبل النعمان بن زرعة

حتى نزل على ابن أخته مرة بن عمرو من بني عجل وقال إنكم أخوالي وأحد طرفي وإن الرائد لا يكذب أهله وقد أتاكم ما لا قبل لكم به من أحرار فارس وفرسان العرب. ولأن يفتدي بعضكم بعضاً خير من أن تصطلموا فانظروا هذه الوديعة فادفعوها وادفعوا رهناً من أبنائكم إليه بما أحدث سفهاؤكم. فقال له القوم: ننظر في أمرنا. عندما وصل الأمر الى حنظلة بن ثعلبة بن سيار العجلي قبح رأي بن زرعة ثم أمر بقبته فضربت بوادي ذي قار ونزل الناس فأطافوا به. فقال: لا أرى غير القتال، فإنا إن ركبنا الفلاة متنا عطشاً، وإن أعطينا ما بأيدينا تقتل مقاتلتنا وتسبى ذرارينا. ثم قال لهانئ بن مسعود: يا أبا أمامة، إن ذمتكم ذمتنا عامة وإنه لن يوصل إليك حتى تفنى أرواحنا فأخرج هذه الدروع ففرقها بين قومك فإن تظفر فسترد عليك وإن تهلك فأهون مفقود. فأمر بها فأخرجت ففرقها بينهم ثم قال حنظلة للنعمان: لولا أنك رسول لما أبت إلى قومك سالماً. فرجع النعمان إلى أصحابه فأخبرهم بما رد عليه القوم فباتوا ليلتهم مستعدين للقتال وباتت بكر بن وائل يتأهبون للحرب، وقد استقوا الماء لنصف شهر تحسباً للمعركة.

شعر شيوخ قبيلة إياد بمهانة أن يقاتلوا أخوتهم وينصروا الفرس عليهم، فأرسلوا سراً إلى بكر ليلة المعركة. قال رسولهم: أي الأمرين أحب إليكم؟ أن نطير تحت ليلتنا هذه، فنذهب عن جيوش كسرى؟ أو نقيم ونفر حين تلاقون القوم؟ قالوا: بل تقيمون، فإذا التقى الناس انهزمتم بهم. فلما أصبحوا أقبلت الأعاجم نحوهم، وأمر حنظلة بالظعن جميعاً، فأوقفها خلف الناس ثم قال يا معشر بكر بن وائل قاتلوا عن ظعنكم أو دعوا. فأقبلت الأعاجم يسيرون على تعبئة. وكان ربيعة بن غزالة السكوني يومئذ هو وقومه نزولاً في بني شيبان

فنصحهم قائلاً: لا تستهدفوا لهذه الأعاجم فتهلككم بنشابها ولكن تكردسوا لهم كراديس فيشد عليهم كردوس فإذا أقبلوا عليه شد الآخر فقالوا: فإنك قد رأيت رأياً، ففعلوا. فلما تقارب القوم والتقى الزحفان قام حنظلة بن ثعلبة فقال: يا معشر بكر بن وائل إن النشاب الذي مع الأعاجم يعرفكم فإذا أرسلوه لم يخطئكم فعاجلوهم باللقاء وابدأوهم بالشدة. ثم قام إلى وضين راحلة امرأته فقطعه ثم تتبع الظعن يقطع وضنهن لئلا يفر عنهن الرجال، وقال: ليقاتل كل رجل منكم عن حليلته. ثم ضرب قبة على نفسه ببطحاء ذي قار، وآلى لا يفر حتى تفر القبة. ثم قام هانئ بن مسعود فقال: يا قوم، مهلك معذور خير من نجاء معرور، وإن الحذر لا يدفع القدر وإن الصبر من أسباب الظفر، المنية ولا الدنية، واستقبال الموت خير من استدباره، والطعن في الثغر خير وأكرم من الطعن في الدبر.

كانت بنو عجل في الميمنة بإزاء خنابرين وعليهم حنظلة بن ثعلبة. وبنو شيبان في الميسرة بإزاء كتيبة الهامرز، وعليهم بكر بن يزيد بن مسهر. وباقي بكر بن وائل في القلب وعليهم هانئ بن مسعود. قبل بداية الطعان، خرج محارب من الأعاجم في أذنيه درتان، من كتيبة الهامرز يتحدى الناس للمبارزة، فنادى في بني شيبان فلم يبرز له أحد، حتى إذا دنا من بني يشكر برز له يزيد بن حارثة أخو بني ثعلبة بن عمرو فشد عليه الرمح، فطعنه فدق صلبه، وأخذ حليته وسلاحه. ثم إن القوم اقتتلوا صدر نهارهم أشد قتال رآه الناس، وحملت ميسرة بكر وعليها حنظلة على ميمنة الجيش، وحملت ميمنة بكر وعليها يزيد بن مسهر على ميسرة الجيش، وخرج عليهم كمين كانوا أعدوه للفرس وعليهم يزيد بن حمار فشدوا على قلب الجيش، وولت إياد منهزمة

كما وعدتهم. فشد الحارث بن شريك على الهامرز فقتله، وقتلت بنو عجل خنابرين، وضربت وجوه الفرس فانهزموا، وتبعتهم بكر بن وائل.

ثم كان اليوم الثاني من القتال فجزعت الفرس من العطش، فصارت إلى الجبابات وأتبعتهم بكر بن وائل إلى الجبابات فعطش الأعاجم فمالوا إلى بطحاء ذي قار وبها اشتدت الحرب، فأتبعتهم بكر بن وائل يقتلونهم بقية يومهم وليلتهم، حتى أصبحوا من الغد، وقد شارفوا السواد ودخلوه، فذكروا أن مئة من بكر بن وائل، وسبعين من عجل، وثلاثين من أفناء بكر بن وائل، أصبحوا وقد دخلوا السواد في طلب القوم، فلم يفلت منهم كبير أحد وأقبلت بكر بن وائل على الغنائم فقسموها بينهم، وقسموا بين نسائهم العطور والبخور الذي حملته قافلة أخرى للفرس كانت في طريقها إلى اليمن ورافقت جيش كسرى بعضاً من الطريق.

كان إياس بن قبيصة أول من أتى كسرى بعد الهزيمة وكان لا يأتيه أحد بهزيمة جيش إلا نزع كتفيه، فلما أتاه إياس سأله عن الخبر، فقال: هزمنا بكر بن وائل، فأتيناك بنسائهم، فأعجب بذلك كسرى وأمر له بكسوة، وإن إياساً استأذنه عند ذلك، فقال: إن أخي مريض في عين التمر، فأردت أن آتيه، وإنما أراد أن يتنحى عنه ويفر، فأذن له كسرى بالرحيل. ثم أتى كسرى رجل من أهل الحيرة، فسأل: هل دخل على الملك أحد؟ فقالوا: نعم، إياس، فقال: ثكلت إياساً أمه! وظن أنه قد حدثه بالخبر، فدخل عليه فحدثه بهزيمة القوم وقتلهم، فأمر به فنزعت كتفاه.

12

قبل الدخول إلى المدينة سمع المغيرة وجندب أن الخليفة قد طالب، وهو على فراش الموت، أن يُثبت الولاة في مناصبهم لعام كامل قبل أن يُغيرهم الخليفة الذي سيختاره مجلس الشورى. في مسجد الرسول وقبل اللقاء مع الخليفة عثمان عرف المغيرة أن عمر بن الخطاب طلب من علي وعثمان وعبد الرحمن أن لا يُركبوا أقرباءهم على ظهور المسلمين حين يصبح أحدهم خليفة.

«إن عمر بن الخطاب لما طُعن قيل له: يا أمير المؤمنين لو استخلفت. فقال: لو كان أبو عبيدة حياً لاستخلفته وقلت لربي إن سألني: سمعت نبيك يقول: (إنه أمين هذه الأمة). ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً لاستخلفته وقلت لربي إن سألني: سمعت نبيك يقول: (إن سالماً شديد الحب لله تعالى). فقال له رجل: أدلك على عبد الله بن عمر. فقال: قاتلك الله، والله ما أردت الله بهذا! ويحك! كيف أستخلف رجلاً عجز عن طلاق امرأته؟ لا أرب لنا في أموركم، فما حمدتها فأرغب فيها لأحد من أهل بيتي، إن كان خيراً فقد أصبنا منه، وإن كان شراً فقد صرف عنا، بحسب آل عمر أن يُحاسب منهم رجل واحد ويسأل عن أمر أمة محمد، أما لقد جهدت نفسي وحرمت أهلي، وإن نجوت كفافاً لا وزر ولا أجر إني لسعيد، وأنظر فإن أستخلف فقد استخلف

من هو خير مني، وإن أترك فقد ترك من هو خير مني، ولن يضيع الله دينه.»
اقترب رجل من المغيرة وجندب بعد أن صلى ركعتين وهمس في أذن المغيرة أن يحذر رواية ابن السوداء، هذه وغيرها، لما حدث في الأيام القليلة الماضية. شكره المغيرة وانتحى به جانباً وأبلغه إنه يستمع متعمداً إلى هذا اليهودي حتى يستشف سريرته، ثم عاد لابن السوداء الذي أسلم منذ أقل من عام ليستمع إلى بقية روايته.

«خرج القوم من عند عمر ثم عادوا إليه بعد حين، فقالوا: يا أمير المؤمنين، لو عهدت عهداً. فقال: قد كنت أجمعت بعد مقالتي لكم أن أنظر فأولي أمركم رجلاً هو أحراكم أن يحملكم على الحق، (وأشار إلى علي) فرهقتني غشية فرأيت رجلاً دخل جنة فجعل يقطف كل غضة ويانعة فيضمه إليه ويصيره تحته، فعلمت أن الله غالب على أمره، ومتوف عمر فما أردت أن أتحملها حياً وميتاً، عليكم هؤلاء الرهط الذين قال رسول الله، (ص): إنهم من أهل الجنة، وهم علي وعثمان وعبد الرحمن وسعد والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله، فليختاروا منهم رجلاً، فإذا ولوا والياً فأحسنوا مؤازرته وأعينوه.» لم يقاطع جندب أو المغيرة رواية ابن السوداء إذ قررا السماع لما لديه وسيكون بوسعهم لاحقاً معرفة الحقيقة.

«فخرجوا من عند عمر، وقال العباس لعلي: لا تدخل معهم. قال علي لعمه: إني أكره الخلاف. قال: إذن سترى ما تكره. فلما أصبح عمر دعا علياً وعثمان وسعداً وعبد الرحمن والزبير فقال لهم: إني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم، وقد قبض رسول الله، (ص)، وهو عنكم راض، وإني لا أخاف الناس عليكم إن استقمتم ولكني أخاف

اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس، فانهضوا إلى حجرة عائشة بإذن منها فتشاوروا فيها واختاروا رجلاً منكم. ووضع عمر رأسه وقد نزفه الدم. فدخلوا فتناجوا حتى ارتفعت أصواتهم، فقال عبد الله بن عمر: سبحان الله! إن أمير المؤمنين لم يمت بعد. فسمعه عمر فانتبه وقال: ألا أعرضوا عن هذا فإذا مت فتشاوروا ثلاثة أيام وليصل بالناس صهيب ولا يأتين اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم، ويحضر عبد الله بن عمر مُشيراً ولا شيء له من الأمر، وطلحة شريككم في الأمر، فإن قدم في الأيام الثلاثة فأحضروه أمركم، وإن مضت الأيام الثلاثة قبل قدومه فأمضوا أمركم، ومن ولي بطلحة؟ فقال سعد ابن أبي وقاص: أنا لك به ولا يخالف إن شاء الله تعالى.» كان الثلاثة يردون تحيات من يدخل مسجد الرسول، ويسلمون على من يعرف أحدهم ثم يعودون لحديثهم، أو على الأصح الاستماع لليهودي المسلم.

«قال عمر بعد ذلك لأبي طلحة الأنصاري: يا أبا طلحة، إن الله طالما أعز بكم الإسلام فاختر خمسين رجلاً من الأنصار فاستحث هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلاً منهم. وقال للمقداد بن الأسود: إذا وضعتموني في حفرتي فاجمع هؤلاء الرهط في بيت حتى يختاروا رجلاً منهم. وقال لصهيب: صل بالناس ثلاثة أيام وأدخل هؤلاء الرهط بيتاً وقم على رؤوسهم، فإن اجتمع خمسة منهم وأبى واحد فاشدخ رأسه بالسيف، وإن اتفق أربعة وأبى اثنان فاضرب رأسيهما، وإن رضي ثلاثة رجلاً وثلاثة رجلاً فحكموا عبد الله بن عمر، فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف، واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع فيه الناس.» كان صوت ابن السوداء قد انخفض قليلاً فاقترب منه المغيرة وجندب. «فخرجوا فقال

علي لقوم معه من بني هاشم: أن أطيع فيكم قومكم لن تؤمروا أبداً، وتلقاه عمه العباس مستفسراً، فسمعت علي يقول له: عدلت عنا! فقال: وما علمك؟ فسرد علي ما قاله عمر: كونوا مع الأكثر، فإن رضي رجلان رجلاً ورجلان رجلاً فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن، فسعد لا يخالف ابن عمه، وعبد الرحمن صهر عثمان لا يختلفون فيوليها أحدهما الآخر، فلو كان الآخران معي لم ينفعاني. قال له العباس وهو ممتعض: لم أرفعك في شيء إلا رجعت إلي مستأخراً لما أكره، أشرت عليك عند وفاة رسول الله، (ص)، أن تسأله فيمن هذا الأمر فأبيت، فأشرت عليك بعد وفاته أن تعاجل الأمر فأبيت، وأشرت عليك حين سماك عمر في الشورى أن لا تدخل معهم فأبيت. احفظ عني الآن واحدة: كلما عرض عليك القوم فقل: لا، إلا أن يولوك، واحذر هؤلاء الرهط فإنهم لا يبرحون يدفعوننا عن هذا الأمر حتى يقوم به لنا غيرنا، وأيم الله لا يناله إلا بشر لا ينفع معه خير! فقال علي لعمه: أما لئن صارت لعثمان لأذكرنه ما أتى، ولئن مات ليتداولونها بينهم، ولئن فعلوا لتجدني حيث يكرهون.»

«إلى هذه الدرجة وصلت الأمور سعياً للكرسي قبل تنصيب عثمان؟» سأل المغيرة ابن السوداء مظهراً كامل الاهتمام.

«نعم هذا ما جرى، والتفت علي بعد أن خاطب عمه وبعض أقاربه فرأى أبا طلحة، فكره مكانه، فقال أبو طلحة: لن تُراع أبا الحسن. فلما مات عمر وأخرجت جنازته صلى عليه صهيب، فلما دفن جمع المقداد أهل الشورى في بيت المسور بن مخرمة، وطلحة غائب، وأمروا أبا طلحة أن يحجبهم، فتنافس القوم في الأمر وكثر فيهم الكلام، فقال أبو طلحة: أنا كنت لأن تدفعوها أخوف مني لأن تنافسوها، والذي ذهب بنفس عمر لا أزيدكم على الأيام الثلاثة التي

أمر، ثم أجلس في بيتي فأنظر ما تصنعون! فقال عبد الرحمن: أيكم يخرج منها نفسه ويتقلدها على أن يوليها أفضلكم؟» توقف ابن السوداء لحظة ورد مبتسماً تحية مالك الأشتر الذي دخل المسجد واتجه للطرف الآخر حيث جلس جماعة لم يتعرف إليهم جندب. وقبل أن يسترسل ابن السوداء في تفاصيل ما حدث بعد ذلك قال له جندب إنهم سمعوا بهذا الأمر أثناء سفرهم من الكوفة إلى المدينة، وسأله عما دار في المسجد لاحقاً أثناء البيعة.

«كان علي شبه متأكد أن أهل الشورى لن ينصفوه، فقد لقي سعداً قبل الاجتماع في المسجد وكان مع علي ابنه الحسين، فقال لسعد مما جاء في سورة النساء: (اتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام) أسألك برحم ابني هذا من رسول الله، (ص)، وبرحم عمي حمزة منك ألا تكون مع عبد الرحمن لعثمان ظهيراً علي. ودار عبد الرحمن لياليه يلقى أصحاب رسول الله، (ص)، ومن وافى المدينة من أمراء الأجناد وأشراف الناس يشاورهم، حتى إذا كانت الليلة التي صبيحتها يستكمل الأجل فاستدعى الزبير وسعداً. بدأ بالزبير فقال له: خل بني عبد مناف وهذا الأمر. قال الزبير: نصيبي لعلي. وقال لسعد: اجعل نصيبك لي. فقال: إن اخترت نفسك فنعم، أيها الرجل بايع لنفسك وأرحنا وارفع رؤوسنا. فقال له: قد خلعت نفسي على أن أختار، ولو لم أفعل لم أردها. إني رأيت روضة خضراء كثيرة العشب، فدخل فحل ما رأيت أكرم منه فمر كأنه سهم لم يلتفت إلى شيء منها حتى قطعها لم يعرج، ودخل بعير يتلوه فاتبع أثره حتى خرج منها، ثم دخل فحل عبقري يجر خطامه ومضى قصد الأولين، ثم دخل بعير رابع فرتع في الروضة، ولا والله لا أكون الرابع ولا يقوم مقام أبي بكر وعمر بعدهما أحد فيرضى الناس عنه. وأرسل عبد

الرحمن المسور فاستدعى علياً فناجاه طويلاً وهو لا يشك أنه صاحب الأمر، ثم نهض فأرسل إلى عثمان فتناجيا حتى فرق بينهما الصبح.» توقع المغيرة أن يسمع من محادثه ما دار بين عبد الرحمن وكل من علي وعثمان، ولكن ابن السوداء خيب آماله وقال: إن ما دار في تلك السهرة لم يُعرف حتى الآن.

«بعد صلاة الفجر حُسم الأمر لصالح عثمان، فرفع عبد الرحمن رأسه إلى سقف المسجد ويده في يد عثمان فقال: اللهم اسمع واشهد اللهم أني قد جعلت ما في رقبتي من ذلك في رقبة عثمان، فبايعه. كشف علي عن رأسه الأصلع وقد احمر وجهه وقال: ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا، (فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) والله يا عبد الرحمن ما وليت عثمان إلا ليرد الأمر إليك، والله كل يوم في شأن! فقال عبد الرحمن: يا علي، لا تجعل على نفسك حجة وسبيلاً. فخرج علي من المسجد وهو يقول: سيبلغ الكتاب أجله.»

في الطريق إلى بيت عثمان استقر رأي المغيرة وجندب أن السر يكمن في موقف سعد، فلو كان مع علي لكانوا ثلاثة ضد عثمان وعبد الرحمن، وظنا أن سعداً على الأرجح قد جعل نصيبه في يد ابن عمه عبد الرحمن، أولم يعلن موقفه في المسجد إلى جانب علي بعد أن بايع عبد الرحمن لعثمان، وذلك حرصاً منه على منع الفتنة.

دخلا بيت عثمان مع غروب الشمس، وكانت المشاعل قد أضيئت في أركانه، فتذكر كل منهما ما كانت عليه بيوت زوجات الرسول (ص) في المسجد، ومنزل أبي بكر أو عمر من بعده. رحب بهما عثمان وكان عبد الرحمن يجالسه مع آخرين، فبارك المغيرة للخليفة وقال لعبد الرحمن: «يا أبا

محمد قد أصبت أن بايعت عثمان.» ثم استدار إلى عثمان وقال: «ولو بايع عبد الرحمن غيرك ما رضينا.» صدمت هذه العبارة جندباً خوفاً من ظن الخليفة أنه يوافقه على هذا التملق، وقبل أن تبدر منه أي كلمات جاء صوت عبد الرحمن حاسماً.

«كذبت يا أعور، لو بايعت غيره لبايعته، ولقلت هذه المقالة.»

«لقد فقد الرجل عينه في سبيل الله.» قال عثمان وهو يمسح لحيته، المصبوغة بالحناء، ليجبر خاطر والي الكوفة. «تفضل بالجلوس وأخبرنا عما خلفك.» اكتفى المغيرة بموقف عثمان المعتدل وكظم غيظه ولم يرد على عبد الرحمن، واتضحت له الصورة بأن صاحب الأمر والنهي هو عبد الرحمن، وأنه على الأرجح لن يكمل مدة عام في الولاية بالرغم من توصية عمر للولاة بذلك.

«ما الذي يسكتك عن إجابة الخليفة عن أوضاع الكوفة؟ » سأل عبد الرحمن المغيرة.

«نعتني بالأعور، وما كنت ستتحمل مني لو نعتك بالأعرج لما أصاب ساقك في موقعة أحد، سامحك الله.» قال المغيرة حين اقتنع أن عبد الرحمن لن يجاري الخليفة في تهدئة الحوار، ثم أضاف: «الكوفة بخير حتى الآن، وإن شاء الله ستبقى كذلك في ظل الخليفة الجديد.»

«لا تضيما المغيرة، لقد كان من أشجع الفرسان معي في القادسية حين كنا ثلاثين ألفا وكان الفرس مئة ألف، وأرسلته مع ستة من القادة الأذكياء لحوار رستم، قائد الفرس وكادوا أن يكسبوه مسلماً.» كان صاحب هذه الكلمات سعد بن أبي وقاص الذي دخل للتو على بيت الخليفة ويبدو أنه سمع ما دار من حديث، فقام إليه المغيرة وتعانقا، ثم جلس إلى جانبه.

«أهلاً بمخولة الرسول الكريم ومن كان ثلث الإسلام وهو ابن السابعة عشرة.» قال المغيرة لسعد حتى يغيظ الشيخين عبد الرحمن وعثمان ويقدمه عنهما بالرغم من أن ثلاثتهم والزبير وطلحة بن عبيد الله أسلموا سوياً بإقناع من أبي بكر الصديق.

«أهل المال والإمارة تحت سقف واحد، فلا بد أن تكون الشياطين هنا أيضاً.»

«وعليكم السلام يا أبا ذر، أجئت لتبايع أم لتناكد؟» استقبل عبد الرحمن الصحابي العنيد صغير الحجم، وأضاف: «من سبقوك إلى هنا جالسوا ابن السوداء في المسجد، وأنت حضرت بعد أن صرخت علينا في الكعبة.»

«ما قلت سوى ما سمعت من حبيبي رسول الله. أمسكت بحلقة باب الكعبة وقلت إني سمعت رسول الله يقول لعلي كلمات ثلاث: اللهم أعنه واستعن به، اللهم انصره وانتصر به، فإنه عبدك وأخو رسولك.» كان أبو ذر يتحدث بصوت جهوري لا يعكس حجم جسمه وسنه، ثم كرر ما يبدو أنه قد أزعج عبد الرحمن وعثمان حين سمعا به: «أشهد لعلي بالولاء والإخاء والوصية، ولست الوحيد الذي يشهد له بذلك من بين أصحاب رسول الله.»

«لقد مرض حبيبنا، عليه الصلاة والسلام، لأيام طويلة، ولم يوصِ لأحد من بعده، ولكنه كلف الصديق بالصلاة في الناس طوال فترة مرضه.» أجاب عبد الرحمن بن عوف أبا ذر الغفاري بصوت أهدأ مما كان يحادث به المغيرة، ثم نظر إلى عثمان وسأل أبا ذر: «أم أنك تشكك في خلافة أبي بكر، ووصيته إلى عمر، واختيار عمر لرجال الشورى وحكمي فيما بينهم؟»

«إنما كررت ما قلته بعد عام من وفاة حبيبنا، وفي كل مناسبة بعد ذلك،

واليوم وغداً، أعلن ما سمعته من الرسول (ص)، مثل قوله: عليٌّ أوَّل من آمن بي، وأوَّل من صدَّقني، وأوَّل من يصافحني يوم القيامة، وهو الصِّدِّيق الأكبر، وهو فاروق هذه الأمة، يفرِّق بين الحق والباطل، هو يعسوب المؤمنين، والمال يعسوب المنافقين.» ومن دون أن يعطي أحداً فرصة لمقاطعته واصل الغفاري حديثه: «نبينا مات ولم يشبع من خبز الشعير، وكانت دروعه مرهونة في السوق، وأبو بكر تصدق بكل ماله من بداية إسلامه، وعمر لم تكن لديه كنوز وضياع، وقد شمل علي في وصيته ولكنكم استبعدتموه.»

«لقد أبعدك أمير المؤمنين عمر إلى الشام ليسلم المسلمون هنا من لسانك، تتقول بكلام وكأنك الصحابي الوحيد وأمين سر الرسول (ص)، تتهم عبد الرحمن بأنه حاباني للمصاهرة التي بيننا.» كانت الصرامة ظاهرة على ملامح عثمان وهو يتحدث أمام الرهط بما يدور في المدينة ومكة وليس فقط على لسان أبي ذر الغفاري. «كان المرحوم، أمير المؤمنين عمر، زوج ابنة علي، أم كلثوم بنت فاطمة الزهراء، فلماذا لم يخصه بالإمارة من بعده إذا كان الأمر يتعلق بالمصاهرة؟ وهل نسيت أنني ذو النورين، صهر الرسول (ص) مرتين؟ ولماذا تعيروننا في امتلاك المال الحلال المُزكى عنه؟ ألم نسقِ المسلمين ونطعمهم ونسلحهم بأموالنا منذ اليوم الأول بينما كنت أنت وقبيلة غفار تنهبون التجار وتقطعون الطريق؟ وهل الزبير الذي وقف في صف علي أثناء الشورى فقير؟ بلى إنه يملك آلاف آلاف الدراهم أيضاً وما كنت ستلومه في مجلسه لو كانت النتيجة في صالح علي. ما تتحدث به أيها الغفاري لا يؤدي إلا إلى الفتنة، فاضبط لسانك وتقبل رأي أغلبية المسلمين، وعد إلى مكتبك في الشام.»

«ألا ترى يا غفاري تفسيراً لحكمة الله في حرمانك من متعة الحياة الدنيا، المال والبنون؟»

«حكمة الله جلية يا عبد الرحمن، ذر أخذه الله مبكراً إلى الجنة، والله لا يريد أن تكويني الفضة والذهب يوم القيامة، ولا يريدني أن أحبو حبواً إلى الجنة.» قال الغفاري في إشارة إلى حديث عن أم المؤمنين عائشة بأنها سمعت الرسول (ص) يقول: إن ابن عوف سيدخل الجنة حبواً، وحين سمع عبد الرحمن بهذا الحديث وزع حمولة قافلة كانت قد وصلته تواً من الشام إلى المدينة، على أمل أن يدخل الجنة ركضاً.

«أبو ذر لا يشكك ولا يفتن، وإنما يعارض شرعاً ويقول ما يظنه صواباً.» قال سعد وطلب من الغفاري أن يبايع، فبايع وخرجا سوياً من بيت الخليفة، وسحب سعد المغيرة من ذراعه ليخرج معهم هو الآخر.

«إن تُرك هذا الرجل وسبيله يجول في بلاد المسلمين ويتقول على الرسول (ص) فإنه سيشعل فتنة.»

«إنه من أصحاب الرسول (ص) يا عبد الرحمن ولن أكمم فاه.» رد عثمان على ابن عوف وقال: «لقد احتجز ابن الخطاب صحابة الرسول (ص) في المدينة حتى لا يُفتن بهم جمهور المسلمين في الأمصار، وحرم عليهم نقل الأحاديث عن الرسول، ولكنه، رحمه الله، أخرج أبا ذر إلى الشام بعيداً عن الرقابة، وطليق اللسان فيما ينسبه إلى الرسول (ص). »

«سأتجه إلى الشام، بعد أن تأذن لي، وسأرافق أبا ذر في السفر وأعمل جهدي في الطريق لإقناعه بتغير الحياة من حولنا، وبضرورة التجاوب مع المتغيرات حتى لا ينوبنا ما آلت إليه الفرس والروم.» رأى جندب أن هذه فرصته للتدخل وإشعار الخليفة بوجوده ونيته على السفر.

«لم يقنعه أحد من قبل يا جندب، ولكن بارك الله فيك، ولا بأس من المحاولة إذا كنت في طريقك إلى الشام، فاسمه مثل اسمك، فلعل وعسى.» قال الخليفة.

«لقد كلفني الخليفة عمر، رحمه الله، بالسفر إلى الشام والقسطنطينية، ومررت بالكوفة لزيارة المغيرة حيث وصلنا خبر مقتل الخليفة، فرأيت العودة إلى المدينة لأسباب كثيرة.» كان الجميع يعرفون العلاقة الوطيدة بين عمر وجندب منذ ما قبل الإسلام، ولكن لا أحد يعرف المهام التي كان ابن الخطاب يُكلف جندباً بها.

«خذ معك ابن السوداء أيضاً إلى الشام يا جندب، وإذا رفض الفكرة أخبرنا حتى نطرده طرداً.»

«سيقبل الخروج معي إن شاء الله.» رد جندب على عبد الرحمن من دون أن يذكر أنه سيحاول هدايته، فالفرق بين ابن السوداء وأبي ذر شاسع، الأول متهم بالفساد والإفساد منذ أن أعلن إسلامه، والآخر معارض حسب مفهومه للشرع. وقد أمسك جندب عن خاطرة راودته بسؤال عبد الرحمن عن الفارق بين كعب الأحبار الجالس معهم الآن وبين ابن السوداء الذي غضب عبد الرحمن حين عرف أنه والمغيرة جالساه.

«ما الأسباب الكثيرة التي تقول إنها أعادتك إلى المدينة بدل مواصلة السفر إلى القسطنطينية؟» قبل أن يجيب جندب عن سؤال ابن عوف أنقذه عثمان حين ذكر الجميع بالصداقة بين عمر وجندب، ثم طلب منه الاستراحة من السفر والعودة في اليوم التالي ليحدثهم عن مشاهداته من رحلات سابقة إلى القسطنطينية. في الطريق إلى منزله استذكر جندب سنوات عمر كخليفة

وتنصيبه لكعب الأحبار بمثابة مستشار له، وكيف كان يرى أبا هريرة ورهطاً من الناس يستمعون إلى قصص كعب عن الأنبياء وما جاء في التوراة والإنجيل، ولم يكن كعب الوحيد الذي يجمع الناس حوله على هذه الروايات والمبالغات خصوصاً وأن عمر كان يكره أن يتحدث أصحاب الرسول (ص) عما سمعوه منه من أقوال، فلم يكن أمام الناس سوى الاستماع لأهل الكتاب الذين اعتنقوا الإسلام، وفي مقدمتهم اليهودي اليمني كعب والآن اليهودي اليمني الآخر عبد الله بن سبأ ابن الحبشية السوداء. لقد تعرف جندب إلى كعب جيداً حين رافقا عمر إلى بيت المقدس، ولم يكن عمر يوماً إلى يقين إذا كان الحبر اليمني قد ترك اليهودية فعلاً لأنه كان دوماً ينعت أحكامه بالإسرائيليات واليهودية، خصوصاً عندما سأله عمر أين يضع قبلة المسجد فأرادها كعب حيث هيكل اليهود. لكن عمر كان أيضاً يستمع إلى قصص كعب المهولة عن العصور السابقة، وسأله مراراً إذا كان هو خليفة أم ملك، لأن كعباً كان يجامله بالادعاء أن له ذكراً في التوراة وأنه الملك الذي سينظف الهيكل في بيت المقدس مما فعل الروم. والآن يبدو أن عثمان هو الآخر سيحافظ على كعب كمفتٍ ومستشار، ففي ذلك إظهار لترابط العهدين، وكعب لن يعدم الحيلة للتملق وتثبيت موقعه.

عندما وصل إلى البيت، وجد جندب أن زوجته قد عرفت بعودته إلى المدينة واستعدت للقائه، فقد شاهده أصغر أولاده الثلاثة يدخل إلى بيت الخليفة فأسرع وأخبر والدته التي تعودت على طول غيابه في السفر. لم تكن الزوجة تعرف إذا كان متزوجاً من أخريات في البلدان التي يكثر السفر إليها ويطيل الإقامة فيها. كانت لديها شكوك تصل أحياناً إلى درجة اليقين بأنه متزوج من نساء أخريات، واحدة في غزة، وأخرى في القسطنطينية وثالثة

في الشام. لكنها ارتاحت مع جندب لأنه لم يحضر لها ضرة أو أكثر هنا، مثل معظم رجال المدينة الذين لديهم عدة زوجات ويكثرون من الطلاق والزواج، عدا ما ملكت أيمانهم من السبي والإماء. كانت سارة واحدة من سبي غزوة بني المصطلق سنة ست من الهجرة، وهي ابنة عم جويرية بنت الحارث بن ضرار سيد اليهود. كلما نظر جندب إلى زوجته يتذكر تلك الغزوة التي انتهت بحديث الإفك عن أم المؤمنين عائشة بنت الصديق. لم تكن غزوة مباركة أبداً، لقد جلبت لعائشة الاتهام، وجلبت لها ضرة جديدة حين تزوج الرسول (ص) جويرية فور أن شاهدها. كان مسلم قد قتل مسلماً آخر بالخطأ في تلك الغزوة وهو الوحيد الذي قتل من المسلمين، وعشرة من اليهود، فحضر أخوه الكافر من مكة مدعياً الإسلام، ثم طالب الرسول (ص) بفدية أخيه وأخذها وهرب إلى مكة منافقاً، وهو ضمن مجموعة صغيرة أهدر الرسول (ص) دمها يوم فتح مكة حتى لو كانوا متعلقين بأذيال الكعبة. وفي تلك الغزوة أيضاً اشتبك الأوس والخزرج مع بعضهم، وتوعد أحدهم المسلمين أن يخرجوا أذلاء من المدينة بعد العودة من الغزوة. وكان هذا ما أغضب الرسول (ص) فأمر بالرحيل فوراً ومن دون استراحات، وأخذوا معهم الغنائم والسبي.

في المدينة أرادت جويرية افتداء نفسها وأرادت الاتصال بأهلها لتوفير المطلوب. فاستأذنت ودخلت على الرسول (ص) وقالت: يا رسول الله أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك، فوقعت في السهم لثابت بن قيس بن شماس، فكاتبته على نفسي وجئتك أستعينك على كتابتي.

قال لها الرسول (ص): «فهل لك في خير من ذلك؟».

قالت: وما هو يا رسول الله؟

قال: «أقضي عنك كتابك وأتزوجك».

قالت: «نعم يا رسول الله قد فعلت». وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله، (ص)، قد تزوج جويرية بنت الحارث. فقال الناس عن سبيهم من اليهود إنهم صاروا أصهار رسول الله (ص) فأرسلوا ما بأيديهم أحراراً. هكذا أعتق بتزوجه إياها مئة من أهل بيت بني المصطلق، فما كانت امرأة أعظم بركة على قومها منها. وقالت جويرية لاحقاً لابنة عمها، سارة، في ذلك، إنها رأت قبل قدوم النبي (ص) بثلاث ليال كأن القمر يسير من يثرب حتى وقع في حجرها، فكرهت أن تخبر به أحداً من الناس، حتى قدم رسول الله (ص)، فلما سبيت رجت ترجمة الرؤيا، ونشطت لذلك. ولم تعرف بعد زواجها بعتق قومها إلا حين جاءت سارة فأبلغتها بالأمر، وهي التي أصبحت زوجة جندب في ذلك العام، بالرغم من صغر سنها إلى درجة أنها لم تحمل إلا بعد سنوات.

«بماذا يتحدث الناس عن موت عمر؟» سأل جندب زوجته بعد أن غير ملابس السفر وجلس مع أولاده بينما سارة تجهز لهم طعام العشاء.

«والله إنهم لا يصدقون، يا أبا عمر، أنّ الخليفة قد اغتيل بهذه السهولة، وأن القتلة هم فقط الهرمزان وأبو لؤلؤة.» قالت سارة وهي تحرك النار تحت القدر أمام الغرفة التي يجلسون فيها. ثم دخلت إليهم وأضافت: «الفقراء يملأهم الحزن على فقدان عمر، وأغنياء المدينة يتوقعون الانفتاح الآن بعد أن تخلصوا من تسلط عمر على شهواتهم.» كانت قد تعودت الحديث بصراحة أمام زوجها حتى حين تنتقد الرجال المقربين منه، أو حتى صديقه الخليفة أيضاً، ولم يحاول هو ردع أفكارها أو الاستخفاف بأخبارها التي تجمعها من معارفها اليهوديات الأصل ومن الجواري ونساء العرب، وكلهن ينقلن لبعضهن ما يقوله رجالهن.

«ماذا يقال إذاً عن حقيقة قاتليه؟»

«قبل تنصيب عثمان كانت التلميحات في كل الاتجاهات، والآن يقال إن عمر لم يكن من المسلمين الأوائل مثل سابقه أبي بكر أو مثل أهل الشورى الستة، وها هي تؤول إلى الأمويين وتبعد عن بيت الرسول.» لم يقاطعها حين نظر إليها مستزيداً «صحيح عثمان من الأوائل ولكن علي بن أبي طالب سبقهم كلهم وهو ابن عم الرسول (ص) وأبو أحفاده، كما أن عثمان شيخ كبير في السبعين وسوف يستعين بقومه من الأمويين ويرق لهم ويبقي كرسيها فيهم. أيامه أو سنواته المقبلة لن تكون سهلة على المسلمين. عموماً أي واحد سيخلف عمر لن تكون حياته يسيرة من المنافقين والمدعين والأعداء الخارجيين.» لم يكن يريد من زوجته تقويماً للوضع العالمي بل ما تسمعه من النسوة في المدينة فهكذا يجمع أفضل الأخبار ويصل إلى التوقعات. سرح ذهنه فيما سيقول غداً لعثمان عن طبيعة عمله مع عمر منذ سنوات ما قبل الإسلام، فإذا ذكر الحقيقة قد يعتقد عثمان أنه يبالغ في أهمية دوره مستغلاً موت الخليفة، وإذا لم يخبره بالحقيقة فإن عمله سيتوقف إذا لم يجد من يستفيد منه من أصحاب القرار. داعبته فكرة أن يكتم السر ويرتاح من هذه المهمة ويستقر عند أم عمر هنا، لكنه قرر أن يترك الأمور لتسير كما هو مقدر لها، وخطط أن يستجمع الليلة أفكاره عما سيقوله للخليفة عن قياصرة الروم وبلادهم.

«أين هم فقراء المسلمين الذين تتحدثين عن زعلهم؟ لقد كادوا أن ينقرضوا في السنوات الماضية.» قال لنفسه بصوت سمعته الزوجة والأولاد ثم أكمل بصوت أوضح مفسراً سبب هذا التساؤل. «كل من شارك في غزوات

أخذ نصيبه من الغنيمة والسبي على قدر ما شارك في المعركة، بفرس أو بعير أو أدرع، أو بسيفه على رجليه، وأهل الشهيد يقبضون الرواتب التي دونها لهم عمر، والمسلمون الأوائل لهم رواتب وأعطيات، وبيت المال مفتوح لكل من يسأل إذا لم يكن له راتب سنوي. إذا تواصلت الغزوات والسبي والتوزيع على الجند فلن يفتقر مسلم، ونصيب أهل المدينة يصلهم من جبي جزية الأمصار وهم جالسون.» لاحظ جندب الاهتمام في عيون أبنائه فقرر أن يذكرهم بإنجازات صديقه وخليفتهم الراحل. «إنه الذي قرر أن يسجل تاريخ المسلمين منسوباً إلى الهجرة النبوية بعد أن كان ينسب إلى عام الفيل. وهو الذي جمع القرآن في الصحف من كل القراءات، وهو الذي نهى عن بيع الجواري أمهات الأولاد، وأمر بقطع الشجرة التي أظلت الصحابة في بيعة الرضوان لأن الناس صاروا يصلون عندها فخاف أن يعبدوها، وبنى الكوفة والبصرة، وقسم الأمصار وأنزل بها العرب، وعين القضاة في الأمصار إلى جانب الولاة، ودون الدواوين لكل بلد، وحمل الدقيق من مصر عبر البحر إلى جدة والمدينة وخزن الدقيق والسويق والتمر والزبيب لإعانة المنقطع والضيف.»

«وهو الذي أخرج اليهود من جزيرة العرب إلى الشام، وأخرج أهل نجران إلى ناحية الكوفة.» قال عمر بن جندب من دون أن يتضح لوالده إذا كان مؤيداً أو محتجاً على ذلك الفعل. وعندما نظر إليه والده للاستزادة قال الصبي: «الرسول، عليه الصلاة والسلام صاهرهم، والخليفة عمر رحمه الله أبعدهم.» نظر جندب إلى زوجته فحركت أكتافها معلنة أن لا علاقة لها بما يقول ابنها، ثم تذكر جندب ما جعله يبتسم.

«لم يبعد اليهود فقط ولكنه أبعد الشبان الحلوين أيضاً...» لقد تذكر مشاركته لعمر في جولة تعسس ليلية. «...ذات ليلة تنصتنا على امرأة في خدرها وسمعناها تقول: هل من سبيل إلى خمر فأشربها... أم هل سبيل إلى نصر بن حجاج! في الصباح سأل عمر عن نصر هذا وأرسل إليه فإذا به من أصبح الناس وجهاً وشعره يتسربل حول وجهه. أمره عمر أن يطم شعره فإذا جبهته تزيده جمالاً، فأمره أن يعتم فازداد حسناً. وهنا قال له عمر: والذي نفسي بيده لا تجامعني بأرض أنا بها. وأمر له بمصلحة وأخرجه إلى البصرة. وفي ليلة أخرى خرج يعس فسمع نسوة يتساءلن أي أهل المدينة أصبح؟ واستقر رأيهن على أبي ذئب. فلما أصبح نظر إليه عمر فإذا هو من أجمل الناس، وقال له أنت والله ذئبهن، وأمره بالخروج من المدينة، فاختار الرجل البصرة أيضاً لأن نصر ابن عمه فأرسله عمر هناك إلى جواره.»

«ليشارك في غواية نساء البصرة.» قال ابن جندب بينما والدته تضحك وهي تقدم لهم الطعام.

«غالبية نساء البصرة والكوفة لديهن بعولهن، لكن نساء المدينة بدون رجال إذ خرجوا للفتح وللغزو والغنيمة... لقد كان أحياناً يساعد الفقراء بفضل تعسسه في الليل فيحمل إليهم الطعام على ظهره.» قال جندب لأولاده وقد سموا باسم الله وباشروا تناول الطعام.

«وكان قبل أن يصبح خليفة يتعسس على نساء الرسول (ص) عندما يخرجن لقضاء حاجتهن ليلاً.» قالت سارة بنبرة حيادية حتى تجبر زوجها على ذكر ذلك للأولاد.

«كان ذلك يا أولاد في سنوات العسرة، الخامسة والسادسة والسابعة من الهجرة. كان السفهاء يعمرون شوارع المدينة، والباغيات ينتشرن في كل

مكان، والمسلمون آنذاك ضعفاء وقلة، وقريش تتوعد وتهدد وتهاجم، فصار السفهاء يتقولون على المسلمات في الشوارع ويدعون أنهم لا يميزونهن عن غيرهن، ولذلك طالب عمر رسولنا أن يحجب النساء وفي مقدمتهن نساء الرسول (ص)، وصار هو يترصدهن في الليل ليرى إذا كن يحتجبن أم لا حين يغادرن المنزل لقضاء حاجتهن.»

«حقيقة الأمر أن رسولنا الحبيب كان أرحم وأعدل بالإناث ويحاول حمايتهن بإبعاد طباع الجاهلية عنهن.» لم تزد سارة على هذا التعليق وانشغل الخمسة هوينة في تناول الطعام حتى سأل الابن الأوسط، عبد الله، عن معنى تدوين الدواوين.

«كان أبو بكر، رحمه الله، يوزع ما في بيت المال بالتساوي على المسلمين، وكان ذلك المال قليلاً في الأصل ولكن عمر عارض أن يأخذ الذي قاتل ضد الرسول (ص) مثل الذي قاتل معه، وأن يساوي بين الذين أسلموا وهاجروا مع الرسول (ص) وبين الذين أسلموا مع فتح مكة خوفاً من السيف. هكذا عندما تولى عمر وجاءت أول دفعة أموال من البحرين وقيمتها خمسمائة ألف درهم، أي مائة ألف درهم خمس مرات، صعد عمر المنبر وحمد الله وسأل الناس هل يكيل لهم المال كيلاً أم يوزعه عليهم عداً. هنا أخبره بعض الحضور أن الروم يدونون الدواوين، فأمر الخليفة كتاب قريش، وهم عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم، بكتابة ديوان العساكر الإسلامية.» أخبر جندب ابنه بأنه سيفسر له الأمر، إذ لاحظ التساؤل في عيون الصبي. «بدأوا بتدوين أسماء بني هاشم حسب قرابتهم للرسول، وإذا استووا في القرابة فكانوا يقدمون أهل السابقة والذين شهدوا المعارك والغزوات، وفرض لكل

منهم 5000 درهم، ثم تدوين الأنصار حسب قرابتهم لسعد بن معاذ، وفضلوا الذين شهدوا بدراً من المهاجرين والأنصار ومهاجري الحبشة ومن شهد أحداً وأبناء البدريين، ولم يفضل على أهل بدر سوى أزواج الرسول (ص) إذ فرض لكل منهن 12000 درهم ولمسلمة الفتح 2000 درهم ولغلمان من أبناء المهاجرين والأنصار 2000 درهم، ولأهل اليمن وقيس بالشام والعراق لكل رجل 2000 درهم. لم ينسوا أحداً حتى اللقطاء فرض لكل منهم 100 درهم يأخذه وليه ويزيد كل عام حتى يبلغوا الحلم.»

«لكن الكثير من أصحاب الرسول، عليه الصلاة والسلام، أغنياء ولا يحتاجون لدراهم بيت المال!» قال الصبي.

«لكنه حقهم يا عبد الله، ولا يجبرهم أحد على أخذه...»

«زينب بنت جحش، زوج الرسول (ص)، رفضت تقبل ما خصص لها، وعندما وصلها العطاء وضعت عليه غطاء وأمرت جاريتها أن تغرف منه وتوصل إلى عائلات أكثر حاجة، ثم دعت ربها أن لا يدركها عطاء آخر من عمر، فاستجاب الله لدعوتها وماتت.» قالت سارة مقاطعة حديث زوجها.

«أم المؤمنين زينب، رحمها الله، كانت محتاجة إلى الأموال، ولكنها وزعت حصتها لتضمن مكاناً في الجنة.» قال جندب وأضاف: «ما يقصده عبد الله هم الأغنياء من الصحابة، بعضهم كان غنياً قبل الإسلام، وبعضهم جمع ثروته بعد أن أسلم، وتحديداً بعد وفاة الرسول (ص) وأبي بكر، أمثال هؤلاء سوف يزيد تعدادهم الآن بعد عمر. ثروة هؤلاء يا عبد الله ليست من مخصصاتهم السنوية.» أثناء هذا الحديث خرجت سارة ونادت على ابنها عمر أن يُخرج ما تبقى من الطعام.

«كم عمرك يا أبي؟» سأل عمر أباه بعد أن انتهى من إخراج الطعام وعاد ليجلس في الغرفة مع بقية العائلة.

«ألا تعرف عمري يا عمر؟» استغرب جندب سؤال ابنه، وأبلغه أنه في منتصف الخمسينيات، ولم يطلب منه تفسيراً لسبب هذا السؤال.

«كنت أظن أنه في هذه الحدود، أطال الله عمرك وأبقى عليك صحتك.» قال عمر وصمت قليلاً، ثم خطف نظرة إلى أمه. كانت تصغر والده كثيراً، فلم تبلغ الثلاثين بعد، وقد تزوجها والده قبل ثمانية عشر عاماً. غمزته بعينها مشجعة ليواصل حديثه، فأضاف: «هل لنا أخوة أو أخوات في مكان آخر...» تلعثم الصبي وضحك جندب وهز رأسه معاتباً زوجته.

«ألا تكفين عن هذا الهراء؟» قال لسارة ثم نظر إلى وجه عمر: «لا يوجد ما يمنعني من الزواج، ولو كنت متزوجاً لما أخفيت عن أمك ذلك، ولو كان لك أخوة وأخوات لأبلغتك عنهم. النساء يا بني لا يصدقن ما هن فيه من نعمة، ولا يكففن عن الشك...»

«ومن يعتني بك إذاً عندما تطيل البقاء في الشام أو القسطنطينية أو...» أرادت تعويم الحديث بعد أن أصابها الاتهام.

«أهذا ما يشغل بالك فعلاً، ومن يعتني بي في الطريق بين بلاد الله؟ إن معظم أيام حياتي أقضيها في الترحال. لكن إذا رغبتِ فيمكنني أن أتزوج غداً قبل أن أسافر إلى الشام.» قال لها بين الجد والمزاح، فادعت أن لا علاقة لها بسؤال الولد.

13

«عائلة هرقل لم يحالفها الحظ منذ البداية، فقد كثرت خلافاتهم الداخلية، العائلية والدينية، وأحاطت ببلادهم قوى الأعداء باستمرار، ولا يبدو أن طالعهم سيتغير في القريب من السوء إلى السعد.» هكذا بدأ جندب روايته للحضور وهو جالس قبالة الخليفة، ولم يكن قد أخبره بعد بطبيعة عمله في عهد عمر. «قبل أن يموت هرقل، منذ أربع سنوات، كان قد نصب اثنين من أولاده قياصرة إلى جانبه. في البداية وقبل سنوات، توج ابن زوجته مارتينا، هيركلونس، ثم توج ابن زوجته الأولى، قسطنطين الثالث، وذلك قبل شهر من موته عن ست وستين سنة.»

«صحيح أن مارتينا كانت أخته؟» سأل كعب الأحبار بينما علت الدهشة وجوه بعض الحضور. وعندما لم يجب جندب على الفور وأغمض عينيه وتنهد، قال الخليفة للحضور أن يصبروا على الراوي ولا يقاطعوه، وظهر الذهب الذي يشد أسنان عثمان الأمامية.

«لا لم تكن مارتينا أخت هرقل، ولكنها ابنة أخته، وزواجه منها تسبب له في صراع دائم مع الكنيسة.» أزاح جندب هذا السؤال بسرعة ومن دون تفاصيل أو إشارة إلى أن زوجته الأولى كانت على ذمته عندما تزوج الثانية، وهو ما تحرمه الكنيسة، ثم واصل الحديث على الفور: «بعد ثلاثة أشهر من

حكم الأخوين سوياً مات قسطنطين الثالث ابن فابيا، الزوجة الأولى لهرقل، فثارت الوساوس وانتشرت الشائعات أن مارتينا سممت ابن ضرتها حتى يتفرد ابنها بالحكم. أبناء هرقل من الزوجة الأولى، فابيا، اثنان، والزوجة هي ابنة القائد الحربي رغاتوس. ولهرقل من مارتينا، ابنة أخته، تسعة معظمهم مرضى ومعوقون بالشلل والطرش والخرس، وتقول الكنيسة إن هذا عقاب إلهي لأنه تزوج ابنة أخته ورفض طلاقها بالرغم من الضغوط عليه، بل كان يحملها معه في معظم الغزوات خوفاً عليها من المؤامرات لو تركها في القسطنطينية. وكان لهرقل أبناء لقطاء أيضاً، منهم واحد اسمه جون، وقد تآمر هذا الابن اللقيط مع ابن عمه القائد ثيودور ورجل رفيع المستوى اسمه ديفيد شاروني. وعندما اكتشف هرقل المؤامرة أمر بقطع أنف جون ويديه ونفاه إلى جزيرة نائية، وأمر لشريكيه ثيودور وديفيد بنفس العقاب إلى جزيرة أخرى على أن يقطع ساق كل منهما عند الوصول إلى المنفى.» كان جندب قد استعاد من ذاكرته هذه الأجزاء من تاريخ عائلة هرقل بالأمس وهو مستلق قلق يفكر كيف سيخبر الخليفة عن تاريخ هذه العائلة، لأن عمر كان يطالب بأدق التفاصيل وشرح للأجواء التي عايشها جندب هناك أو عرف عنها، وكان ذلك جزءاً من عمله مع عمر حتى قبل أن يصبح أميراً للمؤمنين، لكنه الآن يسرد للخليفة الجديد خليطاً من الحقائق على شكل رواية موجزة يحاول أن يجعلها مشوقة.

«عندما اقتنع الجميع أن مارتينا سممت ابن ضرتها، ولم تشفع لها شهادات الأطباء أنه كان مصاباً بداء السل، رأت الكنيسة فرصتها للانتقام، فألغت وصية هرقل الأب أن تكون زوجته وابنة أخته مارتينا إمبراطورة مع ولديه، وحاكموها وجدعوا أنفها وأنف ابنها حتى لا يتمكن من اعتلاء العرش مرة أخرى. ونصبوا

هيراكليوس كونسطانتين ابن الإمبراطور المسموم، قسطنطين الثالث، وكان عمره آنذاك أحد عشر عاماً وهو الآن دون السادسة عشرة، وهو الذي تفاوض باسمه بطريرك الإسكندرية كيروس على تسليم المدينة للمسلمين قبل عامين. طبعاً كان وما زال هذا الإمبراطور يحكم مع مجلس وصاية، وفي البداية نصب عمه نفسه إمبراطوراً مع الصبي، ثم احتج الرومان على تصرفه بشدة فسمح للصبي بالمشاركة في الحكم ثم أُجبر عمه بعد عام على التنحي في العام الماضي، ولا يزال هناك معارضون لهذا الإمبراطور الشاب بين قوات الرومان في أفريقيا.»

«الذين يقاتلهم عمرو بن العاص الآن على أطراف طرابلس يعارضون الإمبراطور إذاً؟» سأل الخليفة وهو يتحسس لحية كثيفة شديدة الاصفرار من آثار صبغة الحناء الجديدة.

«نعم، إنهم كذلك وقائدهم هناك، جريجوري، أعلن نفسه إمبراطوراً على الروم ولا يعترف بسلطات الإمبراطور الشاب أو مجلس الوصاية في القسطنطينية.»

«مقاتل الرومان تنبع دوماً من جندهم في أفريقيا...» قال كعب الأحبار، وتذكر جندب فوراً أنه سرد لكعب أثناء سفرهم مع عمر إلى بيت المقدس، الكثير عن تاريخ الروم قبل انقسامهم إلى إمبراطوريتين وعن مشاكل العواصم مع قادة الجند، فقرر التدخل ومواصلة الحديث حتى لا يفتح المجال لكعب ببث علومه وتحويل الأمر وكأنه شأن معلوماتي ديني يهودي.

«نعم، نعم، جريجوري يحشد الجند ويأمل في صد التقدم الإسلامي ليصبح بطلاً وإمبراطوراً، وهذا ما فعله هرقل الجد قبل أربع وثلاثين سنة. آنذاك

كان هرقل إبناً لجنرال وبطريرك يحمل الاسم نفسه ويعيش في قرطاج كوالٍ للروم على أفريقيا، وعندما تعمقت أزمة القسطنطينية العسكرية والاقتصادية والأخلاقية تحرك هرقل الإبن بدعم من أبيه واحتل القسطنطينية التي سادتها الفوضى آنذاك. فقد ثار الجند بقيادة فوقا على القيصر موريقي الذي كان بدوره صهراً للفرس، فتحرك كسرى لينتقم لوالد زوجته، واحتل الفرس معظم ولايات الروم مثل الشام وأرمينية وزحفوا إلى بيت المقدس ودخلوا، قبل ثلاثين سنة، المدينة عنفاً بعد حصار دام عشرين يوماً وجعلوها نهباً للحرائق وقتلوا ستين ألف مسيحي، ودمروا كنيسة القيامة وأخذوا الصليب، وهذا ما صدم النصارى في كل مكان ومهد لثورة هرقل على الفوضى، خصوصاً وأن الفرس احتلوا الإسكندرية أيضاً وقطعوا القمح عن القسطنطينية.» نظر جندب إلى الخليفة مباشرة وأضاف: «لقد وصل الفرس إلى أطراف القسطنطينية آنذاك، وبعدما أخذ هرقل الحكم ونظم الجيش والاقتصاد استطاع استعادة كل الأراضي مرة أخرى من الفرس واعتبر بطلاً عند الروم، خصوصاً عندما عاد إلى مدينته بعد تحرير بيت المقدس، فقد استقبلوه في العاصمة بالترانيم وأغصان الزيتون. وجريجوري الآن في أفريقيا يحاول تكرار التجربة بوقف التقدم الإسلامي هذه المرة، وإعادة النظام إلى القسطنطينية، ومحاولة استعادة الأمصار البيزنطية التي فتحناها. إنهم يرون في فتوحاتنا تكراراً شبيهاً لما فعل الفرس، ويأملون أن تتكرر تجربتهم باستعادة ما فقدوا.» لم تفارق عيون جندب وجه الخليفة وكأنه يحذره مما هو آت.

«هل تتوقع أنهم يطمعون في استعادة الأراضي بعد أن شاهدونا نفتح بلاد فارس وما بعدها في الشرق، والشام وفلسطين ومصر وما بعدها في الغرب؟»

سأل المغيرة صديقه جندب وكان بين حضور الجلسة في المسجد بعد صلاة المغرب.

«إن الشبه كبير، في المكان والزمان، بين ما احتله الفرس من بلاد الروم وما فتحناه حتى الآن. ويسهل على الروم الأمل إذا عثروا على قائد يوحد قواهم وينظم بلادهم، كما فعل هرقل قبل هزيمة الفرس وردهم إلى بلادهم آنذاك.» صبر جندب قليلاً ثم قال: «إن استشهاد الخليفة عمر بيد فارسي الأصل نصراني الديانة قد يُفهم من الروم، ومن الفرس أيضاً، كإنجاز يمكنهم البناء من حوله، وهم بالطبع يتوقعون الآن خلافات داخلية بين المسلمين، على غرار ما يحدث عندهم كلما قتل أو رحل أحد أباطرتهم.»

«كيف تمكن هرقل من استعادة ولايات بلاده من الفرس؟» جاء السؤال من الفتى محمد بن أبي بكر في الصف الثاني بين الحضور الملتفين في شبه دائرة حول المنبر حيث يتكئ الخليفة على وسادة وضعها على الدرجة الأولى للمنبر، ويسند صدغه براحة يده بينما يغطي شعره شحمة أذنه من جهة ويتدلى حول يده من الجهة الأخرى.

«بعد الاستيلاء على السلطة، باشر هرقل في إعادة هيكلة المجتمع. قسم البلاد إلى مناطق حربية أخذت اسم تيمة، ووضع كل منها تحت قيادة رجل قوي وحكيم له سلطات مدنية وعسكرية، ووزع الجنود على التيم وكلفهم بتدريب كل السكان على الدفاع، وطالب الجند بانتزاع معاشهم وصنع سلاحهم من خير الأرض. هكذا أصبحت لديه قوات بدون مصاريف، وشعب مدرب على الدفاع، هذا بالإضافة إلى القوات الخاصة في العاصمة والأسطول البيزنطي. كان الهدف أن يلبي الجميع النداء في حالة الحرب من دون إرهاق ميزانية

الدولة، وهكذا خاض سنوات من الحرب وانتصر على الفرس.» صمت جندب لحظات فإذا بالخليفة يقول: كما توقع رسول الله وأنزل في القرآن قبل أن يعرف هرقل أنه سينتصر. وترحم الحضور على النبي وساد صمت لم يطل.

«تحديثه لبلاده نجح في صد الفرس ولكنه فشل أمام جيوشنا وفتحنا الشام قبل أن يموت منذ خمس سنوات.»

«هذا صحيح يا بني.» قال عثمان لمحمد بن أبي حذيفة بعطف. «لقد استنفدوا هم والفرس الكثير من طاقاتهم في قتال بعضهم بعضاً طوال عقود، فأصبح من السهل علينا الانتصار عليهم.» ومحمد هذا أحد مواليد الحبشة حيث هاجر والداه مع عثمان آنذاك، ثم استشهد والده في موقعة اليمامة فرباه عثمان.

«نعم.» قال جندب مؤيداً لاستنتاج الخليفة وأضاف: «والسبب الآخر أنهم اختلفوا فيما بينهم، فأصبح رؤساء التيم يرفضون الأوامر المركزية، ويسعون للاستقلال بأقاليمهم، واشتعلت الخلافات بين المدن والريف، وعاشوا فترات اختلاف في القصر بعد موت هرقل لم تتوقف حتى الآن. الاختلافات الداخلية هي أول سبل الانهزام الذاتي.» لم يستمع محمد بن أبي حذيفة لهذه الحكمة من جندب إذ انشغل في مسح وإيقاف الدماء التي تدفقت من أنفه فجأة، وانشغل بعض الحضور في إسعافه. لقد كثر الرعاف بين الناس في الأيام الماضية وأصبح كل منهم يعرف ما يجب عمله مثل إرجاع رأس المصاب للخلف، ووضع أقمشة مبللة بالماء على الجباه. أسنده الفتى محمد بن أبي بكر وساعده على الاسترخاء. ومحمد هذا هو الآخر ممن تربّوا في كنف غير آبائهم، فقد ولد بين المدينة ومكة في حجة الوداع، وبعد أن توفي

والده، الخليفة أبو بكر، تزوج علي بن أبي طالب أمه أسماء بنت عميس، ويتربى محمد الآن في كنف زوج أمه.

«المهارة الحربية لها دور هي الأخرى في خلق الانتصارات أو جني الهزائم.» قال جندب مستأنفاً الحديث «لقد أبدى هرقل شجاعة وحنكة في مواجهة الفرس، أمن الدفاع الشعبي في بلاده، ولم ينازل الفرس في الأراضي المحتلة بل توجه إلى عقر دارهم، ووصل نينوى، وجعلهم يخرجون من البلاد المحتلة ويلحقونه إلى فارس، وهناك استعجلهم قبل أن يستريحوا وألحق بهم هزيمة ساحقة أدت إلى عزل كسرى وقتله وتنصيب ابنه شيرويه الذي عقد الصلح مع هرقل وأعاد كل البلاد المحتلة بما فيها مصر والشام، أعادها إلى هرقل وذلك قبل فتح مكة بعامين فقط، أي منذ ست عشرة سنة.»

«ما هي أصول قبيلة هرقل؟» سأل الخليفة جندب وهو ينظر إليه مباشرة حتى لا يتسرع غيره من الحضور بالإجابة، وكانوا أكثر من ثلاثين ولم يكن الخليفة السبعيني أكبرهم سناً، ولا ابن أبي بكر أصغرهم.

«أصولهم من الأرمن، والده كان جنرالاً لدى الإمبراطور موريقي، ونشط في معارك أسبق ضد الفرس وذلك قبل خمس وخمسين سنة من يومنا هذا، وقد ولد الإبن هرقل وترعرع في قرطاج بأفريقيا حيث كان والده الجنرال قائداً وبطريركاً هناك. ولأنهم ليسوا رومان، فقد صبغوا البلاد بالسمات اليونانية الأقرب للأرمن، وأهملوا اللغة اللاتينية لصالح اليونانية التي أصبحت رسمية، وكذلك استبدلوا الألقاب الرومانية باليونانية.» قال جندب وقد التفت باتجاه باب المسجد لتفحص أسباب نظر البعض إلى هناك، ثم تابع: «بعد خسارته معركة أجنادين قبل عشر سنوات وبعدها اليرموك اشتد على هرقل مرض الاستسقاء، ولم يكن قد شارك في المعارك ضد المسلمين، ولكنه كان يضع

الخطط لجنرالاته ومات شيخاً منهكاً وهو على الدين المسيحي، ولكنه أحب التعاليم الإسلامية وتعرف إلى ديانتنا عن قرب.» توقف جندب عن الحديث وهو يبحث في جيب قميصه ثم أخرج ديناراً ذهبياً عليه رسم لهرقل وولديه، وقدمه للخليفة ليرى الصورة قبل أن يدور الدينار على الحاضرين.

«رحم الله نبينا.» قال الزبير بن العوام، بعد أن أنهى حديثاً قصيراً مع طلحة بن عبيد الله قرب باب المسجد ثم اتجها سوياً حيث يجلس الخليفة مع الجماعة بانتظار موعد صلاة العشاء. وأضاف: «لقد أرسل إلى ملك الروم رسالة كادت أن تدفعه إلى الإسلام.» وصل الزبير إلى الخليفة الذي اعتدل في مجلسه وتصافحا بحرارة وظهر الارتياح على وجه الخليفة كون الزبير قد أيد علياً في قضية الشورى، ومن الواضح أنه لم يلتقه منذ ما بعد البيعة. ثم واصل الزبير حديثه وأخذ يسرد على الحضور ما كتب في تلك الرسالة: «من محمد بن عبد الله ورسوله، إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى. أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين. فإن توليت فعليك إثم الأريسيين. ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون.» أصبح الحضور ينظرون إلى أعلى كون الزبير من أطول الناس وتخط رجلاه الأرض إذا ركب الدواب، وحين يجلس معتدلاً ترتفع هامته عمن يجاورونه. ويبدو أن طلحة، الذي لم يحضر مجلس الشورى ولكنه بايع عثمان حين عاد إلى المدينة، قد حادث الزبير وجلبه معه ليجالس الخليفة قليلاً ولإزالة التوتر من الأجواء، وجلس طلحة إلى جانبه وواجها الخليفة مباشرة.

«كان أهل الطالع قد فسروا لهرقل حلماً بأن مملكة جديدة من المُطهرين سوف تهزم كل أعدائها، فظنت حاشيته أنهم اليهود وطلبوا منه أن يرسل الأوامر لقواده أن يقتلوا كل يهودي في مقاطعتهم.» قال طلحة وفاز بانتباه الجميع لهذه البداية لروايته. «عندما وصلته رسالة الرسول (ص) أخذ هرقل يجمع المعلومات وصار يلتقي التجار للمزيد من الأخبار الآتية من مكة والمدينة وعرف أن المسلمين هم الذين حلم بهم وليسوا اليهود. وقد حاول هرقل أن يقنع الحاشية والقساوسة بالإسلام، ولكنهم رفضوا بشدة، ثم استهجنوا رغبته تلك، فقال لهم، حتى لا يثوروا عليه، إنه كان يختبر قوة إيمانهم وتمسكهم بالمسيحية.» ضحك بعض الحضور وتأسف بعضهم الآخر على فشل هرقل في إقناع قومه. «كان هرقل طوال عهده يحاول التوفيق بين الفرق المسيحية المتنازعة، وخصوصاً بين الموحدين من سكان شرق الإمبراطورية والمثلثين من الروم، ولكنه فشل ولم يتقبل أي من الطرفين حلوله الوسطية.» قال طلحة ذلك ليذكر بعض الذين ظهر على ملامحهم التشكك في روايته عن محاولة هرقل تبني الإسلام، فالرجل مؤمن بالله ولا تهمه التفاصيل طالما تم الاتفاق عليها.

«بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿الٓمٓ ١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم
مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ
وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ
ٱلرَّحِيمُ ٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٦﴾. صدق
الله العظيم.» قال الخليفة بخشوع مذكراً بما جاء في القرآن الكريم حول الصراع الفارسي الرومي وبفرحة المؤمنين يوم تحققت الآية وانتصر الروم،

جند هرقل. اقترب موعد الصلاة، ورأى جندب الفرصة سانحة لتذكير الخليفة ببعض الأمور تمهيداً للاستفسار لاحقاً فيما إذا كان سيطلب منه مواصلة عمله. سرح ذهن جندباً في ذكريات تلك الأيام العطرة، فقد حرضه عمر بن الخطاب آنذاك على مرافقة دحية الكلبي الذي حمل رسالة النبي إلى هرقل والتقياه في حمص بعد أن مرا على بُصرى الشام، ولم يعرف دحية آنذاك ما كان يعرفه عمر بأن جندباً قد التقى هرقل في القسطنطينية قبل أن يصبح أمبراطوراً.

«أتذكر يوم سلمنا الرسالة إلى هرقل، وكان في حمص، فاحترم قدوم دحية، وطلب مني أن أترجم له الرسالة، وانتهزت الفرصة بإطلاعه على ما جاء في سورة الروم وأن النصر سيكون لهم على الفرس، وأن المسلمين والمؤمنين سيفرحون لذلك، وقصصت عليه أسباب نزول تلك السورة في مكة قبل الهجرة وتأكيد الرسول (ص) وأبي بكر أن الروم سينتصرون بعد سنين على الفرس. وفرح هرقل كثيراً بتلك البشارة لأن قواته كانت تتجمع في حمص لمواصلة المسير إلى بلاد فارس، ولأن سبع سنين كانت قد مرت على نزول الآية». نظر جندب إلى الخليفة ليستطلع رد فعله، لكن الشيخ وزع نظراته على الفتيان من الحضور ومطالبتهم لجندب برواية ماذا أخبر هرقل آنذاك عن أسباب نزول الآية.

«قبل الهجرة من مكة كسب الفرس جولة حربية ضد الروم وهزموهم في بُصرى الشام، وفي أذرعات القريبة منها. وعندما وصل الخبر إلى مكة شق على النبي عليه الصلاة والسلام، وذلك من قِبَل أن الفرس مجوس، بينما الروم أهل كتاب، وفرح المشركون بمكة وشَمِتوا، ولَقُوا أصحاب النبي (ص) وهم فرحون، وقالوا: إنكم أهل كتاب، والنصارى أهل كتاب، وقد ظهر إخواننا من

أهل فارس على أخوانكم من أهل الكتاب، وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرَنَّ عليكم، فأنزل الله تلك الآيات.» ثم استكمل جندب روايته وسط إنصات الجميع: «بعد نزول الآيات خرج أبو بكر إلى المشركين، فقال: أفرِحْتم بظهور إخوانكم على إخواننا؟ فلا تفرحوا، ولا يَقَرَّنَّ اللهُ أعينكم، فوالله لتَظْهَرَنَّ الروم على فارس، كما أخبرَنا بذلك نبينا. فقام إليه أبيّ بن خلَف، فقال: كذبت. فرد أبو بكر: أنت أكذب يا عدو الله، اجعل بيننا أجلاً أناحِبك عليه على عشر قلائص مني، وعشر قلائص منك، فإن ظهرت الروم على فارس غرِمتَ، وإن ظهرت فارس غرمتُ إلى ثلاث سنين، فناحبه، ثم جاء أبو بكر إلى النبي (ص) فأخبره، فطلب منه أن يزايده في الخَطَر ويماده في الأجل. فخرج أبو بكر، فلقي أُبياً، فقال: لعلك ندمت، فقال: لا، تعال أزايدك في الخطر، وأمادّك في الأجل، فاجعلها مئة قلوص إلى تسع سنين. قال: قد فعلت، فلما أراد أبو بكر الهجرة، طلب منه أُبَي كفيلاً بالخطر إن غُلِب بعد مرور السنوات التسع، فكفل به ابنه عبد الرحمن، فلما أراد أُبيّ الخروج إلى أحُد، طلبه عبد الرحمن بالكفيل، فأعطاه كفيلاً، ومات أُبيّ من جرح جرحه إياه النبي (ص) في الموقعة، وظهرت الروم على فارس لما دخلت السنة السابعة، وجاء ذلك النصر بعد شهرين من استلام هرقل رسالة النبي تدعوه للإسلام، وسماعه بسورة الروم التي تبشره بالنصر. عندما أخذ أبو بكر الخطر من ورثة أبيّ، وجاء به إلى النبي (ص)، قال له النبي: تصدّقْ به. وقد كان هذا قبل تحريم القمار.» انتهى جندب من حديثه ونهض الجميع إلى الصلاة خلف الخليفة الشيخ، عريض المنكبين، وكان المسجد قد امتلأ فجأة بالمصلين.

تذكر جندب بعد الصلاة، وقبل مغادرة المسجد، ملامح دحية الكلبي

الجميلة، ووصف النبي له، وكيف كان جبرائيل يزوره على شكل دحية الذي انتقل من هنا قبل سنوات للحياة في الشام. مرت بخاطره أحداث الأشهر التي سبقت حمل الرسالة إلى هرقل. في مطلع ذلك العام بعث الرسول (ص) عكاشة بن محصن في أربعين رجلاً إلى الغمر، فهرب القوم ونزل عكاشة على مياههم وبعث في آثارهم وأخذ منهم مئتي بعير استاقها إلى المدينة. ثم بعث الرسول (ص) أبا عبيدة بن الجراح إلى ذي القصة، فهربوا ثم كمنوا ليلاً وقتلوا عشرة مسلمين ممن طاردوهم، وأفلت قائدهم محمد بن مسلمة جريحاً. بعد ذلك بعث النبي بزيد بن حارثة إلى الحموم، فأصاب امرأة من مزينة يقال لها حليمة، فدلتهم على محلة من محال بني سليم، فأصابوا منها نعماً وأسروا من المشركين، وكان فيهم زوج حليمة هذه، فوهبه رسول الله (ص) لها وأطلقهما. وأعيد بعث زيد بن حارثة أيضاً إلى بني ثعلبة في خمسة عشر رجلاً، فهربت منه الأعراب فأصاب من نعمهم عشرين بعيراً، ثم رجع بعد أربع ليال. تذكر جندب أيضاً كيف أُخذت الأموال التي كانت مع أبي العاص بن الربيع فاستجار بزينب بنت رسول الله (ص) فأجارته. وكانت العير قد أخذت منه وأصحابه وفر هو من بينهم، وكان زوج زينب وابن خالتها، وقد هاجرت زينب بعد بدر من دونه، فلما جاء المدينة استجار بها فأجارته في المسجد بعد صلاة الصبح، فأجاره لها رسول الله (ص)، وأمر الناس برد ما أخذوا من عيره فردوا كل شيء كانوا أخذوه منه حتى لم يفقد منه شيئاً. فلما رجع بها إلى مكة وأدى إلى أهلها ما كان لهم معه من الودائع أسلم، وخرج من مكة راجعاً إلى المدينة، فرد عليه رسول الله (ص) زوجته زينب بالنكاح الأول، وكان بين هجرتها عنه وإسلامه ست سنين.

اعتلت البسمة وجه جندب حين تذكر قصة عودة دحية وحيداً من عند هرقل وقد أجازه بأموال وخلع، فلما كان بحسمى لقيه ناس من جذام، فقطعوا عليه الطريق فلم يتركوا معه شيئاً، فبعث إليهم رسول الله، (ص)، زيد بن حارثة. ومن أحداث الفترة التي تلت كان خروج علي بن أبي طالب في مئة رجل إلى أن نزل إلى حي من بني أسد بن بكر، وذلك أنه بلغ رسول الله (ص) أن لهم جمعاً يريدون أن يمدوا يهود خيبر، فسار إليهم بالليل وكمن بالنهار، وأصاب عيناً لهم فأقر له أن القوم بعثوا إلى خيبر يعرضون عليهم الدعم على أن يجعلوا لهم تمر خيبر في المقابل.

«نائم بعيون مفتحة يا جندب؟» قال الخليفة وقد توقف ليستمع إلى الرد في طريقه خارجاً من المسجد إلى البيت، ثم وضع يده على كتف جندب الذي وقف بزاوية قائمة من دون تمايل، وقد تنبه جندب إلى عظم كراديس الخليفة، وإلى جمال وجهه.

«كنت أتذكر الأيام الخوالي...»

«وأين وصلت الآن؟» قاطعه الخليفة وقد وضع يده على ظهر جندب وسارا سوياً.

«تذكرت سرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل، ووصية الرسول (ص) له، إن هم أطاعوا فتزوج بنت ملكهم.» قال جندب وكان قد لمح عبد الرحمن يسير من خلفهم.

«نعم وقد أطاعوا وعمل عبد الرحمن بالوصية.» قال الخليفة وضم إليه جندباً وانتحيا خارج المسجد. «لماذا قطعت رحلتك وعدت مع المغيرة؟ »

«كنت مكلفاً من قبل صديقنا عمر، رحمه الله، بزيارة القسطنطينية، فمنذ

صداقتي معه كنت أمده بما أعرف من معلومات عن الروم، وبعد رحلتنا الأولى سوياً وعدته بالعودة الى مكة بالمزيد مما أجمع، وبالفعل عدت هنا بعد سنوات دراستي في الإسكندرية، وصرت أسافر بطلب منه للإجابة عن أسئلة محددة، ولجمع معلومات مفيدة.» توقف جندباً ونظر إلى عيون عثمان الذي شاركهم في تلك الرحلة من مكة إلى الشام، أيام شبابه، وأضاف جندب: «لم يكن أحد يعرف بتلك المهام، وعندما سمعت بمقتله قررت العودة لأستمع إلى رأيك في مستقبل هذا العمل.»

«كان بوسعك إذاً، وأن تكف عن عملك من دون أن يعرف أحد.» قال الخليفة ببطء وقد تذكر كثرة رؤيته لعمر وجندب وهما يتحادثان بانسجام. «معرفة شؤون الروم ضرورية لنا الآن.» تذكر الخليفة حديث جندب عن احتمال أن يطمع الروم في استعادة بلادهم التي فتحها المسلمون. «من الأفضل يا جندب أن تواصل عملك، ولكن اجعل تواصلك مع معاوية في الشام، فهو أقرب إلى الروم وسيكون عليه التعامل معهم في كل الأحوال، وكلما حضرت إلى المدينة لزيارة أهلك فأخبرني بما لديك، وكيف تسير الأمور عندهم.» تفاجأ جندب وصمت لحظات، لم يكن يرغب في زيادة عدد الذين يعرفون بعمله هذا، ولكن ما يقوله الخليفة بدا له منطقياً، فمعاوية هو جار الروم الأقرب والأجدر أن يكون أول من يطلع على شؤون الروم.

«عين الصواب، ولكنك تعرف أن الكتمان بهذا الشأن يُسهل عملي...»

«لا أرى ضرورة للكتمان الشديد، ولكني لن أخبر أحداً عما كنت تفعله، وبوسعك الاتفاق مع معاوية على درجة السرية.» هكذا قاطع الخليفة جندباً وأنهى الحديث بتذكيره بمن يصحبهم معه إلى الشام. كان جندب متردداً

عندما فكر بأمر الكتمان، وأنقذه الخليفة بمقاطعة سؤاله، ثم بالموافقة على استمرار الكتمان، في المدينة على الأقل. قرر الصمت وتغيير مجرى الحديث عن رفقاء السفر، فأي زيادة الآن قد تحرك ذهن الخليفة الشيخ للبحث في سبب السعي وراء السرية لجهد يفخر ويتباهى به كل من يعمله. لمع في ذهنه أن التعامل مع معاوية، الداهية، لن يكون بسهولة، وخطر له أن يطالب معاوية بإفشاء معلومات عامة وأخرى مضللة لإمبراطور الروم وحاشيته ليكسب ودهم وليظنوا أنه يعمل لصالحهم. هكذا يحفظ خط العودة لو ظن معاوية أو غيره أنه جاسوس مزدوج.

في الطريق إلى البيت تلبسته ذكريات محددة من العام السادس للهجرة، وما حل بالذين خانوا العهد. تذكر سرية كرز بن جابر الفهري إلى العرنيين الذين قتلوا راعي النبي، واستاقوا النعم، فبعث في آثارهم كرز بن جابر ومعه عشرين فارساً. وكان القوم قد أتوا الرسول (ص) فقالوا: يا رسول الله إنا أناس أهل ضرع ولم نكن أهل ريف، فاستوخمنا المدينة، فأمر لهم بذود وراع وأمرهم أن يخرجوا فيه، فيشربوا من ألبانها. فانطلقوا حتى إذا كانوا بناحية الحرة، قتلوا راعي رسول الله (ص) ومثلوا بجثته، ثم استاقوا الذود، وكفروا بعد إسلامهم. بعد أن عرف تفاصيل الأمر، بعث النبي كرزاً في طلبهم فأمر بهم، فقطع أيديهم وأرجلهم، وسمل أعينهم، وتركهم في الحَّرة حتى ماتوا وهم كذلك. لم يكن من الأعوام السهلة أو السعيدة على رسول الله، ففي تلك السنة أيضاً كانت غزوة بني المصطلق غير المجدية، والتي انتهت بخلاف بين الأنصار والمهاجرين. وعندما حان موسم الحج صد المشركون الرسول (ص)، ووقع صلح الحديبية الذي ألزم المسلمين بإعادة الهاربين إليهم من

مكة، وحرم الاتفاق المسلمين من دخول مكة ذلك العام والعودة في الموسم التالي.

الذي أثار هذه الذكريات في ذهن جندب، هو رؤيته وحديثه للشيخ عثمان الذي تسبب في بيعة الرضوان تحت الشجرة قبيل الصلح. فعندما عرف المسلمون أن الكفار في مكة استعدوا لصدهم عن الكعبة، أراد النبي أن يرسل لهم عمر بن الخطاب ليؤكد لهم أنهم جاؤوا مُعتمرين غير مسلحين. حينها تردد عمر في الذهاب لمكة بحجة أن لا سند عائلياً له هناك يحميه من الكفار، واقترح أن يرسل النبي عثمان بن عفان، الذي استجاب وذهب إلى مكة وأخبر الكفار بغرض الزيارة، ولكنهم طلبوا منه أن يعمر وحده فرفض، واحتجزوه مكرهاً لفترة أذاعوا خلالها أنه قتل. عندما وصل الخبر للنبي أمر صحابته الذين كانوا معه ويبلغون ألفا وخمسمئة أن يبايعوه تحت الشجرة على أن لا يهربوا من المعركة، فقد قرر الانتقام لمقتل عثمان، وقد بايع الرسول (ص) عن عثمان بأن وضع يداً فوق الأخرى، وهذا من دواعي تشريف عثمان الآن. ظهرت الحقيقة بعدم قتل عثمان قبل المعركة. حين وصل عروة بن مسعود الثقفي مندوباً عن قريش وشاهد تجمع المسلمين، فعاد إلى مكة وقال: أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك، كسرى وقيصر والنجاشي، والله ما رأيت ملكاً يعظمه أصحابه كما يعظم أصحاب محمد محمداً. والله ما انتخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمر ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم، وما يحدون إليه النظر تعظيماً له، ثم قال: وقد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها. فيما بعد صار النبي يُشبه ملامح عروة بالمسيح بن مريم، عليه السلام.

أرسلت قريش سهيل بن عمرو لعقد الصلح، فاستبشر النبي بقدومه وعقد الصلح بشروط وجدها المسلمون صعبة، ولكنها تعهدت بكف القتال لعشر سنوات، وفتحت للمسلمين زيارة الكعبة، وفرضت عليهم أن يردوا من يأتيهم مسلماً من قريش بدون إذن وليه، وألا ترد قريش من يعود إليها من المسلمين. فلما فرغ من قضية كتاب الصلح، قال النبي لأصحابه: قوموا فانحروا، ثم احلقوا، وما قام منهم رجل، حتى قالها ثلاث مرات. فلما لم يقم منهم أحد، قام ولم يكلم أحداً منهم حتى نحر، ثم دعا حالقه. فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق رؤوس بعض. من جراء شروط هذا الصلح حُرمت المسلمات على المشركين في آية الممتحنة التي أمرت بنقض بند من الاتفاق بعدم إعادة المسلمين المهاجرات الى المشركين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ ﴾.

كان ذلك قبل ثمانية عشر عاماً فقط، وهاهو عثمان يتولى الخلافة وقد بلغ الثامنة والستين من عمره، وهو أكبر أهل الشورى الستة الذين اختاروه، وألينهم عريكة، وهذا ما يبشر المسلمين بعهد من الاسترخاء بعد خلافة عمر القوية الشديدة. دار في ذهن جندب وهو يقارن بين الخليفتين أن عثمان كان من الأوائل في الإسلام بينما عمر لم يسلم إلا في العام السادس على البعثة، وكان الرجل من أغنياء مكة وأسياد قريش وتحدى أقاربه بإشهار إسلامه، بينما كان عمر متقشفاً رعى الإبل لوالده وتحمل قساوته ولم يكن كريماً متسامحاً. عثمان تزوج ابنة النبي، رقية، وكان معها أول من هاجر إلى الحبشة بأمر من النبي لحماية الإسلام من خطر الإبادة في مكة حيث كان عمر وغالبية قريش

يترصدون بالمسلمين. تذكر جندب أن صديقه الآخر، عمرو بن العاص، لم يسلم إلا في العام الثامن للهجرة، وخاض سابقاً مع خالد بن الوليد وعثمان بن طلحة، اللذين أسلما معه، معارك عدة ضد الرسول (ص) والمسلمين.

«هذا من عظمة الإسلام.» قال جندب يحدث نفسه ويسترسل في التمعن. تمنى لو كان اختيار عثمان بموافقة كل مجلس الشورى، وأن يستمر هذا المجلس الذي أسسه عمر في تقديم النصح للخليفة، وكلما مات أحدهم ضموا إليهم غيره، وكلما مات خليفة اختاروا واحداً من بينهم. هكذا تنتهي الخلافات بين المتنافسين على الخلافة ويبقى الأمر شورى. «لن يحصل هذا كما يبدو من الأجواء، فعلي بن أبي طالب غير راض عن هذه البيعة.» قال جندب ذلك وأخذ يراجع نفسه إذا كان علي محقاً. هو الأقرب للنبي، وأول المسلمين من الشبان الصغار، وزوج ابنة الرسول (ص)، فاطمة، وأصبح علي أباً لأحفاده، لكن الرسول (ص) لم يقدمه للخلافة عندما مرض، بل قدم صهره أبا بكر البعيد عنه في قرابة الدم. كما أن الخلافة لم تعد إلى علي بعد أبي بكر وبقيت بعيدة عن الهاشميين، وهذا ما يعتبره جندب عظمة الإسلام الذي لا يورث الخلافة، بل يختار الرجل المناسب للزمان المناسب. بالرغم من كون عثمان من أقارب النبي، إلا أن الخلافة لم تقدم إليه لهذا السبب. لقد تزوج ابنتي الرسول (ص)، رقية، ثم بعد موتها أم كلثوم. يلتقي نسب عثمان مع النبي في الجد الرابع، عبد مناف. ومن جهة أمه أروى بنت كريز، فهي ابنة عمة الرسول (ص)، ابنة البيضاء بنت عبد المطلب. وعثمان بالطبع أموي وابن عم أبي سفيان بن حرب الذي كان أشد أعداء الرسول (ص)، وعندما مات عفان تزوجت أروى من عقبة بن أبي معيط وأنجبت منه ثلاثة أبناء وبنتاً صاروا أخوة

لعثمان، وكان أبوهم العدو رقم واحد للنبي، إذ كان يؤذيه أثناء الصلاة ويضع الجيف على رقبته وظهره أثناء السجود، وصار من الذين أحل النبي دمهم، ولما أسر في غزوة بدر وقدم للقتل، نادى: يا معشر قريش مالي أقتل بينكم صبراً؟! فقال له النبي «بكفرك واجترائك على الله ورسوله».

أخبر جندب زوجته في اليوم التالي لعودته إلى المدينة، أن تذهب مجدداً لتعزية نساء الخليفة عمر، بينما يذهب هو لتعزية آل عمر من أخوته وأبنائه الذين يعرفهم جميعاً منذ أيام الصبا وصداقته الأولى مع عمر. آنذاك وبعدما عادا من جده حاملين الأخشاب لسقف الكعبة، تزوج عمر من قريبة بنت أبي أمية بن المغيرة بن مخزوم، وأصبحت أخت قريبة، أم سلمة، لاحقاً أم المؤمنين، لكن قريبة بقيت على شركها بعد إسلام عمر الذي طلقها حين نزل قوله تعالى (ولا تُمسكوا بعصم الكوافر) فتزوجها معاوية بن أبي سفيان، والذي بدوره طلقها بعد فتح مكة واعتناقه مثل أمه وأبيه الإسلام. ثم أسلمت قريبة، فتزوجها عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، فأصبحوا من أسلاف رسول الله. ولم تنجب قريبة لعمر، على عكس زوجته الثانية قبل إسلامه، وهي أم كلثوم بنت جرول الخزاعية التي أنجبت لعمر زيداً وعبيد الله، ولكنها لم تسلم معه، فطلقها ليتزوجها كافر من قومها هو أبو جهم بن حذيفة. زوجة عمر الثالثة، زينب بنت مظعون أخت عثمان بن مظعون، تزوجها أثناء الجاهلية ثم أسلمت معه وهاجرا سوياً من مكة إلى المدينة ومعهما ابنهما عبد الله بن عمر وبنتهما حفصة التي قتل زوجها وأصبحت من أمهات المؤمنين، وأنجبت زينب لعمر أيضاً عبد الرحمن. كان جندب يعرف كل ذرية صديقه عمر، وكل زوجاته قبل الإسلام وبعده. فقد تزوج عمر أيضاً جميلة بنت ثابت الأنصارية،

وهي أخت عاصم وكان اسمها عاصية فسماها الرسول (ص) جميلة وذلك في العام السابع للهجرة عندما تضعضع وضع المسلمين في المدينة فحاولوا التقرب أكثر للأنصار، وأنجبت جميلة عاصماً، ثم طلقها عمر فتزوجها زيد بن حارثة فولدت له عبد الرحمن الذي صار أخاً لعاصم بن عمر. تزوج عمر بعد جميلة عاتكة، بنت زيد بن عمرو بن نفيل، وأخت سعيد، أحد العشرة المبشرين بالجنة. وكانت عاتكة قبل ذلك زوجة لعبد الله بن أبي بكر، ومازالت عاتكة على ذمة عمر حتى قتل، وأنجبت له عياض، وهي صغيرة السن وعلى الأرجح أنها ستتزوج بعد انقضاء العدة. الزوجة الأخرى التي مازالت على ذمة عمر هي أم حكيم بنت الحارث بن مخزوم، وكانت تحت عكرمة بن أبي جهل فاستشهد عنها في معركة اليرموك فخلف عليها خالد بن سعيد بن العاص، فاستشهد عنها يوم مرج الصفر، فتزوجها عمر بن الخطاب وولدت له فاطمة.

أصغر زوجات عمر، والتي أوصى جندب زوجته أن تعزيها باسمه أيضاً، هي أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب وحفيدة النبي التي تزوجها الخليفة وهي طفلة، قبل ست سنوات فقط، وأنجبت أخيراً زيداً ورقية. وكان جندب قد حمل من أم كلثوم هدايا لزوجة هرقل، وجلب لها مثلها، ولذلك كان يراها كلما سافر وعاد في مهامه إلى الشام والقسطنطينية. ولم تكن أم كلثوم آخر نساء عمر، إذ كان عنده أيضاً لهية اليمنية وفكيهة وكلتاهما أم ولد، إذ أنجبت الأولى عبد الرحمن الأوسط وأنجبت الثانية زينب وهي الأصغر بين أبناء الخليفة. أما قصة زواجه من أم كلثوم فيتذكرها جندب بكل التفاصيل إذ كان لصديقه الآخر عمرو بن العاص دور في تنسيق الأمر. أراد عمر أن يتزوج بأم كلثوم بنت أبي بكر الصديق، فذهب وخطبها من أختها، أم المؤمنين، عائشة.

وعندما سألت عائشة أختها قالت لا حاجة لي فيه، إنه خشن العيش شديد على النساء، لا يضحك ولا يمازح. هنا أرسلت عائشة إلى عمرو ليخلصها من هذا الموقف، فطمأنها وذهب إلى عمر وقال: بلغني خبر أعيذك بالله منه. وعندما استفسره عمر الخبر، أضاف: خطبت أم كلثوم بنت أبي بكر. قال عمر نعم، أفرغبت بي عنها أم رغبت بها عني؟ فأجابه عمرو: ولا واحدة، ولكنها حدثة نشأت تحت كنف أمير المؤمنين في لين ورفق، وفيك غلظة، ونحن نهابك وما نقدر أن نردك عن خلق من أخلاقك، فكيف بها إن خالفتك في شيء فسطوت بها، وكنت قد خلفت أبا بكر في ولده بغير ما يحق عليك. اقتنع عمر وسأل عمرو كيف وماذا سيقول لعائشة عند التراجع عن الخطبة، وهنا تعهد له عمرو بإيصال الرسالة لعائشة، وسأله أن يدله على خير منها، فقال عمر نعم. إنها أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب، قال له عمرو، فتعلق عمر بها بسبب من رسول الله. وكما رفضته بنت أبي بكر، رفضته أيضاً أم أبان بنت عتبة بن ربيعة التي قالت إنه يغلق بابه ويمنع خيره ويدخل عابساً ويخرج عابساً. وهذا ما عانت منه أم كلثوم بنت علي لاحقاً.

لقد مات الإمبراطور هرقل قبل ثلاث سنوات فقط، وكان جندب قبل ذلك يحمل الرسائل بين الخليفة عمر والإمبراطور البيزنطي، وبعد زواجه من أم كلثوم بعامين خرج جندب برسائل، فحملته أم كلثوم بعض الطيب وأخفاشاً مما تستعمله النساء ليوصلها إلى زوجة هرقل كهدية. ويتذكر جندب كيف فرحت الملكة بالهدايا كونها من زوجة الخليفة وابنة الرسول، كما كانوا يسمونها، وأرسلت بالمقابل مع جندب رسالة شكر وهدايا رقيقة، من ضمنها عُقد فاخر مما يصلح لنساء الملوك. عندما عاد جندب إلى المدينة أبلغ الخليفة

بنتائج رحلته وسلمه البريد بما فيه هدية الملكة إلى أم كلثوم، وأبلغه بالطبع أنه حمل هدية منها إلى الملكة. هنا عبس وجه عمر، ووبخ جندب كونه لم يبلغه بهدية أم كلثوم إلى زوجة هرقل، ودعا فوراً لصلاة جامعة وكأن بلاد المسلمين أمام خطر داهم لا يسمح بانتظار الصلاة العادية. سمع الناس النداء فلبوه واجتمعوا في مسجد الرسول، فصلى بهم ركعتين ثم وقف وقال: إنه لا خير في أمر أبرم عن غير شورى من أموري، قولوا في هدية أهدتها أم كلثوم لامرأة ملك الروم، فأهدت إليها امرأة ملك الروم.

قال بعض الناس ما معناه: هو لها. وقال آخرون: يا أمير المؤمنين إنك كنت تعلم أنا قد كنا نهدي الثياب وغيرها لنستثيب، وتحدث غيرهم لصالح أن تأخذ أم كلثوم هديتها، وأنها فعلت خيراً بإرسالها هدية. استمع عمر إليهم ثم قال: إن جندباً هو رسول المسلمين للروم، وإن البريد بريد المسلمين الذين عظموا أم كلثوم في صدورهم، ثم نظر إلى الهدية وأمر بأن تعود إلى بيت مال المسلمين. لقد عانت أم كلثوم من مواقف عديدة مشابهة، فعندما فتح جند سارية بن زنيم المزيد من بلاد الفرس أصابوا غنائم كثيرة منها سفط جميل من جوهر ثمين، فاتفق الجند أن يرسلوه هدية إلى الخليفة كونه من حصتهم من الغنائم. دخل الرسول على الخليفة في بيته وقد وضع أكلاً من خبز وزيت وملح، فجعل عمر يقول لزوجته أم كلثوم: ألا تخرجين يا هذه فتأكلين؟ ردت عليه: إني أسمع حس رجل عندك. قال: أجل. فما كان منها إلا أن قالت: لو أردت أن أخرج إلى الرجال لاشتريت لي غير هذه الكسوة، ولكسوتني كما كسا عبد الله بن جعفر امرأته، وكما كسا الزبير امرأته، وكما كسا طلحة امرأته.

قال لها عمر: أما يكفيك أن يقال أم كلثوم بنت علي وامرأة أمير المؤمنين

عمر. فردت عليه: ما أقل غناء ذلك عني. هنا قال عمر لضيفه: كُل، فلو كانت راضية لكان الطعام أطيب مما ترى.

كان العديد من صحابة النبي وأصدقاء عمر قد تراهنوا عندما تزوج عمر ابنة علي أنه سوف يرق في معاملته ويلطف من أخلاقه، وذلك لما شاهدوه من فرحة واستبشار بقبول علي تزويجه حفيدة الرسول (ص). فبعد أن أشار عمرو عليه، تذكر عمر أنه سمع النبي يقول: كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي. هكذا اتجه عمر إلى بيت علي ليكون موصولاً برسول الله. سأل عمر علياً أن يعطيه ابنته فرد عليه: يا أمير المؤمنين إنك تعلم أنني قد حبست بناتي على أولاد أخي جعفر الطيار، وإن أم كلثوم لا تزال صغيرة على الزواج.

زوّجنيها يا علي! والله يا أبا الحسن ما على ظهر الأرض يرصد من حسن صحابتها ما أرصد، وأرصد من كرامتها ما لا يرصده أحد. وواصل الخليفة الإلحاح والترغيب أنه سوف يراعيها ويرضيها حتى قال له علي: قد فعلت وسأبعثها إليك، فإن رضيتها فقد زوجتكها!! بقية القصة أن علياً أعطى ابنته ثوباً وطلب منها أن تذهب إلى الخليفه وتقول: إن أبي قد أرسلني بهذا الثوب، وهو يقرئك السلام ويقول: إن رضيت هذا الثوب فامسكه، وإن لم ترضه فرده. أجابها عمر من دون أن ينظر إلى الثوب الذي تحمله: بارك الله فيك، وفي أبيك، قد رضينا ما قال. أبلغت أم كلثوم والدها بما جرى وأنه لم ينظر إلى الثوب فأخبرها أن الخليفة أصبح زوجها الآن: يا بنية قد زوجتك إياه، وهو زوجك. كان عمرها لم يبلغ الثانية عشرة بعد.

انطلق عمر، بعد مغادرة أم كلثوم بالثوب، إلى المسجد النبوي حيث مجلس المهاجرين الذي يلتقي فيه عثمان وعلي والزبير وطلحة وعبد الرحمن

وغيرهم من أوائل المهاجرين. أطل عليهم فرحاً ووجهه مشرق فحياهم وقال: هنوني وزفوني. فهنأه الحضور وقالوا: بمن يا أمير المؤمنين؟ أجابهم عمر: بأم كلثوم بنت علي وابنة فاطمة الزهراء. وحدث أصحابه بما سمع من النبي: كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة ما خلا سببي ونسبي، وكل ولد، فإن عصبتهم لأبيهم، ما خلا ولد فاطمة، فإني أنا أبوهم وعصبتهم. وقال لهم عمر أيضاً: كنت قد صحبت النبي، فأحببت أن يكون هذا النسب بالإضافة إلى الصحبة. دفع الخليفة أربعين ألف درهم مهراً لأم كلثوم، وكسا أباها بُرداً ومازال يلبسه حتى الآن.

14

«أما بعد، فإني أدعوكم إلى اللَّه الذي أنعم عليكم وعلمكم الإسلام وهداكم من الضلالة. وأنقذكم من الكفر. ونصركم على العدو. وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة. وأنشدكم اللَّه وأذكركم حقه وحق خليفته أن تنصروه بعزم اللَّه عليكم فإنه قال: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾[الحجرات: 9] فإن أمير المؤمنين بُغي عليه، ولو لم يكن لعثمان عليكم إلا حق الولاية لحق على كل مسلم يرجو إمامته أن ينصره، فكيف وقد علمتم قدمه في الإسلام، وحسن بلائه، وأنه أجاب اللَّه وصدق كتابه، واتبع رسوله، واللَّه أعلم به، إذ انتخبه فأعطاه شرف الدنيا وشرف الآخرة! وإني أقص عليكم خبره. إني شاهدة أمره كله. إن أهل المدينة حصروه في داره، وحرسوه ليلهم ونهارهم، قيامًا على أبوابه بالسلاح يمنعونه من كل شيء قدروا عليه حتى منعوه الماء، فمكث هو ومن معه خمسين ليلة وأهل مصر قد أسندوا أمرهم إلى محمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر وطلحة والزبير فأمروهم بقتله. وكان معهم من القبائل خزاعة وسعد بن بكر وهذيل وطوائف من جهينة ومزينة وأنباط يثرب. فهؤلاء كانوا أشد الناس عليه. ثم إنه حصر، فرشق بالنبل، فجرح ممن كان في الدار ثلاثة نفر. فأتاه الناس يصرخون إليه ليأذن لهم في القتال فنهاهم وأمرهم أن يردوا

إليهم نبلهم فردوها عليهم. فما زادهم ذلك في القتل إلا جرأة وفي الأمر إلا إغراقًا فحرقوا باب الدار. ثم جاء نفر من أصحابه فقالوا: إن ناسًا يريدون أن يأخذوا من الناس بالعدل فاخرج إلى المسجد يأتوك فانطلق فجلس فيه ساعة وأسلحة القوم مطلة عليه من كل ناحية. فقال: ما أرى اليوم أحدًا يعدل. فدخل الدار وكان معهم نفر ليس على عامتهم سلاح. فلبس درعه وقال لأصحابه: لولا أنتم ما لبست اليوم درعي. فوثب عليه القوم فكلَّمهم ابن الزبير وأخذ عليهم ميثاقًا في صحيفة بعث بها إلى عثمان. عليكم عهد اللَّه وميثاقه أن لا تقربوه بسوء حتى تكلّموه وتخرجوا. فوضع السلاح، ودخل عليه القوم يقدمهم محمد بن أبي بكر. فأخذ بلحيته ودعوا باللقب. فقال: أنا عبد اللَّه وخليفته عثمان فضربوه على رأسه ثلاث ضربات، وطعنوه في صدره ثلاث طعنات وضربوه على مقدم العين فوق الأنف ضربة أسرعت في العظم، فسقطت عليه، قد أثخنوه وبه حياة، وهم يريدون أن يقطعوا رأسه فيذهبوا به فأتتني ابنة شيبة بن ربيعة فألقت بنفسها معي فوطئنا وطئًا شديدًا وعُرِّينا من حلينا وحرمة أمير المؤمنين أعظم. فقتلوا أمير المؤمنين في بيته مقهورًا على فراشه. وقد أرسلت إليكم بثوبه عليه دمه فإنه واللَّه إن كان أثم من قتله فما سلم من خذله. فانظروا أين أنتم من اللَّه، وأنا أشتكي كل ما مسنا إلى اللَّه عز وجل وأستصرخ بصالحي عباده. فرحم اللَّه عثمان ولعن قتلته وصرعهم في الدنيا مصارع الخزي والمذلة وشفى منهم الصدور».

عندما انتهى معاوية من مطالعته بريد نائلة بنت الفرافصة، زوجة عثمان بن عفان، انقلب لون وجهه إلى الأحمر، ونظر إلى النعمان وجندب طالباً المزيد من التفاصيل، فالرسالة موجزة ورسمية ومبهمة بعض الشيء. «لماذا تقول

بنت الفرافصة إنها وابنة شيبة: وطئنا وعرينا من حلينا وحرمة أمير المؤمنين أعظم؟»

نظر جندب والنعمان إلى بعضهما ثم قال النعمان: «حاولت زوجتا الخليفة منع المعتدين من قطع رأس عثمان، فألقتا بنفسيهما عليه، وقطعت أصابع نائلة، وتعرى بعض من جسدها أثناء التدافع، فقال أحدهم ما أكبر عجيزتها، وسلبوها الحلي ونهبوا الدار وأسرعوا لنهب بيت المال...»

«هل اعتدوا عليهن؟ أجبني بصراحة يا جندب فالنعمان يعوم الإجابة؟»

«هذا لم يحصل، ولم يتقول الناس بذلك، ولكن تفاصيل الحدث تحمل ما يكفي من الأهوال.» قال جندب وقد تعود طوال السنوات العشر الماضية على التعامل مع معاوية. وكان جندب والنعمان بن بشير الخزرجي قد اتفقا أثناء المسير من المدينة إلى الشام على التجاوب مع أسئلة معاوية بالتفصيل ولكن من دون توجيه اتهامات مباشرة لأحد.

«من هم القتلة؟ من هم المسؤولون عن القتلة؟ ماذا فعل أصحاب رسول الله هناك؟ كيف سكت أهل مدينة الرسول على حصار خمسين يوماً وتجويع وتعطيش الخليفة عثمان ثم هدر دمه وعرضه وماله؟» بعد هذه الأسئلة طاف معاوية بناظريه على قميص عثمان الملطخ بالدم وأصابع زوجته وعلى جندب والنعمان وآخرين ممن يتقاطرون إلى المجلس عندما سمعوا بوصول الأخبار من المدينة.

«أنت تعرف كل مقدمات ذلك الحدث، فمنذ غادرت المدينة بعد موسم الحج السابق والأمور آخذة في التعقيد ووضع الخليفة يتدهور يوماً بعد يوم...»

«ليته سمع مني آنذاك وأذن لي بإرسال حراس إليه من الشام، ولكنه رفض الحضور هنا ورفض الحماية هناك حتى لا يثقل على أصحاب رسول الله.» قال معاوية مقاطعاً النعمان ثم صمت ليستمع منه إلى أواخر الأحداث، فقد وصلته قبل أسابيع رسائل من الخليفة عثمان يخبره فيها عن الحصار المفروض عليه في البيت ويستنجده الدعم.

«لقد غادر المصريون وأصحابهم من البصرة والكوفة، غادروا المدينة بعدما تحدث إليهم علي بن أبي طالب ومحمد بن مسلمة، وذلك حسب العهد الذي أخذه علي على الخليفة واقتنعوا به ظاهرياً. ولكنهم عادوا سوياً إلى المدينة، فلما رجعوا انطلق إليهم محمد بن مسلمة فسألهم عن سبب عودتهم، فأخرجوا صحيفة في أنبوبة رصاص وقالوا: وجدنا غلام عثمان بالبويب على بعير من إبل الصدقة في طريقه إلى مصر، ففتشنا متاعه فوجدنا فيه هذه الصحيفة التي يأمر عثمان فيها واليه في مصر بجلد عبد الرحمن بن عديس وعمرو بن الحمق وعروة بن البياع وحبسهم وحلق رؤوسهم ولحاهم وصلب غيرهم ممن ذهبوا معهم إلى المدينة. وقالوا إنهم شاهدوا الغلام وسألوه عن مسيره وهل معه كتاب فقال: لا. فسألوه في أي شيء هو، فتغير كلامه، فأنكروه وفتشوه وأخذوا الكتاب منه وعادوا، وعاد الكوفيون والبصريون. فلما عاد أهل مصر وأخبروا بذلك محمد بن مسلمة قالوا له أيضاً: قد كلمنا علياً ووعدنا أن يكلمه، وكلمنا سعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد، فقالا: لا ندخل في أمركم. وقالوا لمحمد بن مسلمة ليحضر مع علي عند عثمان بعد الظهر، فوعدهم بذلك، فدخل علي ومحمد بن مسلمة على عثمان فاستأذنا للمصريين عليه، وعنده مروان، فقال: دعني أكلمهم. فقال عثمان لمروان: أسكت فض الله فاك! ما أنت وهذا الأمر؟

أخرج عني! فخرج مروان: وقال علي ومحمد لعثمان ما قاله المصريون بصدد الصحيفة، فأقسم بالله: ما كتبته ولا علم لي به.»

«لقد لفقوا وزيفوا الصحيفة ليجدوا سبباً للعودة وقتل الخليفة هذه المرة.» قال معاوية بينما الحضور صامتون ويشد بعضهم لحاهم من الغيظ والقهر مما يسمعون في رواية النعمان.

«لقد صدق علي ومحمد كلام الخليفة فوراً بأنه لا علم له بهذه الصحيفة، ونسبوها إلى مروان. ثم دخل عليه المصريون فلم يسلموا عليه بالخلافة، فعرف الخليفة الشر فيهم، وتكلموا فذكر ابن عديس ما فعل عبد الله بن سعد في مصر بالمسلمين وأهل الذمة والاستئثار بالغنائم، فإذا قيل له في ذلك قال: هذا كتاب أمير المؤمنين يتذرع به. وذكروا شيئاً مما أحدث واليه في مصر، ثم قالوا لعثمان: وخرجنا من مصر ونحن نريد قتلك فردنا علي بن أبي طالب ومحمد بن مسلمة وضمنا لنا النزوع عن كل ما تكلمنا فيه، فرجعنا إلى بلادنا فرأينا غلامك وكتابك وعليه خاتمك تأمر عبد الله بجلدنا والمثلة بنا وطول الحبس...»

«وكيف عاد الكوفيون والبصريون سوياً مع المصريين وكانت طرقهم في مغادرة المدينة مختلفة؟ » طرح معاوية السؤال، مقاطعاً حديث النعمان، وتركه من دون إجابة.

«مجدداً حلف عثمان أمام المصريين أنه ما كتب ولا أمر ولا علم له بالكتاب، وكان علي ومحمد يؤيدانه بأنه لا علم له وأنه لم يخلف ما عاهد. فقال المصريون: فمن كتبه؟ قال: لا أدري. قالوا: فيجترئ عليك ويبعث غلامك وجملاً من الصدقة وينقش على خاتمك ويبعث إلى عاملك بهذه الأمور العظيمة وأنت لا تعلم؟ قال: نعم. قالوا: ما أنت إلا صادق أو كاذب،

فإن كنت كاذباً فقد استحققت الخلع لما أمرت به من قتلنا بغير حق، وإن كنت صادقا فقد استحققت أن تخلع نفسك لضعفك عن هذا الأمر وغفلتك وخبث بطانتك، ولا ينبغي لنا أن نترك هذا الأمر بيد من تقطع الأمور دونه لضعفه وغفلته، فاخلع نفسك منه كما خلعك الله! فقال لهم الخليفة: لا أنزع قميصاً ألبسنيه الله، ولكني أتوب وأنزع. قالوا: لو كان هذا أول ذنب تبت منه لقبلنا منك، ولكنا رأيناك تتوب ثم تعود ولسنا منصرفين حتى نخلعك أو نقتلك أو تلحق أرواحنا بالله تعالى، وإن منعك أصحابك وأهلك قاتلناهم حتى نخلص إليك. فقال عثمان: أما أن أتبرأ من خلافة الله فالقتل أحب إلي من ذلك، وأما قولكم تقاتلون من منعني فإني لا آمر أحداً بقتالكم، فمن قاتلكم فبغير أمري قاتل، ولو أردت قتالكم لكتبت إلى الأجناد فقدموا علي أو لحقت ببعض أطرافي. وكثرت الأصوات واللغط من الحضور، فقام علي فخرج وأخرج المصريين ومضى عائداً إلى منزله، وحصر المصريون عثمان منذ ذلك اليوم.»

«يا سبحان الله...» قال أحد الحضور معلقاً على ما يرويه النعمان في قصر معاوية بالشام. «يكذبون ويصدقون الخليفة ولا يتنازلون عن مطالبهم بالخلع أو القتل.» وكان عثمان قد كتب يومذاك مجدداً إلى معاوية وابن عامر وأمراء الأجناد يستنجدهم ويأمرهم بالعجل وإرسال الجنود إليه. فلما تروى معاوية، قام في أهل الشام يزيد بن أسد القسري، جد خالج بن عبد الله القسري، فتبعه خلق كثير، فسار بهم إلى عثمان، فلما كانوا بوادي القرى بلغهم قتل عثمان فرجعوا. وسار من البصرة مجاشع بن مسعود السلمي، فلما وصلوا الربذة ونزلت مقدمتهم صراراً بناحية المدينة أتاهم قتل عثمان فرجعوا.

«ألم ينصحه أحد بشيء يقيه القتل؟» جاء السؤال من بين صفوف المستمعين.

«لقد استشار الخليفة نصحاءه في أمره، فأشاروا عليه أن يرسل إلى علي يطلب إليه أن يردهم ويعطيهم ما يرضيهم ليطاولهم حتى يأتيه إمداده. فقال علي: إنهم لا يقبلون التعلل، وقد كان مني في المرة الأولى ما كان. فأشار عليه مروان: أعطهم ما سألوك وطاولهم ما طاولوك، فإنهم قوم بغوا عليك ولا عهد لهم. فدعا عثمان علياً وقال له: قد ترى ما كان من الناس ولست آمنهم على دمي، فارددهم عني فإني أعطيهم ما يريدون من الحق من نفسي وغيري. فقال له علي: الناس إلى عدلك أحوج منهم إلى قتلك، ولا يرضون إلا بالرضا، وقد كنت أعطيتهم أولاً عهداً فلم تف به، فلا تغرني هذه المرة فإني معطيهم عهدك الحق. فقال: أعطهم فوالله لأفين لهم. فخرج علي إلى الناس فقال لهم: أيها الناس إنكم إنما طلبتم الحق وقد أعطيتموه وقد زعم الخليفة أنه منصفكم من نفسه. فقال الناس: قبلنا فاستوثق منه لنا فإنا لا نرضى بقول دون فعل. فدخل عليه علي فأعلمه، فقال عثمان: اضرب بيني وبينهم أجلاً فإني لا أقدر على أن أرد ما كرهوا في يوم واحد. فقال علي: أما ما كان بالمدينة فلا أجل فيه وما غاب فأجله وصول أمرك. قال: نعم، فأجلني فيما في المدينة ثلاثة أيام، فأجابه إلى ذلك، وكتب بينهم كتاباً على رد كل مظلمة وعزل كل عامل كرهوه.» كان جندب هو الذي تولى هذه الإجابة، واسترسل في روايته للأحداث التي سبقت الحصار: «فكف الناس عن الخليفة حتى مضت الأيام الثلاثة ولم يغير شيئاً ولم ينفذ أياً من مطالبهم فثار به المصريون إذ خرج عمرو بن حزم الأنصاري إلى المصريين فأعلمهم الحال، وهم حينذاك بذي خشب، فقدموا المدينة وطلبوا منه عزل عماله ورد مظالمهم. وقالوا: والله لتفعلن أو لتخلعن أو لتقتلن. فأبى عليهم وقال: لا أنزع سربالاً سربلنيه الله. فحصروه

واشتد الحصار عليه، فأرسل إلى علي وطلحة والزبير فحضروا، فأشرف عثمان عليهم وقال: يا أيها الناس اجلسوا. فجلسوا، المحارب والمسالم. فقال لهم: يا أهل المدينة أستودعكم الله وأسأله أن يحسن عليكم الخلافة من بعدي، ثم قال: أنشدكم بالله هل تعلمون أنكم دعوتم الله عند مصاب عمر أن يختار لكم ويجمعكم على خيركم؟ أتقولون إن الله لم يستجب لكم وهنتم عليه وأنتم أهل حقه؟ أم تقولون: هان على الله دينه فلم يبال من ولي الدين لم يتفرق أهله يومئذ؟ أم تقولون: لم يكن أخذ الخلافة عن مشورة إنما كان مكابرة فوكل الله الأمة إذا عصته ولم يشاوروا في الإمامة؟ أم تقولون: إن الله لم يعلم عاقبة أمري! وأنشدكم بالله أتعلمون لي من سابقة خير وقدم خير قدمه الله لي ما يوجب على كل من جاء بعدي أن يعرفوا لي فضلها! فمهلاً لا تقتلوني فإنه لا يحل إلا قتل ثلاثة: رجل زنى بعد إحصانه، أو كفر بعد إيمانه، أو قتل نفساً بغير حق، فإنكم إذا قتلتموني وضعتم السيف على رقابكم ثم لم يرفع الله عنكم الاختلاف أبداً. فقال العصاة: أما ما ذكرت من استخارة الناس بعد عمر ثم ولوك فإن كل ما صنع الله خيرة، ولكن الله جعلك بلية ابتلى بها عباده، وأما ما ذكرت من قدمك وسلفك مع رسول الله، (ص)، فقد كنت كذلك وكنت أهلاً للولاية، ولكن أحدثت ما علمته ولا نترك إقامة الحق عليك مخافة الفتنة عاماً قابلاً، وأما قولك: إنه لا يحل إلا قتل ثلاثة، فإنا نجد في كتاب الله قتل غير الثلاثة الذين سميت، قتل من سعى في الأرض فساداً، وقتل من بغى ثم قاتل على بغيه، وقتل من حال دون شيء من الحق ومنعه وقاتل دونه، وقد بغيت ومنعت وحلت دونه وكابرت عليه ولم تقد من نفسك من ظلمت، وقد تمسكت بالإمارة علينا، فإن زعمت أنك لم تكابرنا عليه فإن

الذين قاموا دونك ومنعوك منا إنما يقاتلون لتمسكك بالإمارة، فلو خلعت نفسك لانصرفوا عن القتال معك! فسكت عثمان ولزم الدار وأمر أهل المدينة بالرجوع وأقسم عليهم، فرجعوا إلا الحسن بن علي وابن عباس ومحمد بن طلحة وعبد الله بن الزبير وأشباه لهم من أبناء الصحابة، واجتمع إليه ناس كثير أثناء مدة الحصار، فلما مضت ثماني عشرة ليلة قدم ركبان من الأمصار فأخبروا بخبر من تهيأ من الجنود للدفاع عن الخليفة، وعندها حال المحاصرون بين الناس وبين عثمان ومنعوا عنه كل شيء، حتى الماء. فأرسل عثمان إلى علي سراً وإلى طلحة والزبير وأزواج النبي، (ص)، إنهم قد منعوني الماء فإن قدرتم أن ترسلوا إلينا ماء فافعلوا. فكان أولهم إجابة علي، وأم حبيبة زوج النبي، (ص)، فجاء علي في الغلس فقال: يا أيها الناس إن الذي تفعلون لا يشبه أمر المؤمنين ولا أمر الكافرين، فلا تقطعوا عن هذا الرجل الماء ولا المادة، فإن الروم وفارس لتأسر فتطعم وتسقي! فقالوا: لا والله ولا نعمة عين! فرمى علي بعمامته في الدار بأني قد نهضت وحاولت ورجعت. وجاءت أم حبيبة على بغلة لها مشتملة على إداوة فضربوا وجه بغلتها فقالت: إن وصايا بني أمية عند هذا الرجل، فأحببت أن أسأله عنها لئلا تهلك أموال الأيتام والأرامل. فقالوا: كاذبة، وقطعوا حبل البغلة بالسيف، فنفرت وكادت أم المؤمنين تسقط عنها، فتلقاها الناس فأخذوها وذهبوا بها إلى بيتها...» تمهل جندب عندما ارتفعت أصوات الاستنكار من بين الحضور، وعاد معاوية يرفع قميص عثمان بين يديه ليراه الناس.

«في منتصف فترة الحصار، وبعد أيام من العطش، أشرف عثمان على الناس فسلم عليهم ثم قال: أنشدكم الله هل تعلمون أني اشتريت بئر رومة

بمالي ليستعذب بها فجعلت رشائي فيها كرجل من المسلمين؟ قالوا: نعم. قال: فلم تمنعوني أن أشرب منها حتى أفطر على ماء البحر؟ ثم قال: أنشدكم بالله هل تعلمون أني اشتريت الأرض فزدتها في المسجد؟ قيل: نعم. قال: فهل علمتم أن أحداً منع أن يصلي فيه قبلي؟ ثم قال: أنشدكم بالله أتعلمون بعضاً مما قاله عني النبي، (ص)، قال عني: (غفر اللَّه لك يا عثمان ما قدَّمتَ، وما أخَّرتَ، وما أسررتَ، وما أعلنتَ، وما هو كائن إلى يوم القيامة). أفلا تعلمون أن الوحي لينزل عليه وأنه ليقول لي: (أكتب يا عثيم، فواللَّه ما كان اللَّه لينزل عبدًا من نبيه تلك المنزلة إلا كان عليه كريماً). أتعلمون أن الرسول (ص) قد قال: (اللَّهم إني رضيت عن عثمان فارض عنه). وقال (عثمان أحيا أمتي وأكرمها). وقال (عثمان في الجنة). و(عثمان حيي تستحي منه الملائكة). و(عثمان رفيقي معي في الجنة). و(عثمان وليي في الدنيا والآخرة). وقال (رحمك اللَّه يا عثمان ما أصبت من الدنيا، ولا أصابت منك). وقال الرسول (ص) لي (يا عثمان إنك ستبلى بعدي فلا تقاتلن) ولن أقاتلكم. هنا فشا النهي في الناس يقولون: مهلاً عن أمير المؤمنين. فقام الأشتر النخعي فقال: لعله مكر بكم.»

«وماذا فعلت أم المؤمنين، بنت أبي بكر؟» تولى النعمان الإجابة عن السؤال الذي خرج من أحد المستمعين، فقال: إن عائشة خرجت إلى مكة، واستتبعت أخاها محمداً ليبتعد عن المتآمرين، فأبى، وقالت وهي خارجة: والله لئن استطعت أن يحرمهم الله ما يحاولون لأفعلن. وقال حنظلة الكاتب لمحمد بن أبي بكر:

تستتبعك أم المؤمنين فلا تتبعها وتتبع ذؤبان العرب إلى ما لا يحل؟ وإن

هذا الأمر إن صار إلى التغالب غلبك عليه بنو عبد مناف. ثم رجع حنظلة إلى الكوفة وهو يقول:

عجبت لما يخوض الناس فيه — يرومون الخلافة أن تزولا
ولو زالت لزال الخير عــنهم — ولاقوا بعدهـــا ذلاً ذليلا
وكانوا كاليهود وكالنصـارى — سواء كلهم ضلوا السبيلا

«وماذا فعل طلحة والزبير بينما الخليفة عطشان؟» نظر جندب والنعمان إلى بعضهما وبدا القلق عليهما من الإجابة عن هذا السؤال.

«عندما بلغ طلحة والزبير ما لقي علي وأم حبيبة من فشل لزموا بيوتهم وبقي عثمان يسقيه جيرانه، آل حزم، في الغفلات.» قال جندب وواصل حديثه عن شأن آخر. «أشرف عثمان على الناس فاستدعى ابن عباس فأمره أن يحج بالناس، وكان ممن لزموا الباب للدفاع عن الخليفة، فقال: جهاد هؤلاء أحب إلي من الحج. فأقسم عليه الخليفة فانطلق إلى الحج.»

«سألناكم بالله ماذا فعل طلحة والزبير لإغاثة الخليفة؟» عاد الصوت يكرر سؤاله بشيء من الاحتجاج، فلم يعد بوسع جندب حجب المعلومة وقال إن عبد الله بن عباس بن أبي ربيعة دخل على عثمان فأخذ بيده وأسمعه كلام المحاصِرين من على بابه، فمنهم من يقول: ما تنتظرون به؟ ومنهم من يقول: أنظروا عسى أن يراجع. قال عبد الله فيما بعد: فبينما نحن واقفون إذ مر طلحة فقال: أين ابن عديس؟ فقام إليه فناجاه ثم رجع ابن عديس فقال لأصحابه الذين يحاصرون الدار: لا تتركوا أحداً يدخل على عثمان ولا يخرج من عنده. فقال لي عثمان: هذا ما أمر به طلحة، اللهم اكفني طلحة فإنه حمل علي هؤلاء وألبهم علي! والله إني لأرجو أن يكون منها صفراً وأن يسفك دمه! وقال

عبد الله: فأردت أن أخرج فمنعوني حتى أمرهم محمد بن أبي بكر فتركوني أخرج.»

«والزبير؟» ارتفع نفس الصوت مستفسراً بينما الناس تتقاطر إلى قصر معاوية ويستمعون لما يروى عن قتل الخليفة في المدينة.

«الزبير خرج من المدينة قبل أن يقتل عثمان.» قال النعمان بهدوء وحسم، فنظر الحاضرون إلى جندب الذي أيد ما سمع بإيماءة من رأسه، ثم تولى رواية الحدث.

«عندما تيقن الجميع أن نجاة الخليفة استحالت جاء عبد اللَّه بن سلام فقال له عثمان: ما جاء بك؟ قال: جئت في نصرك. قال: اخرج إلى الناس فاطردهم عني فإنك خارج خير إليَّ منك داخل. فخرج عبد اللَّه إلى الناس فقال: أيها الناس، إنه كان اسمي في الجاهلية الحصين، فسماني رسول اللَّه (ص)عبد اللَّه، ونزلت فيَّ آيات من كتاب اللَّه عز وجل. ونزل فيَّ: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ﴾ ونزل فيَّ: ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا﴾ إن للَّه سيفًا مغمودًا، وإن الملائكة قد جاورتكم في بلدكم هذا الذي نزل فيه رسول اللَّه (ص). فاللَّه اللَّه في هذا الرجل إن تقتلوه لتطردن جيرانكم الملائكة، وليسلنّ سيف اللَّه المغمود فيكم، فلا يغمد إلى يوم القيامة. فارتفعت الأصوات: أقتلوا اليهودي.» ثم أضاف جندب: «فانظر الفرق الشاسع بين عبد اللَّه بن سلام الذي تطوَّع للدفاع عن عثمان وبين عبد اللَّه بن سبأ الذي لم يكف يحرِّض الناس في كل الأمصار على قتل الخليفة. فإن كليهما كان يهوديًا وأسلم.» لم يعلق أي من الحضور على هذه الملاحظة فقد كانوا متلهفين لسماع تفاصيل عملية القتل وتحديد المسؤولين، فواصل جندب حديثه:

«مع اعتزال علي وطلحة والزبير، ووصول أخبار عن استعداد الجنود للحضور من الأمصار، واحتمال أن يتوجه الحجاج بعد الموسم إلى المدينة لنصرة الخليفة، أخذ ابن عديس ومحمد بن أبي بكر والأشتر النخعي يحرضون على التعجيل في قتل الخليفة وقال المصريون: لا يخرجنا من هذا الأمر الذي وقعنا فيه إلا قتل هذا الرجل فيشتغل الناس عنا بذلك. فراموا الباب فمنعهم الحسن وابن الزبير ومحمد بن طلحة ومروان وسعيد بن العاص ومن معهم من أبناء الصحابة واجتلدوا، فزجرهم عثمان وقال لهم: أنتم في حل من نصرتي، فأبوا، ففتح الباب لمنعهم، فلما خرج ورآه المصريون رجعوا وتقهقروا قليلاً، فركبهم هؤلاء ولكن عثمان أقسم على أصحابه ليدخلوا فدخلوا فأغلق الباب دون المصريين، فقام رجل يقال له نيار بن عياض، وكان من الصحابة، فنادى عثمان، وأخذ يناشده أن يعتزلهم. فرماه كثير بن الصلت الكندي بسهم فقتله. فقالوا لعثمان عند ذلك: إدفع إلينا قاتله لنقتله به. قال: لم أكن لأقتل رجلاً نصرني وأنتم تريدون قتلي. فلما رأوا ذلك ثاروا إلى الباب، فلم يمنعهم أحد منه، والباب مغلق لا يقدرون على الدخول منه، فجاؤوا بنار فأحرقوه والسقيفة التي على الباب، وثار أهل الدار، وعثمان يصلي قد افتتح ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾... فما شغله ما سمع، ما يخطئ وما يتتعتع، حتى أتى عليها، فلما فرغ جلس إلى المصحف يقرأ فيه، وقرأ من آل عمران: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾. ثم قال الخليفة لمن عنده في الدار: إن رسول الله (ص)، قد عهد إلي عهداً فأنا صابر عليه، ولم يحرقوا الباب إلا وهم يطلبون ما هو أعظم منه، فأحرج على رجل أن يستقتل أو يقاتل، وقال للحسن: إن أباك الآن

لفي أمر عظيم من أمرك فأقسمت عليك لما خرجت إليه. فتقدموا وقاتلوا ولم يسمعوا قوله، فبرز المغيرة بن الأخنس بن شريق، وكان قد تعجل العودة من الحج، في عصبة لينصروا عثمان وهو معه في الدار. وخرج الحسن بن علي، ومحمد بن طلحة، وسعيد بن العاص، وكانوا يقولون الشعر وهم يبارزون القوم. ثم خرج مروان يشعر فبرز له رجل من بني ليث يدعى النباع، فضربه مروان وضرب هو مروان على رقبته فأثبته وقطع إحدى عصبي عنقه، وقام إليه عبيد بن رفاعة الزرقي ليدفف عليه، فقامت فاطمة أم إبراهيم بن عدي، وكانت أرضعت مروان وأرضعت له، فقالت: إن كنت تريد قتله فقد قتل، وإن كنت تريد أن تلعب بلحمه فهذا قبيح! فتركه وأدخلته بيتها تحميه وتداويه. ونزل إلى المغيرة بن الأخنس رجل من أصحاب عبد الرحمن بن عديس فقتل المغيرة. وكان آخر من خرج عبد الله بن الزبير فكان يحدث عن عثمان بآخر ما كان عليه. وكان عثمان قد قال إنه شاهد الرسول (ص) وأبا بكر وعمر يدعونه إلى الإفطار معهم هذا اليوم.»

«اقتحم الناس الدار من الدور التي حولها ودخلوها من دار عمرو بن حزم إلى دار عثمان حتى ملأوها ولا يشعر الذين يتبارزون بالباب بما يدور بالداخل، وغلب الناس على عثمان وندبوا رجلاً يقتله، فانتدب له رجل، فدخل عليه البيت فقال: اخلعها وندعك. فقال: ويحك! والله ما كشفت امرأة في جاهلية ولا إسلام ولا تغنيت ولا تمنيت ولا وضعت يميني على عورتي منذ بايعت رسول الله (ص)، ولست خالعاً قميصاً كسانيه الله تعالى حتى يكرم الله أهل السعادة ويهين أهل الشقاوة! فخرج عنه، فقالوا: ما صنعت؟ فقال: والله لا ينجينا من الناس إلا قتله ولا يحل لنا قتله. فأدخلوا

عليه رجلاً من بني ليث فقال له عثمان: لست بصاحبي لأن النبي (ص)، دعا لك أن تحفظ يوم كذا وكذا ولن تضيع. فرجع عنه وفارق القوم. ودخل عليه رجل من قريش فقال له: إن رسول الله (ص)، استغفر لك يوم كذا وكذا فلن تقارف دماً حراماً. فرجع وفارق أصحابه. وكان آخر من دخل عليه ممن رجع محمد بن أبي بكر، فقال له عثمان: ويلك أعلى الله تغضب؟ هل لي إليك جرم إلا حقه أخذته منك؟ فأخذ محمد لحيته وقال: قد أخزاك الله يا نعثل! فقال: لست بنعثل ولكني عثمان وأمير المؤمنين فقال محمد: ما أغنى عنك الآن معاوية في الشام ومن وليتهم في الأمصار! فقال عثمان: يا ابن أخي فما كان أبوك ليقبض عليها. فقال محمد: لو رآك أبي تعمل هذه الأعمال لأنكرها عليك، والذي أريد بك أشد من قبضي عليها! فقال عثمان: أستنصر الله عليك وأستعين به! فتركه وخرج.» ارتفعت أصوات المستمعين تترحم على أبي بكر وتشتم ابنه وتتوعده بالقتل. وكان معاوية يستمع بدون تعليق لرواية جندب الذي واصل: «فلما خرج محمد وعرفوا انكساره ثار قتيرة وسودان بن حمران والغافقي ودخلوا الحجرة، فضربه الغافقي بحديدة معه وضرب المصحف برجله، فاستدار المصحف واستقر بين يديه وسالت عليه الدماء، وجاء سودان ليضربه، فأكبت عليه امرأته واتقت السيف بيدها، فنفح أصابعها فأطن أصابع يدها وولت، فغمز أوراكها وقال: إنها لكبيرة العجز! وضرب عثمان فقتله، وأجهز عليه كنانة بن بشر التجيبي. وكان عثمان يقرأ القرآن فلما قتل سقط من دمه على قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾. وأما عمرو بن الحمق فوثب على صدره وبه رمق فطعنه تسع طعنات، قال: فأما ثلاث منها فإني طعنتهن إياه لله تعالى، وأما ست فلما كان في صدري عليه. وأرادوا قطع رأسه فوقعت نائلة

عليه وأم البنين فصحن وضربن الوجوه. فقال بن عديس: اتركوه. وأقبل عمير ابن ضابىء فوثب عليه فكسر ضلعاً من أضلاعه وقال: سجنت أبي حتى مات في السجن. ودخل غلمان لعثمان مع القوم لينصروه، وكان عثمان قد أعتق من كف يده منهم، فلما ضربه سودان ضرب بعض الغلمان رقبة سودان فقتله، ووثب قتيرة على الغلام فقتله. قُتل عثمان عند صلاة العصر. ودخلت الغوغاء الدار فصاح إنسان منهم: أيحل دم عثمان ولا يحل ماله؟ فانتهبوا متاعه. فقامت نائلة فقالت: لصوص ورب الكعبة! يا أعداء اللّٰه ما ركبتم من دم عثمان أعظم. أما واللّٰه لقد قتلتموه صوَّامًا قوَّامًا يقرأ القرآن في ركعة. ثم خرج الناس من دار عثمان فأغلق بابه على ثلاثة قتلى، فلما خرجوا وثب غلام عثمان على قتيرة فقتله، وثار القوم فأخذوا ما وجدوا حتى أخذوا ما على النساء، وأخذ كلثوم التجيبي ملاءة من على نائلة، فضربه غلام لعثمان فقتله، وتنادوا: أدركوا بيت المال ولا تُسبقوا إليه، فسمع أصحاب بيت المال كلامهم، فقالوا: النجاة، فإن القوم إنما يحاولون الدنيا! فهربوا، وأتوا بيت المال فانتهبوه وماج الناس...»

«والله لا نغتسل ولا نتطيب حتى نأخذ بثأر عثمان.» قال أحد الحضور، فتردد القسم بين بقيتهم، وأخذ بعضهم قميص عثمان وعلقوه في صالة القصر حيث يجلسون. «لقد فعلها علي بن أبي طالب طالب الخلافة...» قال أحدهم، فنهاه معاوية وطالب الحضور بالاستماع لبقية مجريات الأحداث، وسأل أين دفن الخليفة. وكان أهل الشام قد سمعوا بتولي علي الخلافة قبل وصول النعمان وجندب اللذين تأخرا بضعة أيام لحمل آخر مستجدات المدينة إلى معاوية.

«بقي عثمان ثلاثة أيام لا يدفن.» قال النعمان بصوت مرتفع حتى يهدأ الناس، لكن سماعهم لما قال أثارهم أكثر، ونتف بعض الحضور لحاهم،

بينما البعض الآخر يترحم على عثمان. صمت النعمان قليلاً وهو ينظر إلى معاوية الذي لم يطلب من الحضور الهدوء إلا بعد حين. «ثم إن حكيم بن حزام القرشي وجبير بن مطعم كلما علياً في أن يأذن في دفنه، ففعل، فلما سمع القتلة وأنصارهم من الغوغاء بذلك قعدوا له في الطريق ليرموا سريره بالحجارة، وخرج به ناس يسير من أهله وغيرهم، وفيهم الزبير والحسن وأبو جهم بن حذيفة ومروان، وذلك بين المغرب والعشاء، وكانوا قد حملوه على باب وأسرعوا به ورأسه يقرع الباب إذ كان بهم خوف عظيم. فأتوا به حائطاً من حيطان المدينة يسمى حش كوكب، وهو خارج مدافن البقيع، فصلى عليه جبير بن مطعم، وجاء ناس من الأنصار ليمنعوهم من الصلاة عليه ثم تركوهم خوفاً من الفتنة. وأرسل علي إلى من أراد أن يرجم سريره ممن جلس على الطريق لما سمع بهم فمنعهم. الخليفة لم يُغسل وكفن في ثيابه.» لم يكن النعمان قد شاهد دفن الخليفة، فقد حمل رسالة نائلة وأصابعها وقميص عثمان وخرج من المدينة فاراً بعد عملية القتل، ولكنه اتفق مع جندب أن يلحق به بعد أيام ليحمل آخر المستجدات، وسمع منه في الطريق هذه التفاصيل.

«عندما بلغ الخبر عليًا وطلحة والزبير وسعدًا بقتل الخليفة، خرجوا من عزلتهم عائدين إلى المدينة، بعد أن غادروها حتى لا يروا قتل عثمان. دخلوا على الخليفة المضرج بدمه فقال عليّ لابنيه: كيف يقتل أمير المؤمنين وأنتما على الباب، ورفع يده فلطم الحسن، وضرب الحسين على صدره. وشتم محمد بن طلحة وعبد اللّه بن الزبير، وخرج من دار عثمان يبدو عليه الغضب، حتى أتى منزله، فلحق به القتلة يهرعون إليه يريدون مبايعته فقال لهم: واللّه إني لأستحي أن أبايع قومًا قتلوا عثمان، وإني لأستحي من اللّه تعالى أن أبايع وعثمان لم يدفن بعد. فافترقوا عنه.»

«قتلوا الخليفة ويريدون فرض خليفة آخر على المسلمين!» قال معاوية وهو ينفي بحركات من رأسه هذا الرأي، فعاد بعض القوم يؤكدون أنها مؤامرة محكمة منذ البداية لتنصيب علي خليفة. «لقد كان عثمان إمامًا على شرط الاستقامة إلى أن قُتل. والله إنّ قاتليه قتلوه ظلمًا، فإن كان فيهم من استحل دمه فقد كفر. ومن تعمد قتله من غير استحلال فهو فاسق. والذين نفذوا الجريمة وهجموا عليه واشتركوا في دمه معروفون بفسقهم، منهم محمد بن أبي بكر، وحكيم بن جبلة ورفاعة بن رافع، والحجاج بن غزنة، وعبد الرحمن بن خصل الجمحي، وكنانة بن بشر النخعي، والأشتر النخعي، وسودان بن حمران المرادي، وبسرة بن رهم، وابن عتيبة، وعمرو بن الحمق الخزاعي وغيرهم من الفاسقين أمثال محمد بن أبي حذيفة، الذي شارك في التحريض من مصر وكان إحدى أدوات عبد الله بن سبأ، والله لتحمل رؤوسهم إلى الشام.» قال معاوية من دون أن يذكر اسم علي بن أبي طالب أو أي من كبار الصحابة الذين كانوا في المدينة، ثم نظر إلى جندب والنعمان ليكملا روايتهما.

«بقيت المدينة خمسة أيام، وأميرها الغافقي بن حرب، يلتمسون من يجيبهم إلى القيام بالأمر فلا يجدونه، ووجدوا طلحة في حائط له، ووجدوا سعداً والزبير قد خرجا من المدينة، ووجدوا بني أمية قد هربوا ما عدا من لم يطق منهم الهرب، وهرب سعيد والوليد ومروان، جريح الرقبة، هربوا إلى مكة، وتبعهم غيرهم.» تولى جندب إسماع معاوية والحضور تفاصيل ما شاهده وسمعه في شأن تولية خليفة. «بعد أن أتى المصريون علياً وباعدهم، أتى الكوفيون الزبير فباعدهم، وأتى البصريون طلحة فباعدهم، وبدا كأنهم كانوا مجتمعين على قتل عثمان مختلفين فيمن يلي الخلافة.» تعمد جندب هذه الصياغة حفاظاً

على الحيادية وإبعاداً للاتهامات، وواصل: «فأرسلوا إلى سعد يطلبونه، فقال: إني وابن عمر لا حاجة لنا فيها، فأتوا ابن عمر فلم يجبهم، فبقوا حيارى. ثم استقر رأي القتلة على جمع أهل المدينة وقالوا لهم: يا أهل المدينة أنتم أهل الشورى، وأنتم تعقدون الإمامة، وحكمكم جائز على الأمة، فانظروا رجلاً تنصبونه ونحن لكم تبع، وقد أجلناكم يومكم، فوالله لئن لم تفرغوا لنقتلن غداً علياً وطلحة والزبير وأناساً كثراً!» يا للدجل والنفاق، قال أحد المستمعين مقاطعاً، ولكن جندب استكمل حديثه: «فغشي الناس علياً فقالوا: نبايعك فقد ترى ما نزل بالإسلام وما ابتلينا به من بين القرى. فقال علي: دعوني والتمسوا غيري فإنا مستقبلون أمراً له وجوه وله ألوان لا تقوم به القلوب ولا تثبت عليه العقول. فقالوا: ننشدك الله! ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى الإسلام؟ ألا ترى الفتنة؟ ألا تخاف الله؟ فقال علي: قد أجبتكم، واعلموا أني إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم، وإن تركتموني فإنما أنا كأحدكم، ألا إني أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه. ثم افترقوا على ذلك واتعدوا الغد. وتشاور القتلة فيما بينهم وقالوا: إن دخل طلحة والزبير في المبايعة فقد استقامت، فبعثوا إلى الزبير حكيم بن جبلة، ومعه نفر، فجاؤوا به يحدونه بالسيف، وبعثوا إلى طلحة الأشتر النخعي ومعه نفر، فأتى طلحة، فقال: دعني أنظر ما يصنع الناس، فلم يدعه الأشتر، فجاء به يتله تلاً عنيفاً. وكانت عصابة أهل مصر فرحة بما اجتمع عليه أهل المدينة. ولما أصبحوا يوم البيعة، وهو يوم الجمعة لخمس بقين من ذي الحجة، حضر الناس المسجد، وجاء علي فصعد المنبر وقال: أيها الناس، عن ملأ وإذن، إن هذا أمركم ليس لأحد فيه حق إلا من أمرتم، وقد افترقنا بالأمس على أمر وكنت كارهاً لأمركم، فأبيتم إلا أن أكون عليكم، ألا وإنه ليس لي دونكم إلا مفاتيح

ما لكم معي وليس لي أن آخذ درهماً دونكم، فإن شئتم قعدت لكم وإلا فلا أجد على أحد. فقالوا: نحن على ما فارقناك عليه بالأمس. فقال: اللهم اشهد. ولما جاؤوا بطلحة ليبايع قال: إنما أبايع كرهاً. فبايع بيده المشلولة، فقال رجل يعتاف: إنا لله وإنا إليه راجعون، أول يد بايعت يد شلاء، لا يتم هذا الأمر! ثم جيء بالزبير فقال مثل ذلك وبايع، وقال الزبير فيما بعد: جاءني لص من لصوص عبد القيس فبايعت والسيف على عنقي. ثم جيء بعده بقوم كانوا قد تخلفوا فقالوا: نبايع على إقامة كتاب الله في القريب والبعيد والعزيز والذليل، فبايعهم، ثم قام العامة فبايعوا، وبدا وكأن الأمر صار أمر أهل المدينة وتفرقوا إلى منازلهم...» عندما سكت جندب بعد إكمال ما رآه وسمعه مباشرة قبل أن يغادر المدينة في طريقه إلى الشام، كان صوت الحضور قد اختلط بين البكاء والغضب والتساؤلات، ولم يهتم الرواة بالسائل عن سر تحول طلحة من تأييده للقتلة أثناء حصارهم لدار عثمان إلى معارضته مبايعة علي، هل ظن أن القتلة سوف يبايعونه بدل علي؟.

لقد كتب جندب قبل مغادرة مدينة الرسول خطبة علي على رقعة، فأخرجها من جيبه ليسمعها معاوية والحضور. «أول خطبة خطبها علي حين استخلف حمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن الله أنزل كتاباً هادياً يبين فيه الخير والشر، فخذوا بالخير ودعوا الشر، الفرائض الفرائض أدوها إلى الله تعالى يؤدكم إلى الجنة. إن الله حرم حرمات غير مجهولة وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها، وشد بالإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين، فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده إلا بالحق، لا يحل دم امرئ مسلم إلا بما يجب. بادروا أمر العامة، وخاصة أحدكم الموت، فإن الناس أمامكم وإن ما

من خلفكم الساعة تحدوكم. تخففوا تلحقوا، فإنما ينتظر الناس أخراهم. اتقوا الله عباد الله في بلاده وعباده، إنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم. أطيعوا الله فلا تعصوه، وإذا رأيتم الخير فخذوا به، وإذا رأيتم الشر فدعوه.» ارتفعت أصوات الاستنكار من بعد أن سمعوا جندباً يقرأ لا يحل دم امرئ مسلم إلا بما يجب. وتدخل النعمان بصوت مرتفع ليخبرهم بما سمعه من جندب في الطريق بهذا الخصوص، فقال وهو يشير للناس بالهدوء:

«رجع علي إلى بيته، فدخل عليه طلحة والزبير في عدد من الصحابة فقالوا: يا علي إنا قد اشترطنا إقامة الحدود، وإن هؤلاء القوم قد اشتركوا في قتل هذا الرجل وأحلوا بأنفسهم. فقال لهم: يا إخوتاه إني لست أجهل ما تعلمون، ولكن كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم؟ ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم وثابت إليهم أعرابكم وهم خلاطكم يسومونكم ما شاؤوا، فهل ترون موضعاً لقدرة على شيء مما تريدون؟ قالوا: لا. قال: فلا والله لا أرى إلا رأياً ترونه أبداً إلا أن يشاء الله. إن هذا الأمر أمر جاهلية وإن لهؤلاء القوم مادة، وذلك أن الشيطان لم يشرع شريعة قط فيبرح الأرض من أخذ بها أبداً. إن الناس من هذا الأمر إن حرك على أمور: فرقة ترى ما ترون، وفرقة ترى ما لا ترون، وفرقة لا ترى هذا ولا هذا، حتى يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها وتؤخذ الحقوق، فاهدأوا عني وانظروا ماذا يأتيكم ثم عودوا. فقال طلحة لعلي: دعني آت البصرة فلا يفجأك إلا وأنا في خيل. وقال الزبير: دعني آت الكوفة فلا يفجأك إلا وأنا في خيل. فقال علي: انتظروا حتى أنظر في ذلك.»

«ولن ينظر، ولن يحارب القتلة، وسيحارب بهم، فهم جنده في السر والعلن.» ارتفع صوت من بين الحضور في قصر معاوية.

نظر جندب الى معاوية أثناء تناول الحضور للحديث والتوعد بالانتقام، ففهم معاوية أن جندباً يحمل إليه أخباراً خاصة، فترك القوم وأشار الى جندب فلحق به في الردهة. «أخبرني المغيرة بن شعبة أنه تحادث مع علي وقال له: إن لك حق الطاعة والنصيحة، وأنت بقية الناس، وإن الرأي اليوم تحرز به ما في غد، وإن الضياع اليوم يضيع به ما في غد، أقرر معاوية وابن عامر وعمال عثمان على أعمالهم حتى تأتيك بيعتهم ويسكن الناس، ثم اعزل من شئت.» قال جندب لمعاوية وهما واقفان يتكئان على جدار الردهة. «فرفض علي ذلك وقال للمغيرة: لا أداهن في ديني ولا أعطي الدنية في أمري. فقال له المغيرة: فإن كنت أبيت علي فانزع من شئت واترك معاوية، فإن في معاوية جرأة، وهو في أهل الشام يستمع منه، ولك حجة في إثباته، وكان عمر بن الخطاب قد ولاه الشام. فرد عليه علي: لا والله، لا أستعمل معاوية يومين!» لم يتأثر معاوية كثيراً مما سمع من حديث جندب، فهو على الأرجح يعرف هذه النتيجة ويعرف ما يكنه له علي بن أبي طالب من احتقار منذ أن اشتبكا في الحديث قبل عام في المدينة. أستأنف جندب حديثه همساً وبسرعة. «ثم عاد إليه المغيرة مرة أخرى وقال لعلي: إني أشرت عليك أول مرة بالذي أشرت وخالفتني فيه، ثم رأيت بعد ذلك أن تصنع الذي رأيت فتعزلهم وتستعين بمن تثق به، فقد كفى الله وهم أهون شوكة مما كان. وعندما سمع ابن عباس بذلك قال لعلي: أما المرة الأولى فقد نصحك، وأما المرة الثانية فقد غشك. قال علي: ولم نصحني؟ فأجابه ابن عباس: لأن معاوية وأصحابه أهل دنيا فمتى ثبتهم لا يبالون من ولي هذا الأمر، ومتى تعزلهم يقولون: أخذ هذا الأمر بغير شورى وهو قتل صاحبنا، ويؤلبون عليك، فتنتفض عليك الشام وأهل العراق، مع أني لا آمن

طلحة والزبير أن يكرا عليك، وأنا أشير عليك أن تثبت معاوية، فإن بايع لك فعلي أن أقلعه من منزله، فقال علي: والله لا أعطيه إلا السيف! ثم تمثل:

وما ميتة إن متها غير عاجز بعار إذا ما غالت النفس غولها

فقال له ابن عباس: يا أمير المؤمنين أنت رجل شجاع، ولست صاحب رأي في الحرب، أما سمعت رسول الله، (ص)، يقول: (الحرب خدعة)؟ فقال: بلى. فأخبره ابن عباس: أما والله لئن أطعتني لأصدرنهم بعد ورد، ولأتركنهم ينظرون في دبر الأمور لا يعرفون ما كان وجهها في غير نقصان عليك ولا إثم لك. فقال علي: يا ابن عباس لست من هناتك ولا من هنات معاوية في شيء. وكان ابن عباس قد طلب من علي أن يغلق بابه، وقال له: إن العرب تجول جولة وتضطرب ولا تجد غيرك، فإنك والله لئن نهضت مع هؤلاء القتلة اليوم ليحملنك الناس دم عثمان غداً. فأبى علي وقال لابن عباس: تشير علي وأرى، فإذا عصيتك فأطعني. فقال ابن عباس: أفعل، إن أيسر ما لك عندي الطاعة. فقال له علي: تسير إلى الشام فقد وليتكها. فقال ابن عباس: ما هذا برأي، معاوية رجل من بني أمية وهو ابن عم عثمان وعامله ولست آمن أن يضرب عنقي بعثمان، وإن أدنى ما هو صانع أن يحبسني فيتحكم علي لقرابتي منك، وإن كل ما حمل عليك حمل علي، ولكن أكتب إلى معاوية فمنه وعده. فقال علي: لا والله، لا كان هذا أبداً!» ما كاد جندب ينتهي من روايته لمعاوية حتى وصلا عائدين إلى القوم الغاضبين في صالة القصر بينما النعمان ينتهز اللحظات المتاحة بين هتافات الانتقام ليتحدث لهم عن الظروف التي سادت في المدينة قبيل وأثناء وبعيد اغتيال عثمان.

«لقد عمت الفوضى والخوف أثناء الحصار وتحصن أهل المدينة في

بيوتهم، ومن كان يغادر بيته فإنما سلاحه في يده، وخرج الكثيرون إلى الحج خوفاً من عواقب الغوغاء، وبعد مقتل الخليفة انتشر النهب ليومين بفعل القتلة والغوغاء والمعارضين من الأعراب والسبئيين وأصبح الناس ينشدون حماية أنفسهم وبيوتهم، قبل أن يفكروا في حماية الخليفة أو المدينة والإسلام.» تأمل جندب أثناء استماعه للنعمان، وتذكر مجريات سياسة المسلمين في عهد أبي بكر، والتي سعت لإخراج الرجال والجيوش إلى الغزوات وفتح البلدان حتى لا يتقاتلوا في مكة والمدينة، وحتى لا يعودوا إلى الرّدة. ومع كثرة إيجابيات هذه السياسة، إلا أنها في النهاية أتاحت لفئة صغيرة متآمرة أن تحاصر الخليفة في عقر دار الإسلام الفارغة من الجيوش.

واصل النعمان حديثه: «... وهنا اشتد علي بن أبي طالب بعد أن أعطوه البيعة، اشتد على قريش وحال بينهم وبين الخروج من المدينة، وإنما هيجه على ذلك استمرار هرب بني أمية وتفرق القوم، فبعض أهل المدينة يقول بما قال علي، وبعضهم الآخر يقول: نقضي الذي علينا ولا نؤخره، والله إن علياً لمستغن برأيه وليكونن أشد على قريش من غيره. فسمع علي بذلك فخطبهم وذكر فضلهم وحاجته إليهم ونظره لهم وقيامه دونهم وأنه ليس له من سلطانهم إلا ذاك والأجر من الله عليه، ونادى: برئت الذمة من عبد لا يرجع إلى مولاه. فتذامرت السبئية والأعراب وقالوا: لنا غداً مثلها ولا نستطيع أن نحتج فيهم بشيء. وقال علي: أيها الناس أخرجوا عنكم الأعراب فليلحقوا بمياههم، فأبت السبئية وأطاعتهم الأعراب. فدخل علي بيته، ودخل عليه طلحة والزبير وعدة من أصحاب النبي، (ص)، فقال: دونكم ثأركم فاقتلوه. فقالوا: عشوا من ذلك. فقال: هم والله بعد اليوم أعشى! وقال:

ولو أن قومي طاوعتني سراتهم   أمرتهم أمراً يديخ الأعاديا...»

«بالطبع لن يخرج السبئيون من المدينة، فهم قتلة الخليفة، وهم الذين نصبوا الخليفة، ويعملون بفلسفة اليهودي عبد الله بن سبأ منذ سنوات.» قال أحد الحضور معلقاً على ما سمع من النعمان، وكبر الناس المجتمعون في قصر معاوية... «لقد رفعوا ابن أبي طالب إلى درجات النبوة بل الألوهية، وهم الآن ملتفون حول علي، وسيصبحون نواة جيشه ودولته، ولن ينتقم منهم أبداً، ولن يسمح لأحد بأخذ ثأر عثمان منهم.» عاد الحضور للتكبير بينما ملامح الرضا غطت وجه معاوية.

15

لم يعد جندب يستمع لما يدور بالقرب منه من صخب وتهليل أهل الشام في مجلس معاوية، فقد نشط ذهنه في مراجعة أوضاع العامين السابقين داخل المدينة تحديداً، وبالأخص منذ موسم الحج الماضي، حيث ضاعت هيبة الخليفة واعتُدي على الخلافة من القاصي والداني، ذلك أن عثمان تقدم به العمر واعتمد كثيراً على بطانة أقاربه، وكثر الخير بين يدي الرعية، فزاد تذمرهم، واتسع طمعهم. كان الحدث البارز لإعلان الانهيار حين قدمت إبل من إبل الصدقة إلى عثمان فوهبها لبعض بني الحكم، وعندما بلغ الأمر عبد الرحمن بن عوف، أخذ الإبل وقسمها بين الناس بينما عثمان في الدار. وعبد الرحمن تصرف منذ سنوات وكأنه الخليفة، وهو بالطبع الذي حسم الأمر أيام الشورى بعد مقتل عمر، ورجح كفة عثمان على حساب علي بن أبي طالب. كان أول من اجترأ على عثمان بالمنطق جبلة بن عمرو الساعدي، مر به عثمان وهو في نادي قومه وبيده جامعة، سلم فرد القوم التحية على الخليفة، فقال جبلة: لم تردون السلام على هذا الرجل؟ ثم قال لعثمان: والله لأطرحن هذه الجامعة في عنقك أو لتتركن بطانتك الخبيثة: مروان وابن عامر وابن سعد، منهم من نزل القرآن بذمه وأباح رسول الله، (ص) دمه. فاجترأ الناس بعد ذلك على الخليفة إلى درجة أنه كان يخطب يوماً وبيده عصا كان

النبي، (ص)، وأبو بكر وعمر يخطبون عليها، فأخذها جهجاه الغفاري من يده وكسرها على ركبته اليمنى في المسجد. وقيل إن جمعاً من أهل المدينة من الصحابة وغيرهم قد كتبوا إلى من بالآفاق منهم: إن أردتم الجهاد فهلموا إليه فإن دين محمد، (ص)، قد أفسده خليفتكم فأقيموه، فاختلفت قلوب الناس. أضف إلى ذلك أن حملة من التحريض الانقلابي دارت رحاها منذ سنوات ضد الخلافة واشتدت في العامين الماضيين.

كان المحرض على الفوضى عبد الله بن سبأ، وهو يهودي من أهل صنعاء أمه سوداء، وأسلم أيام عثمان، وتنقل في الحجاز ثم البصرة ثم الكوفة ثم الشام، يريد إضلال الناس فلم يقدر منهم على ذلك بالجملة، ولكنه كسب أنصاراً وعملاء واتفق معهم على التواصل وبث الأخبار. وعندما أخرجه أهل الشام، ذهب إلى مصر فأقام فيهم وقال لهم: العجب ممن يصدق أن عيسى يرجع، ويكذب أن محمداً يرجع، فوضع لهم فكرة الرجعة، فقبلت منه، ثم قال لهم بعد ذلك: إنه كان لكل نبي وصي، وعلي وصي محمد، فمن أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله، (ص)، ووثب على وصيته، وإن عثمان أخذها بغير حق، فانهضوا في هذا الأمر وابدأوا بالطعن على أمرائكم وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا به الناس. وبث دعاته، وكاتب من استفسد أثناء تجواله في الأمصار وكاتبوه، ودعوا في السر إلى ما هو عليه رأيهم وصاروا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها في عيب ولاتهم، ويكتب أهل كل مصر منهم إلى مصر آخر ما يصنعون، حتى تناولوا بذلك المدينة وأوسعوا بذلك الأرض إذاعة، فيقول أهل كل مصر: إنا لفي عافية مما ابتلي به هؤلاء، إلا أهل المدينة فإنهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار، فقالوا: إنا لفي عافية مما

فيه الناس. فأتوا عثمان فقالوا: يا أمير المؤمنين أيأتيك عن الناس الذي يأتينا؟ فقال: ما جاءني إلا السلامة وأنتم شركائي وشهود المؤمنين، فأشيروا علي. قالوا: نشير عليك أن تبعث رجالاً ممن تثق بهم إلى الأمصار حتى يرجعوا إليك بأخبارهم. فدعا محمد بن مسلمة فأرسله إلى الكوفة، وأرسل أسامة بن زيد إلى البصرة، وأرسل عمار بن ياسر إلى مصر، وأرسل عبد الله بن عمر إلى الشام، وفرق رجالاً سواهم، فرجعوا جميعاً قبل عمار فقالوا: ما أنكرنا الناس شيئاً ولا أنكره أعلام المسلمين ولا عوامهم. وتأخر عمار حتى ظنوا أنه قد اغتيل، فوصل كتاب من عبد الله بن أبي سرح يذكر أن عماراً قد استماله قوم بمصر وانقطعوا إليه، منهم: عبد الله بن السوداء، وخالد بن ملجم، وسودان بن حمران، وكنانة بن بشر، وهم الذين تزعموا الحصار وقتلوا الخليفة لاحقاً.

كتب عثمان إلى أهل الأمصار رداً على هذه الدعايات: أما بعد فإني آخذ عمالي بموافاتي كل موسم حج، وقد رفع إلي أهل المدينة أن أقواماً يُشتمون ويُضربون، فمن ادعى شيئاً من ذلك فليواف الموسم يأخذ حقه حيث كان مني أو من عمالي، أو تصدقوا فإن الله يجزي المتصدقين. فلما قرئ الكتاب في الأمصار بكى الناس ودعوا لعثمان. وبعث الخليفة إلى عمال الأمصار فقدموا عليه في الموسم: عبد الله بن عامر، وعبد الله بن سعد، ومعاوية، وأدخل معهم سعيد بن العاص وعمراً، فقال: ويحكم ما هذه الشكاية والإذاعة؟ إني والله لخائف أن تكونوا مصدوقاً عليكم وما يعصب هذا إلا بي! فقالوا له: ألم تبعث؟ ألم يرجع إليك الخبر عن العوام؟ ألم يرجع رسلك ولم يشافههم أحد بشيء؟ والله ما صدقوا ولا بروا ولا نعلم لهذا الأمر أصلاً ولا يحل الأخذ بهذه الإذاعة! فقال: أشيروا علي. فقال سعيد: هذا أمر مصنوع يلقى في السر

فيتحدث به الناس، ودواء ذلك طلب هؤلاء وقتل الذين يخرج هذا من عندهم. وقال عبد الله بن سعد: خذ من الناس الذي عليهم إذا أعطيتهم الذي لهم فإنه خير من أن تدعهم. وقال معاوية: قد وليتني فوليت قوماً لا يأتيك عنهم إلا الخير، والرجلان أعلم بناحيتيهما، والرأي حسب الأدب. وقال عمرو: أرى أنك قد لنت لهم ورخيت عليهم وزدتهم على ما كان يصنع عمر، فأرى أن تلزم طريقة صاحبيك فتشتد في موضع الشدة وتلين في موضع اللين.

قال عثمان: «قد سمعت كل ما أشرتم به علي ولكل أمر باب يؤتى منه، إن هذا الأمر الذي يخاف على هذه الأمة كائن، وإن بابه الذي يغلق عليه ليفتحن فنكفكفه باللين والمؤاتاة إلا في حدود الله، فإن فتح فلا يكون لأحد علي حجة حق، وقد علم الله أني لم آل الناس خيراً، وإن رحى الفتنة لدائرة، فطوبى لعثمان إن مات ولم يحركها. سكنوا الناس وهبوا لهم حقوقهم، فإذا تعوطيت حقوق الله فلا تدهنوا فيها.» فلما قدم عثمان المدينة من مكة دعا علياً وطلحة والزبير، وكان عنده معاوية، الذي حمد الله ثم قال: «أنتم أصحاب رسول الله، (ص)، وخيرته من خلفه وولاة أمر هذه الأمة، لا يطمع فيه أحد غيركم، اخترتم صاحبكم عن غير غلبة ولا طمع، وقد كبر وولى عمره ولو انتظرتم به الهرم لكان قريباً مع أني أرجو أن يكون أكرم على الله أن يبلغه ذلك، وقد فشت مقالة خفتها عليكم فيما عتبتم فيه من شيء، فهذه يدي لكم به، ولا تطمعوا الناس في أمركم، فوالله إن طمعوا فيه لا رأيتم منها أبداً إلا إدباراً».

هنا قال علي لمعاوية: ما لك ولذلك لا أم لك؟ فأجابه: دع أمي فإنها ليست بشر أمهاتكم، قد أسلمت وبايعت النبي، (ص)، وأجبني عما أقول لك. فتدخل عثمان قائلاً: صدق ابن أخي، أنا أخبركم عني وعما وليت، إن

صاحبي اللذين كانا قبلي ظلما نفسيهما ومن كان منهما بسبيل احتساباً، وإن رسول الله، (ص)، كان يعطي قرابته، وأنا في رهط أهل عيلة وقلة معاش، فبسطت يدي في شيء من ذلك المال لما أقوم به فيه ورأيت أن ذلك لي، فإن رأيتم ذلك خطأ فردوه فأمري لأمركم تبع. فقالوا: قد أصبت وأحسنت، قد أعطيت عبد الله بن خالد بن أسيد خمسين ألفاً، وأعطيت مروان خمسة عشر ألفاً. فوعدهم بأخذ ذلك منهما، فرضوا وخرجوا راضين. وقال معاوية لعثمان: أخرج معي إلى الشام فإنهم على الطاعة قبل أن يهجم عليك من لا قبل لك به. فقال عثمان: لا أبيع جوار رسول الله (ص)، بشيء وإن كان فيه قطع خيط عنقي. قال معاوية: فإن بعثت إليك جنداً منهم يقيم معك لنائبة إن نابت؟ قال: لا أضيق على جيران رسول الله (ص). فقال له معاوية: والله لتغتالن ولتغزين! فرد عليه عثمان: حسبي الله ونعم الوكيل!

خرج معاوية وعليه ثياب السفر مغادراً المدينة الى الشام، فمر على نفر من المهاجرين فيهم علي وطلحة والزبير، فقام عليهم وقال لهم عن فتنة الكرسي: إنكم قد علمتم أن هذا الأمر كان الناس يتغالبون عليه حتى بعث الله نبيه (ص)، وكانوا يتفاضلون السابقة والقدمة والاجتهاد، فإن أخذوا بذلك فالأمر أمرهم والناس لهم تبع، وإن طلبوا الدنيا بالتغالب سلبوا ذلك ورده الله إلى غيرهم، وإن الله على البدل لقادر، وإني قد خلفت فيكم شيخاً فاستوصوا به خيراً وكانفوه تكونوا أسعد منه بذلك. ثم ودعهم ومضى. فقال علي معلقاً: ما كنت أرى في هذا خيراً. وقال الزبير: والله ما كان قط أعظم في صدرك وصدورنا منه اليوم.

عرف جندب اثناء وجوده في المدينة أن المنحرفين عن عثمان كانوا

قد اتفقوا على يوم يخرجون فيه بالأمصار جميعاً إذا سار عنها الأمراء إلى الموسم، فلم يتهيأ لهم ذلك، ولما رجع الأمراء ولم يتم للمنحرفين الوثوب ذلك العام، صاروا يكاتبون بعضهم في القدوم إلى المدينة لينظروا فيما يريدون ويسألون عثمان عن أشياء لتطير في الناس. وكان بمصر محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة يحرضان على عثمان. فلما خرج المصريون خرج فيهم عبد الرحمن بن عديس البلوي في خمسمئة، وفيهم كنانة بن بشر الليثي وسودان بن حمران السكوني وقتيرة بن فلان السكوني، وعليهم جميعاً الغافقي بن حرب العكي. وخرج أهل الكوفة وفيهم زيد بن صوحان العبدي والأشتر النخعي وزياد بن النضر الحارثي وعبد الله بن الأصم العامري، وهم في عداد أهل مصر وعليهم جميعاً عمرو بن الأصم. وخرج أهل البصرة وفيهم حكيم بن جبلة العبدي وذريح بن عباد وبشر بن شريح القيسي وابن المحترش، وهم بعداد أهل مصر، وأميرهم حرقوص بن زهير السعدي. خرجوا جميعاً في شوال وأظهروا أنهم يريدون الحج، فلما كانوا من المدينة على ثلاثة أيام تقدم ناس من أهل البصرة فنزلوا ذا خشب، وكان هواهم في طلحة، وتقدم ناس من أهل الكوفة، وكان هواهم في الزبير، ونزلوا الأعوص، وجاءهم ناس من أهل مصر، وكان هواهم في علي، ونزلوا عامتهم بذي المروة، ومشى فيما بين أهل مصر وأهل البصرة زياد بن النضر وعبد الله بن الأصم، وقالا لهم: لا تعجلوا حتى ندخل المدينة ونرتاد لكم، فقد بلغنا أنهم عسكروا لنا، فوالله إن كان هذا حقاً واستحلوا قتالنا بعد علم حالنا، فإن أمرنا لباطل، وإن كان الذي بلغنا باطلاً رجعنا إليكم بالخبر. قالوا: اذهبا. فذهبا فدخلا المدينة فلقيا أزواج النبي، (ص)، وعلياً وطلحة والزبير، فقالا: إنما نريد هذا البيت ونستعفي من

بعض عمالنا، واستأذناهم في الدخول، فكلمهما الزبير ونهاهما فرجعا إلى أصحابهما. فاجتمع نفر من أهل مصر فأتوا علياً، ونفر من أهل البصرة فأتوا طلحة، ونفر من أهل الكوفة فأتوا الزبير، وقال كل فريق منهم: إن بايعنا صاحبنا وإلا كذبناهم وفرقنا جماعتهم ثم رجعنا عليهم حتى نبغتهم. فأتى المصريون علياً وهو في عسكر عند أحجار الزيت متقلداً سيفه، وقد أرسل ابنه الحسن إلى عثمان فيمن اجتمع إليه، فسلموا عليه وعرضوا عليه، فصاح بهم وطردهم وقال: لقد علم الصالحون أن جيش ذي المروة وجيش ذي خشب والأعوص ملعونون على لسان محمد، (ص)، فانصرفوا عنه. وأتى البصريون طلحة فقال لهم مثل ذلك، وكان قد أرسل ابنيه إلى عثمان، وأتى الكوفيون الزبير فقال لهم مثل ذلك، وكان قد أرسل ابنه عبد الله إلى عثمان.

رجع القوم وتفرقوا عن ذي خشب وذي المروة والأعوص إلى عسكرهم فيخدعوا أهل المدينة ليتفرقوا ثم يرجعون إليهم. وسار كل منهم الى بلاده فلما عرف أهل المدينة أنهم رحلوا بعسكرهم، تفرقوا مطمئنين بنهاية الأمر. فلم يشعر أهل المدينة بعد ذلك إلا والتكبير في نواحيها، ونزلوها وأحاطوا بالخليفة عثمان وقالوا: من كف يده فهو آمن. وصلى عثمان بالناس أياماً، ولزم أهل المدينة بيوتهم ولم يُمنعوا من كلام الخليفة. ذهب علي الى المصريين فقال لهم: ما ردكم بعد ذهابكم؟ فقالوا: أخذنا من بريد الخليفة الى مصر كتاباً بقتلنا. وأتى طلحة الكوفيين فسألهم عن عودهم فقالوا مثل ذلك. وأتى الزبير البصريين فقالوا مثل ذلك، وكل منهم يقول: نحن نمنع إخواننا وننصرهم، كأنما كانوا على ميعاد. فقال لهم علي: كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقي أهل مصر وقد سرتم مراحل حتى رجعتم علينا؟ هذا والله أمر

أبرم بليل! فقالوا: ضعوه كيف شئتم، لا حاجة لنا في هذا الرجل، ليعتزل عنا. واستمر عثمان يصلي بهم وهم يصلون خلفه، وهم أدق في عينه من التراب، وصاروا يمنعون الناس من الاجتماع ببعضهم.

كتب عثمان منذ اشتدت الأزمة إلى أهل الأمصار يستنجدهم ويأمرهم بالحث للمنع عنه ويعرفهم ما الناس فيه. فخرج أهل الأمصار على الصعب والذلول، فبعث معاوية من الشام حبيب بن مسلمة الفهري، وخرج عبد الله بن سعد من مصر، وخرج من الكوفة القعقاع بن عمرو، وقام بالكوفة نفر يحضون على إعانة أهل المدينة، منهم: عقبة بن عامر وعبد الله بن أبي أوفى وحنظلة الكاتب وغيرهم من أصحاب النبي، (ص)، ومن التابعين: مسروق والأسود وشريح وعبد الله بن حكيم وغيرهم، وقام بالبصرة: عمران بن حصين وأنس بن مالك وهشام بن عامر وغيرهم من الصحابة، ومن التابعين: كعب بن سور وهرم بن حيان وغيرهما، وقام بالشام جماعة من الصحابة والتابعين وكذلك بمصر.

ولما جاءت الجمعة التي على أثر دخول الثوار المدينة، خرج عثمان فصلى بالناس ثم قام على المنبر فقال: يا هؤلاء، الله الله! فوالله إن أهل المدينة ليعلمون أنكم ملعونون على لسان محمد، (ص)، فامحوا الخطأ بالصواب. فقام محمد بن مسلمة فقال: أنا أشهد بذلك، فأقعده حكيم بن جبلة، وقام زيد بن ثابت فأقعده محمد بن أبي قتيرة، وثار القوم بأجمعهم فحصبوا الناس حتى أخرجوهم من المسجد، وحصبوا عثمان حتى صرع عن المنبر مغشياً عليه، فأدخل داره واستقتل نفر من أهل المدينة مع عثمان، منهم: سعد بن أبي وقاص والحسين بن علي وزيد بن ثابت وأبو هريرة. فأرسل إليهم عثمان يعزم عليهم بالانصراف، فانصرفوا، وأقبل علي وطلحة والزبير فدخلوا على عثمان

يعودونه من صرعته ويشكون إليه ما يجدون، وكان عند عثمان نفر من بني أمية فيهم مروان بن الحكم، فقالوا كلهم لعلي: أهلكتنا وصنعت هذا الصنيع، والله لئن بلغت الذي تريد لتمرن عليك الدنيا! فقام علي مغضباً وعاد هو والجماعة إلى منازلهم.

صلى عثمان بالناس بعدما نزلوا به في المسجد ثلاثين يوماً، ثم منعوه الصلاة، وصلى بالناس بدلاً من الخليفة، أمير المتمردين، الغافقي ودان له المصريون، والكوفيون والبصريون، وتفرق أهل المدينة في حيطانهم ولزموا بيوتهم لا يجلس أحد ولا يخرج إلا بسيفه ليمتنع به، وكان الحصار بعد ذلك أربعين يوماً ومن تعرض لهم وضعوا فيه السلاح.

كان عثمان يعرف أنهم يريدون قتله، فلقد بعث عبد الله بن سعد من مصر قبل ذلك رسولاً إليه يخبره عمن خرجوا من مصر، وأنهم قد أظهروا العمرة وقصدهم خلعه أو قتله، فخطب عثمان آنذاك في الناس وأعلمهم حالهم، وقال لهم: إنهم قد أسرعوا إلى الفتنة واستطالوا عمري، والله لئن فارقتهم ليتمنون أن عمري كان عليهم مكان كل يوم سنة مما سيرون من الدماء المسفوكة والإحن والأثرة الظاهرة والأحكام المغيرة.

بأمر من الخليفة خرج عبد الله بن سعد إلى المدينة في أثر الثوار المصريين، فلما كان بأيلة بلغه أن المصريين قد وصلوا المدينة وخرجوا منها وأنهم رجعوا إلى عثمان مرة أخرى فحصروه. وعرف عبد الله ايضاً أن محمد بن أبي حذيفة غلب على مصر بعد خروجه الى المدينة، واستجابت له، فعاد عبد الله إلى مصر لاستعادتها ولكنه مُنع عنها، وفي هذه الاثناء عرف بنهاية الخليفة، فأتى فلسطين فأقام بها.

لما نزل القوم ذا خشب في المرة الاولى يريدون قتل عثمان إن لم ينزع عما يكرهون، ولما رأى عثمان ذلك جاء إلى علي فدخل عليه بيته فقال له: يا ابن عم، إن قرابتي قريبة ولي عليك حق عظيم، وقد جاء ما ترى من هؤلاء القوم وهم مصبحي، ولك عند الناس قدر وهم يسمعون منك، وأحب أن تركب إليهم فتردهم عني، فإن في دخولهم علي توهيناً لأمري وجرأة علي! فقال علي: على أي شيء أردهم عنك؟ قال: على أن أصير إلى ما أشرت إليه ورأيته لي. فقال علي: إني قد كلمتك مرة بعد أخرى فكل ذلك نخرج ونقول ثم ترجع عنه، وهذا من فعل مروان وابن عامر ومعاوية وعبد الله بن سعد، فإنك أطعتهم وعصيتني. قال عثمان: فأنا أعصيهم وأطيعك. أمر علي الناس فركب معه من المهاجرين والأنصار ثلاثون رجلاً فيهم سعيد بن زيد وأبو جهم العدوي وجبير بن مطعم وحكيم بن حزام ومروان وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن عتاب بن أسيد، ومن الأنصار أبو أسيد الساعدي وأبو حميد وزيد بن ثابت وحسان بن ثابت وكعب بن مالك، ومن العرب نيار بن مركز، فأتوا المصريين فكلموهم، وكان الذي يكلمهم علي ومحمد بن مسلمة، فتظاهروا بأنهم سمعوا مقالتهما، وقالوا إنهم سيرجعون إلى مصر. فقال ابن عديس لمحمد بن مسلمة: أتوصينا بحاجة؟ قال: نعم، تتقي الله وترد من قبلك عن إمامهم فإنه قد وعدنا أن يرجع وينزع. قال ابن عديس: أفعل إن شاء الله. ورجع علي ومن معه إلى المدينة، فدخل على عثمان فأخبره برجوعهم وكلمه بما في نفسه ثم خرج من عنده، فمكث عثمان ذلك اليوم، وجاءه مروان بكرة الغد فقال له: تكلم وأعلم الناس أن أهل مصر قد رجعوا وأن ما بلغهم عن إمامهم كان باطلاً قبل أن يجيء الناس إليك من أمصارهم ويأتيك ما لا

تستطيع دفعه. ففعل عثمان، فلما خطب في الناس قال له عمرو بن العاص: اتق الله يا عثمان، فإنك قد ركبت أموراً وركبناها معك، فتب إلى الله نتب. فناداه عثمان: وإنك هنالك يا ابن النابغة! قملت والله جبتك منذ عزلتك عن العمل! فنودي من ناحية أخرى: تب إلى الله. فرفع يديه وقال: اللهم إني أول تائب تاب إليك. ورجع إلى منزله.

أما علي فلما رجع من عند المصريين بعد عودتهم إلى عثمان، بحجة أنهم ضبطوا كتاباً منه يأمر بجلدهم وحبسهم، فقد قال للخليفة: تكلم كلاماً يسمعه الناس منك ويشهدون عليك ويشهد الله على ما في قلبك من النزوع والأمانة، فإن البلاد قد تمخضت عليك، فلا آمن أن يجيء ركب آخر من الكوفة والبصرة فتقول: يا علي اركب إليهم، فإن لم أفعل رأيتني قد قطعت رحمك واستخففت بحقك. فخرج عثمان فخطب الخطبة التي نزع فيها وأعطى الناس من نفسه التوبة وقال: أنا أول من اتعظ، أستغفر الله مما فعلت وأتوب إليه، فمثلي نزع وتاب، فإذا نزلت فليأتني أشرافكم فليروا في رأيهم، فوالله لئن ردني الحق عبداً لأستنن بسنة العبد ولأذلن ذل العبد وما عن الله مذهب إلا إليه، فوالله لأعطينكم الرضا ولأنحين مروان وذويه ولا أحتجب عنكم! فرق الناس له وبكوا حتى أخضلت لحاهم وبكى هو أيضاً.

فلما نزل عثمان وجد مروان وسعيداً ونفراً من بني أمية في منزله ولم يكونوا شهدوا خطبته، فلما جلس قال مروان: يا أمير المؤمنين أتكلم أم أسكت؟ فقالت نائلة بنت الفرافصة امرأة عثمان: لا بل اصمت فإنهم والله قاتلوه ومؤثموه، إنه قد قال مقالة لا ينبغي له أن ينزع عنها. فقال لها مروان: ما أنت وذاك! فوالله قد مات أبوك وما يحسن يتوضأ! فقالت: مهلا يا مروان عن ذكر الآباء! تخبر عن

أبي وهو غائب تكذب عليه وإن أباك لا يستطيع أن يدفع عن نفسه؟ أما والله لولا أنه عمه وأنه يناله غمه لأخبرتك عنه ما لن أكذب عليه. فأعرض عنها مروان، وخاطب عثمان: يا أمير المؤمنين أتكلم أم أسكت؟ قال له عثمان: تكلم. فقال مروان: بأبي أنت وأمي، والله لوددت أن مقالتك هذه كانت وأنت ممتنع فكنت أول من رضي بها وأعان عليها، ولكنك قلت ما قلت وقد بلغ الحزام الطبيين وخلف السيل الزبى، وحين أعطى الخطة الذليلة الذليل؛ والله لإقامة على خطيئة يستغفر منها أجمل من توبة يخوف عليها، وأنت إن شئت تقربت بالتوبة ولم تقر بالخطيئة؛ وقد اجتمع بالباب أمثال الجبال من الناس. فقال عثمان: فاخرج إليهم فكلمهم فإني أستحيي أن أكلمهم. فخرج مروان إلى الباب والناس يركب بعضهم بعضاً، فقال: ما شأنكم قد اجتمعتم كأنكم قد جئتم لنهب؟ شاهت الوجوه! ألا من أريد؟ جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا! أخرجوا عنا، والله لئن رمتمونا ليمرن عليكم منا أمر لا يسركم ولا تحمدوا غب رأيكم. ارجعوا إلى منازلكم فإنا والله ما نحن بمغلوبين على ما في أيدينا. فرجع الناس وأتى بعضهم علياً فأخبره الخبر.

أقبل علي على عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث وسأله: أحضرت خطبة عثمان؟ قال: نعم. قال: أفحضرت مقالة مروان للناس؟ قال: نعم. فقال علي: أي عباد الله! يا للمسلمين! إني إن قعدت في بيتي قال لي: تركتني وقرابتي وحقي، وإني إن تكلمت فجاء ما يريد يلعب به مروان فصار سيقة له يسوقه حيث يشاء بعد كبر السن وصحبة رسول الله، (ص). وقام مغضباً حتى دخل على عثمان فقال له: أما رضيت من مروان ولا رضي منك إلا بتحرفك عن دينك وعن عقلك مثل جمل الظعينة يقاد حيث يسار به؟ والله ما مروان

بذي رأي في دينه ولا نفسه! وأيم الله إني لأراه يوردك ولا يصدرك! وما أنا عائد بعد مقامي هذا لمعاتبتك، أذهبت شرفك وغلبت على رأيك. فلما خرج علي دخلت عليه امرأته نائلة ابنة الفرافصة فقالت: قد سمعت قول علي لك وليس يعاودك وقد أطعت مروان يقودك حيث شاء. قال: فما أصنع؟ قالت: تتقي الله وتتبع سنة صاحبيك، فإنك متى أطعت مروان قتلك، ومروان ليس له عند الناس قدر ولا هيبة ولا محبة، وإنما تركك الناس لمكانه، فأرسل إلى علي فاستصلحه فإن له قرابة منك وهو لا يعصى. فأرسل عثمان إلى علي فلم يأته وقال: قد أعلمته أني غير عائد. فبلغ مروان مقالة نائلة فيه فجلس بين يدي عثمان وقال: يا ابنة الفرافصة! فقاطعه عثمان: لا تذكرنها بحرف فأسود وجهك، فهي والله أنصح لي! فكف مروان.

أتى عثمان مرة أخرى إلى علي بمنزله ليلاً وقال له: إني غير عائد، وإني فاعل. فقال له علي: بعد ما تكلمت على منبر رسول الله، (ص)، وأعطيت من نفسك ثم دخلت بيتك فخرج مروان إلى الناس يشتمهم على بابك ويؤذيهم. هكذا خرج عثمان من عند علي وهو يقول: خذلتني وجرأت الناس علي. فقال علي: والله إني لأكثر الناس ذباً عنك، ولكني كلما جئت بشيء أظنه لك رضا، جاء مروان بأخرى، فسمعت قوله وتركت قولي. ولم يعد علي بن أبي طالب بعد ذلك يساند الخليفة إلى أن منع المحاصرون الماء عن عثمان. فقال علي لطلحة: أريد أن تدخل عليه الروايا، وغضب غضباً شديداً. ثم غادر علي المدينة ولم يعد إليها إلا بعد تبليغه بمقتل الخليفة.

تزاحمت في ذهن جندب الأفكار والروايات، والاستنتاجات لما قد يحدث للإسلام والمسلمين من جراء هذه الفتنة التي كشرت عن أنيابها. لم

يستغرب جندب بداية الخلافات على كرسي السلطة، ولكنه لم يكن يتوقع أن تبدأ الصراعات بهذه السرعة، وفي ظل ازدهار اقتصادي لم يشهده العرب قبل ذلك، وهذا السيل من الانتصارات الحربية، وآخرها النصر المميز في البحر قبل أشهر فقط، حيث اطمأن المسلمون الآن إلى وجود أسطول قوي بعد أن كانوا يرهبون ركوب البحر قبل عهد الخليفة عثمان. فبعد عام فقط من تولي الإمبراطور قسطنطين الثاني، الملتحي، الحكم، انتهت تماماً الدولة البيزنطية في مصر عام 642 وحتى عندما عادوا واحتلوا ميناء الإسكندرية عام 645 لم يمكثوا في المدينة سوى أشهر حتى استردها المسلمون وطردوهم من هناك. ثم باشر المسلمون لاحقاً، بموافقة من الخليفة عثمان، في غزو جزر البحر الرومي وبحر إيجة، وغزو ساحل شمال أفريقيا حتى قرطاج، واستفاد المسلمون كثيراً من الخلافات الدينية داخل الدولة البيزنطية. توالت الانتصارات طوال عهد عثمان واتجهت جيوش المسلمين بقيادة معاوية إلى شمال سوريا واحتلت مدن أرمينيا والأناضول كلها، كابادوكا وقيصرية مازاكا وفريجا وجزيرة كريت ومدينة أساوريا القريبة من القسطنطينية وكليكيا على الساحل الشمالي للبحر. كان جندب يعرف تماماً أن معاوية قد حصل على موافقة عثمان لغزو القسطنطينية، وقد تجمعت لديه الكثير من المعلومات التي تساعده على التخطيط. حشد الجيوش، ثم صنع المراكب وسير الأسطول الذي انتصر قبل أشهر في معركة ذات الصواري، ودمر لبيزنطيا خمسمئة سفينة وجُرح الإمبراطور قسطنطين الثاني في المعركة وهرب متنكراً كجندي. لقد دفعت هزائم بيزنطيا السابقة في البر قبل خمس سنوات، إلى مفاوضات مع معاوية أسفرت حينها عن هدنة بعد استعداد قسطنطين الثاني لدفع الجزية،

لكن معاوية عاد للغزو في العام الماضي واحتل جزيرة رودس ومدينة فونيكي الساحلية، وكان هذا العمل اختباراً للأسطول الإسلامي الذي خاض على إثر ذلك معركة ذات الصواري بقيادة عبد اللَّه بن سعد بن أبي سرح والي مصر، الذي اشتكى منه المتآمرون، وانتصر في المعركة المسلمون وأنهوا قوة خصومهم في البحر الرومي. الآن، على الأرجح، سوف تلتقط الإمبراطورية البيزنطية أنفاسها، وسيؤجل معاوية خططه لغزو عاصمتها، القسطنطينية، وسيفكر قسطنطين الثاني باسترداد البلاد التي فتحها المسلمون، كما فعل سابقاً هرقل بتحريره لبلاد الشام وفلسطين ومصر من احتلال الفرس. كل ذلك سيتوقف على مصير وسبل حل الخلاف بين المسلمين الآن، على بعد مقتل الخليفة عثمان والتحزب من جراء ذلك بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان.

تذكر جندب فجأة ما سمعه منقولاً عن الرسول الكريم، بأن الساعة تقوم والروم أكثر الناس، ووصفه (ص) للروم بالقول: إن فيهم لخصالاً أربع، إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرة بعد فرة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف، وخامسة حسنة جميلة، وأمنعهم من ظلم الملوك. وهذا يعني أن لديهم القدرة للنهوض مجدداً.

بينما تدور هذه الأفكار في رأس جندب كان هناك سؤال يلح عليه ولا يتمكن من تناسيه، لماذا تأخرت النجدات للخليفة، وتحديداً نجدة الشام؟ ولماذا عادت النجدات إلى أمصارها بعدما عرف قادتها بمقتل الخليفة؟ ألم يكن من الأفضل لو واصلوا طريقهم إلى المدينة للقبض على قتلة الخليفة وتأمين الناس من خطرهم؟ لم تكن لديه إجابات فورية، وهكذا قرر البحث

لمعرفة أسباب تأخر النجدات، والأوامر التي حملها القادة من أمرائهم. ومن الأمور التي لم يجد جندب تفسيراً لها هو كثرة اللغط في قصة كتاب عثمان إلى عامله في مصر بقتل وتعذيب الذين حضروا إلى المدينة. أكد المتآمرون الأمر ونفاه الخليفة، ولكن الغلام الذي حمل الرسالة على جمل الصدقة، اختفى مع جمله، ولم يسأل أحد عن اسمه، وهذا أكبر دليل على صحة ما يظن جندب، بأن المصريين هم الذين ألفوا الكتاب، واختلقوا قصة الغلام، وكانوا قد تواعدوا مع عصابتي الكوفة والبصرة على اللقاء مرة أخرى.

أمر آخر يبحث جندب له عن تفسير. فقد أصبح من المعروف للكثيرين، وحتى قبل قتل الخليفة، أن محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة كانا بمصر يحرضان على عثمان. وأن محمد بن أبي بكر خرج مع من ساروا إلى عثمان بينما أقام ابن أبي حذيفة بمصر. وقد بعث عبد الله بن سعد، عامل عثمان على مصر، رسولاً إلى عثمان يخبره بحالهم وأنهم قد أظهروا العمرة وقصدهم خلعه أو قتله. ووصلت الرسالة قبل القوم، فخطب عثمان في الناس وأعلمهم حال من خرجوا لقتله، وحذر من ذلك. ثم كتب عثمان إلى عامله ليخرج في آثارهم ويحضر لنجدته. فلما وصل عبد الله مدينة أيلة، بلغه أن المصريين رجعوا إلى عثمان فحصروه، وبلغه أيضاً أن محمد بن أبي حذيفة ثار في مصر وغلب عليها. هنا ترك عبد الله عثمان لمصيره وعاد إلى مصر ليستعيد حكمها، فمنع عنها بالقوة، فذهب إلى فلسطين وأقام فيها حتى سمع بقتل عثمان. كان من المفترض، في المقام الأول، حسب رؤية جندب، أن لا يسمح سعد للقتلة بمغادرة مصر وقد كان يعرف قصدهم، كما ثبت. ثم ما كان عليه العودة من أيلة لإنقاذ مصر والتضحية بشقيقه في الرضاعة، الخليفة الذي

أنقذه من الموت المحتوم بعد فتح مكة. لكنه وقد فعل ذلك، فكان من الأجدر به أن لا يمكث في فلسطين بل يُسرع إلى نجدة عثمان في المدينة.

لقد أسلم عبد الله بن سعد بن أبى السرح أول مرة قبل صلح الحديبية، وكان حسِن الإسلام وأصبح موضع ثقة النبي، الذي أناله شرف كِتابة الوحي. جالت قصة عبد الله في ذهن جندب علها تهديه إلى مبررات تصرفه الأخير الخائب. كان النبي ذات يوم يقرأ على المُسلمين ما أنزله الله من سورة [المؤمنون]، وكان عبد الله بن أبى السرح يكتُب، فكان النبي يتلو آيات خلق الإنسان (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين... إلخ. الآية) و لما انتهى النبي من تلاوة الآيات و توقف عند قوله (ثم أنشأناه خلقاً آخر) عجب عبد الله من تفصيل خلق الإنسان فقال: « تبارك الله أحسن الخالقين» فقال له النبي، اكتُبها فهكذا أوحيت إلي. ساور الشك عبد الله في النبوة وقال لذاته وللكفار فيما بعد، إن كان صادقاً فقد أوحى إلي مثلما يوحى إليه، وإن كان كاذباً فإنما أقول مثلما يقول. وعزم عبد الله على التأكُد مما وصل إليه من نتائج فاستغل ثقة النبي به والمكانة التي وضعه النبي فيها، استغلها بشكل سيء، فقام بتحريف الوحي أثناء كتابته، فكان النبي إذا أملى عليه (إن الله كان سميعاً عليماً) يكتُبها عبد الله (إن الله كان عليماً حكيماً) ولما لم يكتشف النبي ذلك التحريف، تبين لـ عبد الله صحة شكوكه، فترك المدينة هارباً سراً في الليل إلى مكة، وعند وصوله هناك أعلن عودته إلى ديانة العرب وادعى أنه أكتشف كذب نبوة مُحمد وروى قصته مع تحريف القرآن، وأغضب ذلك بشدة الرسول (ص) والمسلمين.

في السنة الثامنة للهجرة، فتحت مكة، وكان عبد الله ضمن أحد عشر شخصاً (ثمانية رجال وثلاث سيدات) أمر النبي بقتلهِم حتى ولو وجدوا

مُتعلقين بأستار الكعبة. لم يُقتلوا جميعاً وإنما قُتل بعضهم وعفي عن بعضهم بعد أن توسط لهم أقاربهم ومعارفهم وأشقاؤهم وأزواجهم لدى النبي. وكان عبد الله بن أبى السرح ممن عُفي عنهم بفضل شقيقه في الرضاعة عثمان بن عفان. فقد اختبأ عبد الله في منزل عُثمان، و لما عُثر عليه قال يا أخي إني والله اخترتُك فاحتسبني ها هنا واذهب إلى مُحمد وكلمه في أمري، فإن محمداً إن رآني ضرب الذي فيه عيناي، إن جُرمي أعظم الجُرم وقد جئت تائباً. فقال له عُثمان بل تذهب معي، فقال عبد الله، والله لئن رآني لـيضرب عُنقي و لا يناظرني، فقد أهدر دمي وأصحابه يطلبونني في كل موضع، فقال له عُثمان بل تنطلق معي ولا يقتُلك إن شاء الله، فلم يرع النبي إلا بـعثمان آخذ بيد عبد الله بن سعد بن أبى السرح واقفين بين يديه فأقبل عُثمان على النبي فقال يا رسول الله إن أمه كانت تحملني وتمشيه، وترضعني و تقطعه، وكانت تلطفني وتتركه، فهبه لي. فأعرض عنهُ النبي وجعل عُثمان كلما أعرض عنه رسول الله بوجهه استقبله فيعيد عليه هذا الكلام. كان إعراض النبي هدفه أن يقوم رجُل فـيضرب عُنقه لأنه لم يؤمنه بعد. فلما رأى ألا أحد يُقدم وعُثمان قد أكب على رسول الله يُقبل رأسه وهو يقول يا رسول الله تُبايعه فداك أبى وأمي يا رسول الله، فداك أبي و أمي يا رسول الله، تُبايعه، فداك أبي و أمي يا رسول الله... فقال رسول الله نعم. وبعد رحيلهما التفت إلى أصحابه وقال ما منعكم أن يقوم أحدكم إلى هذا الكلب فيقتُله؟ فقال عباد بن بشر ألا أومأت إلي يا رسول الله؟ فـوالذي بعثك بالحق إني لأتبع طرفك من كل ناحية رجاء أن تشير إلي فـأضرب عُنقه فقال النبي أنهُ لا يجوز له أن يكون خائن الأعيُن. وهكذا عاد عبد الله بن أبى السرح إلى مُجتمع الإسلام بعد وساطة عُثمان

بن عفان. فيما بعد وقبل أن يعطيه الخليفة عثمان ولاية مصر كان قد خاض صراعاً مع واليها عمرو بن العاص، ثم اشتد في الجباية على أهل مصر بعد أن تولاها، وكان يدعي دوماً أنه إنما يعمل بتوجيه من الخليفة عثمان، وأصبح الخليفة محط انتقاد بسبب منحه عبد الله ولاية مصر، وأصبح تصرفه هناك أحد مبررات التآمر على عثمان والوصول إلى اغتيال الخليفة، وفقدان عبد الله بن أبي السرح للولاية، وفشله في إنقاذ الخليفة.

استقلال معاوية في شؤون الشام والادعاء أنه كان يطبق تعليمات الخليفة، فتح أيضاً باب الانتقاد ضد عثمان، حتى ولو كانت أفعال معاوية إيجابية أو بالفعل تتم حسب تعليمات من الخليفة. حقيقة الأمر أن معاوية كان يشير على الخليفة بما يجب أن يكون، وكان عثمان يستمع إليه. لكن معاوية تولى الشام قبل ذلك وبأمر من الخليفة عمر بن الخطاب، وكان معاوية ضمن الجيش الذي أرسله الخليفة أبو بكر إلى الشام بقيادة يزيد بن أبي سفيان، ولما استشهد يزيد تولى أخوه معاوية على الشام. ويشترك معاوية مع عبد الله بن أبي السرح في أنه أصبح من كتبة الوحي بعد أن أسلم مع أبيه وأهله يوم فتح مكة. كان أبو سفيان، صخر بن حرب بن أمية، من مشاهير رجالات قريش وأحد كبار قادة قوافلها التجارية، وهو الذي تزعم مشركي قريش في حربهم للإسلام، وشعر بالإخفاق يوم فتح مكة، فأعلن اعتناقه للإسلام، واعتُبر وأمثاله من المؤلفة قلوبهم، وعرفوا باسم الطلقاء بعد أن أصدر الرسول، عليه الصلاة والسلام، العفو عنه ومنح الأمان لكل من يدخل دار أبي سفيان وأطلق سراحهم. تقرب أبو سفيان وأولاده من الرسول (ص) وأصبح معاوية من كتبة الوحي، وتدرج لاحقاً في خدمة الخلفاء الثلاثة، وهاهو الآن يمهد لرفض الاعتراف بخلافة

علي بن أبي طالب، وعلى الأرجح يريد الخلافة لنفسه. كانت الأفكار تتوالى في ذهن جندب، والإجابات عن تساؤلاته تطرح ذاتها. هل يعقل أن يكون معاوية قد تخلف متعمداً عن نجدة ابن عمه طمعاً في كرسي الخلافة، حتى لو كان الثمن هو حياة الخليفة؟ تروى جندب قليلاً وراوده احتمال أن يكون تأخر قوات الشام عن نجدة الخليفة قد كان خوفاً من هجوم بيزنطي! لكن القوات التي اتجهت بالفعل من الشام إلى المدينة، لماذا تأخرت في الخروج؟ وهل خرجت بأمر من معاوية أم كانوا متطوعين؟ ولماذا عادت أدراجها من منتصف الطريق بعد أن عرفت بموت الخليفة؟

لقد انفرد معاوية، طوال خلافة عثمان، في تصريف أمور الشام، فأعاد تشكيل الجيش وعمل على ربط ولائه به، وزاد في أعطياتهم، وأحسن استغلال الوضع القبلي فتصاهر وتحالف مع قبيلة كلب، وهي من أقوى قبائل جنوبي بلاد الشام، وها هي جريمة قتل الخليفة تفتح الآفاق أمام معاوية إذا ما قرر المضي في التصدي للخليفة الجديد، علي بن أبي طالب، وتزعم جماعة المطالبين بدم عثمان.

16

انتظر جندب ثلاثة أسابيع بعد وصوله من المدينة إلى الشام، حتى قرر معاوية إرساله إلى القسطنطينية حاملاً مقترحات إلى الإمبراطور. لم يكن معاوية قد حسم أمره بشكل نهائي فيما سيفعل، وإذا ما كان سيطالب الروم بهدنة لن تكون مجانية. الأخبار التي وصلت قبل سفر جندب إلى الشام تباعاً من المدينة ومن باقي الأمصار، أثرت في تحديد خطط معاوية، ويبدو أنه تيقن من حتمية الحرب بشكل أو بآخر. وصلت الأخبار من المدينة أن الإمام علياً اشتد على قريش، وبسبب تذمر الناس من وجود قتلة الخليفة عثمان على رأس جند علي، قرر الخليفة الجديد نقل مقر الخلافة من المدينة إلى الكوفة وحمل أهله معه من جوار قبر الرسول (ص) إلى مدينة الجند الأصعب قيادة حتى الآن. ثم باشر طلحة والزبير تأطير الناس لأخذ القصاص من القتلة ويجمعون جنداً متطوعين لهذه المهمة الآن، لم يطلبوا الدعم من معاوية بعد، ولم يتطوع هو بمدهم بالجند إذ لم يستسغ تبدل موقفهم من مناهضين لعثمان وساكتين على حصاره إلى مطالبين بدمه الآن. على الأرجح أن معاوية ينظر إليهم كمنافسين محتملين له على المطالبة بالخلافة. انضمام أم المؤمنين عائشة إلى طلحة والزبير في حشد الجند لم يخفف من شكوك معاوية، إذ كانت هي الأخرى من الساكتين على حصار ومقتل عثمان وغادرت المدينة آنذاك

إلى مكة من دون إعلان موقف مضاد لما يجري ضد عثمان. كانت عائشة غاضبة على عثمان إذ صدها حين طالبت بورثة الرسول، إذ قال لها إنها كانت قد جلبت الشهود ليقروا بأن الرسول (ص) قال إن الأنبياء لا يورثون، وذلك حتى لا ترث ابنته فاطمة أي شيء، أما لاحقاً وبعد موت فاطمة فلم تجرؤ أي من أمهات المؤمنين على المطالبة بورثة الرسول أثناء خلافة أبي بكر وعمر، لكن عائشة عادت للمطالبة من عثمان، فصدها وذكرها بموقفها السابق، وهو الذي تزوج بأختي فاطمة، رقية، ثم أم كلثوم. لكن عائشة لم تكن أيضاً من محبي علي بن أبي طالب، فهو الذي طالب الرسول (ص) أن يطلقها أيام قصة الإفك، كما أنها كانت تغار من حب زوجها لابنته فاطمة وولديها الحسن والحسين، أبناء علي.

الكوفة، التي التجأ الخليفة الجديد إليها، هي أول مصر نزغ الشيطان بين أهله في الإسلام. لقد بناها جند من العرب الذين غزو بلاد فارس وأصبحت مقراً لهم. أصبح واليها في عهد عثمان، سعد بن أبي وقاص، بعد أن أوصى له عمر بن الخطاب بالولاية قبل أن يقتله أبو لؤلؤة. وكان عبد الله بن مسعود أمين بيت مال الكوفة، فاقترض سعد من عبد الله مالاً ثم تأخر في السداد لبيت المال، فطالبه ابن مسعود بالمال، وهذا ما أغضب سعداً فتصايحا وأوشك سعد أن يدعو الله على ابن مسعود، وكانت دعواته مستجابة، فطالبه ابن مسعود بعدم الدعاء وغادر مهرولاً. عندما وصل الخبر إلى عثمان غضب منهما وعزل سعد عن الولاية وأقر ابن مسعود على بيت المال، وولى على الكوفة الوليد بن عقبة بن أبي معيط، الذي أقام في الكوفة خمس سنوات وليس لداره باب. أم الوليد هذا هي أروى بنت كريز، أي أم عثمان بن عفان، فالوليد أخو عثمان

لأمه، أسلم يوم فتح مكة هو وأخوه خالد بن عقبة، وعقبة هذا كان من أشد أعداء الرسول (ص) ولم يتوان عن الاستهزاء به. أما الوليد، فعندما وصل النبي خبر أن بني المصطلق تركوا الإسلام، فأرسله إليهم لاستبيان الأمر، فعاد الوليد بن عقبة للرسول وأخبر أنهم ارتدوا ومنعوا الصدقة. هكذا أرسل النبي إليهم خالد بن الوليد ليعاقبهم، فاستقبلوه بالترحاب وأخبروه أنهم على الإسلام، ولكنهم عندما خرجوا لاستقبال الوليد خافهم وعاد فأخبر عنهم، وهكذا نزلت في الوليد: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴾.

فلما قدم، الوليد في عهد أخيه عثمان على سعد لأخذ الولاية منه، قال له سعد: والله ما أدري أكِست بعدنا أم حمقنا بعدك؟ فقال الوليد: لا تجزعن أبا إسحاق، فإنما هو الملك يتغداه قوم، ويتعشاه آخرون. فقال له سعد أراكم ستجعلونها ملكاً.

أخذ الوليد مهامه، وشاعت الأحوال أن قتل شبان من الكوفة ابن الحسيمان الخزاعي، وشاهدهم أحد الصحابة الذي نقل بيته من المدينة إلى الكوفة ليكون قريباً من الغزو، فشهد ضدهم. أخذ الوليد القصاص من القتلة وهذا ما أغضب أهلهم وذويهم، فمكروا للوليد وشهدوا عليه زوراً أنه يشرب الخمر. ثم عاثوا فساداً وقتلوا ساحراً بدون إذن، فطالبهم عثمان عبر كتاب لأخيه أن لا يقيموا الحدود دون إذن من السلطان وأن لا يعملوا بالظنون. لكنهم واصلوا الكيد وذهبوا إلى المدينة شاكين الوليد لأخيه فردهم عثمان إلى الكوفة، وهناك أخذوا يجمعون الموتورين إليهم ثم أرسلوا من يسهر عند الوليد وسرقوا خاتمه من إصبعه عندما نام، وفروا إلى المدينة مدعين أنهم أخذوا الخاتم

منه وهو سكران، فعزله عثمان وأمر بجلده أربعين جلدة، وقال له: يا أخي، إصبر فإن الله يأجرك ويبوء القوم بإثمك، وولى مكانه سعيد بن العاص الذي نشأ يتيماً في حجر عثمان واهتم به عمر بن الخطاب وزوجه ورفع من شأنه. أما الآن وبعد مقتل عثمان، فمن ضمن الأخبار التي وصلت إلى الشام من المدينة، أن الوليد اعتزل بعد قتل أخيه ولم ينضم لأي من الفريقين، لم يسافر مع علي إلى الكوفة، ولم ينضم إلى طلحة والزبير المطالبين بدم عثمان، بل لم يكن له دور يذكر أثناء الحصار وقتل الخليفة.

وبالعودة إلى الماضي لنعرف ما يجري الآن، فعندما وصل سعيد إلى الكوفة كان معه أولئك النفر الذين كادوا للوليد، ومنهم مالك، المعروف بالأشتر النخعي، وأبو خشنة الغفاري، وجندب بن عبد الله، وأبو مصعب بن جثامة. والأشتر هو الذي تزعم فرقة الكوفة إلى المدينة لقتل الخليفة عثمان. في أول خطبة له، قال سعيد لأهل الكوفة إن الفتنة قد أطلعت خطمها وعينيها، ووالله لأضربن وجهها... ثم سأل عن أهل الكوفة وجمع المعلومات وكتب إلى عثمان بما انتهى إليه: إن أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم وغُلب أهل الشرف منهم والبيوتات والسابقة والقدمة، والغالب على البلاد هم روادف ردفت وأعراب لحقت، حتى ما ينظر إلى ذي شرف وبلاء من نازلتها ولا نابتتها. فكتب إليه عثمان: أما بعد ففضل أهل السابقة والقدمة ممن فتح الله عليه تلك البلاد، وليكن من نزلها بسببهم تبعاً لهم، إلا أن يكونوا تثاقلوا عن الحق وتركوا القيام به وقام به هؤلاء، واحفظ لكل منزلته وأعطهم جميعاً بقسطهم من الحق.

عندما طبق سعيد تعليمات عثمان أصبحت الكوفة كأنما هي يبساً شملته

نار، وفشت القالة والإذاعة، لأن المشاغبين الذين أزالوا سلطان الوليد كانوا يرون أقل جزاء لهم من سعيد أن يشركهم في سلطانه ويشاورهم في أفعاله، فلما فاتهم ما أملوا عادوا إلى سيرتهم الأولى، فكتب سعيد مجدداً إلى عثمان الذي رأى بدوره أن يعزز الكوفة بأهل السابقة والفضل من المدينة. فشرع الخليفة: أن يستبدل الناس أموالهم وأملاكهم في المدينة بمثلها في الكوفة من غنائم القادسية. كان الهدف أن يصبح المشترون الجدد سادة وقادة وتنقطع أطماع غيرهم في السياسة والرياسة، ولكن ذلك لم يجد نفعاً بل أفسد المشاغبون كثيراً وشتموا قريش وعادوا للقتل فلم يعد سعيد يستقبلهم وكتب إلى عثمان بشأنهم، وهنا أمر الخليفة بترحيلهم إلى الشام وكتب لمعاوية بشأنهم. بدوره أكرمهم معاوية طمعاً في إصلاح شأنهم ثم نفذ صبره منهم فوبخهم وكتب إلى الخليفة: أنه قدم علي قوم ليست لهم عقول ولا أديان، أثقلهم الإسلام وأضجرهم العدل. لا يريدون الله بشيء ولا يتكلمون بحجة، إنما همهم الفتنة وأموال أهل الذمة، والله مبتليهم ومختبرهم ثم فاضحهم ومخزيهم، وليسوا بالذين ينكون أحداً إلا مع غيرهم فإنه سعيد ومن قبله عنهم، فإنهم ليسوا لأكثر من شغب ونكير.

سمع بهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد وكان على حمص فدعا بهم وقال لهم يا آلة الشيطان لا مرحباً بكم ولا أهلاً، فأقامهم شهراً كلما ركب أمشاهم، وكان يقول لهم: يا ابن الحطية أعلمت أن من لم يصلحه الخير أصلحه الشر؟ مالك لا تقول ما كان يبلغني إنك تقول لسعيد ولمعاوية؟ فيقولون نتوب إلى الله، وكتب الأشتر بالتوبة إلى عثمان، فأمر بإعادتهم إلى الكوفة حيث كان سعيد قد فرق العمال والجند إلى الغزو وسافر هو إلى لقاء عثمان في المدينة.

عاد هؤلاء للفساد واعترضوا طريق سعيد ومنعوه من العودة إلى الكوفة وقتلوا مرافقه، وطالبوا أن يولى عليهم أبا موسى الأشعري، فنزل الخليفة على رأيهم. وهكذا غلب الغوغاء على أهل الحلم وضعف سلطان الأمراء وقلت الطاعة في الكوفة حتى تآمروا في النهاية على قتل الخليفة.

لم يكن حال البصرة أفضل، فقد سبق ورفض أهلها أبا موسى الأشعري، واستجاب الخليفة لهم واستبدله بعبد الله بن عامر، الذي كان له أثر جيد في الفتوح إذ افتتح إقليم خراسان، وكانت البحرين ضمن إمارته. هو عبد الله بن كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي، وهو ابن خال عثمان، وأبوه عامر هو ابن عمة رسول الله (ص)، وقد وفد على معاوية، فزوجه بابنته هند. وعبد الله الآن من مؤيدي طلحة والزبير ويشجعهما على الحضور إلى البصرة ليطالبوا علياً في الكوفة بدم عثمان.

لقد سبق واشتكى الناس في البصرة رجلاً يسمى حكيم، وكان هذا إذا قفلت الجيوش بعد الفتح يخنس عنهم ويسعى في الأرض ويصيب ما شاء من الناس، فكتب عثمان لابن عامر أن يحبسه عن الخروج، وهكذا كان أول من التقاه عبد الله بن سبأ حين وصل البصرة هو حكيم اللص، وأخذ يسمع من ابن سبأ القول برجعة محمد ومخاطبته للناس: عجباً لكم، أيكون فيكم أهل بيت نبيكم يقصون عن أمركم؟ ويستغل مثل هذا الكلام بالدعوة لعلي بن أبي طالب ويحرض على عثمان. عندما سمع ابن عامر بابن السوداء هذا طرده من البصرة فارتحل إلى الكوفة ثم الشام فمصر حيث وجد أرضاً خصبة لدعوته هناك، بعد أن استفسد كثيراً من الأعوان في الأمصار التي زارها واتفق مع المشاغبين فيها على التواصل والتحريض. كان يخاطب الناس وكأنه على

توافق واتفاق مع ابن أبي طالب، ويقول هذا وصي رسول الله فانهضوا في هذا الأمر وحركوه، وابدأوا بالطعن على أمرائكم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس، وادعوهم إلى هذا الأمر. هكذا بث دعاته وكاتب من استفسد في الأمصار وكاتبوه، ودعوا في السر إلى ما عليه رأيهم. وألفوا قصص العيوب في الولاة والاتهامات للخليفة.

كان أشد المؤلبين في مصر هما محمد بن أبي حذيفة ومحمد بن أبي بكر. الأول كان يتيماً وتربى في حجر عثمان فطلب منه حين تولى الخلافة أن يوليه، ولكنه لم يكن مؤهلاً، وهكذا طلب محمد الخروج من المدينة فأذن له عثمان، واستقر في مصر يؤلب على الخليفة. محمد الآخر لزمه حق فأخذه عثمان منه فغضب، وكان محمداً قد تربى في كنف علي بن أبي طالب الذي تزوج أمه بعد وفاة زوجها الثاني، أبي بكر، وكانت أسماء قد تزوجت قبل ذلك من جعفر بن أبي طالب (الطيار) الذي استشهد في معركة مؤتة، وتكنى أسماء بنت عميس بذات الهجرتين وزوجة الفضلاء. وأنجبت من أبي بكر ابنها محمد الذي تربى هو وأبناء جعفر في كنف زوجها الثالث، علي بن أبي طالب. وقد ألفت الكراهية لعثمان بين المحمدين فحاولا تحريض الجند أثناء غزوة ذات الصواري ضد عثمان وأشاعوا أن الجهاد الحق يكون في المدينة ضد الخليفة. أما سبب ميل عمار بن ياسر لهؤلاء، واعتصامه عندهم في مصر حين أرسله الخليفة للاستطلاع، أن عثمان كان قد ضربه وضرب عباس بن عتبة بن أبي لهب بعدما تقاذفا سوياً لخلاف بينهما.

في الشام كانت الأمور، قبل اغتيال الخليفة، أفضل مما كانت عليه الأمصار الأخرى، ذلك أن معاوية من الحزم والضبط بالمكان الذي لا يُجهل.

لقد حاول ابن سبأ بث دعايته في الشام قبل إخراجه إلى مصر، ولكنه لم يفلح، وإنما جاء التأليب هناك قبل ذلك من أبي ذر الغفاري، الذي استمع لأفكار ابن سبأ في الرحلة الأسبق من المدينة إلى الشام بُعيد تولي عثمان الخلافة قبل عشر سنوات، وتناقش معه بمشاركة من جندب أيضاً حين سار معهم إلى الشام ليخبر معاوية بطبيعة عمله أيام خلافة عمر بن الخطاب، كما طلب منه الخليفة الجديد آنذاك. لم يتقبل أبو ذر ما كان ينادي به ابن سبأ من عودة الرسول (ص)، ولكنه كان أيضاً من المؤيدين بحماسة لعلي بن أبي طالب، وقد طعن في خلافة عثمان منذ اليوم الأول، وكان يؤكد أن الرسول (ص) أوصى لعلي من بعده، وموقفه هذا أدى لإبعاده إلى الشام أيام عمر ليكون تحت رقابة معاوية. أخذ أبو ذر فيما بعد يردد أن المال مال المسلمين، وليس كما يقول معاوية إنه مال الله. راجع معاوية أبا ذر في ذلك وقال له: يرحمك الله يا أبا ذر، ألسنا عباد الله؟ والمال ماله والخلق خلقه والأمر أمره؟ فرد عليه الرجل المتقشف: فإني لا أقول إنه ليس لله، ولكن سأقول مال المسلمين. ثم عاد أبي ذر ينادي في الشام: يا معشر الأغنياء واسوا وساووا الفقراء.

بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاو من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم. وهذه كانت سيرته الأولى في المدينة ومكة، ولكنه وجد في الشام فقراء ولعوا بمثل هذا القول، وأحبوه على الأغنياء الذين اشتكوا لمعاوية ما يلقونه من الناس من جراء هذا التحريض، فكتب معاوية إلى عثمان الذي طلب إعادة أبي ذر إلى المدينة قبل استفحال الفتنة في الشام. لقد توفي أبو ذر قبل عامين في الربذة إذ رفض الإقامة في المدينة بعد جلبه من الشام، وسمح له عثمان بذلك وأمده بحاجته من الإبل

وشجعه على زيارة المدينة من حين لآخر طوال السنوات الثلاث التي قضاها منعزلاً، وقد دفنه في الربذة جماعة من المسافرين مرّوا بالربذة بُعيد وفاته، ومنهم ابن مسعود والأشتر. ولم يكن مع أبي ذر حين مات سوى ابنته، وقد أوصاها وهو يحتضر بتكفينه وانتظار من سيمر ليدفنه.

في المدينة فعلت كتب السبائيين فعلها، وكثر الحديث في شأن عثمان، وتأثرت نفوس الكثيرين من أصحاب الرسول بذلك، ولم يراعوا حقيقة أن بعض الانتقاد من الأمصار لعثمان كان سببه كثرة العطاء لأهل المدينة، وكان الناقمون يطالبون بالمساواة في التوزيع بين الصحابة وأهل السابقة في المدينة من جهة، وبين بقية الناس في الأمصار الأخرى من جهة ثانية. الذين غضبوا على عثمان لم يتفقوا في موقف واحد، وكان لكل منهم مأربه، وما مكنهم هو ليونة الخليفة بعد شدة الذين سبقوه، وعندما أحسوا بضعفه على ضوء الكتاب الذي وجهه إلى العصاة في الكوفة باستبدال سعيد بن العاص بأبي موسى الأشعري، كشروا عن أنيابهم في كل الأمصار وأسرع المتآمرون منهم في خطاهم. كان بوسعهم اعتبار مواقف عثمان تشاورية وعقلانية ولكنهم اعتبروها انهزامية فانقضوا عليه، وهذا هو حال الغوغاء في كل زمان ومكان. لقد جاء في رسالة عثمان إلى عصاة الكوفة: أما بعد، فقد أمرت عليكم من اخترتم وأعفيتكم من سعيد. والله لأفرشنكم عرضي، ولأبذلن لكم صبري، ولأستصلحنكم بجهدي فلا تدعوا شيئاً أحببتموه لا يُعصى الله فيه إلا سألتموه، ولا شيئاً كرهتموه لا يُعصى الله فيه إلا استعفيتم منه، أنزل فيه عند ما أحببتم حتى لا يكون لكم علي حجة. وقد كتب عثمان بمثل ذلك إلى بقية الأمصار، وهذا قد يؤثر في الكريم ولكن يزداد بها اللئيم ضراوة على الفتنة

والفوضى. في كل مصر يوجد من لم يوفقهم الله ليكونوا من أرباب المال والجاه، وهؤلاء يقدرون أنفسهم بأكثر مما يستحقون، راضون عن أنفسهم ساخطون على البقية، يتبرمون بقلة الحظ ولا ينسبون تأخرهم إلى عيوب بهم، ويعيبون القائم على أمل أن يكون الآتي أفضل منه، فيتمنون زوال الدولة ثم يستبطئون الاستبدال والإصلاح ويتربصون الدوائر لظنهم أن سعادتهم وحظهم ستأتي بعد زوال الأمير. مثل هؤلاء لهم ولع بالشائعات وإذاعة أنباء السوء، وإضعاف اليقين، واستفزاز ما يمكن استفزازه إلى فتن لا يعلمون عواقبها. حتى في المدينة وجد مثل هؤلاء وحقد الكثيرون على عثمان لأنه خص غيرهم بالإمارة على الأمصار وتقليد المناصب وهم قابعون في بيوتهم، فسكتوا عما يصل إلى المدينة من إذاعات بل كتب بعضهم إلى الأمصار أن الجهاد هنا في المدينة. هكذا كثر الناس على عثمان ونالوا منه بالقبح، بينما أصحاب رسول الله يرون ويسمعون وليس فيهم من ينهي أو يذب إلا نفر قليل مثل زيد بن ثابت، وأبي أسيد الساعدي، وكعب بن مالك، وحسان بن ثابت شاعر الرسول. فئة أخرى من الصحابة رأت أن عثمان لم يأخذ بآراء المهاجرين والأنصار في إدارة البلاد، ولم يقتد بآرائهم، وأنه أخرهم وفيهم أضرابه ومن لا يرون له عليهم فضلاً، أوقعوا أنفسهم في الظن أن الأمر سيكون إثرة واحتكاراً، وأن الخليفة سيجعل أمر المسلمين إلى بني عمومته من بعده، فاضّغنت قلوبهم عليه وتراخت أياديهم عن نصرته.

بعض القتلة كانت لديهم أحقاد شخصية على عثمان، فسبب اضطغان عمير بن ضابىء مثلاً وكسره لضلع عثمان بعد قتله، أن أباه، ضابئاً، استعار من قوم من الأنصار في الكوفة كلباً يدعى قرحان وذلك لاصطياد الظباء. كان

هذا أيام ولاية الوليد بن عقبة على الكوفة. وحبس ضابئ الكلب عن أصحابه ورفض إعادته فانتزعوه منه قهراً، فهجاهم، وهذا الهجاء دفعهم للشكوى عليه عند عثمان، فحبسه ومات في سجنه. وهكذا أصبح ابنه عمير سبئياً وقفز فوق صدر عثمان بعد مقتله وكسر أضلاعه.

لم يختلف الشيخ عثمان عن عمر بن الخطاب في الليونة للناس فقط، ولكنه بالفعل فضل بعض أقاربه في تنصيب الولاة، وهذا لم يفعله عمر أبداً الذي اعتمد الكفاءات قبل القرابات. وقد ثبتت صحة أسلوب عمر الآن إذ لم يتحرك أقارب عثمان لنصرته في الوقت المناسب أو بالأسلوب الناجع، ولهذا رأى الصحابة أنه كان يتخطاهم بالأعمال ويوليها ذوي قرابته، ولم يروا أنه كان يستجيب لآراء أهل الأمصار في التغيير. لم يكن هذا الحال يخفى على الخليفة العجوز، فقد دافع عن موقفه في إحدى الخطب قبل اشتداد الحصار عليه وقال للناس: «أما بعد فإن لكل شيء آفة، ولكل أمر عاهة، وإن آفة هذه الأمة وعاهة هذه النعمة عيابون طعانون، يرونكم ما تحبون ويسرون ما تكرهون، ويقولون لكم وتقولون، أمثال الغنم يتبعون أول ناعق، أحب مواردها إليها البعيد. لا يشربون إلا نغصاً ولا يردون إلا عكراً، لا يقوم لهم رائد. وقد أعيتهم الأمور وتعذرت عليهم المكاسب. ألا فقد والله عبتم علي بما أقررتم لابن الخطاب بمثله، ولكنه وطئكم برجله وضربكم بيده وقمعكم بلسانه، فدنتم له على ما أحببتم أو كرهتم. ولنت لكم وأوطأت لكم كنفي وكففت يدي ولساني عنكم، فاجترأتم علي. أما والله لأنا أعز نفراً وأقرب ناصراً وأكثر عدداً وأقمن، إن قلت هلم أُتي إلي. ولقد أعددت لكم أقرانكم، وأفضلت عليكم فضولاً، وكشرت لكم عن نابي، وأخرجتم مني خلقاً لم أكن أحسنه ومنطقاً لم أنطق به.

فكفوا عليكم ألسنتكم وطعنكم وعيبكم على ولاتكم، فإني قد كففت عنكم من لو كان هو الذي يكلمكم لرضيتم منه بدون منطقي هذا. ألا فما تفقدون من حقكم؟ والله ما قصرت في بلوغ ما كان يبلغ من كان قبلي، ولم تكونوا تختلفون عليه فضل فضل من مال. فمالي لا أصنع في الفضل ما أريد؟ فلم كنت إماماً؟»

لا يختلف اثنان في حقيقة أن عثمان كان من أغنى العرب، وساعد بأمواله المسلمين أيام الشدة والرخاء، ولكنه وزع أمواله وأرضه في بني أمية عندما تسلم الخلافة، ولهذا أجاب نقاده الذين اتهموه بإعطاء أقاربه قائلاً: قالوا إني أحب أهل بيتي وأعطيهم. أما حبي فإنهم لم يمل معهم على جور بل أحمل الحقوق عليهم. وأما إعطاؤهم فإني أعطيهم من مالي ولا أستحل أموال المسلمين لنفسي ولا لأحد من الناس. ولقد كنت أعطي العطية الكبيرة الرغيبة من صلب مالي أزمان الرسول (ص) وأبي بكر وعمر وأنا يومئذ حريص شحيح، أفحين أتيت على أسنان أهل بيتي وفني عمري وودعت الذي لي في أهلي قال الملحدون ما قالوا؟ وإني والله ما حملت على مصر من الأمصار فضلاً فيجوز ذلك لمن قاله، ولقد رددته عليهم وما قدم علي إلا الأخماس، ولا يحل لي منها شيء فولي المسلمون وضعها في أهلها دوني، ولا نفلت من الله بفلس منها فما فوقه وما أتبلغ منه ما آكل إلا من مالي.

لم يكن سيفيد عثمان ما يقول، فالأمور سارت وفق مخطط تآمري واضح، استفاد أصحابه من الظروف المحيطة بالخليفة والخلافة. لقد خرج جماعة مصر بعد تدبير طويل، وعددهم حوالى الألف مقسمين في أربع مجموعات، ومثلهم فعل أهل الكوفة وأهل البصرة. هذا التقسيم لأربع فرق متشابهة

وأعداد متساوية، والخروج بغرض وهمي وكأنهم معتمرون والبقاء في أماكن محددة، ثم الانتظار على مسافة ثلاثة أيام قبل الوصول إلى المدينة، والتنسيق فيما بينهم والاتفاق على اختبار ما يجري في المدينة، ثم على أثر الخروج من المدينة بعد أن وعدهم عثمان بضمانة من علي، ولاحقاً عودتهم سوياً بحجة العثور على كتاب أرسله الخليفة إلى مصر، كل ذلك يدل على تفاهم وتنسيق مسبق، وتواصل لاحق.

لقد اتضح أيضاً أن أهل مصر كانوا يظنون أن علي بن أبي طالب يراسلهم ويحثهم على القدوم لخلع عثمان. فعندما رجع المصريون إلى بلادهم مدعين الرضا، وبينما هم في الطريق إذا براكب يتعرض لهم، ثم يفارقهم، ثم يرجع إليهم، ثم يفارقهم ويسبقهم، حسب روايتهم. قالوا له: ما لك؟ إن لك لأمراً، ما شأنك؟ فقال: أنا رسول أمير المؤمنين إلى عامله بمصر. ففتشوه، فإذا هم بكتاب على لسان عثمان، عليه خاتمه، إلى عامله بمصر: أن يصلبهم أو يقتلهم أو يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف. فأقبلوا عائدين حتى قدموا المدينة، فأتوا علياً، فقالوا: ألم تر إلى عدو الله؟ إنه كتب فينا بكذا وكذا وأن الله قد أحل دمه، قم معنا إليه. قال علي: والله لا أقوم معكم، فقالوا: فَلِمَ كتبت إلينا؟ فقال: وما كتبت إليكم كتاباً قط. فنظر بعضهم إلى بعض ثم قال بعضهم لبعض: ألهذا تقاتلون، ولهذا تغضبون؟ هذا الرسول المرسل من قِبل عثمان كما زعموا أمره عجيب! حيث إنه تعَّرض للوفد ثم فارقهم ثم رجع إليهم، وكأنه يريد أن يقول لهم شيئاً أو يريد أن يلفت نظرهم إليه ليسألوه عما به، فهو ليس برسول عادي أرسل بمهمة سرية وهمه أن يبلغ هدفه دون لفت أنظار الناس إليه، بل هو يقصد أن يثير الشبهة، وكأنه يقول لهم: اسألوني ما بي وما معي؟ وهذا ما يضعف روايتهم، فربما لم يكن لهذا الرسول أي وجود وكان الكتاب جاهزاً

مع المصريين المتآمرين، أو أن هناك من زيف الكتاب وأرسل رسولاً بعد أن أوعز إليه أن يوقع نفسه في أيدي المصريين العائدين إلى بلادهم. ثم من هو هذا الرسول وأين هو؟ لو كان الكتاب من صنع مروان أو أحد حاشية عثمان، لحرضوا الرسول على الحرص والسرعة والتكتم. وتتضح خيوط التزييف حين قال المصريون لعلي بن أبي طالب إنه كتب إليهم كتباً بالحضور وهذا ما أنكره أمامهم، وبالتالي فهذه الكتب من تدبير طرف ضالع في المؤامرة، ولا علاقة لعثمان أو حاشيته أو لعلي بها.

لقد قُتل الخليفة الثاني عمر بن الخطاب على يد مجوسي، ولم يُعرف إذا كانت هناك أيدٍ خارجية أم لا، إذ انتحر القاتل، وقتل ابن عمر من ظن أنهم مشاركين في المؤامرة من دون أن يتم استجوابهم. والآن يُقتل الخليفة الثالث كضحية لمؤامرة سيبدو أن المستفيد منها هو من يتسلم الخلافة، وهاهي الخلافات تستعر بين المسلمين المطالبين بدم عثمان والمتهمين لعلي بن أبي طالب، بينما الخليفة الجديد الرابع يقول إنه لا يستطيع أخذ القصاص من القتلة لسطوتهم ومناعتهم، وهم الذين أصبحوا أيضاً من جنده ويستعدون إلى لقاء الزبير وطلحة، بينما معاوية، ابن عم عثمان لا يزال يحسب مواقفه. هل يستمر قتل الخلفاء؟ وهل يستعيد المسلمون وحدتهم مرة أخرى؟ ومتى؟ أم أن الغوغاء ستكون لها اليد الطولى لأزمنة مقبلة؟

التهاون في القصاص سيعني وجود تآمر، أو تهاون ضار جداً ويعني الخوف من القتلة، وهم بالتالي الذين يحكمون ويتحكمون! إهمال القصاص سيعني استمرار الفوضى والقتل، ولهذا أصر علي بن أبي طالب على أخذ القصاص من ابن عمر بن الخطاب لقتله الهرمزان، واستجاب عثمان لذلك وكانت أولى مهامه كخليفة أن يطبق العدل على ابن عمر، ووجد السبيل الشرعي لفض تلك المعضلة، فكيف الآن بقتل خليفة بعد طول حصار ومعرفة كل الذين شاركوا في القتل؟

17

لم يكن جندب يشعر بالارتياح للمهمة التي كلفه بها معاوية بن أبي سفيان. بالأمس القريب كاد قسطنطين الثاني أن يموت غرقاً من جراء الهزيمة التي مناه بها الأسطول الإسلامي، وطوال الأشهر الماضية والمسلمون يستعدون لغزو القسطنطينية، والآن سيكون على جندب عقد هدنة ثانية بين البيزنطيين والمسلمين. استقر رأيه، أثناء الرحلة من الشام إلى العاصمة البيزنطية، أن يخفف من إظهار إلحاح الأمر، وأن ينسب لنفسه بعض الفضل ويدعي أنه عمل على إقناع معاوية للجنوح إلى الهدنة تحسباً للحرب مع خصمه ابن أبي طالب، هكذا ستكون لديه راحة نفسية أكبر وهو يطالب بالهدنة ويقنع الإمبراطور البيزنطي بها، وفي الوقت ذاته يظهر كعميل مخلص لبيزنطيا وللإمبراطور قسطنطين الثاني. جاءت مبادرة طلب الهدنة الأولى، آنذاك، من جانب الإمبراطور، الذي اضطر إلى دفع جزية سنوية ووافق على أن يحتجز معاوية بعض الرهائن البيزنطيين في دمشق. استمرت تلك الهدنة عامين حتى خرقها معاوية حين هاجمت القوات الإسلامية جزيرة رودس. أما الآن فإن معاوية هو الذي يطلب الهدنة، ومهمة جندب إتمامها بأقل التكاليف الممكنة، ولهذا يريد جندب إخبار الإمبراطور أنه شخصياً أقنع معاوية لعقد هدنة جديدة، وأن الخلافات الإسلامية الداخلية حتى الآن محصورة جغرافياً

في الجزيرة العربية بعيداً عن الشام، وأن جند معاوية قابعون في مواقعهم المجاورة لبيزنطيا. وهذا لا يتنافى مع الحقيقة في اللحظة التي وصل فيها جندب إلى القسطنطينية. آخر الأخبار التي وصلت الشام قبل مغادرته لها كانت حول معارضة في مصر وصلت إلى درجة اشتباكات مسلحة وكر وفر بين العثمانيين والعلويين، واستعدادات في البصرة من طرف ابن أبي طالب لمواجهة طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة الذين خرجوا بجند رافعين شعار القصاص للخليفة المقتول، ولم يرسل معاوية أياً من قواته إلى البصرة. ولكن جندباً متأكد أن هذا الحال لن يطول، فقد كان يعرف أن علياً جمع الجند وكاد أن يتحرك بهم إلى الشام لمقاتلة معاوية، ولكن وصلته أخبار عسكرة أم المؤمنين وطلحة والزبير واقترابهم من البصرة، فعدل عن غزو الشام وتحرك بقواته إلى البصرة.

لم يكن القصر وبروتوكولات اللقاء مع الإمبراطور غريبة أو جديدة على جندب، فجلس ينتظر اللقاء مع الإمبراطور وهو شارد الذهن عما حوله من زخرفة للقاعة وحركة للحاشية والإداريين، بل لم يعد يشعر بالبرد الذي يخترق النوافذ والجدران. صب اهتمامه محاولاً تخمين الأسئلة التي سيوجهها له قسطنطين الثاني وتنميقه للإجابات الملائمة.

«هل أنت محمدي أو مسيحي؟» كانت تعابير وجه الإمبراطور حيادية وهو يسأل جندباً، لكن بعض المحيطين بالإمبراطور اكتست أصداغهم الحمراء ببسمة شماتة.

«لم يتغير ديني منذ لقائنا الأخير يا مولاي.» لم يكن جندب يتوقع هذا السؤال، واضطرب لوهلة وتخوف على مصير مهمته. «أنا مسيحي المولد، ولم أغير اعتقادي، ولا أرى في أصول تعاليم الإسلام كثيراً من الاختلاف عن الأصول المسيحية.»

«كيف هذا، المحمديون كفار وبرابرة...» لم يكمل المتحدث أقواله إذ رفع الإمبراطور يده مشيراً بالسكوت، وفهم جندب من ذلك عدم وجود تفاهم مسبق بين القوم لردعه أو تقريعه. وكان جندب قد أخبر أحد مستشاري الإمبراطور بالأمس بما يحمل من أخبار عن العرب والمسلمين وبإمكانية عقد هدنة جديدة.

« جوناثان بن باقوم، نعرف ولاءك وخدماتك للإمبراطورية، أخبرني لماذا يقتل المحمديون بعضهم؟» أعطى الإمبراطور مع هذا السؤال لجندب إشارة بالجلوس.

«إنها الزعامة يا مولاي، إنهم يتنافسون عليها منذ موت النبي محمد، كما أن أحوالهم الاقتصادية تحسنت كثيراً فأصبحت الزعامة مصدر نعمة بعد أن كانت مسؤولية لا يتصدى لها إلا الأغنياء الذين بوسعهم الإنفاق على الآخرين لكسب الاحترام.» نظر جندب إلى الإمبراطور وشاهد فوراً علامات الإعجاب والتعجب ترتسم على محياه. «قبل الإسلام، كان يتوجب على الزعماء إطعام زوار الكعبة وكسوتهم أثناء المواسم، والطواف بالبناء الذي أقامه النبي إبراهيم وابنه إسماعيل، أما الآن فتصل الأموال إلى الخليفة من كل الأمصار، أموال الجزية والغنائم وتخزن في بيت المال الذي يشرف عليه الخليفة، ولا يعرفون كيف ينفقونها.»

«ومن يطمع أكثر بالمنصب لنيل الاحترام والفوز بالأموال، علي، أو صديقك معاوية؟»

«كلاهما يدعي القناعة، فابن أبي طالب يروج أنه لم يكن يرغب بالخلافة وإنما اضطر إليها لإنقاذ الأمة، ومعاوية يؤكد أنه لا يطالب سوى بالثأر

والقصاص من قتلة الخليفة عثمان حسب الشريعة الإسلامية، ويقول إنه عندما يعاقب علي القتلة سوف يبايعه ولن يطالب بالخلافة.» عقد الإمبراطور حاجبيه مستغرباً ما يسمع ومستفسراً بإشارة من يده بعد أن شد معطفه على جسده، فواصل جندب الحديث: «عملية قتل الخليفة عثمان كانت تتويجاً لمؤامرة امتدت زمناً وشملت أناساً في عدة أمصار، وتمت بشكل مفاجئ شل قدرات أهل المدينة عن التصدي، ويقال إن بعضهم كان مشاركاً في التحريض وراضياً عما يجري طمعاً في التولي. أحد المتهمين هو علي وهناك طلحة والزبير أيضاً كان لهم أنصار ومريدون بين المتمردين الذين قتلوا الخليفة في داره، في المدينة الحرام، والشهر الحرام، بل قتلوه يوم عيد الأضحى. وعندما قتل الخليفة تنصل علي وطلحة والزبير من القتلة ورفضوا أن يبايَعوا، ولكن علي قبل بعد ثلاثة أيام أن يبايعوه، وبالتالي لم يكن بوسعه أن يقاصص القتلة الذين نصبوه خليفة.»

«إذاً علي هو القاتل الحقيقي لأنه المستفيد الأول من الجريمة، الساكت عن مرتكبيها.» قال الإمبراطور وعلى وجهه شيء من ابتسامة ثم أضاف: «ولكنه لا يتميز بالذكاء، فالأجدر به بعد أن تمكن من الوضع أن يحاكم الذين دخلوا دار الخليفة ويقتلهم كلهم وبذلك يستتب له الأمر.» صمت الامبراطور لسماع رأي جندب فيما قال.

«القتلة يا سيدي لم يكونوا لصوصاً وإنما هم أبناء قبائل تحميهم، وعلي بن أبي طالب واجه معارضة فورية من بعض المسلمين وأصبح بحاجة إلى كل نصير ومقاتل، وطالب خصومه بالصبر ريثما يتمكن أكثر، ولكن المعارضين صاروا يريدون القصاص الفوري، وأكد طلحة والزبير لعلي أن بوسعهما حشد

الجند له لينقلب على القتلة الذين يحيطون به، فرفض. ربما خوفاً أن يحشدوا ضده، وبالفعل عندما خرجوا إلى مكة معتمرين جمعوا قوات هناك وفازوا بدعم زوجة النبي وتحركوا إلى البصرة لجمع المزيد من المؤيدين، والى هناك تحرك أيضاً علي بقواته.»

«إذاً، المحمديون على وشك أن يقتلوا بعضهم، وأنت تريد أن نعقد الهدنة معهم... لماذا؟»

صمت كل من في الصالة وتحولت أنظارهم إلى جندب بعد هذا السؤال المباشر غير المتوقع من الإمبراطور. «الأسباب كثيرة كما تعرف يا سيدي.» قال جندب وأضاف: «السلام خير من الحرب لنا ولهم، وكما تعلم فقد كانوا يحشدون للهجوم على القسطنطينية، والهدنة ستمنع ذلك. وبالطبع إذا عقدت الهدنة سنكون قد كسبنا ولاء معاوية لأنه سيوجه قواته إلى حسم الوضع لصالحه، وربما أصبح خليفة للمسلمين، ولن ينسى لعظمتكم هذا الصنيع. على الطرف الآخر لو أشيع أن الإمبراطورية ترفض الهدنة، فربما تتوحد كلمة المسلمين ويكفون عن الصراع الداخلي خوفاً من هجومنا عليهم. وبالطبع يمكن للإمبراطورية التفرغ لخصومها الآخرين مثل السلاف الذين يزحفون بالتدريج على البلقان.»

«دعك من السلاف فالإمبراطور يعرف كيف سيتعامل معهم قريباً. لكن ماذا لو لم يقتتل المحمديون في البصرة، أو يقتتلون ويفوز علي، والد أحفاد النبي محمد وابن عمه، فما هو مصير اتفاقية هدنة نعقدها مع مولاك معاوية؟» جاء السؤال من المستشار الإمبراطوري الذي استقبل جندباً بالأمس.

«الاتفاقية سوف توقع من معاوية نيابة عن المسلمين...» تبسم معظم

الحضور لما قال جندب فأكمل: «هذا لا يعني أننا نعزز قوته ضد علي أو نعترف به خليفة قبل أن يصبح كذلك، ولكن التزامه بالاتفاقية سيعني حماية حدود الإمبراطورية مع الشام، ولن تُخرق الاتفاقية إلا بزوال معاوية وجيوشه عن الحدود.» غابت البسمة عن الوجوه وعاد المستشار الإمبراطوري للحديث:

«ربما سيوافق مولاي الإمبراطور على فكرة الاتفاقية، وربما نزودك بها موقعة من طرفنا بسرعة لتعود بها إلى معاوية ليطمئن ويتحرك بجنده من الشام وتخومها إلى البصرة، ولكن شروطنا لن تكون سهلة بالطبع، وهذا ما سنخبرك به حين يوافق مولاي الإمبراطور على مشروع الهدنة.» لم يكن أمام جندب إذاً، إلا الانتظار لساعات أو أيام في هذه البلاد المغطاة بالثلج، حتى يخبروه بالشروط، وهم بالوقوف للاستئذان، لكن الإمبراطور أشار إليه بالبقاء، فمكث في مكانه مستنفراً لأي سؤال.

«من يحب المحمديون من أئمتهم؟ ولماذا؟»

أصبح على جندب أن يزن كلامه بدقة أكبر حتى لا تطمع الحاشية بشروط تعجيزية للهدنة، فأجاب عن سؤال الإمبراطور: «سمعتُ النبي يقول: خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتصلون عليهم ويُصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم.» لم تكن الإجابة كافية للإمبراطور فواصل النظر إلى جندب بانتظار التوضيح. «هذا هو الوضع المثالي والتشريع النبوي لديهم، ولكن الحب عنصر متغير حسب الظروف والمصالح. لقد أحبوا نبيهم، وبالطبع أحبوا ابن عمه وزوج ابنته علي، لكن هذا انشغل في مراسم الدفن للنبي بينما دخل أبو بكر وعمر بن الخطاب في نقاش مع الأنصار الذين أرادوا الولاية بعد النبي، فأقنعوهم أن

الولاية يجب أن تبقى في أهل قريش الأقرب للنبي، واتفقوا على تولية أبي بكر الصديق، أول من أسلم من الرجال. وقد غضب علي لذلك لأنه الأحق بالولاية حسب منطق القرابة من النبي الذي بسببه رفضت ولاية الأنصار، كما أنه زوج ابنته وأول من أسلم من الفتيان. ولم يبايع علي أبا بكر طوال ستة أشهر حتى ماتت زوجته فاطمة التي كانت غاضبة على الخليفة لأنه حرمها ميراث أبيها حسب تشريع أن الأنبياء لا يورثون.» كان حديث جندب قد شد الحضور الذين يسمعونه لأول مرة، فقرر الاستمرار ببعض التوسع ليلطف الأجواء ويعطي الانطباع أن المسلمين لا يختلفون عن غيرهم في مشاكلهم. «بالطبع أحب الناس أبا بكر بعد حين، خصوصاً عندما نجح في مقاومة المرتدين في كل مناطق المسلمين داخل الجزيرة العربية. وأحبوه أكثر عندما توصل إلى فكرة أن يُطلقهم للغزوات والنهب في العالم، كان يريد إشغالهم عن المعارك الداخلية، وأيضا نشر الإسلام، ففرغت الجزيرة من شيبها وشبابها طلباً للغزو والغنائم. عندما مات أبو بكر كان الإسلام قد خرج من الجزيرة، وقد أوصى الخليفة الميت بأن يتولى عمر بن الخطاب الخلافة، وهذا لم يُفرح علي بن أبي طالب وبني هاشم، ولكنه لم يزعج بقية المسلمين المنشغلين في الغزوات.»

«وأصبحت أيام عمر مليئة بالأموال التي تدر على أهل المدينة وأصحاب النبي الذين لا يعرفون كيف يوزعونها ولا أين ينفقونها في قراهم القاحلة.» قال المستشار، وقبل أن يعلق جندب على كلامه سمع الحضور أسقف القسطنطينية يتهم الخليفة عمر بأنه سفاح عصره.

«هل تعرف يا ابن باقوم كم من الروم والفرس قتل عمر حتى يتمكن من جمع الأموال وسبي الأطفال والنساء؟»

«إنها الحرب يا سماحة الأسقف، كل طرف يدخلها وهو يعرف أنها تؤدي إلى الموت. وقد أحب المسلمون عمر...»

«أنا لا أتحدث عن الحرب، ولا عن قتلى الحرب.» قاطع الأسقف محاولة جندب لإعادة الحديث إلى مجراه، وقال: «أتحدث، كما تعرف أنت تماماً، عن قتل الأسرى. أبو بكر حرم قتل النساء والأطفال والأسرى والرهبان، بينما صديقك عمر أمر بقتل مئات آلاف الأسرى الروم والفرس، هل تنكر معرفتك بذلك؟»

تخوف جندب أن يكون الأسقف قد جمع معلومات دقيقة عن أعداد الأسرى القتلى، وكان مثل كل الناس يعرف أن عمر أمر بقتل أسرى الفرس قبل أن يصل الغزو إلى الروم، وبالتالي أصبح أمر قتل الأسرى شيئاً مباحاً. هكذا قرر أن يجرب تعويم الأمر فقال مخاطباً الإمبراطور: «يا مولاي، عندما خرج المسلمون للغزو كانت أعدادهم قليلة، وحققوا انتصارات هائلة على الفرس وأسروا أعداداً غفيرة من جيوشهم، وأصبح جيش المسلمين أمام معضلة، فلو تركوا الأسرى وحالهم لأعادوا التجمع وانضموا للقتال ضد المسلمين، ولا يمكن لأقل من عشرين ألف محارب مسلم أن يجلسوا طوال الوقت لحراسة أكثر من سبعين ألف أسير فارسي مثلاً، ولهذا سمح الخليفة عمر آنذاك بقتل الأسرى، وهذا ليس تشريعاً لدى المسلمين، فدينهم يمنع القتل للتشفي.»

«هل سيقتل المحمديون أسراهم من المحمديين.» هدأت نفس جندب لسؤال الإمبراطور، وسكوت الأسقف الذي لم تكن لديه على ما يبدو تفاصيل لأعداد الأسرى من الفرس والروم الذين قتلهم جند الإسلام.

«جاء الإسلام يا سيدي ليوحد قبائل العرب، ولكنهم قد يرتدون إلى

طباع القبلية مرة أخرى كون الإسلام حديث العهد، وإذا حدث ذلك الآن فقد يقتلون بعضهم بعضاً سواء أسرى أو غير ذلك. اقتتالهم في حد ذاته خروج عن الإسلام وعن تعاليم القرآن، وإذا خرجوا في جزء فسيخرجون في كل ما يناسب أهواء الفرقاء بما فيه قتل الأسرى، أو هدم بيوت العبادة. القرآن توقع اقتتالاً بين المسلمين، وحدد الموقف بأنه سيكون هناك بغاة مسلمون ووضعهم بالتالي غير وضع الكفار، ولكن الزمن والتجربة سيكونان خير دليل على مدى تمسك المسلمين بتعاليم دينهم. لقد ارتدوا عن الإسلام بعد موت النبي واقتتلوا وعاد المرتدون للإسلام بقوة السيف، أما الوضع الآن فهو أعظم عليهم، وإذا لم يتوصلوا إلى الصلح ولم يهاجمهم عدو خارجي فإن اقتتالهم سوف يمتد إلى كل البلاد التي أخذوها من فارس وبيزنطيا.»

«هل تقول هذا لتغرينا بالسرعة في قبول الهدنة؟»

«لا يا سيدي المستشار، أقول ما قلت لأن العرب سيرتدون قبائل، وقبائلهم مختلطة الآن في جند المسلمين في كل بلد ومصر، وإذا اختلفوا حول الخلافة فسيمتد الخلاف والاقتتال إلى كل موقع، ولا أستغرب أن يعقد بعضهم تحالفات مع أعداء سابقين ضد أعداء مسلمين حاليين.» لم يعلق أحد على ما قال جندب، ولكن الإمبراطور أخذ يحرك رأسه كعلامة تأييد ورضا عما سمع، وذكر بنبرة حيادية أن معاوية وأباه وأهله أسلموا قهراً بعد فتح النبي لمكة. ارتبك جندب ولم يمهله المستشار للتفكير فيما يقصد الإمبراطور بقوله، وسأله:

«ولماذا يفترض أن تتقاتل القبائل ويضيعوا ما كسبوا ويخسروا البلاد التي تدر عليهم ذهباً؟»

«من طبع القبائل الحسد من بعضهم، والعرب أهل بلاد فقيرة وكانوا يقتتلون حول كل شيء وأي شيء، ويغزون بعضهم، ولهذا تشتد حمية كل قبيلة وتبحث عن أنصار ضد الآخرين. لكنهم في فترات الهدوء يكرهون بعضهم. مثلاً عندما ظهر النبي في بني هاشم، غار منه بعض أعمامه وتصدوا له، وغارت بقية قبائل قريش من بني هاشم لأن النبي ظهر فيهم، وكان على النبي أن يهاجر من مكة ويحارب قريش ثم يعود إلى مكة فاتحاً، وحينها دخلوا في دينه، في يوم الفتح، ثم حاربوا اليهود في الجزيرة، وعندما مات النبي ارتدوا، وأعادهم أبو بكر بالسيف ووحدهم بدفعهم ليحاربوا الفرس والروم، وذلك كله في أقل من ثلاثين سنة.» توقف جندب لوهلة ثم عاد للحديث وكأنه يفكر بصوت مسموع. «لقد عاشرت العرب منذ الصبا، وصادقت عمر، وعرفت علياً وكل أصحاب النبي قبل ظهور الإسلام، ثم عاشرتهم وعشت بينهم حتى الآن، وأنا لا أستغرب إن عادوا إلى الجاهلية والقبلية... ربما عادوا إليها فعلاً وحافظوا على إسلامهم قولاً، فلن يكونوا أول أصحاب دين يفعلون ذلك.» قال جندب وهو ينظر إلى الأسقف، ثم كف عن الحديث، وتثاءب الإمبراطور فانتهت المقابلة.

في صباح اليوم التالي وجد جندب نصوص المعاهدة أمام المستشار. قدمها إليه وطلب منه مراجعتها وترجمتها إلى العربية إذا أراد، وأخبره أن محتواها غير قابل للتغيير، وإن الإمبراطور مستعد لتوقيعها على الفور. تأنى جندب في المراجعة ليرى إذا كانت ستقبل من طرف معاوية، أو أن النصوص قابلة لبعض التأويل إذا ترجمت للغة العربية. انسحاب الجيوش الإسلامية من تخوم الإمبراطورية البيزنطية. إطلاق سراح كل الأسرى الروم. وفيما يخص

المال سيكون على معاوية دفع ألف نوميسماتا سنوياً، وتقديم ألف حصان. كل ذلك مقابل عدم اعتداء بيزنطيا على الشام. «سأرسلها إلى معاوية وأكتب إليه شارحاً وطالباً منه الموافقة. لكن هل لنا أن نحدد الفترة الزمنية لسريان الاتفاقية قبل أن تجدد بموافقة الطرفين.» قال جندب للمستشار ثم اتفقا على أربع سنوات. قبل العصر كان الإمبراطور قد ختم على نسختين، وأتم جندب كتابة رسالة شرح فيها لمعاوية أن هذا أفضل ما يمكن الآن، ووضع ترجمة حرفية للاتفاقية بالعربية، وحثه على الإسراع بإرسال المال وان يتبعه بتحرير دفعات من الأسرى، وأرسل أحد مرافقيه مع حراسة بيزنطية إلى الشام حاملين الرسالة والنسختين ليختم عليها معاوية ويعيد نسخة إلى القسطنطينية على الفور. لم يكن لدى جندب أدنى شك بأن معاوية سيوقع على الاتفاقية ويعيدها فوراً. فمعاوية يريد سحب الجيوش من الشمال ليقاتل بها علي بن أبي طالب في الشرق، كما أن معاوية أخل بالاتفاقية الأولى عندما رأى حاجة وقدرة على الإخلال، وإن كانت هذه الاتفاقية تضمن له تجنب خطر بيزنطيا، فإن الثمن الذي سيدفعه لعام أو لأربعة ليس بالكثير خصوصاً إذا تمكن من حشد كل قواته والفوز ضد علي.

لم يجادل جندب في تغيير النص حين اطلع عليه، رغبة في الإسراع بإجراءات التوقيع وتبادل النسخ، ولكنه راهن على فترة مكوثه في القسطنطينية بالقرب من الإمبراطور والحاشية ليماطل في تنفيذ شرطي الأسرى والخيول. أقنع المستشار أن النقود ستصل مع النص الموقع من معاوية في بحر أيام فقط، وأن الأسرى سيصلون تباعاً لأنهم معتقلون في عده مدن وثغور، وسيلزم الأمر بعض الوقت لوصولهم إلى الشام ثم إرسالهم تباعاً أفراداً وجماعات

إلى القسطنطينية. وأخذ موافقة الإمبراطور على تسليم الخيول كل شهر طوال العام، وفي المقابل يكون معظمها من المهر الصغيرة، وهذا سيؤدي إلى عدم استفادة الروم منها في حروب قريبة، واحتفاظ معاوية بالخيول الصالحة للحرب الآن.

اعتبر جندب أنه أنجز المهمة بسهولة نسبية، وبسرعة، فأخذ يفكر في احتمالات الخديعة من الروم رداً منهم على نقض معاوية للمعاهدة الأولى. ظن أنهم يريدون المال وانسحاب قوات المسلمين من حدودهم على الفور ليتحركوا برا إلى الشام بعد فشلهم المتكرر لاسترداد الإسكندرية والشام والجزر بالقتال البحري. هكذا عزم على استغلال كل اللقاءات مع الإمبراطور أو أفراد الحاشية لنشر فكرة أن دولة المسلمين آيلة للسقوط بأيدي المسلمين، وما على الروم سوى الانتظار لقطف الثمار بسهولة، وكان حب الاستطلاع لدى هؤلاء يساعده في تسريب مبتغاه.

في مساء اليوم الثالث على إرسال المعاهدة لتوقع في الشام، سأل المستشار جندباً، لماذا لم تتحول الدولة الإسلامية إلى الولاية الوراثية بعد موت النبي؟ «هذا السؤال يا سيدي يحتوي على أسباب الصراع الدائر الآن بين المسلمين.» قال جندب ولاحظ على الفور أن المستشار أومأ برأسه ومال بجسده قليلاً باتجاهه. «النبي لم يعش له أولاد ولكن بنات، وبالرغم من حجم التغييرات التي فرضها القرآن، فإن العرب ليسوا من الحكمة لتقبل أنثى تحكمهم علناً، كلهم يحب النساء ويستمع لكلامهن ولكن داخل الفراش والبيوت.» ضحك المستشار وعلق بأنهم ليسوا وحدهم في هذه الأزمة. «ووريثه المفترض كان علي ابن عمه، ولكن العلاقة بين النبي وعلي كانت بين رجل وصبي، وحتى

عندما شب علي وشاب النبي، لم يكن بوسعه توريث الولاية لعلي على حساب بقية الصحابة الشيوخ الذين نصروه وناصروه. لقد أنفق أبو بكر مثلاً كل أمواله في شراء العبيد الذين أسلموا وإعتاقهم، ودعم وتعليم المسلمين الأوائل. كما أن النبي تمنى أن يسلم عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام ليعززوا بقية المسلمين، هذا بينما كان علي لا يزال يافعاً. ولهذا، على الأرجح، لم يوص النبي لأحد، ولكنه كان دوماً يظهر حبه لعلي وولديه الحسن والحسين. وهذا بالذات ما يقوله شيعة علي الآن ويجدون آيات في القرآن وأحاديث للنبي تشير إلى أن علياً هو الوريث. وقد صعبت مهمة علي بعد تولي الشيخ أبي بكر الولاية، ثم بعد موته لأنه لم يوص بالخلافة لأحد أبنائه، بل لعمر بن الخطاب، الذي أسس بدوره، وهو على فراش الموت، لفكرة الشورى، فسمى ستة من بينهم علي، ليختاروا من بينهم خليفة، ورفض صراحة أن يكون ابنه عبد الله وريثاً له.»

«فاختاروا عثمان وضاعت على علي مرة أخرى.» علق المستشار.

«نعم، وقد احتج علي علناً على تنصيب عثمان بن عفان في البداية ثم تراضى معه حتى وجُد من باشر التشهير بسياسة عثمان والتي رأينا نتيجتها ولا نعرف إلى أين ستنتهي.»

«وهل معاوية قريب لعثمان؟»

«نعم قريبه ووليه. عندما تولى عثمان دخل إليه أبو سفيان، والد معاوية فقال: يا معشر بني أمية! إن الخلافة صارت في تيم وعدي حتى طمعت فيها، وقد صارت إليكم فتلقفوها بينكم تلقف الصبي الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان مازلت أرجوها لكم، ولتصيرن إلى صبيانكم وراثة، فانتهره عثمان

وساءه ما سمع من عمه.» رفع المستشار حاجبيه استغراباً لما يسمع وطلب من جندب أن يحكي له عن أبي سفيان.

«كان من قادة قريش المعارضين للنبي، وقاد الجيوش لقتاله بعد أن هاجر من مكة إلى المدينة، وعندما فتح المسلمون مكة لم يحب النبي أن يقتل أهله أو ينتقم منهم، لأنه في النهاية يريد أن يهديهم ويعزز دينه بهم ويصبح هكذا زعيمهم، فأعلن أن من يغلق عليه بيته فهو آمن ومن يدخل الكعبة أو بيت أبي سفيان فهو آمن. الهدف هو استرضاء الخصوم وكسبهم. وما كان من أبي سفيان إلا أن ذهب للنبي وقال له: «يا رسول الله ثلاثاً أعطينيهن، قال: نعم، عندي أحسن العرب وأجمله أم حبيبة أزوجكها، قال: نعم، قال: ومعاوية تجعله كاتباً عندك، قال: نعم، قال: وتأمرني على أن أقاتل المشركين كما كنت أقاتل المسلمين، قال: نعم. هكذا احتفظ أبو سفيان بموقعه في قريش، وأصبح صهراً للرسول إذ زوجه ابنته وكانت مسلمة هاجرت إلى الحبشة ومات زوجها هناك، وتزوجها النبي قبل أن تعود، ثم وضع ابنه معاوية كاتباً للوحي عند الرسول (ص) أي صار من المقربين.»

«يعني أنّ النبي أدخل الحية إلى بيته، ولم يتنبأ بما سيفعل هذا الرجل وأولاده. أما زال حياً؟»

«بل مات قبل سنتين، وماتت هند أم معاوية قبل ذلك في عهد عمر.»

«هل كانت مثل زوجها؟»

«بل أشد يا سيدي.» أجاب جندب وأخبر المستشار كيف كانت تحرض زوجها وقومها على قتل محمد وكيف أكلت كبد عم النبي، حمزة، حين قتله عبدها الزنجي بإيعاز منها في موقعة أحد.

«كل هذا الماضي الأسود لأبيه وأمه وينافس ابن عم النبي ووالد أحفاده على الخلافة؟»

«معاوية لا ينافسه علناً حتى الآن، ولم يكن ليعارضه لو لم يمت الخليفة عثمان مقتولاً، ولو لم يسكت علي عن القتلة ويبقيهم بين قادته وجنده ومستشاريه. هذا هو الفخ الذي أطبق على ابن أبي طالب، والفرصة أمام معاوية ليحقق حلم أبيه بالإمامة وربما تحويلها إلى وراثة.»

«يا جوناثان بن باقوم، يمكنني أن أفهم أن نبياً يسامح ويعفو، ولكن الآخرين لاحقاً كيف ينسون، ويتعايشون مع هؤلاء الذين لم يسلموا عن قناعة؟» كانت تعابير المستشار كلها تعبر عن الدهشة.

«هل تدري يا سيدي أن هنداً هذه اقترضت من عمر بن الخطاب أربعة آلاف دينار لتتاجر بعد أن طلقها أبو سفيان؟ إلى هذه الدرجة تم التسامح معها.»

«ليس تسامحاً، ولكن لأن ابنها والي الشام. إن صديقك عمر كان غريب الأطوار يا جوناثان، ولقد درست بعض سياسته ولم أتوصل لإجابات واضحة عن بعضها.» اكتسى محيا المستشار بعلامات الحيرة وأخذ يمسح شعره بيده، فعرف جندب أن جليسه بدأ يفقد الثقة في قدراته الذاتية على تفسير السياسة الإسلامية. «لقد كان يغير عماله على البلاد كل عام تقريباً، وكان يحاسبهم بشدة، فلماذا ترك معاوية ولم يغيره أبداً ولم يحاسبه أو يقاسمه أمواله مثلما فعل مع الآخرين؟»

«لقد ذهب معاوية أيام خلافة أبي بكر إلى الشام كمدد للجند، وأصبح هناك تحت قيادة أخيه يزيد، وبعد أن توفي يزيد من الطاعون في عهد عمر، عينه الخليفة بدل أخيه، فهو شاب ومن كتبة الوحي...»

«ولكنه أسلم بعد الفتح وهو ابن كبير المشركين وابن هند، وكان أيضاً صغير السن، وبالتأكيد كان بين المسلمين في الشام من هو أجدر منه وأحق بالولاية. اسمع يا جوناثان، إما أنك قضيت عمرك بين العرب ولا تعرف ما يدور هناك، أو أنك تخفي عني أشياء» قال المستشار مقاطعاً وقد أخذ يهز ركبه، فأدرك جندب صعوبة الموقف.

«ليس ذلك فقط يا سيدي، فالخليفة عمر لم يولّ أصحاب النبي الأولين في الإسلام مثل أولئك الذين هاجروا إلى الحبشة، بل حجز الصحابة الكبار عن مغادرة المدينة إلا إلى العمرة أو الحج في مكة، وفقط بإذن مسبق منه. والأسباب جلية يا سيدي لو عرفت طبائع العرب. عزل عمر الذين عينهم الرسول (ص) وأبقاهم أبو بكر، حتى لا يتمردوا عليه ويقولوا للناس لقد ولاّنا النبي وليس لغيره سلطاناً علينا، وبالتالي تتحول الأمصار تحتهم إلى ورثة لأبنائهم. ومنع الصحابة من السفر حتى لا يفتنوا الناس في الأمصار ويتحدوا سلطات الولاة الذين يعينهم عمر، وكان يغير الولاة كل عام أو لأسباب بسيطة حتى يحتفظ بمركزية السلطة بين يديه، وكان يضرب الولاة في مواسم الحج إذا اشتكى عليهم مسلم، وهذا ما لم يكن ليقدر عليه لو كان الوالي من صحابة النبي المقربين الأولين، أو من الذين سبقوا عمر إلى الإسلام. واستعمل عمر سياسة التخوين المالي ضد الولاة والقادة الذين كانوا خارج المدينة، وأكثر من اقتسام المال معهم إلى درجة أنه أخذ فردة نعل وترك أخرى لابن خاله خالد بن الوليد الذي احتل بلاد الفرس وقاد معركة اليرموك ضدنا ولولاه لما وصل المسلمون إلى ما وصلوا إليه، وأسلم قبل فتح مكة ولم يهزم في أي معركة قبل إسلامه أو بعده. كل ذلك، كما تعرف يا سيدي، يثبت مركزه في

المدينة وبين المسلمين قاطبة، وبالتأكيد لم تكن هذه هي السياسة الأفضل لصالح قوة الدولة الإسلامية، وكان عمر يعرف ذلك ولهذا ثبت معاوية في الشام ولم يتهمه ولم يحاسبه وتركه يبني القوات ويجمع الناس من حوله ثم سمح له قبل أن يموت ببناء أسطول بحري، وهذا بالطبع ليحاربنا إن استطاع، أو يصدنا إن هجمنا عليهم. أما أهل المدينة فقد وزع عليهم الأموال من الغنائم وهم جلوس في بيوتهم وأعطاهم حقوقاً جمة، وترك كبار الصحابة يتاجرون ويجمعون الثروات من دون أن يغادروا المدينة، واستعملهم للشورى في بعض أموره.»

«إذاً، يعود الفضل إلينا في بقاء معاوية طوال أيام عمر وعثمان، وها نحن نساعده ضد خصومه، يا لسخرية القدر.» ضحك الاثنان، ثم أضاف المستشار: «كنت أفضل لو حضرت إلينا بمشروع اتفاقية مع علي بن أبي طالب نقاتل بموجبها معاوية وننتقم منه ويعيد إلينا علي بلادنا المحتلة، ويكون لنا فضل الحفاظ على أحفاد نبيهم.»... «هل يتمكن علي من البطش بمعاوية؟»

«لا أعتقد ذلك يا سيدي. فقوات الشام كبيرة ومنظمة، ولمعاوية تحالفات مع القبائل العربية القاطنة بين الطرفين، كما أن خصوم علي كثيرون في كل الأمصار ويقودهم بعض من كبار الصحابة وبتأييد من زوجة النبي، وكلهم يطالبون بدم عثمان، بينما علي وأصحابه يتحركون الآن في الخلاء من مكان إلى آخر ولا يرتكزون إلى تأييد تام من أي مدينة أو مصر.»

«من يرتكز إلى القرآن أكثر علي أم معاوية؟»

«قبل حضوري إلى هنا وصل إلى دمشق أبو مسلم الخولاني وجماعة معه يسعون لرأب الصدع، ودخلوا إلى معاوية وسألوه إذا كان ينازع علياً على

الخلافة أو يرى في نفسه مقامه، فقال معاوية لهم: والله إني لأعلم أنه خير مني وأفضل، وأحق بالأمر مني، ولكن ألستم تعلمون أن عثمان قتل مظلوماً، وأنا ابن عمه ووليه، وأنا أطالب بدمه وأمره إليَّ؟. فقولوا لعلي فليسلم إليَّ قتلة عثمان وأنا أسلم له أمره، لا أبايعه حتى يسلمني قتلة عثمان فإنه قتل مظلوماً، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ وخرج القوم في طريقهم إلى علي ليبلغوه جواب معاوية، وبالطبع لن يسلم قتلة عثمان.»...

«أتعرف يا سيدي! إن موقف علي ضعيف لأنه متناقض، فهو الذي طالب بمحاكمة عبيد الله ابن الخليفة عمر في اليوم التالي لمبايعة عثمان، لأن عبيد الله هذا قتل من ظن أنهم الذين اغتالوا والده، وقد رفض عثمان آنذاك أن يفجع آل عمر بموت الخليفة ثم بإعدام ابنه، فوضع عثمان نفسه ولياً للمقتولين وتقبل التعويض ودفعه من ماله وأفرج عن ابن الخليفة. كان علي آنذاك يقول القاتل يقتل، والآن يرى الناس أنه يرفض تسليم قتلة الخليفة عثمان، ولا يوجد نص قرآني يؤيد موقفه هذا، ولكنه بالطبع معذور لأنه لا يستطيع تسليم القتلة الذين يحيطون به وأصبحوا متغلغلين بين قواته ومن كبار قادته.»

«أيهما لو فاز سيحول دولة المسلمين إلى الحكم الوراثي؟»

«كلاهما يا سيدي» قال جندب مبتسماً وبثقة. «معاوية يتصرف كخليفة في الشام نظراً لطول إقامته بمنصب واليها، ودولة الشام واسعة ومستقرة، وكل أجهزة الدولة تتبع معاوية منذ عشر سنوات، على الأقل، حين أطلق الخليفة عثمان يده في شؤون الحرب والسلم. كما أن بني أمية يمثلون أكبر قبائل قريش والعرب وفيهم الكثير من أهل الحكم والولاية، فإذا لم يتمكن معاوية من تنصيب ابنه، ستؤول من بعده إلى بعض أقاربه، فيكون الخليفة عثمان أولهم،

ومعاوية ثانيهم في الخلافة، وهكذا. أما علي بن أبي طالب فمن المؤكد لو فاز سيحول الدولة إلى وراثية، فهو يطالب بالخلافة منذ البداية من منطلق القرابة للنبي، فهي بالتالي له ثم لذوي قربة النبي مثل أحفاده أبناء علي، وهكذا حتى يوم القيامة.»

«من كان النبي محمد سيختار من الطرفين الآن؟»

«ربما طرف ثالث...» قال جندب ثم أكمل: «لقد كان النبي مولع بحفيديه ويصفهما بأفضل الأوصاف ويتنبأ لهما مواقع قيادية وأفعال خير ستنهي أزمات المسلمين، وكان علي محبباً جداً إلى قلبه، لكنه لم يوص لأحد ولا حتى بعد حجة الوداع ونزول آخر آيات القرآن التي تشير إلى اقتراب موت النبي. على الطرف الآخر فقد أراد النبي كسب بني أمية بعد فتح مكة فولّى عليها عتاب بن أسيد من بني أمية، بينما كان عمره لا يتجاوز العشرين سنة، وولّى على نجران أبا سفيان بن حرب، وولّى على صنعاء، واليمن، وصدقات بني مذحج خالد بن سعيد بن العاص الأموي، وولّى على تيماء، وخيبر، وقُرى عرينة عثمان بن سعيد بن العاص الأموي، وولّى على البحرين إبان بن سعيد بن العاص، بعد العلاء بن الحضرمي، وقد كان العلاء أيضًا حليفًا لبني أمية. ولا ننسى أن النبي زوج ابنتيه لعثمان بن عفان.» تريث جندب لوهلة ثم أخبر جليسه أن عثمان من أقارب النبي من جهة الأب والأم، وأن كل عرب قريش يلتقون عند سابع جد، وعثمان والنبي محمد يلتقيان عند الجد الرابع، عبد مناف. «أما أم عثمان، فهي أروى بنت كريز، وأمها هي أم حكيم البيضاء بنت المطلب توأمة عبد الله، والد النبي محمد، فعثمان يكون ابن بنت عمة النبي، والبيضاء هي أيضاً أخت أبي طالب، والد علي. وأيضاً فعبد مناف هو الجد الرابع لأبي سفيان والثالث لهند، والدي معاوية.»

«لكن الجد الأول أقرب من الجد الرابع يا جوناثان، وقرابة النساء لا يعتد بها، ويبقى الأحفاد هم الأحفاد، لو أنجب عثمان من بنات الرسول (ص) فربما كان أولاده الأمويون أحق بالخلافة، ولكنهن لم ينجبن لعثمان مثلما فعلت فاطمة لعلي الذي أرى أنه تنقصه الحكمة والحنكة، كان عليه أن يمثل ببعض قتلة عثمان، وأن يبقي كل الولاة في مناصبهم إلى حين ويغيرهم تباعاً.» قال المستشار وأخبر جندب أن الأسقف يريد مجالسته مساء الغد، ونصحه أن لا يثيره ويختار مصطلحاته بدقة، فهو قادر على التشويش عند الإمبراطور.

لم تكن هذه المرة الأولى التي يلتقي فيها جندب هذا البطريرك الذي حضر معركة اليرموك وهرب مع الذين هربوا في نهايتها، وانتحل اسم أحد البطاركة الذين قتلوا في المعركة، وهو جرجس. ففي كل مرة كان جندب يصل إلى القسطنطينية يتلقاه جرجس بأسئلة لا أول لها ولا آخر، يريد أن يسمع توبيخاً للإسلام، وتفسيراً لانتصاراتهم، وتوقع جندب أنه سوف يتشفى الآن بالمسلمين المتقاتلين طالبي الهدنة من الروم. هكذا قرر قبل النوم أن يجهد في تحويل الحديث بعيداً عن أحداث الساعة قدر الإمكان، وسهر طويلاً وهو يضع السيناريوات.

جاء لقاء الثلاثة قبل المغرب في مكتب البطريرك داخل كنيسة آجياصوفيا، واستهل جرجس الحديث بسؤال جندب إذا كان قد صلى العصر أم أنه يجمع صلواته الخمس لآخر الليل حتى لا يراه أحد. رد عليه جندب وهو يبتسم بثقة: «أصلي مع المسلمين عندما أكون بينهم، وأصلي عندما أمر بأي كنيسة...»

«وهل تريده يا أبانا أن يرفض الصلاة مع المحمديين فيكشف عن نفسه لهم؟ ألم ننته بعد من هذه القضية بالرغم من كل الخدمات التي قدمها لنا جوناثان طوال هذه العقود؟»

«أي خدمات؟ حتى الآن هو يخدمهم ولم يقدم لنا معلومات مفيدة لوقف تقدمهم واسترداد بلادنا وإعادة نشر ديننا...»

«اسأل ما تريد ولسوف تسمع مني إجابات شافية، بقدر علمي طبعاً.» قاطعه جندب وهو ينظر مباشرة إلى عينيه ويجهد نفسه كي لا يرف طرفه.

«كانوا أربعين ألفاً وكنا أربعمئة ألف محارب في اليرموك، فأي أنواع السحر استعملوا لينتصروا على جند الرب؟»

خطر لجندب القول لو كان الرب معكم لانتصرتم، ولكنه استعان بأحد السيناريوات التي أعدها بالأمس. «نعم انتصروا بالسحر، ولكنه سحر النساء. تفاخرنا عليهم، كما تعرف، قبل المعركة بجمال ودلال وبياض وأصل نسائنا، وعيبنا عليهم سواد وقذارة نسائهم...»

«إنني لا أمازحك يا جوناثان...»

«ولا أنا يا أبتِ، ولكنهم بالفعل انتصروا بفضل النساء. تذكر طبعاً أنهم فروا في اليوم الأول وتشتت شملهم ثم عادوا، وكذا يوم السهام التي أعورتهم وأثخنتهم، فروا مولين مولولين. في المرتين كانت النساء تنتظرهم بالأعمدة وأنصال السيوف وهن يحملن الأطفال، فتهاجمهم وتوبخهم وتردهم على أعقابهم إلى ساحات القتال.» تغيرت ملامح جرجس ومال بجسده باتجاه جندب بينما لم تفارق الابتسامة وجه المستشار وهو يتابع رواية جندب عما حدث قبل عشرين عاماً. «هذا الأسلوب القتالي هو الذي هزم المسلمين يوم معركة أحد، حينذاك كانت نساء عرب الجاهلية، وفي مقدمتهن هند بنت عتبة، بالمرصاد لرجالهن حين تقهقروا أمام النبي. وفي اليرموك كانت هند والكثير غيرها يؤدين نفس المهمة ولكن ضدنا ولصالح المسلمين هذه المرة. حين

انهزمت ميمنة المسلمين راجعة على أعقابها والخيل ناكصة بأذنابها، ونظرت النسوان إلى خيول المسلمين منهزمة فنادت لبنى بنت جرير الحميرية، وكانت من المترجلات البازلات، نادت بالنساء: يا بنات العربيات! دونكن والرجال! فاحملن أولادكن على أيديكن واستقبلنهم بالصياح والتحريض. فأقبلت النساء يرمين الدواب بالحجارة، وجعلت ابنة العاص بن منبه تنادي: قبح الله وجه رجل يفر عن خليلته! وجعلت النساء يقلن لبعولتهن: لستم لنا ببعول إن لم تمنعوا عنا الأعلاج. وكانت هناك خولة بنت الأزور، وخولة بنت ثعلب الأنصاري، ولعوب بنت مالك بن عاصم، وسلمى بنت هاشم، ونعيمة بنت فياض، وبالطبع هند بنت عتبة بن ربيعة. وسارت إبانة بنت جرير الحميرية، وهي أمام النساء والمزاهر معهن وهن يقلن هذه الأبيات: يا هارباً عن نسوة تقيات* رميت بالسهم وبالمنيات. فعن قليل ما ترى سبيات* غير حظيات ولا رضيات. أما هند فكانت تقول نفس الشعر في يوم معركة أحد: نحن بنات طارق* نمشي على النمارق. مشى القطا الموافق* إن تقبلوا نعانق. أو تدبروا نفارق* فراق غير وامق. كل كريم عاشق* يحمي عن العواتق.

«هذه هند ذاتها التي قلت لي إنها أكلت كبد عم النبي؟»

«هي ذاتها يا سيدي.» أكد جندب للمستشار بينما بدا على ملامح البطريرك أنه لم يفهم كيف غيرت أفعال النساء نتيجة المعركة. «العرب يا أبتِ قوم عاطفيون بالرغم مما يبدو على ملامحهم، فاستغاثة أنثى تهز كيانهم، وصرخة زوجة الرجل أو ابنته تدفعه إلى المهالك، ولقد أشار أبو سفيان على أبو عبيدة أن يضع النساء في ذلك الموضع وحرضوهن على التصدي للهاربين. وحين فقد أبو سفيان عينه مع الكثيرين يوم أمطرت السماء عليهم مئة ألف سهم، فر مع

بقية القوم يولول فصاحت بهم هند: إلى أين تفرون من الله وجنته وهو مطلع عليكم؟ ونظرت إلى أبي سفيان وهو منهزم فضربت وجه حصانه بعمودها، وقالت: إلى أين يا ابن صخر؟ إرجع إلى القتال وابذل مهجتك حتى يمحص الله عنك ما سلف من تحريضك على رسول الله (ص). فعطف أبو سفيان عندما سمع من كلامها وعينه تهر دماً، وعطف المسلمون معه، ونظروا النساء قد حملن معهم، فلقد أخذن يسابقن المسلمين وهن بين أرجل الخيل، وكل واحدة منهن تقبل إلى الفارس العظيم وهو على فرسه فتعلق به فلا تفارقه حتى تنكسه عن الجواد ثم تقتله، وتقول: هذا بيان نصر الله. ولذا حمل المسلمون حملة صعبة لا يريدون بها غير وجه ربهم والجنة. فانتصروا... كما نعرف.»

«كلهم قتلة، رجالهم ونساؤهم، وهاهم يغتالون خلفاءهم وأصبحوا يقتلون أنفسهم قبل أن يستتب أمر دينهم ودولتهم.» قال جرجس بصوت الواثق، ثم سأل جندب «هل قتل نبيهم أناساً بيديه؟ أعرف أنه أمر بقتل اليهود والنصارى والأعداء من بني قومه، ولكن هل شاهدته أو عرفت أنه قتل أناساً بيديه؟»

لم يرغب جندب في مجادلة جرجس حول قوله إن النبي أمر بقتل أهل الكتاب من اليهود والنصارى، فأجاب على قدر السؤال: «نعم لقد قتل أبي بن خلف يوم أحد، ولم يقتل غيره لاحقاً. لقد أقسم أبي أن يقتل النبي، وحين سمع هذا بذلك قال إنه سيقتل أبي، وحينها خاف أبي لأن الجميع يعرفون صدق ما يقوله النبي. فلما كان يوم أحد خرج أبي بن خلف مع المشركين فجعل يلتمس غفلة النبي ليحمل عليه، فيحول رجل من المسلمين بينه وبين النبي. ولهذا قال النبي لأصحابه: خلوا عنه فأخذ الحربة وقذفها إلى رقبته فاحتقن الدم في جوفه فجعل يخور كما يخور الثور، فأقبل أصحابه حتى احتملوه وهو يخور وقالوا:

ما هذا؟ فوالله ما بك إلا خدش، فقال: والله لو لم يصبني إلا بريقه لقتلني أليس قد قال أنا أقتله إن شاء الله؟» لقد زم جرجس شفتيه مستهزئاً فأضاف جندب: «هذا ما أعرفه، لقد قتل أبي فقط، ولكنه بالطبع أمر بقتل آخرين، رعاة ارتدوا وسرقوا الإبل، وغانيات في مكة كن يحرضن ضده، وبعض من ارتدوا وآخرين كانوا يعذبونه قبل الهجرة، فطلب من أصحابه قتل ثمانية أشخاص يوم الفتح حتى لو وجدوهم متعلقين بأذيال الكعبة. بعضهم قتل وآخرون عفا عنهم مثل عبد الله بن أبي سرح الذي نعرفه من معركة ذات الصواري، وكان قد أسلم وكتب القرآن للنبي، ثم ارتد ثم توسط له ابن عفان فعاد للإسلام ولم يُقتل كما أمر النبي.»

«وهل ينفذ المسلمون كلام ربهم في القتل؟» ضحك جندب مجلجلاً كتعقيب أولي على سؤال جرجس، ثم قال له إن ربهم هو ربنا ورب اليهود، وإنه قد شرع القتل في كل الكتب، فاستجابة المسلمين لربهم بهذا الصدد ليست معيبة عليهم أو على غيرهم. «لا لا يا جوناثان أنت على وشك أن تكفر الآن فربهم ليس ربنا...»

«لا بأس يا أبتِ، ولكنهم يقولون إن ربنا هو ربهم، وهذا ما جاءت به آيات القرآن، لك أن تنكر أن ربنا هو واحد، ولكنهم يؤمنون بذلك ويقدسون سيدنا المسيح وأمه مريم العذراء، وقد فرحوا حين بشرهم النبي أن الروم، أهل الكتاب، سوف ينتصرون على الفرس عبدة النار، إذ كانوا منذ البداية يعتبرون أنفسهم شركاء وأنصاراً للنصارى.»

هدأ الحديث قليلاً وأراد المستشار الابتعاد عن موضوع الرب الواحد، فسأل جندب: «كيف كانت تأتي الآيات إلى محمد؟ هل نقلها فعلاً جبرائيل كما يقولون؟ وهل كانت تأتي ملائمة للواقع اليومي أم أنها كلام غامض؟»

«كان محمداً كثير الانعزال والتعبد قبيل نزول الوحي، قبل ثلاثة عشر عاماً من هجرته نزلت عليه خمس آيات لقنها له الملاك جبرائيل. ثم غاب الوحي عنه ثلاث سنوات حتى ليلة القدر، وهي الثالث والعشرون، في شهر رمضان من العام العاشر قبل الهجرة، واستمر نزول الآيات لعشرين عاماً تلت، إذ كانت تنزل في فترات وظروف وأسباب. نزلت بالتدريج لتثبيت قلب النبي وأصحابه على ما يلاقونه من قريش، وكانت الآيات تدحض حجج الكفار أولاً بأول، وبالطبع أتاح هذا الحال فرصة أفضل لحفظ القرآن عن ظهر قلب، وأيضاً سهل تدرج الناس في تطبيق أحكام القرآن ومعظمها تخالف ما كان مألوفاً في قريش ولدى العرب، وهو كما قلت يا سيدي، كانت بعض آياته ترد كإجابة عن أسئلة محددة من المسلمين والمسلمات، وفي كل شؤون دنياهم بما فيها المضاجعة الجنسية. كان النبي يستمع إلى السؤال وبعد أيام أو أسابيع يأتيه الجواب كآية، وفي النادر كانت الآيات تنزل على النبي فوراً للتعامل مع وضع طارئ.»

18

المسافة بين القسطنطينية ودمشق براً تعادل المسافة بحراً، وإذا كانت الرياح جنوبية شرقية فإن الإبحار بين العاصمة البيزنطية وساحل الشام يحتاج إلى ثلاثة أيام ولياليها، بينما الطريق البري يحتاج من المسافر المجتهد على حصان عشرة أيام، خصوصاً الآن وقد غطت الثلوج كل الطرق الجبلية. في الظروف العادية يمكن أن تكون الفترة أقل من ذلك طبعاً إذا استبدل الخيول في الطريق وأجهد نفسه بساعات سفر ليلي إضافة إلى النهار. أخذ جندب بنصيحة المستشار فأبحر في سفينة شراعية، بينما عاد الجماعة، الذين حضروا للقسطنطينية بالمعاهدة الموقعة، عادوا إلى الشام، براً. أراد جندب فترة من العزلة والهدوء لتقويم ما سمع وشاهد وفعل طوال شهر من إقامته بين البيزنطيين، كما أراد الوصول بسرعة أيضاً. كان منزعجاً جداً مما حمل إليه الجماعة من الشام، وطلب منهم كتمان الأخبار لكسب بعض الوقت وتأمين فترة لمعاهدة الهدنة، فلو عرف البيزنطيون أن المسلمين اقتتلوا، وأن علياً انتصر في موقعة الجمل على أصدقاء معاوية، لترددوا في استكمال المعاهدة.

التفاصيل المعروفة إلى الآن والتي نقلت إلى جندب مفادها، أن علياً قرر الخروج إلى الشام لقتال معاوية فبدأ يستنصر بعماله والمسلمين، فأرسل رسالة إلى أبي موسى الأشعري في الكوفة، وإلى عثمان بن حنيف في البصرة، وإلى

قيس بن سعد في مصر، وإلى عامله في اليمن يستمد منهم المدد لهذا الأمر، وخالفه في ذلك عبد الله بن عباس، لكن علياً أصرّ، وجاء إليه ابنه الحسن وقال له: يا أبتِ، دع هذا فإن فيه سفك دماء المسلمين، ووقوع الاختلاف بينهم. فلم يقبل منه علي هذا النصح، وأصرّ على القتال واستعد للخروج إلى الشام. استخلف على المدينة ابن أخيه قثم بن عباس، وجهز الجيش للخروج، فكان على الميمنة عبد الله بن عباس، ولم يمنعه الخلاف في الرأي مع ابن عمه أن يخرج ليساعده. وعلى الميسرة عمرو بن أبي سلمة، وعلى المقدمة أبو ليلى بن عمرو الجرّاح، وهو ابن أخي أبي عبيدة بن الجراح.

وبينما علي يستعد للخروج متوجهًا إلى الشام حدث في مكة أمر لم يكن متوقعًا فغيّر من خطته. كان بمكة السيدة عائشة أم المؤمنين، وزوجات رسول الله أمهات المؤمنين اللواتي هربن إلى مكة قبُيل وبُعيد مقتل عثمان، عدا السيدة أم حبيبة، فقد كانت بالمدينة. وكان في مكة أيضاً طلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، والمغيرة بن شعبة، ووصلها يعلى بن أمية التميمي الذي كان عاملاً لعثمان على اليمن، ولما حدثت الفتنة جاء إلى مكة، ومعه ستمئة من الإبل، وستمئة ألف درهم من بيت مال اليمن. واجتمع كل هؤلاء الصحابة، وبدأوا في مدارسة الأمر وصار رأيهم جميعًا وكانوا قد بايعوا عليًا أن هناك أولوية لأخذ الثأر لعثمان، وأنه لا يصح أن يُؤجل هذا الأمر بأي حال من الأحوال، وقد تزعّم هذا الأمر الصحابيان طلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوّام... وصار هذا الرأي مقدمةً لموقعة الجمل.

قرر هؤلاء، المجتمعون في مكة، أن يُجهزوا جيشًا، ويذهبوا إلى المدينة لأخذ الثأر من بعض قتلة عثمان؛ الذين لا يزالوان في المدينة، لأن عليًا لا

يستطيع أن يقاتلهم وحده. ووافقت السيدة عائشة على هذا الأمر، ووافقت جميع زوجات النبي على العودة إلى المدينة؛ لأخذ الثأر لعثمان بن عفان. ثم ظهر بينهم رأي آخر يقول بالذهاب إلى الشام للاستعانة بمعاوية على هذا الأمر، فقال عبد الله بن عامر: إن معاوية قد كفاكم أمر الشام، وأشار عليهم بالذهاب إلى البصرة وكان واليًا عليها قبل ذلك للتزود بالمدد، والأعوان منها، وكان له فيها يدٌ ورأي، وقال لهم: إن لطلحة فيها كلمة وتأييد. فكان رأي عبد الله بن عامر أن يذهبوا إلى البصرة، ويبدأوا بقتلة عثمان الموجودين فيها، فيقتلونهم، ثم يذهبون بعد أن يتزودوا بالعدد، والعدة إلى المدينة فيأتون على باقي القتلة هناك. ورفضت سائر زوجات النبي الخروج إلى البصرة إلا السيدة حفصة بنت عمر، فقررت الخروج مع السيدة عائشة إلى البصرة، إلا أن أخاها عبد الله بن عمر قال لها: إن هذا زمن فتنة، وعليك أن تقرّي في بيتك، ولا تخرجي. فلما خاطبتها السيدة عائشة في عدم خروجها إلى البصرة قالت لها إن أخاها قد منعها، فقالت السيدة عائشة: غفر الله له. وهذا يوضح مدى قناعة عائشة بما تفعل.

كان موقف عبد الله بن عمر هو اعتزال الفتنة من أولها إلى آخرها، وأصبح يصوّر الفتنة بأنها كغمامة جاءت على المسلمين، فلم يعد أحد يرى شيئًا، والكل يسير في طريق يريد أن يصل إلى الصواب، فاجتهد فريق منهم في الطريق فوصل، هذا عليّاً ومن معه، واجتهد آخرون لكي يصلوا، ولكنهم أخطأوا الطريق، وهم معاوية ومن لم يبايعوا، والبعض الآخر انتظر حتى تنقشع الغمامة ثم يرى الرأي، وكان هو من هذه الفئة.

بلغ عددهم عند خروجهم من مكة تسعمئة، ثم صار عددهم بعد قليل ثلاثة

آلاف في طريقهم إلى البصرة، وكانوا قد اشتروا للسيدة عائشة جملًا وصنعوا لها هودجاً منيعاً. علم علي بهذا الأمر كله، وكان حينها على نيّة الخروج إلى الشام، لكن مع هذه المستجدات قرّر إلغاء فكرة محاربة معاوية والتحرك إلى البصرة، لحماية قتلة عثمان هناك، أو ربما لشكوك ساورته في نوايا طلحة والزبير وعائشة.

قدِم جيش الهودج إلى أطراف البصرة، وقبل دخولهم إليها أرسلوا رسائل إلى عثمان بن حنيف، الوالي عليها من قِبل علي بن أبي طالب، وطالبوه أن يُخلي المدينة لجيش السيدة عائشة؛ لأخذ المدد، والأخذ على يد من قتل عثمان بن عفان ممن هم في البصرة، ولم يكن بن حنيف بالطبع يعرف كل من قتل ابن عفان من أهل البصرة، ولا يعلم أيضًا من وافق من أهلها على القتل، ومن لم يوافق، ولكنه حتماً يعرف أن حكيم بن جبلة، وهو أحد رؤوس الفتنة، كان قد انتقل من المدينة إلى البصرة بعد قتل عثمان، وهو من رؤوس قومه، ومن إحدى القبائل الكبيرة. عندما علم دعاة الفتنة، الذين خرجوا على عثمان بن عفان، بأمر الرسالة إلى ابن حنيف عملوا على التحريض ضد أصحاب الجمل. فقرر الوالي، أن يمنع أصحاب الجمل من دخول البصرة، وأرسل إليهم حكيم بن جبلة، ومعه الجند ليخبرهم بذلك. فقام طلحة ثم الزبير يخطبان في أنصار المعسكرين، فأيدهما أصحاب الجمل، ورفضهما أصحاب بن حنيف، ثم قامت أم المؤمنين عائشة تخطب في المعسكرين، فثبت معها أصحاب الجمل، وانحازت إليها فرقة من أصحاب الوالي، وبقيت فرقة أخرى مع ابن جبلة. واختلف الفريقان وكثر بينهما اللغط وتراموا بالحجارة. ثم قام حكيم بن جبلة، بتأجيج الفتنة والدعوة إلى القتال، وبسب أم المؤمنين عائشة، وقتل كل

من أنكر عليه ذلك، هذا وبينما دعاة أصحاب الجمل يدعون إلى الكف عن القتال. فلما لم يستجب حكيم بن جبلة وأنصاره لدعوى الكف عن القتال، كر عليهم أصحاب الجمل، وقتلوا حكيم بن جبلة. ثم اصطلح أصحاب الجمل مع الوالي عثمان بن حنيف على أن تكون دار الإمارة في البصرة والمسجد الجامع وبيت المال في يد ابن حنيف، وينزل أصحاب الجمل في أي مكان يريدونه من البصرة.

قبل تطبيق هذا الصلح وصلت إلى الوالي بن حنيف رسالة من الإمام علي: «من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى عثمان بن حنيف. أما بعد؛ فإن البغاة عاهدوا الله ثم نكثوا وتوجهوا إلى مصرك، وساقهم الشيطان لطلب ما لا يرضى الله به، والله أشد بأسًا وأشد تنكيلاً. فإذا قدموا عليك فادعهم للطاعة والرجوع إلى الوفاء بالعهد والميثاق الذي فارقونا عليه، فإن أجابوا فأحسن جوارهم ما داموا عندك، وإن أبوا إلا التمسك بحبل النكث والخلاف فناجزهم القتال حتى يحكم الله بينك وبينهم وهو خير الحاكمين، وكتبت كتابي هذا إليك من الربذة وأنا مُعجّل المسير إليك إن شاء الله.» عندما تسرب أمر هذا الكتاب إلى أهل الجمل دخلوا المدينة فأتوا دار الإمارة وقتلوا حراس بيت المال إذ وضعوا فيهم السيف فقتلوا منهم أربعين رجلاً، ثم هجموا على عثمان فأوثقوه رباطاً وأراد البعض قتله ولكنهم تذكروا أنه من أصحاب الرسول (ص) فاستقر الأمر على نتف لحيته، ثم قتلوا وتتبعوا من ظنوا أنهم من قتلة الخليفة عثمان بن عفان، واحتفظوا بمعسكرهم خارج المدينة.

بعد أن وصل جيش علي إلى البصرة، مكث فيها ثلاثة أيام وبعث الرسل بينه وبين طلحة والزبير وعائشة، فأرسل القعقاع بن عمرو إليهم فقال للسيدة

عائشة: «أي أماه، ما أقدمك هذا البلد؟» فقالت:»أي بني، الإصلاح بين الناس». سعى القعقاع بين الفريقين بالصلح، فرجع إلى علي وأخبره ما سمع، فأعجبه ذلك، وأشرف القوم على الصلح، كره ذلك من كرهه، ورضيه من رضيه. وأرسلت عائشة إلى علي تعلمه أنها إنما جاءت للصلح، ففرح هؤلاء وهؤلاء، وقام علي في الناس خطيباً، فذكر الجاهلية وشقاءها وأعمالها، وذكر الإسلام وسعادة أهله بالألفة والجماعة، وأن الله جمعهم بعد نبيه (ص) على الخليفة أبي بكر الصديق، ثم بعده على عمر بن الخطاب، ثم على عثمان، ثم حدث هذا الحدث الذي جرى على الأمة، أقوام طلبوا الدنيا وحسدوا من أنعم الله عليه بها، وعلى الفضيلة التي منَّ الله بها، وأرادوا رد الإسلام والأشياء على أدبارها، والله بالغ أمره. ثم قال: ألا إني مرتحل غداً فارتحلوا، ولا يرتحل معي أحد أعان على قتل عثمان بشيء من أمور الناس. فلما قال علي هذا اجتمع من رؤوس أهل الفتن جماعة، كالأشتر النخعي، وشريح بن أوفى، وعبد الله بن سبأ المعروف بابن السوداء... وغيرهم في ألفين وخمسمئة، وليس فيهم صحابي واحد، فقالوا: ما هذا الرأي؟ وعلي والله أعلم بكتاب الله ممن يطلب قتلة عثمان، وأقرب إلى العمل بذلك، وقد قال ما سمعتم، غداً يجمع عليكم الناس، وإنما يريد القوم كلهم أنتم، فكيف بكم وعددكم قليل في كثرتهم. فقال الأشتر: قد عرفنا رأي طلحة والزبير فينا، وأما رأي علي فلم نعرفه إلا اليوم، فإن كان قد تصالح معهم، فإنما تصالحوا على دمائنا... ثم قال رأس الفتنة ابن السوداء: يا قوم إن عيركم في خلطة الناس، فإذا التقى الناس فانشبوا الحرب والقتال بين الناس، ولا تدعوهم يجتمعون...

بات الناس بخير ليلة، وبات قتلة عثمان بشر ليلة، وباتوا يتشاورون،

وأجمعوا على أن يثيروا الحرب من الغلس، فنهضوا من قبل طلوع الفجر، وهم قريب من ألفي رجل، فانصرف كل فريق إلى قراباتهم، فهجموا عليهم بالسيوف، فثارت كل طائفة إلى قومهم ليمنعوهم، وقام الناس من منامهم إلى السلاح، فقالوا: طرقتنا أهل الكوفة ليلاً، وبيتونا وغدروا بنا، وظنوا أن هذا عن ملأ من أصحاب علي، فبلغ الأمر علياً فقال: ما للناس؟ فقالوا: بيتنا أهل البصرة، فثار كل فريق إلى سلاحه، ولبسوا اللامة، وركبوا الخيول، ولا يشعر أحد منهم بما حدث من خديعة، وكان أمر الله قدراً مقدراً، وقامت الحرب على قدم وساق، وتبارز الفرسان، وجالت الشجعان، فنشبت الحرب، وتواقف الفريقان، وقد اجتمع مع علي عشرون ألفاً، والتف حول عائشة ومن معها نحواً من ثلاثين ألفاً، ومنادي علي ينادي: ألا كفوا ألا كفوا، فلا يسمع أحد إلا بعد حين... وخرج علي بنفسه حاسراً لا سلاح عليه، فنادى يا زبير أخرج إلي! فخرج الزبير شاكاً سلاحه، فقيل لعائشة، فقالت: واحرباه بأسماء! فقيل لها: إن علياً حاسر فاطمأنت أن الزبير، زوج أختها أسماء، لن يصيبه ضرر، واعتنق كل واحد منهما صاحبه. فقال له علي: ويحك يا زبير! ما الذي أخرجك؟! قال: دم عثمان. قال: قتل الله أولانا بدم عثمان. أما تذكر يوم مررت مع رسول الله (ص) في بني غنم فنظر إلي فضحك وضحكت إليه، فقلت أنت: لا يدع ابن أبي طالب زهوه، فقال لك رسول الله: صه، إنه ليس به زهو ولتقاتلنه وأنت ظالم له؟ فقال الزبير فوراً: أستغفر الله، ولو ذكرتها ما خرجت. فقال علي: يا زبير ارجع، فقال: وكيف أرجع الآن وقد التقت حلقتا البطان، هذا والله العار الذي لا يُغسل. فأجابه علي: يا زبير! ارجع بالعار قبل أن تجمع العار والنار، فرجع الزبير وهو يقول:

اخترت عاراً على نار مؤججة　　ما إن يقوم لها خلــق مـــن الطينِ
نادى عليّ بأمر لست أجهله　　عار لعمرك فــي الدنيا وفي الدين
فقلت حسبك من عذل أبا حسن　　بعض الذي قلت منذ اليوم يكفيني

أما علي فانصرف إلى أصحابه، فقال لهم: أما الزبير فقد أعطى عهد الله ألا يقاتلكم. ورجع الزبير بدوره إلى عائشة، فقال لها: ما كنت في موطن منذ عقلت إلا وأنا أعرف فيه أمري غير موطني هذا. قالت عائشة: فما تريد أن تصنع؟ قال لها: أريد أن أدعكم وأذهب، فقال له ابنه، وابن أسماء، عبد الله: جمعت بين هذين الغارين حتى إذا حدد بعضهم لبعض أردت أن تتركهم وتذهب؟ أحسست رايات ابن أبي طالب وعلمت أنها تحملها فتية أنجاد. قال الزبير لولده: إني قد حلفت ألا أقاتله. فقال له ابنه: كفر عن يمينك وقاتله.

كان عبد الله بن الزبير أول مسلم يولد في المدينة بعد الهجرة، وأمه أسماء، بنت أبي بكر، تكبر أختها عائشة بعشر سنوات، وقد هاجرت وهي حامل من الزبير، وكانت من أولى المسلمات في مكة، ولا زالت تتمتع بصحة جيدة، وهي التي لقبها الرسول (ص) بذات النطاقين.

أبالجبن تعيرني؟ سأل الزبير ابنه، ثم أمال سنانه وشد في الميمنة على جيش علي الذي توقع ذلك فقال علي لأصحابه: أفرجوا له فقد هاجوه، ثم رجع فشد في الميسرة، ثم رجع فشد في القلب ثم عاد إلى ابنه فقال: أيفعل هذا جبان؟ ثم مضى منصرفاً عن القوم حتى أتى وادي السباع حيث كان الأحنف بن قيس معتزلاً في قومه من بني تميم، فأتاه آت فقال: هذا الزبير مار، فقال: ما أصنع بالزبير وقد جمع بين فئتين عظيمتين من الناس يقتل بعضهم بعضاً وهو مار إلى منزله في المدينة سالماً، فلحقه نفر من بني تميم فسبقهم إليه عمرو بن جرموز

وقد نزل الزبير إلى الصلاة فقال: أتؤمني أو أؤمك؟ فأمه الزبير، وقتله عمرو بن جرموز في الصلاة.

هكذا انتهت حياة الزبير بن صفية عمة الرسول (ص)، وهو الأمير الأول لجيش أم المؤمنين، عائشة، ثم صفت إمارة الجيش لابن عمها طلحة، الذي شلت يده يوم أحد وهو يدافع عن الرسول (ص) بجسده، وهو، مثل الزبير، أحد العشرة الذين بشرهم الرسول (ص) بالجنة، وأحد الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام، وأحد الستة الذين اختارهم عمر بن الخطاب ليكون منهم خليفة المسلمين، وهو أيضاً مثل غيره من الصحابة الذين عجزوا عن حماية الخليفة عثمان حين حوصر في المدينة لأربعين يوماً. وبقي في القيادة أيضاً عبد الله بن الزبير وهو ابن أخت عائشة أم المؤمنين.

اشتد القتال وكانت عائشة في هودجها المحصن وبه مواضع لعينها لتراقب القتال، وصدق كل فريق الحملة على الآخر. التف جيش البصرة حول الجمل يدافعون عن راكبته، فقتل حوله آلاف الناس وقطعت الأيدي التي تلاقفت زمامه وكان راجز أهل البصرة يقول:

نحن بني ضبة أصحاب الجمل   ننزل بالموت إذا المـوت نزل
ننعى ابن عفان بأطراف الأسل   الموت أحلى عندنا من العسل

ومع زيادة الضحايا حول الجمل واستماتة الناس دونه لا يسلمونه أبداً قرر علي أن يعقر الجمل ونادى بذلك، فوصل للجمل رجل من خلفه وضرب عرقوبه فعقره، وسقط الهودج الذي كان يشبه القنفذ لكثرة الرماح والنبل التي رمُي بها والتصقت به. هنا تدخل أخو عائشة، محمد بن أبي بكر، والشيخ عمار بن ياسر الذي ناهز التسعين، وكانا في صف علي منذ عقود، واحتملا الهودج ونحياه عن القتلى والجرحى ثم أشرفا على حمله إلى البصرة.

كان علي حين اشتد القتال يتألم ويلوذ ويتوجّع على قتلى الفريقين وقد سُمع وهو يقول: «يا ليتني متّ قبل هذا اليوم بعشرين سنة... اللهم ليس هذا أردتُ اللهم ليس هذا أردتُ». أي تمنى عدم معايشة خلافة عمر وعثمان. انتهى القتال وقد قتل طلحة بن عبيد الله بعد أن أصاب سهم ركبته في بداية القتال، وقد حزن أمير المؤمنين علي كثيراً على طلحة، فحين رآه مقتولاً جعل يمسح التراب عن وجهه ويقول: «عزيزٌ عليّ أبا محمد أن أراك مجندلاً تحت نجوم السماء» ثم قال: «إلى الله أشكوا عُجري وبُجري وبكى عليه هو وأصحابُه» كما قتل ابن طلحة، محمد السجاد، وكان شاباً من خيرة أخوته العشرة، عابداً قانتاً لله، ولد في حياة النبي، فحزن عليه علي وقال: صرعه بره بأبيه. وكان طلحة، مثل الزبير، من أغنياء الصحابة، وكان جواداً، وتزوج طلحة في حياته أربع نسوة، كل واحدة منهن أخت لزوجة من زوجات النبي وهن: أم كلثوم بنت أبي بكر، أخت عائشة، وحمنة بنت جحش أخت زينب، والفارعة بنت أبي سفيان أخت أم حبيبة، ورقية بنت أبي أمية أخت أم سلمة.

ولما ظهر علي، جاء إلى أم المؤمنين، فقال: غفر الله لك، قالت: ولك، ما أردتُ إلا الإصلاح. ثم أنزلها دار عبد الله بن خلف وهي أعظم دار في البصرة على سنية بنت الحارث أم طلحة الطلحات، وزارها ورحبت به وبايعته وجلس عندها. فقال رجل: يا أمير المؤمنين إن بالباب رجلين ينالان من عائشة، فأمر القعقاع بن عمرو أن يجلد كل منهما مئة جلدة وأن يجردهما من ثيابهما ففعل القعقاع. ثم ردها علي إلى المدينة معززة مكرمة مع الذين نجوا من الموت ومن الأسر، مثل مروان بن الحكم إذ لم يؤذه علي بن أبي طالب، ولا أحد من أتباعه، وذلك لمكانته بين المسلمين، وشفع له الحسن والحسين عند أبيهما ليطلق سراحه، وهذا ما حدث.

وسبق ذلك وبعد أن بدأت الحرب تضع أوزارها، أن نادى منادي علي: ألّا يجهزوا على جريح، ولا يتبعوا مدبرًا، ولا يدخلوا داراً، ومن ألقى السلاح فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، وليس لجيشه من غنيمة إلّا ما حُمل إلى ميدان المعركة من سلاح وكراع، وليس لهم ما وراء ذلك من شيء، ونادى منادي أمير المؤمنين فيمن حاربه من أهل البصرة من وجد شيئاً من متاعه عند أحد من جنده، فله أن يأخذه. وقد ظن بعض الناس في جيش علي أن علياً سيقسم بينهم السبي، فتكلموا به ونشروه بين الناس، ولكن سرعان ما فاجأهم علي، حين أعلن في ندائه: وليس لكم أم ولد، والمواريث على فرائض الله، وأي امرأة قُتل زوجها فلتعتد أربعة أشهر وعشرًا، فقالوا مستنكرين متأولين: يا أمير المؤمنين، تحل لنا دماؤهم ولا تحل لنا نساؤهم؟ فقال علي: كذلك السيرة في أهل القبلة، ثم قال: فهاتوا سهامكم واقرعوها على عائشة؛ فهي رأس الأمر وقائدهم، فتفرقوا وقالوا: نستغفر الله، وتبين لهم أن قولهم وظنهم خطأ فاحش، ولكن ليرضيهم قسم علي من بيت المال خمسمئة خمسمئة.

19

قبل أن يهبط جندب مع حجاج بيت المقدس النصارى من المركب على شاطئ يافا، اتخذ قراراً بالإسراع إلى غزة لزيارة أقاربه هناك، ولكن السبب الرئيس لهذه الرحلة هو اللقاء مع صديقه عمرو بن العاص، الذي كان قد ترك المدينة أثناء حصار منزل الخليفة عثمان، واتجه إلى منزله في غزة، قريباً من مصر ومن الشام، بانتظار ما سيحدث. أراد جندب أن يقنع عمراً بالسفر معه إلى الشام ليقف بجانب معاوية بعد انتصار علي في موقعة الجمل. كان جندب يعرف أن معاوية سيرحب بعمرو، فهو وإن لم يكن من معارضي قتل الخليفة عثمان، الذي نزعه عن ولاية مصر وأعطاها لعبد الله بن أبي السرح، إلا أنه لم يكن أيضاً من مؤيدي القتل وقد اعتزل الفتنة، وهو على كل حال ليس من أنصار علي بن أبي طالب.

انطلق جندب من يافا قبل الفجر، ووصل إلى عسقلان بسرعة، ولكنه حث صاحب الناقة التي تقله على مواصلة المسير والاستراحة في بربرة القريبة. لم يكن يريد اللقاء ولو بالصدفة مع عبد الله بن أبي السرح، تخوفاً من حنق عمرو بن العاص الذي لم يحب ابن أبي السرح يوماً، خصوصاً بعد أن أحله عثمان على مصر بديلاً له، واشتد على الجباية من أهلها ليثبت لعثمان أنه أجدر بالولاية من عمرو. لقد استقر عبد الله هنا بعد أن فشل في نجدة عثمان

أثناء الحصار، وفشل في العودة إلى مصر التي ثار فيها محمد بن أبي حذيفه، فحضر إلى عسقلان. كانت قرية بربرة، الرومانية الأصل، هي الاستراحة الأولى لجندب مذ غادر يافا، وكان قد مر فيها مراراً من قبل. لم يتعرف إلى أي شخص ممن صلى معهم المغرب في الجامع، فقد كانت آخر زيارة له هنا في بداية عهد عثمان، أي قبل أحد عشر عاماً. آنذاك أخبر عثمان بطبيعة عمله مع الخليفة عمر، فطلب منه الخليفة الجديد مواصلة عمله والتنسيق مع معاوية في الشام، فخرج من المدينة مع أبي ذر الغفاري وابن السوداء إلى الشام، وجاء منها في زيارة إلى أهله في غزة. لم يكن شاباً آنذاك، فقد كان عمره خمسة وخمسين عاماً، وهو الآن يفوق السادسة والستين.

تناول مع حادي العيس وبعض في البربراوية الجامع، قبل الصلاة، ما قدموه من طعام تبرع به بعض السكان، كما هي العادة عندما يصل الجامع أي زائر أو عابر سبيل. لم يتغير الجامع طوال الستة عشر عاماً التي مرت على بنائه من جذوع شجر الكينا، وجدران من البوص، وسقف من سعف النخل. عندما تعرفوا إليه، وعرفوا أنه كان مع الفاتحين الذين أقاموا هذا الجامع، أرادوا إكرامه بذبح شاة وطلبوا منه المبيت، ولكنه شكرهم وأمهم في الصلاة وواصل مسيره. تشجع على السفر ليلاً لقرب المسافة بين بربرة وغزة، واستراح لنسمات برد الشتاء، واعتبرها ربيعاً مقارنة بما شاهده في القسطنطينية من مطر وثلوج هطلت على تلك البلاد في الشهر الأول لعامهم الميلادي. كان خضار شجر الزيتون يغطي مساحة واسعة على جانبي الطريق الروماني المعبد، بينما كروم العنب وأشجار الفواكه جرداء، ولم تعدم بربرة والقرى المجاورة من مساحات خضراء نبت فيها القمح.

اعتمت الأجواء فجأة مع غروب الشمس وراء البحر الممتد بلا نهاية غرباً، وغطت السحب الخفيفة العالية ضوء النجوم، وعم الصمت إلا من دبيب الناقتين ولوكهما لما تخرجانه من الأمعاء فتطحناه وتعيدان ابتلاعه. «لو أنني قتلت رؤوس الفتنة في تلك الرحلة من المدينة إلى الشام لما وصلت الأمور إلى هذا الحد.» قال جندب في سره، ثم استذكر أن ما كان وسيكون هو أمر مقدر سلفاً، وأن الرسول الحبيب توقع كل هذا وقاله أمام أناس ثقاة. عرف، عليه الصلاة والسلام، أن عثمان سيموت قتيلاً شهيداً وأبلغه بذلك وأوصاه أن لا يخلع قميصاً ألبسه إياه الله. وتحدث بأمر الفتنة، ويبدو من تلك الأحاديث أنها سوف تكبر، وقال إن الخلافة تستمر ثلاثين سنة ثم تتحول الدولة الإسلامية إلى مُلك، وهذا يعني على الأرجح أن علياً سيفشل قريباً، إلا إذا كان سيورثها لأولاده ويكونوا هم الملوك. «لا مهرب من القدر.» قال لنفسه، ثم استذكر أن عبد الله بن سبأ، ابن السوداء، لا يتساوى مع أبي ذر الغفاري، وهما رفيقاه في الرحلة من المدينة إلى الشام، وكلاهما خرج مغضوباً عليه. كلاهما معارض لعثمان، ومؤيد لعلي بن أبي طالب، لكن الأول متآمر لئيم، والثاني مؤمن أصولي متشدد، بل إن أبا ذر يكره اليهود الذين أسلموا مثل ابن السوداء هذا، أو كعب الأحبار، أو عبد الله بن سلام. ما إن أسلم ابن سبأ حتى أخذ ينادي بولاية علي، ويقول للناس إن علياً هو وصي الأمة، وأظهر الطعن في عثمان وفي أبي بكر وعمر من قبله، ولم يتوقف عن شتم أم المؤمنين عائشة بين أنصاره. لقد اختلف مع أبي ذر أثناء تلك الرحلة حول أمور شتى، ولكنه لم يقطع معه وخاضا نقاشاً فيما إذا كان المال هو مال الله أو مال المسلمين، واتفقا إنه مال المسلمين وليس كما يقول عثمان ومعاوية إنه مال الله. فمال الله

يمكن للخليفة أو الوالي إنفاقه كما يريد، ولكن مال المسلمين هو لهم، هكذا اقتنع الاثنان، وصارت هذه الكلمات شعار أبي ذر في هجومه على معاوية حتى يئس منه وخاف الفتنة وكتب لعثمان فأجابه أن يعيده إلى المدينة فوراً.

أرسل معاوية إلى أبي ذر، وأقرأه كتاب عثمان، وقال له: النجاء الساعة! فخرج أبو ذر إلى راحلته فشدها بكورها وأنساعها، فاجتمع اليه الناس، فقالوا: يا أبا ذر، رحمك الله أين تريد؟ قال لهم: أخرجوني من المدينة إليكم غضباً علي. وأخرجوني منكم الآن عبثاً بي، ولا يزال هذا الأمر فيما أرى، شأنهم فيما بيني وبينهم، حتى يستريح برّ، أو يستراح من فاجر. ومضى، فسمع الناس بمخرجه فاتبعوه، حتى خرج من دمشق، فساروا معه حتى انتهى إلى دير المرّان، فنزل، ونزل معه الناس، فاستقدم، فصلى بهم. ثم قال: أيها الناس، إني موصيكم بما ينفعكم، وتارك الخُطب والتشقيق، احمدوا الله عز وجل. قالوا: الحمد لله. قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله. فأجابوه بمثل ما قال. فأضاف: أشهد أن البعث حق، وأن الجنة حق، وأن النار حق، وأقر بما جاء من عند الله، واشهدوا علي بذلك. قالوا: نحن على ذلك من الشاهدين. قال: ليبشر من مات منكم على هذه الخصال، برحمة الله وكرامته، ما لم يكن للمجرمين ظهيراً، أو لأعمال الظلمة مصلحاً، أو لهم معيناً. أيها الناس: اجمعوا مع صلاتكم وصومكم غضباً لله عز وجل إذا عُصي في الأرض، ولا ترضوا أئمتكم بسخط الله. وإن أحدثوا ما لا تعرفون، فجانبوهم، وآزروا عليهم وإن عُذِّبتم وحرمتم وسُيِّرتم حتى يرضى الله عز وجل، فإن الله أعلى وأجل، لا ينبغي أن يُسخط برضا المخلوقين. غفر الله لي ولكم، أستودعكم الله وأقرأ عليكم السلام ورحمة الله. فناداه الناس: أن سلَّم

الله عليك ورحمك، يا أبا ذر، يا صاحب رسول الله! ألا نردّك إن كان هؤلاء القوم أخرجوك؟ ألا نمنعك؟

فقال لهم: ارجعوا، رحمكم الله، فإني أصبر منكم على البلوى، وإياكم والفرقة والاختلاف.

هكذا كان حال أبي ذر طوال إقامته في الشام يحرض ويهاجم ويتهجم على معاوية حتى ضاق به خوفاً من أن يفتن الناس. وإذا كان ابن سبأ أدخل إلى أبي ذر فكرة أن المال للمسلمين وليس لله، فقد أسمع أبو ذر رفيق رحلته أحاديث نبوية أكد أنه سمعها من الرسول (ص) وكلها حول علي بن أبي طالب، ومن تلك الأحاديث والقصص ما يضع علياً في منزلة الرسول(ص)، وكلها من النوع الذي يسيله لعاب ابن سبأ، إذ لن يكون عليه سوى نسبها إلى هذا الصحابي. «سمعت رسول الله (ص) يقول لعلي (عليهِ السَّلام) كلمات ثلاث، لأن تكون لي واحدة منهنَّ أحبُّ إليَّ من الدنيا وما فيها.» قال أبو ذر لابن سبأ ولجندب، وأكمل: «سمعته يقول: اللهم أعنه واستعن به، اللهم انصره وانتصر به، فإنه عبدك وأخو رسولك.» ثُمَّ قال أبو ذر «أشهد لعلي بالولاء والإخاء والوصية.» وكان ممن يشهدون بذلك أيضاً: سلمان الفارسي والمقداد وعمار وجابر بن عبد الله الأنصاري وأبو الهيثم بن التيهان وخزيمة بن ثابت ذو الشهادتين وأبو أيوب صاحب منزل رسول الله (ص) وهاشم بن عتبة المرقال، وكلهم من أفاضل أصحاب الصحابة، وهذا ما شجع ابن سبأ على تبني أفكاره تجاه علي بن أبي طالب من دون أن يتفق معه، لأنه كان يخطط لإحداث فتنة حول منصب الخلافة.

أزيحت غيمة فظهر القمر كاملاً إذ كان الوقت منتصف شعبان، وشاهد

حادي النوق ابتسامة عريضة على وجه جندب، فسأله بإشارة من يده عما يضحكه، ولكن جندب تجاهله وعاد إلى أفكاره وذكرياته عن تلك الرحلة التي جمعت بين نقيضين متفقين. تذكر الابتسامة اللئيمة على وجه ابن سبأ وهو يستمع لأبي ذر يؤكد أن الرسول (ص) قال له: «عليٌّ أوَّل من آمن بي، وأوَّل من صدَّقني، وأوَّل من يصافحني يوم القيامة، وهو الصِّدِّيق الأكبر، وهو فاروق هذه الأمة، يفرِّق بين الحق والباطل، وهو يعسوب المؤمنين، والمال يعسوب المنافقين.» ثم أضاف حديثاً آخر لرفيق الرحلة: «نظر النبيُّ (ص) إلى علي بن أبي طالب (عليهِ السَّلام) فقال: هذا خير الأولين والآخرين من أهل السماوات والأرضين، هذا سيد الوصيين وإمام المتقين وقائد الغر المحجلين. إذا كان يوم القيامة جاء على ناقة من نوق الجنة قد أضاءت القيامة من ضوئها وعلى رأسه تاج مرصع بالزبرجد والياقوت، فتقول الملائكة: هذا ملك مقرب، ويقول النبيُّون: هذا نبي مرسل! فينادي منادٍ في بطنان العرش: هذا الصدِّيق الأكبر، هذا وصيُّ حبيب الله، هذا عليُّ بن أبي طالب، فيقف على متن جهنم فيُخرج منها من يحب ويُدخل فيها من يبغض، ويأتي أبواب الجنة فيُدخل أولياءه الجنة بغير حساب.»

لم يكن أبو ذر يحادث بمثل هذه الأحاديث ابن سبأ فقط، فقد كررها لغيره، وكان في مكة يتعلق بحلقة بيت الله الحرام ويقول: يا أيها الناس من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني أنبأته باسمي، أنا جندب الربذي الغفاري إني رأيت رسول الله (ص) وهو آخذ بهذه الحلقة وهو يقول: أيها الناس لو صمتم حتَّى تكونوا كالأوتار وصليتم حتَّى تكونوا كالحنايا ودعوتم حتَّى تقطَّعوا إرباً إرباً ثُمَّ بغضتم عليَّ بن أبي طالب أكبّكم الله في النار. ثم نسب للرسول قوله: قم

يا أبا الحسن فضع خمسك في خمسي (يعني: كفك في كفي) فإنَّ الله اختارني وإياك من شجرة أنا أصلها وأنت فرعها فمن قطع فرعها، أكبَّه الله على وجهه في النار. وادعى أن الرسول (ص) قال له: عليٌّ سيد المرسلين وإمام المتقين يقتل الناكثين والمارقين والجاحدين. ولذلك لم يرتح أي من أبي بكر أو عمر مما كان أبو ذر ينسبه للرسول، وكان عمر أشد كرهاً بكل الذين يحدثون عن النبي، ولذلك منع الصحابة من مغادرة مكة والمدينة، ولكنه استثنى أبا ذر فنفاه إلى الشام حتى عاد إلى مكة بعد مقتل عمر وأعلن عصيانه على عثمان ورفضه لاختيار مجلس الشورى، فأعيد إلى الشام في الرحلة التي صاحبه فيها جندب وابن سبأ الذي كان في بداية عهده بالتآمر على عثمان مستفيداً من وجود شيعة يؤيدون علياً.

من أغرب الأحاديث التي رواها أبو ذر لابن سبأ قوله: دخلت على رسول الله (ص) في مرضه الذي توفي فيه فقال: يا أبا ذر إئتني بابنتي فاطمة. فقمت ودخلت عليها وقلت: يا سيدة النسوان أجيبي أباك. فلبست جلبابها وخرجت حتَّى دخلت على رسول الله (ص)، فلما رأته انكبَّت عليه وبكت وبكى لبكائها، وضمَّها إليه. ثُمَّ قال والدها: يا فاطمة لا تبكي فداك أبوك، فأنت أول من تلحقين بي مظلومة مغصوبة، وسوف تظهر بعدي حسيكة النفاق ويسمل جلباب الدين وأنت أول من يردُ عليَّ الحوض.

قالت: يا أبت أين ألقاك؟

قال: تلقينني عند الحوض وأنا أسقي شيعتك ومحبيك، وأطرد أعداءك ومبغضيك.

قالت: يا رسول الله فإن لم ألقك عند الحوض؟

قال: تلقينني عند الميزان.

قالت: يا أبت وإن لم ألقك عند الميزان؟

قال: تلقينني عند الصراط وأنا أقول: يا رب سلِّمْ سلِّم شيعة عليّ.

فسكن قلبها، حسب رواية أبي ذر الذي أكمل: ثُمَّ التفت إليَّ رسول الله (ص) فقال: يا أبا ذر إنها بضعة مني فمن آذاها فقد آذاني، ألا إنها سيدة نساء العالمين، وبعلها سيد الوصيين وابنيها الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة، وإنهما إمامان إن قاما أو قعدا، وأبوهما خير منهما، وسوف يخرج من صلب الحسين تسعة من الأئمة معصومون قوامون بالقسط، ومنا مهديُّ هذه الأمة.

فقلت: يا رسول الله فكم الأئمة بعدك؟

قال: عدد نقباء بني إسرائيل.

أطول الأحاديث التي سردها أبو ذر وأصر ابن سبأ على أن يخطها يبدأ كالتالي: كنت جالساً عند النبيِّ (ص) ذات يوم في منزل أم سلمة ورسول الله (ص) يحدِّثني وأنا أسمع، إذ دخل عليُّ بن أبي طالب، فأشرق وجهه نوراً وفرحاً بأخيه وابن عمه، ثُمَّ ضمه إليه وقبَّل بين عينيه، ثُمَّ التفت إليَّ فقال: يا أبا ذر، أتعرف هذا الداخل علينا حقَّ معرفته؟ فقلت: يا رسول الله هذا أخوك وابن عمك وزوج فاطمة البتول وأبو الحسن والحسين سيدي شباب أهل الجنة، فقال رسول الله (ص): يا أبا ذر هذا الإمام الأزهر، ورمح الله الأطول، وباب الله الأكبر، فمن أراد الله فليدخل الباب، يا أبا ذر هذا القائم بقسط الله، والذاب عن حريم الله، والناصر لدين الله، وحجة الله على خلقه، إنَّ الله تعالى لم يزل يحتج به على خلقه في الأمم كل أمة يبعث فيها نبياً؛ يا أبا ذر إنَّ الله

تعالى جعل على كل ركن من أركان عرشه سبعين ألف ملك ليس لهم تسبيح ولا عبادة إلا الدعاء لعلي وشيعته والدعاء على أعدائه، يا أبا ذر لولا علي ما بان الحق من الباطل ولا مؤمن من كافر، ولا عُبِد الله، لأنه ضرب رؤوس المشركين حتَّى أسلموا وعبدوا الله، ولولا ذلك لم يكن ثواب ولا عقاب، ولا يستره من الله ستر، ولا يحجبه من الله حجاب، وهو الحجاب والستر، ثُمَّ قرأ رسول الله (ص): ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾، يا أبا ذر إنَّ الله تبارك وتعالى تفرَّد بملكه ووحدانيته، فعرَّف عباده المخلصين لنفسه، وأباح لهم الجنَّة، فمن أراد أن يهديه عرَّفه ولايته، ومن أراد أنَّ يطمس على قلبه أمسك عنه معرفته، يا أبا ذر هذا راية الهدى، وكلمة التقوى، والعروة الوثقى، وإمام أوليائي، ونور من أطاعني، وهو الكلمة التي ألزمها الله المتقين فمن أحبه كان مؤمناً، ومن أبغضه كان كافراً، ومن ترك ولايته كان ضالاً مضلاً، ومن جحد ولايته كان مشركاً، يا أبا ذر يؤتى بجاحد ولاية عليٍّ يوم القيامة أصم وأعمى وأبكم فيكبكب في ظلمات القيامة ينادي ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ وفي عنقه طوق من النار، لذلك الطوق ثلاثمئة شعبة، على كل شعبة منها شيطان يتفل في وجهه ويكلح من جوف قبره إلى النار. قال أبو ذر: فقلت: فداك أبي وأمي يا رسول الله ملأت قلبي فرحاً وسروراً فزدني، فقال (ص): نعم إنَّه لما عُرِج بي إلى السماء الدنيا أذن ملك من الملائكة وأقام الصلاة، فأخذ بيدي جبريل (عليهِ السَّلام) فقدَّمني، فقال لي: يا مُحَمَّد صلِّ بالملائكة فقد طال شوقهم إليك، فصليت بسبعين صفاً من الملائكة الصف ما

بين المشرق والمغرب لا يعلم عددهم إلا الذي خلقهم، فلما قضيت الصلاة أقبل إليَّ شرذمة من الملائكة يسلمون عليَّ ويقولون: لنا إليك حاجة، فظننت أنهم يسألونني الشفاعة لأن الله عزَّ وجلَّ فضلني بالحوض والشفاعة على جميع الأنبياء، فقلت: ما حاجتكم ملائكة ربي؟ قالوا: إذا رجعتَ إلى الأرض فأقرئ علياً منا السلام وأعلمه بأنا قد طال شوقنا إليه، فقلت: ملائكة ربي! تعرفوننا حق معرفتنا؟ فقالوا: يا رسول الله لِمَ لا نعرفكم وأنتم أول خلق خلقه الله؟ خلقكم الله أشباح نور في نور من نور الله وجعل لكم مقاعد في ملكوته بتسبيح وتقديس وتكبير له، ثُمَّ خلق الملائكة مما أراد من أنوار شتى، وكنا نمرُّ بكم وأنتم تسبحون الله وتقدسون وتكبرون وتحمدون وتهللون، فنسبح ونقدس ونحمد ونهلل ونكبر بتسبيحكم وتقديسكم وتحميدكم وتهليلكم وتكبيركم، فما نزل من الله تعالى فإليكم، وما صعد إلى الله تعالى فمن عندكم، فلِمَ لا نعرفكم؟

واسترسل أبو ذر في روايته فكرر أحاديث مشابهة وقعت للرسول في السماء الثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة، في كل منها إعجاب بعلي وتحميلهم السلام إليه. في الخامسة قال الملائكة إن على العرش شعاراً كتب فيه (لا إله إلا الله، مُحَمَّد رسول الله، وأيده بعليٍّ بن أبي طالب)، أما في السادسة فقال الملائكة إن الله خلق على باب الفردوس شجرة كتب على كل ورقة منها بالنور: (لا إله إلا الله، ومحمد رسول الله، وعلي بن أبي طالب عروة الله الوثقى وحبل الله المتين وعينه على الخلائق أجمعين)، فأقرئ علياً منا السلام. وفي السماء السابعة نسب أبو ذر للرسول قوله: سمعت الملائكة يقولون: الحمد لله الذي صدقنا وعده، فقلت: بماذا وعدكم؟ قالوا:

يا رسول الله لما خلقكم أشباح نور في نور من نور الله تعالى عرضت علينا ولايتكم فقبلناها، وشكونا محبتكم إلى الله تعالى، فأما أنت فوعدنا بأن يريناك معنا في السماء وقد فعل، وأما عليٌّ فشكونا محبته إلى الله تعالى، فخلق لنا في صورته ملكاً وأقعده عن يمين عرشه على سرير من ذهب مرصَّع بالدر والجوهر، عليه قبة من لؤلؤة بيضاء، يرى باطنها من ظاهرها وظاهرها من باطنها، بلا دعامة من تحتها ولا علاقة من فوقها، قال لها صاحب العرش: قومي بقدرتي فقامت، فكلما اشتقنا إلى رؤية عليّ نظرنا إلى ذلك الملك في السماء، فأقرئ علياً منا السلام.

تذكر جندب أنه طلب من أبي ذر أن يتقي الله عندما سمعه يتقول بهذا الكلام لابن سبأ، إذ قال له: إن الرسول (ص) أسري به مرة، وأنت تضع علياً في السماء إلى جانب الله طوال الوقت! فتجاهله أبو ذر ولم يعد يُسمعه معظم ما يقوله من أحاديث لابن سبأ، حتى سمعه في الليلة الأخيرة على رحلتهم تلك يدعي أن علياً خاطب الشمس، وأشهد أبا بكر وعمر على ذلك الهراء. قال إنه رأى النبي (ص) يقول لعلي ذات ليلة: إذا كان غداً اقصُد إلى جبال البقيع وقِف على نشز من الأرض، فإذا بزغت الشمس فسلِّمْ عليها، فإن الله تعالى قد أمرها أنَّ تجيبك بما فيك، فلما كان من الغد خرج علي (عليهِ السَّلام) ومعه أبو بكر وعمر وجماعة من المهاجرين والأنصار حتَّى وافى البقيع، ووقف على نشز من الأرض، فلما طلعت الشمس قال: السلام عليك يا خلق الله الجديد المطيع له، فسمعوا دوياً من السماء وجواب قائل يقول: وعليك السلام يا أول يا آخر، يا ظاهر يا باطن، يا من هو بكل شيء عليم، فلما سمع أبو بكر وعمر والمهاجرون والأنصار كلام الشمس صعقوا، ثُمَّ أفاقوا بعد

ساعاتهم وقد انصرف علي عن المكان، فوافوا رسول الله (ص) مع الجماعة وقالوا: أنت تقول: إنَّ علياً بشر مثلنا وقد خاطبته الشمس بما خاطب به البارئ نفسه، فقال النبيُّ (ص): وما سمعتموه منها؟ فقالوا: سمعناها تقول: (السلام عليك يا أول) قال: صدقت هو أول من آمن بي، فقالوا: سمعناها تقول: (يا آخر) قال: صدقت هو آخر الناس عهداً بي يغسلني ويكفنني ويدخلني قبري، فقالوا: سمعناها تقول: (يا ظاهر) قال: صدقت بطن سري كله له، فقالوا: سمعناها تقول: (يا من هو بكل شيء عليم) قال: صدقت هو العالم بالحلال والحرام والفرائض والسنن وما شاكل ذلك، فقاموا كلهم وقالوا: لقد أوقعنا مُحَمَّد (ص) في طخياء! وخرجوا من باب المسجد.

كانت الغيوم تطفئ القمر حيناً وتنيره حيناً آخر، فيعم النور بعد الظلام، وينشرح بال جندب أو يتنكد ضمن هذه المتبدلات التي رافقت أفكاره أحياناً، أو أنها كانت تؤثر فيما يدور داخل رأسه سلباً وإيجاباً. عرج في المرحلة الأخيرة من الرحلة غرباً حتى يلتقي مع شاطئ البحر ويدخل منطقة الميناء حيث يقطن أبناء أخواله. تمتم: إن مصيبة الإمام علي هي من يدعون صداقته، ويتآمرون باسمه، ويكذبون على الله والملائكة والرسول (ص). ورغم قوته فهو لا يردعهم، ورغم حلمه فهو لا يبصر إلى أين يسيرون به.

«لماذا انحرفنا عن الطريق؟» سأل صاحب النوق.

«سندخل غزة من الغرب.» قال جندب ثم أضاف ليهون عن الحادي: «أريد أن أريك جمال ضوء القمر على سطح البحر. سأنزل عند الميناء وسيكون بوسعك العودة إلى باب المدينة حيث الخان، وسأعودك في الصباح.» أكثر ما كان يسعد جندب ويشرح قلبه منذ الصغر، هو وجوده على شاطئ بحر في

منتصف الشهر القمري، مثل هذا اليوم من شعبان، يسهر طوال فترة ظهور القمر فيرى أن اليابسة مضيئة وكأن الشمس في فجرها، ففي هذا الوقت من كل شهر يظهر القمر بعد العشاء من الشرق فيضيء الأرض وينعكس، في حالة غزة، عبر اليابسة على سطح الماء. ثم يصعد بسرعة حتى يتوسط السماء، وقبيل أن يغرق غرباً في البحر، يشع النور من سطح الماء. هذه الدورة تتم بضعفي سرعة دورة الشمس في النهار، وهذا أحد أسباب المتعة في مراقبتها. أبصر جندب الشاطئ من علوه على سنام الناقة، كان القمر يتوسط السماء التي صفت لوهلة، ولكن الأمواج كانت عاتية تتخابط بدون انتظام، فحُرم من رؤية ما تمناه.

غزة مرآة العالم. تبنى جندب هذا المبدأ أثناء سنوات دراسته في الإسكندرية. ليس فقط كون والدته غزاوية، وكذلك ميجستريا، حبه الأول. فالأم قد توفيت بُعيد زيارته السابقة للمدينة، وميجستريا زوجها والدها أحد تجار المدينة، قبل عودة جندب من الإسكندرية، لكنه تابع أخبارها وشاهدها في زياراته السابقة وتعرف إلى أكبر أبنائها. رؤيته لغزة مرتبطة بموقع المدينة التجاري والحربي. فهي نهاية الصحراء المصرية للبعض، وبدايتها للبعض الآخر. حين تنتعش غزة فهذا يعني ازدهار اقتصاديات دول ما بين الصين شرقاً والأندلس والفرنجة غرباً، وبيزنطيا شمالاً وأفريقيا السوداء جنوباً. من البضائع المتداولة في غزة يمكنك التعرف إلى نشاط دول العالم، ومع البضائع تأتي الأخبار، وهذا الموقع لم يخف عن قادة الحروب منذ ما قبل الفراعنة، ومن يسيطر على غزة إنما يتحكم في مصر والشام مباشرة. هذا ما عرفه صديقه عمرو بن العاص، فبعد فتح الشام والقدس ومعركة أجنادين، عمل عمرو

المستحيل لإقناع الخليفة عمر بالسماح له بفتح مصر، فأمره على أربعة آلاف من الجند، معظمهم من أهل اليمن، وبعضهم من الرومان وأهل غزة الذين أسلموا وانضموا إلى عمرو.

تبسم جندب قبل أن يطرق باب أخواله، فقد تذكر وصول رسالة الخليفة عمر إلى عمرو وهو في رفح، فأمر بالمسير وطلب من جندب إشغال الرسول عنه لليوم التالي حتى لا يسلمه كتاب الخليفة إلا بعد حين، إذ عرف محتواه قبل أن يطالعه. عندما وصلوا العريش أمر بالرسالة فطالعها ثم سأل من معه: أنحن في الشام أم في مصر؟ فقالوا بل في مصر، فقال فلنسر على بركة الله، وقرأ رسالة الخليفة وبها يأمره بالعودة إذا كان في الشام، وبمواصلة المسير والتوكل على الله إذا كان قد دخل أرض مصر. كان عمر يتخوف على المسلمين من البحر ومن دخول أفريقيا، وعندما استشار الصحابة مجدداً في الإذن لعمرو بفتح مصر، نصحه عثمان بن عفان باستعادة الجيش، لأن عمرو مخاطر ومغامر، كما قال عثمان لعمر حسب الرسول الذي أوصل الكتاب. كان ذلك قبل ستة عشر عاماً فقط، وهاهو عمرو في غزة مجدداً منذ نصف عام، ولكنه في هذا الموقع معتزلاً للفتنة بين ما فتح من بلاد الشام ومصر، وفي زمن ما بعد قتل عمر وعثمان، ويقتتل فيه المسلمون الآن في فتنة يعلم الله وحده متى وكيف تنتهي. ما أبعد اليوم عن الأمس.

لم يكن عمرو بحاجة إلى الكثير من الإقناع لمرافقة جندب إلى الشام، والانضمام إلى معاوية بن أبي سفيان. في صباح اليوم التالي على وصول جندب غزة اتفق الاثنان على الرحيل، وما بين المغرب والعشاء زارا قبر هاشم بن عبد مناف، جد الرسول عليه الصلاة والسلام، وذهب معهما ابنا عمرو،

واثنان من أبناء أخوال جندب اعتنقا الإسلام. كان القبر معتنى به من قبل قبيلة بني عمرو بن كنانة الذين يقطنون غزة، وهم أبناء عم لقريش، وعندهم توفي هاشم أثناء رحلة تجارية، فهو الذي شرع لرحلة الشتاء من مكة لليمن، والصيف من مكة للشام. وقال عمرو بن العاص لمرافقيه في الزيارة: إن هاشماً هو لقب وليس اسم جد النبي، ولقب بذلك لأنه كان يهشم الثريد بيديه لقومه في مكة كلما أصابتهم مجاعة، واسمه عمرو.

عمرو الذي هشم الثريد لقومه قـوم بمكـة مسنتين عجاف

سنت إليه الرحلتان كـــلاهما سفر الشتاء ورحلة الأصيافِ

أبحروا فجراً في مياه عاد إليها الهدوء. «أتذكر رحلتنا سوياً مع بطرس قبل نصف قرن؟» سأل عمرو وهو يضحك، وأكمل: «اتجهنا حينها جنوباً، إلى الإسكندرية، أما الآن فنبحر من نفس الميناء شمالاً»

«آنذاك لم تكن مفاصلي تؤلمني لا في شتاء أو صيف، شمس أو ثلوج. لكنها الآن تستشعر الرطوبة قبل أن أراها.» أجاب جندب الذي يصغر عمراًبعشر سنوات وأضاف ضاحكاً: «أنت صحراوي لا تشعر بهذه الأشياء.» ضحك الجميع فأكمل: «لقد وعدتني وبطرس بمناصب حين تحكم مصر.»

«لقد بحثت عن بطرس بالفعل ولم أجد له أثراً أو خبراً، على الأرجح أنه ليس معنا على وجه الأرض. والراهب الذي جلس على الخازوق لم يكن له وجود عندما دخلنا الإسكندرية.» تبسم جندب لحديث عمرو وذكريات رحلتهم إلى مصر قبل فتحها، وفجأة تراءت له فتاة أحلامه، ميجستريا، تقف على الشاطئ بثوبها الأبيض الموشح بمستطيلات ذهبية وتلوح له مودعة. تمنى لو كان بوسعها إبلاغه بشكل ما أن والدها أراد تزويجها. كان يتذكرها

كثيراً أثناء إقامته الدراسية في الإسكندرية، بل ظن أنه على تواصل روحي معها، ولكن عندما عاد إلى غزة وجدها متزوجة فتحطمت أحلامه. وبعد أن أصبح رجلاً يعاشر النساء، صار يتذكرها كلما ضاجع أنثى وتعود إليه نشوة الكهف في بيت جبرين. «يا رجل سألتك ثلاث مرات ولم تجبني.» قال عمرو وهو يهز كتف جندب، ثم نظر في وجهه وصمت.

ما لم يسمعه جندب من حديث عمرو كان عن اشتراك الزبير وولديه في فتح مصر، عندما واجهوا مقاومة في عين شمس، فتسلق الزبير على السور، وشعر المصريون أنهم على وشك الهزيمة فقبلوا بالجزية وعقد الصلح وأعطى عمرو أهل مصر الأمان، وحررت سبايا من لم يقاتلوا المسلمين، ولم تعد السبايا التي كانت قد وصلت إلى الخليفة في المدينة. أما الجزية التي فرضت على من لم يسلم فهي تعادل عشر ما كانوا يدفعونه من أنواع الضرائب للرومان، وكان في ذلك فائدة للمسلمين والأقباط الذين تحرروا أيضاً من الاضطهاد الديني الذي عانوا منه طويلاً.

20

«لا تغرنك الشعارات يا صديقي، لقد بدأت حروب المصالح، ولا علاقة للأمر بدم عثمان وثأره، أو تطبيق القصاص.» قال عمرو، بوجه حيادي، لجندب. وهذا ما كان قد أخبره به أيضاً قبل أن يغادروا غزة على متن قارب الصيد الذي يعود لأخوال جندب. «أم المؤمنين مثلاً، ما لها والخروج على رأس هذا الجيش؟ أنت تعرف أنها تركت المدينة، مثلي وولدي، أثناء الحصار واتجهت إلى مكة بحجة العمرة. هذا حقها لو اكتفت بالابتعاد عن الفتنة، ولكنها لم تذكر كلمة خير في عثمان إلا بعد اغتياله، إذ وقعت في فخ طلحة والزبير لترأس القوم في المطالبة بدم عثمان. لا أدري يا جندب لماذا لم يتحرك القوم في البداية إلى معاوية فيتحدون مع جيشه ويتجهون لمحاربة علي.» لم يتبرع جندب بجواب وكان يعرف أن صديقه قد فكر وتوصل إلى نتائج سوف يسمعها وغيرها قبل بلوغ المركب سواحل الشام. «الذي يملك سلطاناً بالمطالبة بدم عثمان هو ابن عمه معاوية، وهو قادر ولديه القوات، ولم يكن لعائشة أي سلطان رباني في الأمر، ولو رفضت الخروج مع الزبير وطلحة لما خرج كل هؤلاء إلى موقعة الجمل. تعرف أنت أيضاً أن طلحة والزبير ليسا من ولاية عثمان، بل كانا يحرضان على عثمان أثناء الحصار، وكل منهما يطمع في الخلافة، فلما استقرت على علي ورفض أن يوليهما على الكوفة والبصرة

أو اليمن تذكرا دم عثمان، ولم يتجها إلى معاوية لأن كلّاً منهما كان يطمع في أخذ الخلافة من علي ويستغل أم المؤمنين.» تنفس عمرو بعمق فظهر عرض صدره، ونظر بعينيه الثاقبتين إلى جندب من دون أن يظهر فيهما الغضب، وأكمل: «تريد أن تعرف ما أفكر فيه تجاه صديقك معاوية؟» أعطى جندب إشارة موافقة صغيرة برمش عينيه. «لقد فاز علي بالخلافة، ولا يهم الآن كيف، ولكن الأهم أنه لم يحسن الصنع ولم يستمع إلى نصائح ابن عباس. كان عليه أن يسترضي طلحة والزبير بولايات لبعض الحين، فهما شيخان لو لم يموتا بالسيف لماتا بعد أشهر من عناء المنصب. وكان عليه أن يبقي معاوية في منصبه ولو بحجة أنه يحسن حماية الثغور من الروم، ثم بعد أن يتمكن ويفوز بالبيعة وتستقر الأمور يعزل من يريد ويعين من يريد. لكن علياً رفض أن يبقى معاوية يوماً واحداً في الشام، فتذكر هذا دم ابن عمه طبعاً.» تنهد عمرو وخفض منكبيه فظهر أقصر مما هو إلى جانب جندب الذي واصل انتظار بقية الحديث. «الجرم الذي ارتكبه علي أنه لم يتحرك بشأن القتلة الذين صاروا من قادة جنده. كان بوسعه الاتفاق معهم على محاكمة طويلة لبعض الذين اقتحموا الدار على عثمان. لو قام بأي شيء من هذا القبيل لعزل كل المنافقين وفاز بدعم كل المسلمين. لكن حسه السياسي ضعيف، وهو متزمت، ولهذا لم ينل الخلافة من قبل. هو فارس ولكنه غير قوي على جنده وغير حذر ولا يدري ماذا يُدبّر له من هم حوله.»

«أتذكر كيف كان صاحبنا عمر بن الخطاب واقفاً، وهو بالمدينة، على تفاصيل ما يدور بين الجند في كل مصر. كان يعرف كل صغيرة وكبيرة مما يدور في العراق وفارس وأرمينيا والشام ومصر وتخوم الروم في الشمال وفي

أفريقيا.» توقف جندب عن الحديث وتذكر مئات الجواسيس الذين كان عمر يرسلهم ويستقبلهم ليحملوا له الأخبار، فيكتب إلى الولاة يؤيدهم أو يؤنبهم أو يطالبهم بالحضور إلى المدينة ليحاسبهم، فكانوا يتصرفون وكأن عمر بين ظهرانيهم.

«نعم نعم. لا وجه للمقارنة هنا لأن سنوات عثمان الطويلة، بعد عمر، فعلت فعلها في تغيير طبيعة الناس ونفسياتهم. إن ما يحيرني بشأن طلحة والزبير وعائشة هو خروجهم للمطالبة بدم عثمان من خليفة بايعوه، حتى ولو بايعوه مكرهين. لا يمكن لأفراد أن يتجمعوا لإقامة حد يعتبرون أن الخليفة قد قصر في إقامته أو تهاون فيه. الخليفة هو المسؤول، وإذا رأوا أنه مقصر فتجب دعوة أهل الحل والعقد من كبار المسلمين للنظر في أمر الخليفة والخلافة وإعطائها لمن يستحقها ويتفقون عليه ثم ينظر هذا الخليفة في شأن القضية مثار الخلاف. أما أن يقوم أفراد من كبار الأمة ليحاربوا أمثالهم، ويقتل بين هذا وذاك آلاف المسلمين ويتهدد ما تم إنجازه من فتوحات، فهذا ما لا يقبله عاقل ولا أدري كيف غفل كل أولئك عنه.»

«صدقت.» قال جندب مؤيداً لصديقه، وأضاف: «إن ما ينطبق على طلحة والزبير ينطبق على علي أيضاً، وقد نصحه ابنه الحسن أن لا يخرج للقتال وأن يعتزل حتى يتفق المسلمون على خليفة، ولكنه رفض. إن براءة الإنسان من فعل ما، لا تكمن في أنه لم يقم بذلك الفعل، بل عليه دفعه قبل وقوعه إن استطاع، وأن يبتعد عما يوحي بالريبة في براءته. كما أنه ليس من شكيمة القائد أن يعد ويحشد قوات تكفي لإنزال هزيمة بالخارجين عنه، ولكن أن يكون عنده من الحيلة وحسن التدبير ما يعيد به الخارجين عن الجماعة بدون قتال.»

«أتعرف لماذا لحق عبيد الله بن عمر بمعاوية؟» كان جندب يعرف السبب إذ التقى عبيد الله في الشام قبل سفره إلى القسطنطينية للتفاهم مع الروم على عقد الهدنة، ولكن سؤال عمرو لم يكن من نوع الاستفسار وإنما الاستشهاد. نظر عمرو إلى ولديه عبد الله ومحمد اللذين خرجا معه من المدينة إلى مكة فغزة بين الشام ومصر: «لقد أراد علي محاكمة عبيد الله في قتله الهرمزان بعد اغتيال والده الخليفة عمر على يد أبي لؤلؤة. تعرفون أن عثمان بن عفان قضى بخلاف رأي علي آنذاك وهو خليفة وحكمه بالتالي صواب، ولكن علي حين أصبح خليفة أراد قتل عبيد الله بدم الهرمزان، وهذا من غرائب ابن أبي طالب الذي يرفض القصاص للخليفة عثمان الذي قتل مظلوماً، ويطالب بالقصاص لمقتل متآمر على قتل الخليفة عمر.»

«ماذا يعني هذا يا أبي؟» سأل عبد الله متصنعاً البراءة، فابتسم جندب وعبس محمد الذي كان يوافق والده على النشاط في هذه الفتنة الجارية بينما عبد الله ينصح والده بالمكوث في البيت ريثما تنجلي الغمة.

«يعني أن ابن أبي طالب مقتنع دوماً بصحة رأيه. هو لا يرى نفسه مشاركاً في قتل عثمان، ويعرف أن عبيد الله قتل الهرمزان ولم ينله القصاص الذي يظنه غير قابل للنقاش.» أراد جندب بهذه الإجابة إنهاء الأمر بهذا الشأن، فهو يعرف، مثل عبد الله، أن صديقه عمرو له آراء صارخة في مقتل الخليفة عمر، وأن الأمر لم يكن انتقاماً فردياً من أبي لؤلؤة لما فعل عمر في الفرس من قتل وإذلال.

«أينما يوجد اغتيال توجد مقولات متناقضة.» قال عبد الله وكأنه يوحي بعدم الاتفاق مع آراء والده حول اغتيال الخليفة عمر، ثم قال: «من يمكن أن

نتهم مثلاً في اغتيال الخليفة عثمان قبل شهور؟ الذين اقتحموا الدار وقتلوه فقط، أو الذين كانوا في الدار ولم يحموه، أو الذين كانوا في المدينة واختبأوا لأربعين يوماً من حصار وتجويع صهر الرسول (ص) والمبشر بالجنة، أو الذين حرضوا على القتل، أو الذين غادروا المدينة مثلنا أنا وأخي وأبي، أو معاوية الذي لم يسرع بالنجدات ثم أعادها من الطريق عندما وصل خبر مقتل عثمان، لماذا لم يواصلوا المسير للقضاء على القتلة وتحرير المدينة؟» كان عبد الله يجول بنظره أثناء إلقاء هذه التساؤلات، المحملة بالاتهامات، بين والده وأخيه وجندب الذي تأكد أنه لن ينجح في تغيير مسار هذا الحديث، وتأكد من شكوكه بوجود خلافات في بيت صديقه.

«نحن أكثر الناس براء من دم عثمان.» قال محمد يخاطب أخاه، ثم رفع يده ليسكت اعتراض عبد الله ريثما يكمل حديثه: «ألا تذكر ما قاله والدنا ونحن مغادرون: يا أهل المدينة لا يقيم أحد فيدركه قتل هذا الرجل إلا ضربه الله بذل، من لم يستطع نصره فليهرب، وهربنا إلى فلسطين، كما هرب بنو أمية إلى الشام ومكة.»

«وأنت، ألا تذكر أننا نكره ابن عفان منذ عزل والدنا عن مصر وولاها عبد الله بن سعد بن أبي السرح، وأن والدنا منذ ذلك الحين يُشهر الكراهية لعثمان، وهذا يعرفه القاصي والداني وبالطبع معاوية في الشام؟»

«إنها المصالح يا عبد الله، فلا تقلق من موقف معاوية، يمكننا أن نعيبه بالتقصير في نجدة ابن عمه أكثر مما يعيبنا في مغادرة المدينة وخذلان عثمان، وهو سيحتاج قريباً لمن يشير إليه ولمن يحرر مصر مرة أخرى من غلمان علي. لم أتمنّ لعثمان هذه الميتة، ولم يفرحني حال المسلمين في المدينة

أثناء الحصار، وتمنيت فيما بعد لو نال الخلافة طلحة، وكرهت أن نالها علي، وارتج عليّ الأمر حين وصلتني نتائج موقعة الجمل، وقد استشرتكما مرة أخرى، ماذا نفعل، عبد الله أراد لنا البقاء في البيت ومحمد قال لا ينبغي أن يجتمع الناس في هذا الأمر وليس لنا فيه صوت، ثم أثنى صديقي جندب على السفر إلى معاوية.»

«لا يمكن لعلي أن ينتصر على معاوية عسكرياً أو معنوياً.» قال جندب فشد انتباه الثلاثة: «أهل فارس غير أهل الشام. مقاتلة البصرة والكوفة والمدائن وغيرها من أقاليم الفرس المفتوحة، كثر عليهم الولاة وتبدلوا، وجلهم من أهل الردة الذين منعهم أبو بكر من نجدة الجيش ولكن عمر اضطر إلى الاعتماد عليهم وأرسلهم مع المثنى لأن جند المسلمين الذين كانوا قد غادروا مع خالد إلى أبي عبيدة في الشام لمواجهة الروم في اليرموك. لذلك فأهل العراق أهل نفاق وفراق وهم من الإسلام دون الآخرين السابقين، وجاوروا الفرس واختلطوا معهم ولم يكونوا حتى من أهل كتاب مثل الروم. اهتموا بالسبي والنهب والغزو في أطراف فارس، وتزوجوا من المسبيات وجل أولادهم الآن من فارسيات لا يحسنّ الدين وكنّ من عبدة النار، وهؤلاء الأولاد هم جند المسلمين الآن مع قلة متناقصة من شيوخ المسلمين وشيوخ الردة من قبائل الأعراب، الأشد كفراً ونفاقاً. لهذا كثرت مطالبهم، منذ أيام عمر، بتغيير الولاة، والتجني عليهم إلى درجة اتهام الصحابة بعدم إتقان الصلاة، واتهام غيرهم بالزنى، وبالسكر والعربدة. يتجنون على الرؤساء وواجهوا الولاة بالسوء وتمادوا في الفرقة والتخاذل وصاروا أهل جدال أجوف.» أنصت الثلاثة إلى كلام جندب وكأنه لم يخطر ببالهم مثله من قبل بالرغم من معرفتهم

للمصاعب التي واجهها الولاة في تلك النواحي. «هؤلاء هم رجال علي الآن وفي المستقبل، وهم إما مشاركوه في مقتل عثمان، فقد جاء جلهم من الكوفة والبصرة والعربان، أو هو من مؤامرة القتل براء ولكنهم سيوردونه المهالك لا محالة. أتعرفون أنهم أرادوا سبي أهل الجمل من المسلمين؟ واختلفوا مع علي في ذلك، ولم يثنهم علي عن عزمهم إلا بتوزيع محتويات بيت المال عليهم.»

«لكنهم انتصروا على أهل الجمل بسهولة!»

«نعم يا عبد الله انتصروا بسهولة لأن حملة الجمل كانت بدون قيادة حقيقية، فالشيخ الزبير ترك الجند وذهب إلى بيته، والشيخ طلحة، مشلول اليد، أصيب في بداية المعركة، فتجمع الناس لحماية عائشة في الهودج ولم يحاربوا أو يناوروا. وأعرف أيضاً أن نسبة كبيرة ممن التفوا في الطريق وقرب البصرة مع الهودج هم من عربان الردة والنوعية التي أخبرتكم عنها، فالمسلمون الذين تحركوا من مكة لم يتجاوز عددهم التسعمئة. وهؤلاء وأولئك مغايرون تماماً لأهل الشام، حيث معاوية اجتمعت له ولاية متصلة منذ أيام أبي بكر وعمر وعثمان، وتولى كل أمصار الشام ثم جمعت له كلها، وبالتالي يعرف الجند ويعرفونه، وناسبهم وأطعمهم وأغدق عليهم، وأقام جيشاً منظماً خاض حروباً بريةً وبحريةً ناجحةً ضد الروم. كل العرب هناك ممن حسن إسلامهم ولا يوجد بينهم مرتدون، والذين تزوجوا من الروميات كان أولادهم على خير تربية لأن الأمهات من أهل الكتاب، وكما تعرفون فلقد عقدت للتو معاهدة صلح مع الروم، أي سيكون بوسع جيوش الشام أن تتحرك إلى أي لقاء ضد جماعة علي بن أبي طالب.»

«والله ما ظننت أن فطنتك بلغت هذا المدى.» قال عمرو مخاطباً صديقه ثم استدرك: «كنت على الدوام لبيباً مصيباً، لكن ما قلته الآن يُسهل رؤية المستقبل القريب...»

«أود سؤالك من نابع معرفتك بمعاوية والقرب منه، إذا كان قد خطط للاستيلاء على الخلافة منذ حين، ولهذا لم ينجد عثمان بسرعة، ولم تواصل قواته طريقها إلى المدينة، وكما قلت إنه كسب الجيش وأغدق على الجند استعداداً ليوم كهذا؟»

«العلي القدير وحده يعرف ما في النفوس يا عبد الله. ما أعرفه هو صعوبة تحمل الفطام لأي إنسان عن منصبه.» قال جندب وهو يعلم أن أولاد عمرو لا يحتاجون لشرح إذ عانوا بعد خلع عثمان لوالدهم عن مصر: «ومعاوية يدير الشام بحكمة منذ أيام الخليفة عمر، ثم تأكد له البقاء فيها بعد تنصيب ابن عمه عثمان خليفة. صار سنداً لعثمان ونقمة عليه إذ اتهم الناس عثمان بالسكوت عن معاوية وعدم محاسبته، ولم تكن بهم جرأة لانتقاد ابن الخطاب على نفس الأعمال. بالطبع كل من يتقلد منصباً يريد الاحتفاظ به والتوصل إلى منصب أعلى، وذلك إما بالعمل الصالح والصحيح، أو بالغش والتدليس، أو بالإفساد والعنف. هذا ما عرفناه عن ممالك ودول سبقت، وما نراه الآن بين ظهرانينا. لم ألتمس إشارات تفيد برغبة معاوية أن يقتل ابن عمه ليطالب بثأره ويسعى للخلافة. لو أراد ذلك لانتظر موت الخليفة العجوز، ولاتفق معه قبل ذلك أن يرشحه للخلافة، أو لتسبب في اغتيال المرشحين للخلافة بعد عثمان لتؤول إليه. الحقيقة أن المؤامرة فاجأت الجميع، ولم يتوقع معاوية أن تصل الأمور إلى اغتيال الخليفة في المدينة. لكنه بالطبع يطمع في الاحتفاظ بولايته للشام

ويعرف أن علياً يطمع بالخلافة ولن يبقيه في الشام.» لم تُظهر ملامح عمرو تقبل كل ما قاله جندب مجيباً عن سؤال ولده عبد الله.

«يا صديقي، أنسيت كيف عرض معاوية على عثمان في موسم الحج الأخير أن يرسل له جنداً من الشام لحمايته في المدينة، وكيف عرض على الخليفة أن يغير مقره من المدينة إلى الشام؟ كان يعرف أن عثمان في خطر. وقد أوصى علي بالخليفة وهو يغادر المدينة، صحيح لم يعرف مثل غيره بوجود مؤامرة وأدوات قيد التنفيذ، ولكن شكوكه كانت جلية، وبالتالي لا أستبعد أنه كان يجهز نفسه إلى ساعة فوز علي بالخلافة ليتصدى له، وقد حالفه الحظ بموت عثمان كما مات، وتعليقه لقميص عثمان وأصابع نائلة حتى الآن على منبر الشام ليشحذ الناس إلى جانبه...» صمت عمرو هنيهة وكان المستمعون الثلاثة يعرفون أنه سيواصل بقول يؤكد رؤيته إذ كان في المدينة حتى قبيل الحصار فخرج عاجزاً مثل غيره ممن هربوا من المدينة والخليفة. «أسمعت يا جندب بمقولة الأحنف بن قيس قبل اغتيال عثمان؟» نفى جندب برأسه معرفة الأمر. «لقد أخذ موافقة طلحة والزبير على مبايعة علي قبل أن يغتال عثمان! سأنقل لكم روايته»

قال الأحنف: «قدمنا المدينة ونحن نريد الحج، فإنا لبمنازلنا نضع رحالنا إذا أتانا آت فقال: قد فزعوا وقد اجتمعوا في المسجد، فانطلقنا، فإذا الناس مجتمعون في نفر في وسط المسجد، وإذا علي والزبير وطلحة وسعد بن أبي وقاص، وإنَّا كذلك إذ جاء عثمان بن عفان فقيل: هذا عثمان قد جاء وعليه مليئة له صفراء قد قنّع بها رأسه، فقال: أههنا علي؟ قالوا: نعم، قال: أههنا الزبير؟ قالوا: نعم، قال: أههنا طلحة؟ قالوا: نعم، قال: أنشدكم بالله الذي

لا إله إلا هو أتعلمون أن رسول الله (ص) قال: من يبتع مربد بني فلان غفر الله له، فابتعته بعشرين أو بخمسة وعشرين ألفاً، فأتيت النبي (ص) فقلت: يا رسول الله قد ابتعته. قال: اجعله في مسجدنا، وأجره لك، قالوا: اللهم نعم. وذكر أشياء أخرى من هذا النوع.»

وأكمل الأحنف: «فلقيت طلحة والزبير، فقلت: من تأمرانني به وترضيانه لي؟ فإني لا أرى هذا الرجل إلا مقتولاً. قالا: علي، قلت: أتأمرانني به وترضيانه لي؟ قالا: نعم. فانطلقت حتى قدمت مكة، فبينما نحن بها إذ أتانا قتل عثمان، وبها عائشة أم المؤمنين فلقيتها، فقلت: من تأمرينني أن أتابع قالت: علي، قلت: تأمرينني به وترضينه لي؟ قالت: نعم، فمررت على علي بالمدينة فبايعته. ثم رجعت إلى البصرة، ولا أرى الأمر إلا قد استقام، فبينما أنا كذلك إذ أتاني آت فقال: هذه عائشة وطلحة والزبير، قد نزلوا جانب الخريبة فقلت: ما جاء بهم؟ قالوا: أرسلوا إليك يدعونك يستنصرون بك على دم عثمان، فأتاني أفظع أمر أتاني قط، فقلت: إن خذلاني هؤلاء، ومعهم أم المؤمنين وحواري رسول الله (ص) لشديد، وإن قتالي رجلاً ابن عم رسول الله (ص) قد أمروني ببيعته لشديد، فلما أتيتهم، قالوا: جئنا لنستنصر على دم عثمان رضي الله عنه قتل مظلوماً، فقلت: يا أم المؤمنين أنشدك بالله أقلت لك: من تأمرينني به، فقلت: علي، فقلتُ: أتأمرينني به وترضينه لي؟ قلت: نعم؟ قالت: نعم، ولكنه بدل، فقلت يا زبير يا حواري رسول الله (ص)، يا طلحة أنشدكما الله أقلت لكما ما تأمرانني؟ فقلتما: علي، فقلت: أتأمرانني به وترضيانه لي؟ فقلتما: نعم، قالا: نعم ولكنه بدل، فقلت: والله لا أقاتلكم ومعكم أم المؤمنين وحواري رسول الله (ص) ولا أقاتل رجلاً هو ابن عم

رسول الله (ص) أمرتموني ببيعته». وأكمل عمرو ما كان بشأن الأحنف إذ ذهب إلى علي وأخبره أن بوسعه تجنيد قلة من بني تميم ليقاتلوا معه، أو أن يعتزل القتال ويقنع بني تميم كلهم بالاعتزال عن الطرفين، فطلب منه علي أن يعتزل بالقوم حتى لا ينضم معظمهم إلى عائشة والزبير، ومنهم ابن جرموز الذي غدر بالزبير في طريقه إلى المدينة.

21

«لو لم يقتل الخليفة عثمان وكتب له العمر ليضع وصيته، فلمن كانت ستؤول الخلافة؟» خطر لمحمد أن يسأل أباه، عمرو، وهم يغالبون النعاس في مضافة بيت جندب بعد أن وصلوا دمشق متأخرين.

«لم يكن لعثمان أن يوصي، فكما نرى اختلفوا عليها قبل مقتله وبعده، ولم يكن أي منهم سيحترم الوصية إلا المنتفع منها. بعد وفاة الرسول (ص)، لم تكن هناك وصية، وأخذها أبو بكر لينتزعها من الأنصار الذين عقدوا أمرهم عليها، وهذا أوصى بالخلافة لعمر من دون استشارة أحد، وعمر شكل مجلس مرشحين بعد أن طعنه المجوسي، فاستقرت من بين المرشحين الستة على عثمان، ورفضوا علياً الذي كان يطالب بها كونه من قريش ولأنه ابن عم الرسول (ص). هذا يا ولدي معناه لو فاز بها علياً بعد الرسول (ص) لأصبحت ولبقيت في بيته، وإن شاء الله يكتب لك العمر لترى أنه سيورثها لأولاده، ومنهم لأولادهم، وهذا ما لم يفعله أي من الخلفاء السابقين، ولم يكن عثمان يفكر فيه ولكنه اتُهم أنه ينصب بني أمية من حوله كعمال على الأمصار. وإن فاز بها معاوية الآن وانتزعها من علي فلا ندري إذا كان سيورثها لأولاده، أو سيعيدها للمسلمين. ولكن الذي ينتزع الشيء بالقوة لا يعيده بسلام.» انتظر عمرو قليلاً ريثما خلع عمامته وسحب جلبابه من فوق رأسه،

وتمدد إلى جانب ولديه: «عندما نستمع في الصباح إلى الأخبار من البصرة والكوفة والمدينة سترى أن علياً قد ولّى أقاربه على الأمصار، وهذا بالطبع سيغضب قبائل قريش التي تطمع أن تبقى أبواب السلطة مفتوحة أمامها سواء باب الخلافة أو أبواب الولاية...»

«كم وددت لو مكثنا في بيوتنا فهذه الفتنة لانهاية لها إلا بقتل المسلمين لبعضهم، والأجدر بكل مسلم أن يمكث في بيته...»

«والله إنك لتنعى مثل الجواري يا عبد الله، وقد مللت عويلك هذا. نحن لم نخلق هذه الفتنة، ولقد اعتزلناها قبل قتل عثمان وغادرنا المدينة. إن مكثنا في البيوت بعد الآن فلن تذهب الفتنة مع الريح لوحدها، لابد من السعي لاجتثاثها، سلماً أو حرباً. ألم تسمعني للتو أقول إن علياً سيحولها إلى خلافة وراثية ولن يكون لنا خيار في اختيار الخليفة من بعده، فقد يأتي باراً أو يكون زنديقاً، فإذا تحولت لوراثة انتهى دور الأمة والعلماء.»

«سامحك الله يا أبتِ، ولكن لو لم تؤل لعلي أو لمعاوية، فإنها كانت ستعود إلى أحد شيوخ مجلس شورى عمر، وقد بلغ بهم العمر عتياً، ثم ماذا بعد أن يموت آخرهم، آخر أعضاء مجلس المرشحين الاستشاري، وآخر الصحابة وآخر العشرة المبشرين بالجنة؟ من سيكون الخليفة؟ كيف سنختار الخليفة؟ هذا ما لم يحسم ويؤسس له منذ أيام أبي بكر ثم عمر وعثمان، وقد فات الأوان للتراضي وتأسيس قواعد للحكم، وأقول فات الأوان لأن عثمان اغتيل على رؤوس الأشهاد وعبر أربعين يوماً، ولأن الفتنة شملت الصحابة، بل كبار الصحابة والمبشرين بالجنة تحديداً إذ كانوا على طرفي نقيض، ولأن الدماء سالت في المدينة، دماء عثمان، وفي موقعة الجمل دماء طلحة والزبير

وآلاف المسلمين، ويعلم الله أين ومتى وكيف سيتوقف هذا الاختلاف القابل للتحول إلى تقتيل بدون نهاية.» صمت عبد الله ليسمع رداً من أبيه، فأخبره محمد أن أباهم يغط في النوم وتمنى له صباح خير أفضل، ولكن بعد أن ذكره بأن أعضاء مجلس المرشحين لم يبق منهم أصلاً سوى علي وسعد، وذلك بعد قتل عثمان، وكان عبد الرحمن بن عوف قد مات قبل ثلاثة أعوام. حتى العشرة المبشرين بالجنة لم يبق منهم على قيد الحياة سوى اثنين. ترحم عبد الله على الصحابة وتمنى لو واصل والده اعتزال الفتنة، كما فعل سعيد بن زيد، وسعد بن أبي وقاص الذي طلب من ذويه أن لا يذكروا أخبار الفتنة أمامه.

«أتدري من ولى علي على الأمصار؟» سأل معاوية عمرو بعد أن تصافحا واحتل الأربعة أماكن بين حضور مجلس معاوية المزدحم منذ الصباح. تبسم عمرو وكأنه يعرف الجواب فأكمل معاوية: «أبناء عمه العباس، عبد الله على البصرة، وقثم على الحجاز، وتمام على المدينة وعبيد الله على اليمن، وعمارة بن شهاب بدلاً من أبي موسى الأشعري في الكوفة، وأرسل قيس بن سعد بن عبادة إلى مصر ليساند ربيبه محمد بن أبي بكر. والله إن عثمان، رحمه الله، ما غير من الولاة إلا قليلاً عمن كانوا في عهد عمر، ولم يتعجل في التغيير، وكان نصيب بني أمية أقل بكثير مما فعل علي الآن مع بني العباس، وقد ظلموا عثمان بتهمة تنصيب الأقارب، وهاهم يتمادون في التملك.»

«نرجو من العلي القدير أن يوفقنا إلى الصواب ونعيد جمع كلمة المسلمين ونوقف سفك دمائنا بأيدينا.» قال عمرو وهو يتفقد وجوه الحضور بحثاً عمن يعرفهم، وتفحصاً لردود فعلهم، فقد ترأس على جيوش الشام، وقاد حصار القدس، وفتح جنوب فلسطين ودخل من غزة ورفح إلى مصر، أيام الخليفة عمر

وتولاها. ولكن ذلك قبل عقدين من الزمن، شب فيها الطفل وشاب الشباب. كانت نوافذ المجلس مشرعة ونسمات برد الصباح عاجزة عن تطهير الأجواء، فالكثير من القوم لم يكونوا قد اغتسلوا أو حلقوا شعورهم منذ وصلهم قميص عثمان فعلقوه مع أصابع نائلة وأقسموا على الثأر قبل أن يغتسلوا أو يجتمعوا مع نسائهم. «لقد قتل من المسلمين في موقعة الجمل سبعة عشر ألفاً، وإن شاء الله نحقن دم المسلمين ونصل إلى بقية من قتلوا الخليفة.» استجاب معظم الحضور بقولهم آمين. هكذا وضع عمرو نفسه في أعلى مرتبة، ولم يخالف طلبات القوم، فحتى الآن لا يطالب معاوية جهاراً بالخلافة، وإنما حرض الناس وجمعهم على مطلب القصاص من قتلة الخليفة عثمان. سأل عمرو عن جديد الأخبار من الأمصار فقيل له إن علياً يحشد قواته وفيهم الأشتر وبقية قتلة عثمان، الذين يحرضون على السرعة في القتال، وأخبره معاوية أنه كاتب قيس بن سعد، عامل علي في مصر، ولم يفصح أكثر من ذلك أمام الآخرين تخوفاً من عيون علي المنتشرين في الشام. سأل عمرو عن عبيد الله بن عمر وأبا الأعور السلمي وحبيب بن سلمة وذو الكلاع الحميري والضحاك بن قيس، فقيل له إنهم يبيتون بين ربعهم وجندهم ويحضرون بعد الظهر إلى مجلس معاوية. وكان عمرو قد سأل الناس في الطريق من الساحل إلى دمشق وعرف أسماء الشخصيات التي التفت حول معاوية.

«وكيف هو شرحبيل بن السمط؟» سأل عمرو معاوية بعد أن انسلا من المجلس إلى غرفة مجاورة. أخبره معاوية إن الرجل محبوب مرغوب بين الناس منذ أن أرسله عمر بن الخطاب إلى الشام، ولكنه يكره أهل العراق الذين وشوا عليه لعمر وأبعدوه عن سعد.

«لقد أخبرني أن أعلن نفسي خليفة، وإلا أنه سوف يقاتلني. فسايرته وطلبت منه الصبر حتى يحين الوقت المناسب، وإني أتمنى عليك أن تنشده الصبر وعدم الترويج لهذه المقولة الآن حتى لا أبدو كالمطالب بالخلافة فينفك الناس من حولي.» ظن عمرو وهو يستمع إلى معاوية أنه يريد جس نبضه بطرح موضوع الخلافة ثم تأكد له تخوف معاوية من تهور شرحبيل، فإن أهل الشام اجتمعوا حول معاوية للقصاص فقط.

«أترك شرحبيل لي حتى ألتقيه، وماذا عن قيس بن سعد؟»

«هذا اللعين، أردت المكر عليه لأتقي شره إذا اضطررنا للقتال مع معاوية، ولكنه لم يطاوعني.» طلب عمرو بإشارة من يده لمعاوية أن يفصح فقال: «إذا وقعت الواقعة مع علي وكان قيس في مصر خلفنا فقد يكون في هذا هلاكنا. لذلك كتبت إليه في مصر أعظم عليه قتل عثمان، وأحضه على أن يتبرأ من القتل ووعدته بالعراقين إذا ظفرت ووعدته أن لا أعزله لاحقاً، وأن يولي من يريد من أهله الخزرج على الحجاز، ووعدته بالمال. ولكنه رد علي بأنه سيفكر في الأمر وأنه لن يُطلع علياً على ما كتبت، وأنه كاف عني لا يأتيني منه شيء ضدي. لكني متأكد أنه يكايد ويخادع ولم يدن مني لأعده سلماً ولم يبتعد لأعده حرباً.»

«إنه مع علي قلباً وقالباً ولكن علياً لا يعرف هذا. ولا تنسى أن قيساً أخذ مصر من محمد بن أبي بكر، ربيب علي. الوقت يداهمنا ولن نتمكن من كسب قيس أو تحييده، وما عليك الآن سوى الترويج أنه يواليك وصار من شيعتك وأن كتبه تأتيك بذلك، وأكد أنه صار يعطي المطالبين بدم عثمان في مصر الأرزاق ويوافيهم الأعطيات. عندما يصل هذا إلى علي سيطلب منه محاربة

العثمانية في مصر، فإن فعل انشغل بهم عنا، وإن رفض قتالهم سيعزله علي عن مصر.» تهلل وجه معاوية وهو يستمع إلى نصيحة عمرو، الذي سأله عمن التف حول علي حتى الآن، فقد أراد استكمال الصورة قدر الإمكان.

«الأشتر النخعي وجماعته، عبد الله بن عباس، محمد بن الحنفية، هاشم بن عتبة، هؤلاء يوجدون الآن في معسكر علي، والتقديرات أن لديهم من مئة ألف إلى مئة وأربعين ألفاً من المقاتلة، وإن شاء الله يمكننا جمع أكثر من ذلك.»

«أتعرف يا معاوية أنك تتحمل مسؤولية قتل عثمان!» تفاجأ معاوية من مقولة عمرو وصمت لسماع الباقي قبل أن ينفي أو يستعجب. «لو تخلصت من مالك الأشتر وثابت بن قيس وكميل النخعي وزيد بن صوحان وأخيه صعصعة وجندب الغامدي وحبيب الأزدي وعروة بن جعد وعمرو بن الحمق الخزاعي، لو تخلصت منهم حين أمر عثمان بإبعادهم من الكوفة إلى الشام، لما عشنا مقتل عثمان على أيديهم ولما كنا هنا اليوم. حضروا إلى الشام وضربوك، وشدو لحيتك، وأنت تسايرهم وتنهاهم وتكتب للخليفة شاكياً أمرهم، فأعادهم للكوفة حيث سعيد بن العاص، ثم أرسلهم إلى حمص حيث عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، الذي اشتد عليهم فادعوا التوبة وصدقهم الجميع بما فيهم أنت وعبد الرحمن وعثمان. والنتيجة أنهم انتقلوا إلى العمل التآمري السري حتى غزو المدينة مع بقية المتآمرين من مصر وشاركوا في اقتحام دار الخليفة وطعنه.» نظر معاوية إلى عمرو بخليط من ملامح العتاب والاستطلاع لمعنى هذا التذكير، فأضاف عمرو: «الوضع الآن لا يحتمل التهاون، وإنما الحسم والعزم مطلوبان. ماذا هناك مما يجب أن أعلمه الآن؟»

«تعرف أن عمار بن ياسر قاوم عثمان في السر والعلانية وهو يناصر علياً ويفتي بحقه في الخلافة حتى قبل مقتل عثمان بزمن، وأخشى أن يترأس أحد فرق علي أو يزجوه في المعركة بشكل ما، وهذا سيضر بنا.» رهبة معاوية من انضمام عمار لعلي مصدرها معرفة القاصي والداني بمقولة الرسول عليه الصلاة والسلام إن عماراً تقتله الفئة الباغية، وظهوره في صفوف علي يعني أن معاوية قائد الفئة الباغية.

«ليس في صفوفهم بعد، وقد يقعده كبر سنه، وإن شارك فقد لا يقتل، وسنوصي في حينه أن يتجنب جندنا قتله، وإن قتل فإن قتلته هم الذين بغوا على الخليفة عثمان، والباغي هو من يذهب لقتال المسلمين، والباغي هو الذي يزج بهذا العجوز إلى المعركة فيقتله، وهو علي. على كل الأحوال سوف أسعى إلى لقائه فربما قعد عن الحرب، أو نحصل منه على كلمة تفيدنا.» قطع حديثهم من حضر ليبلغ معاوية أن مبعوثاً من علي قد وصل المجلس للتو، فأمر معاوية بإحضار المبعوث فوراً، بعد أن عرف أنه الصحابي جرير بن عبد الله البجلي، حتى لا يطلق الكلام بدون رقيب أمام القوم.

«جرير! عامل علي بهمذان، ماذا أحضره إلى هنا؟ سنعرف الآن ماذا يحمل من علي.» قبل أن يسمع معاوية تعليقاً من عمرو دخل عليهم جرير مبتهجاً وأبلغهما أنه أصر أن يرسله علي، وأن الأشتر عارض هذا الأمر، ولكنه أقنع أمير المؤمنين أنه سينجح في مهمته. رغم كبر سنه فلا زالت ملامح وجهه تحمل قسمات من الجمال، وكان الرسول يلقبه بيوسف العرب لحسن مظهره.

«وما هي مهمتك؟ وماذا قال لك؟» سأله عمرو بإيجاز.

«مهمتي دعوة الأمير معاوية أن يسلم بالطاعة ويجتمع مع أمير المؤمنين

على الحق ويكون أميراً من أمرائه ما عمل بطاعة الله واتبع ما في كتاب الله، وأدعو أهل الشام إلى طاعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، الذي قال لي: إئت معاوية بكتابي، فإن دخل فيما دخل فيه المسلمون، وإلا فانبذ إليه، وأعلمه أني لا أرضى به أميراً، وأن العامة لا ترضى به خليفة.» لم يسمع جرير أي تعليق فواصل مهمته: «أما بعد يا معاوية فإنه قد اجتمع لابن عمك أهل الحرمين وأهل المصرين، وأهل الحجاز وأهل اليمن وأهل مصر، وأهل العروض عُمان وأهل البحرين واليمامة، فلم يبق إلا هذه الحصون التي أنت فيها ولو سال عليها سيل من أوديته لأغرقها، وقد أتيتك أدعوك إلى ما يرشدك ويهديك إلى مبايعة هذا الرجل.» ثم دفع إلى معاوية بكتاب علي.

أزال معاوية الأختام وأخذ يقرأ على مسمع من عمرو وجرير: أما بعد: فإن بيعتي بالمدينة لزمتكَ وأنتَ بالشام لأنه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بُويعوا عليه، فلم يكن للشاهد أن يختار، ولا للغائب أن يرد، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار إذا اجتمعوا على رجل فسمّوهُ إماماً، كان ذلك لله رضاً، فإن خرج من أمرهم خارج بطعنٍ أو رغبةٍ، رَدوه إلى ما خرج منه فإن أبى، قاتلوه على اتباع سبيل المؤمنين وولاة الله ما تولى ويصليه جهنم وساءت مصيراً، وإن طلحة والزبير بايعاني ثم نقضا بيعتي فكان نقضهما كرِدّتِهما، فجاهدتهما على ذلك حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون، فادخل فيما دخل فيه المسلمون فإن أحب الأمور إلي فيك العافية إلا أن تتعرض للبلاء. فإن تعرضت له قاتلتك واستعنت بالله عليك. وقد أكثرت الكلام في قتلة عثمان، فادخل فيما دخل فيه الناس، ثم حاكم القوم إليّ أحملك وإياهم على كتاب الله، فأما تلك التي تريدها فخدعةُ الصبي

عن اللبن، ولعمري لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدني أبرأ قريش من دم عثمان. واعلم أنك من الطلقاء الذين لا تحل لهم الخلافة، ولا تُعرض عليهم الشورى، وقد أرسلت إليك وإلى من قبلك جرير بن عبد الله البجلي وهو من أهل الإيمان والهجرة، فبايع ولا قوة إلا بالله.

امتعض معاوية وهو يقرأ أنه من الطلقاء وهاهو علي يحرمهم من تولي خلافة أو حتى المشاركة في استشارة، وذلك من دون أن يستشهد بنص قرآني أو مقولة نبوية، فهو من كان يكتب للرسول ما ينزل به الوحي بعد فتح مكة. امتعض لكنه تمالك نفسه ونظر إلى عمرو الذي طلب منه أن يأذن لجرير بقول ما جاء من أجله أمام الناس، فعرف معاوية أن كلام جرير سيغضب أهل الشام على علي، فسار معه إلى المجلس وأبلغ الناس أنه تسلم كتاباً من علي بن أبي طالب، وأن رسوله جرير سيحدثهم عما حمل.

قام جرير خطيباً فقال في جملة ما قال: أيها الناس، إن أمر عثمان قد أعيا من شهده فكيف بمن غاب عنه، وإن الناس بايعوا علياً غير واتر ولا موتور، وكان طلحة والزبير ممن بايعاه ثم نكثا بيعته على غير حدث. ألا وإن هذا الدين لا يحتمل الفتن، وقد كانت بالبصرة أمس روعة ملحمةٍ إن يشفع البلاء بمثلها فلا بقاء للناس، وقد بايعت الأمة علياً، ولو ملكنا والله الأمور لم نختر لها غيره، ومن خالف هذا استعتب، فادخل يا معاوية فيما دخل فيه الناس. فإن قلت استعملني عثمان ثم لم يعزلني، فإن هذا قول لو جاز لم يقم لله دين وكان لكل امرئ ما في يديه، ولكن الله جعل للآخر من الولاة حق الأول، وجعل الأمور موطأةً ينسخ بعضها بعضاً.

ارتج المجلس وارتفعت الأصوات تسأل جرير عن القصاص وسبب

استعمال علي لقتلة الخليفة عثمان، فقام معاوية وقال لجرير: انظر وتنظر. هكذا حسم النقاش وهدأ الحضور وأمر معاوية لجرير ببيت وحراسة تمنعه من الاختلاط بالناس حفاظاً على حياته، إلا من أناس معينين يمكنهم أخذ معلومات مما قد يثرثر به جرير، ويمدونه بما يريد معاوية وعمرو أن يصل إلى علي لاحقاً. وما كاد جرير يغادر المجلس حتى انطلقت المراسيل إلى زعماء وقادة أهل الشام أن يحضروا إلى دمشق للاستشارة، وذلك بنصح من عمرو الذي أراد تسخير تصلب رأي علي وأيضاً معرفة صلابة أهل الشام من خلف معاوية، وبالطبع كسب المزيد من الوقت.

طوال سبعة أيام من وصوله كان جرير يستحث معاوية بالبيعة لعلي، ومعاوية يقول: يا جرير، إنها ليست بخلسة وإنه أمر له ما بعده، فابلعني ريقي حتى أنظر، وها أنا ألقاك يومياً عسى أن نصل إلى قرار، فوالله أكره أن يقتل المسلم أخاه. ألم تقل إن مهمتك هي (دعوة الأمير معاوية أن يسلم بالطاعة ويجتمع مع أمير المؤمنين على الحق ويكون أميراً من أمرائه ما عمل بطاعة الله واتبع ما في كتاب الله.) والله إني أعمل بطاعة الله واتبع ما في كتابه منذ أسلمت ووليت هنا من قبل عمر ثم عثمان، ولو صدق علي وعده الذي قلت، وأقرني على ما أنا فيه، لبايعته، ومهما يحصل بعد اليوم، فإنك إن أقنعت علياً بهذا على أن أحتكم إليه لاحقاً بالقصاص من قتلة عثمان، والله إني أقبل، وتكون لك حسنة حفظ دماء المسلمين ووحدة كلمتهم. لم يتطرق معاوية إلى ما جاء في كتاب علي من تشدد وعداوة، فقد أراد أن يكسب جرير إلى صفه ويجعله مدافعاً عنه عند أصحاب علي.

في اليوم الثامن أمر معاوية مناديه فنادى، الصلاة جامعة، وصعد المنبر ثم

خطب خطبة طويلة وأبلغ الناس قدوم جرير قبل أسبوع وقرأ عليهم كتاب علي وشرح لهم أن علياً لو أراد القصاص وقام به لما قتل الناس في موقعة الجمل، ثم قال في آخر الخطبة: «أيها الناس، قد علمتم أني خليفة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وخليفة أمير المؤمنين عثمان بن عفان عليكم، وأني لم أقم رجلاً منكم على خزايةٍ قط، وأني وليُّ عثمان، وقد قُتل مظلوماً، والله تعالى يقول: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾. وأنا أحب أن تعلموني ذات أنفسكم في قتل عثمان؟» فقام الحضور بأجمعهم فأجابوا إلى الطلب بدم عثمان وبايعوه على ذلك، وأوثقوا له على أن يبذلوا بين يديه أموالهم وأنفسهم حتى يدركوا بثأره أو تلتحق أرواحهم بالله، وكان الحضور يمثلون كل أهل الشام وجنده.

كان من بين الحضور شُرَحبيل بن السمط، رئيس اليمنية وشيخها والمقدم عليها، ولم يكف معاوية يقنعه منذ زمن باشتراك علي في مقتل عثمان، وقال له بعد هذه الخطبة: يا شُرحبيل، علي خير الناس لولا أنه قتل عثمان بن عفان، وقد حبست نفسي عليك وإنما أنا رجل من أهل الشام أرضى ما رضوا وأكره ما كرهوا فقال شرحبيل: أخرج فأنظر. بعد سويعات من ذاك الحديث عاد شرحبيل مغضباً إلى معاوية فقال: يا معاوية، أبى الناس إلا أن علياً قتل عثمان، والله لئن بايعت لعلي لنخرجنك من الشام أو لنقتلنك. قال معاوية: ما كنت لأخالف عليكم، وما أنا إلا رجل من أهل الشام.

«رد جريراً إذاً، إلى صاحبه.» تأكد لمعاوية من كلام شرحبيل هذا أنه عقد العزم على حرب أهل العراق، وإن اليمنية وأهل حمص وغيرهم سينقادون إلى شرحبيل، فطلب فوراً حصين بن نمير، حارس جرير، وأخبره أن يبعث

لإحضاره. «دعني أكلمه عندما يدخل علينا» خاطب شرحبيل معاوية فأومأ إليه بالموافقة، وارتاح في داخله أن شرحبيل هو الذي سيبلغه الرفض على أمل أن يرسل علي رسلاً غيره ليحملوا إجابته الشافية، فيكسب المزيد من الوقت لإعداد قواته وبث الفرقة بين شيعة علي.

قال شرحبيل: يا جرير، أتيتنا بأمرٍ مُلفّف لتلقينا في لهوات الأسد، وأردت أن تخلط الشام بالعراق، وأطريت علياً وهو قاتل عثمان والله سائلك عما قلت يوم القيامة. فرد عليه جرير: أما قولك إني جئت بأمر ملفف فكيف يكون كذلك وقد اجتمع عليه المهاجرون والأنصار؟ وقتل على رده طلحة والزبير؟ وأما قولك إني ألقيك في لهوات الأسد، ففي لهواتها ألقيت نفسك. وأما خلط أهل الشام بأهل العراق، فخلطهما على حق خير من فرقتهما على باطل. وأما قولك إن علياً قتل عثمان، فوالله ما في يديك من ذلك إلا القذف بالغيب من مكان بعيد، ولكنك مِلتَ إلى الدنيا، وشيء كان في نفسك ضدي منذ زمن سعد بن أبي وقاص. وهنا تدخل معاوية وزجر جرير، حتى لا تنتشر قصة الخلاف القديم بين شرحبيل وجرير، ويظن الناس أنه يؤيد معاوية لأحقاد شخصية سابقة ضد جماعة علي.

لقد ثبت شرحبيل وابنه حين ارتد كل قومه أيام الرسول (ص)، وانحازا إلى لبيد الأنصاري حين نشب خلاف في أمر بعير، وصار زعيم المرتدين الأشعث بن قيس، ودعا الرسول (ص) عليهم حين علم بأمرهم، ثم حصرهم المسلمون في الحصن، فاستسلموا بشرط العفو عمن تدون أسماؤهم من أصحاب الحصن، ونسي الأشعث تدوين اسمه وأراد لبيد قتله لكن استقر الرأي على ترك الأمر حتى يحكم أبو بكر فيه، وكان الرسول (ص) قد توفي

في هذه الأثناء. قال الأشعث لأبي بكر حين وصلوا المدينة: احتسب فيّ خيراً وتطلق إساري، وترد علي زوجتي (أم فروة أخت أبي بكر) وتقيلني عثرتي وتفعل فيّ ما فعلت بأمثالي، تجدني خير أهل بلادي لدين الله. فحقن أبو بكر دمه عليه ورد عليه أهله بالمدينة. وفي عهد عمر سير شرحبيل إلى سعد بن أبي وقاص بالعراق، فقدمه سعد وقربه، فحسده الأشعث على العداوة القديمة بينهما. وشاءت الظروف أن يرسل سعد بن أبي وقاص، جرير بن عبد الله بأخبار إلى عمر في المدينة، فطلب الأشعث من جرير أن ينال من شرحبيل بن السمط أمام عمر، وعندما سأل عمر جرير عن الناس قال:

ألا ليتني والمرء سعد بن مالك وزيراً وابن السمط في لجة البحر
فيغرق أصحابي وأخرج سالماً علـــى ظهر قرقور أنادي أبا بكر

فهم عمر من البيتين أن الناس يتبرمون من مكانة شرحبيل لسعد، فأرسل إلى سعد أن يبعث شرحبيل إلى المدينة، ثم سيره إلى معاوية بالشام، فشرف بها وعلا شأنه عند معاوية وعند الناس، وهاهو يلتقي جرير الواشي ويعرف أن الأشعث يقف إلى جانب علي هو الآخر. وكان علي قد ولى جريراً همذان والأشعث أذربيجان، وطلبهما الآن للحضور مع جند استعداداً للقاء مع أهل الشام.

انطلق شرحبيل داعية لمعاوية في بقاع الشام، فبدأ بأهل حمص، فقام فيهم خطيباً، وكان أهل الشام يرونه مأموناً ناسكاً، فقال: أيها الناس، إن علياً قتل عثمان. فغضب له قوم من أصحاب رسول الله، (طلحة والزبير) فلقيهم، فهزم الجمع وقتل صلحاءهم وغلب على الأرض، فلم يبق إلا الشام وهو واضع سيفه على عاتقه، ثم خائض غمرات الموت حتى يأتيكم، أو يحدث الله أمراً،

ولا نجد أحداً أقوى على قتاله من معاوية، فجدوا وانهضوا. فأجابه الناس كلهم! إلا نُساكاً من أهل حمص.

بينما نشط كل قادة معاوية الكبار في التحريض للجند والعامة توقعاً لاقتراب القتال بين الطرفين، استبقى معاوية جريراً في دمشق يحادثه ويتفكر معه طرق الإفلات من هذه الفتنة، ويعرب له عن استعداده لأي حل يضمن القصاص من قتلة عثمان، ويصلح وضعه مع علي. وقبل أن ينطلق جرير إلى علي كانت الاستعدادات تقترب من ذروتها في صفوف الشاميين، فقد وزعوا المهام، فقام عمرو على خيول أهل الشام، والضحاك بن قيس على كل الرجالة، وأبو الأعور السلمي على المقدمة، وذو الكلاع الحميري على ميمنة الجيش وحبيب بن مسلمة على الميسرة، وعبيد الله بن عمر في قوات احتياطية. كل هؤلاء كانوا من أصحاب الخبرات في القتال والإدارة والسياسة ومن صحابة الرسول (ص). لم يغب عن معاوية أن يجمع بين جرير وذي الكلاع، وهو سُمَيْفِعُ بن نَاكُور بن عَمْرو الحميري: ذُي الكَلَاع، وكنيته أبو شراحيل، وهو ابن عم كعب الأحبار، وكان يدخل مكة مقنعاً لإخفاء جماله وحتى لا يفتن به أحد. وجرير وذو الكلاع يعرفان بعضهما منذ أيام الرسول (ص) الذي بعث جريراً إلى ذي الكَلاع، وذي عَمْرو في اليمن؛ يدعوهم للإسلام، فأسلما، وأسلمت ضريبة بنت أبرهة بن الصباح امرأة ذي الكلاع، الذي أعتق أربعة آلاف، ثم قدم المدينة ومعه أربعةُ آلاف أيضًا، فسأله عمر في بيعهم، فأصبح وقد أعتقهم، فسأله عمر عن ذلك، فقال: إني أذنبتُ ذنبًا عظيمًا، فعسى أن يكون ذلك كفارة. وأخبر عن ذنبه فقال: أني تواريتُ مرة ثم أشرفتُ فسجد لي مئةُ ألف. ولاحقاً بعث أبو بكر إلى أهل اليمن يستفزهم للجهاد، فرحل ذو

الكلاع ومن أطاعه من حمير إلى الشام. وكان ذو الكلاع في يوم اليرموك على كردوس من الجند.

أما قائد الميسرة الآن في جند الشام فهو حبيب بن مسلمة بن مالك القرشي الفهري، يكنى أبا عبد الرحمن. ويقال له في الشام: حبيب الدروب، وحبيب الروم، لكثرة دخوله إليهم ونيله منهم. وقد ولاه عمر بن الخطاب أعمال الجزيرة إذ عزل عنها عياض بن غنم، ثم ضم إليه أرمينية وأذربيجان، واستقر في نهاية عهد عمر بالشام، ومن هنا سيره عثمان إلى أذربيجان لضبط التمرد وتوسيع الفتوحات؛ وبعث سلمان بن ربيعة الباهلي من الكوفة ليدعم حبيب، فاختلفا في الفيء، وتوعد بعضهما بعضاً؛ وهدد سلمان بالقتل، فقال رجل من أصحابه:

فإن تقتلوا سلمان نقتل حبيبكم　　　وإن ترحلوا نحو ابن عفان نرحل

وكان هذا أول اختلاف بين أهل العراق وأهل الشام؛ ويحترم أهل الشام حبيباً كثيراً ويقولون: هو مجاب الدعوة. ولما حُصر عثمان في المدينة أمده معاوية بجيش، واستعمل عليهم حبيب بن مسلمة لينصروه، فلما بلغ وادي القرى لقيه الخبر بقتل عثمان، فرجع، ولم يزل مع معاوية إلى الآن وهو دون سن الأربعين. ويشهد الجميع لحبيب بالشجاعة، فقد أمره عثمان بن عفان على جيش من المسلمين لتأديب الروم وكانت زوجته ضمن جنود هذا الجيش. وقبل أن تبدأ المعركة أخذ القائد يتفقد جيشه وإذا بزوجته تسأله: أين ألقاك إذا حمي الوطيس وماجت الصفوف؟ فأجابها حبيب: تجدينني في خيمة قائد الروم أو في الجنة. وقاتل الجيش حتى انتصر المسلمون على الروم وسارع حبيب إلى خيمة قائد الروم ينتظر زوجته وعندما وصل إلى بابها وجد

زوجته قد سبقته إلى الخيمة. ويبالغ أهل الشام في محبتهم لحبيب بالقول إنه غزا مع النبي، لكنه كان ابن اثنتي عشرة عندما مات النبي.

أما الضحاك بن قيس، قائد الرجالة في قوات الشام الآن، فهو من صغار الصحابة، ويكنى أبا أنس وقد ولد قبل وفاة النبي (ص) بسبع سنين. وقد شارك في فتح الشام ويقطنها إلى جانب معاوية. ويحدث الضحاك عن الرسول (ص) قوله: «لاَ يَزَالُ وَالٍ مِنْ قُرَيْشٍ». وقوله: «إن بين يَدَي الساعة فِتَنًا كَقِطَع الدُّخان، يموت فيها قلب الرجل كما يموت بَدَنُهُ، يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا، ويمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا، يبيع أقوامٌ أَخلَاقهم ودينهم بِعَرَضٍ من الدنيا». والرجل الآن مسؤول شرطة معاوية، والآفاق مشرعة أمامه إذا انتصر الشاميون على العراقيين.

أبو الأعور السلمي قائد المقدمة، هو عَمْرو بن سفيان بن عبد شمس. وأمه قريبة بنت قَيْس بن عبد الله القرشية. كان حليفَ أبي سفيان بن حَرْب في الجاهلية وقد شهد حنينًا كافراً ثم أَسلم بعدها هو ومالك بن عوف النصري، وجاءت غزوة حنين بعد فتح مكة بأشهر، وكثر فيها جند الطلقاء في صفوف المسلمين ومنهم أبو سفيان، ولكنهم خذلوا الرسول (ص) آنذاك فاعتمد على جنده من الأنصار والمهاجرين فقط وانتصر بهم عام ثمانية للهجرة. أما في غزوةَ عمّورية سنة ثلاث وعشرين، فكان أَمِير جيش مصر وَهْب بن عمير الجُمَحي، وأمير جيش الشام أبو الأعور السلمي. وكتب عُمر بن الخطاب إلى أُمَراء الآفاق أَن يبعثوا إليه من كل عَمَلٍ رجلًا مِنْ صالحيها؛ فبعثوا إليه أربعةً، من البصرة والكوفة والشام ومصر، فاتفق أنَّ الأربعةَ من بني سليم؛ وهم الحجاج بن عِلَاط، وزيد بن الأخنس، ومجاشع بن مسعود، وأبو الأعور،

الذي صار من أَصحاب معاوية وخاصّته، ويستعد الآن لقيادة مقدمة الجيوش

أما عبيد الله بن عمر بن الخطاب فيترأس الآن كتيبة رقطاء تدعى الخضرية، وقوامها أربعة آلاف عليهم الثياب الخضر. أمه أم كلثوم بنت جرول الخزاعية وهو أخو الصحابي حارثة بن وهب لأمه. ولد عبيد الله زمن الرسول (ص)، وهو من شجعان قريش وأبطالها. وسمع من أبيه، ومن الخليفة عثمان، كنيته أبو عيسى، غزا في أيام أبيه، وكان عبيد الله لما قتل أبوه عمر أخذ سيفه وشد على الهرمزان فقتله، وقتل جفينة، ولؤلؤة بنت أبي لؤلؤة، فاحتج على ذلك عمار بن ياسر لدى عمر وهو ينازع الموت. فلما بويع عثمان هم بقتله، ثم عفا عنه، ودفع الخليفة دية القتلى إذ كان هو وليهم لانعدام أقاربهم في المدينة. وكان علي بن أبي طالب قد أشار على عثمان بقتله قصاصاً لمن قتلهم، فلما قتل عثمان وبويع علي، ذهب عبيد الله إلى الشام، وانضم إلى المطالبين بدم الخليفة عثمان.

22

وصل جرير إلى أمير المؤمنين علي في الكوفة، وحدثه بما كان وما سمع ورأى، وأخبره أن أهل الشام على قلب رجل واحد يريدون القصاص، ولا يتحدثون عن حق لهم في الخلافة. وأطلع جرير علياً على استعداد معاوية للمبايعة إذا بقي على الشام إلى حين يؤتى القصاص في قتلة عثمان. وهنا وقع فيه الأشتر ومنعه من الكلام وقال لعلي: قد كنت نهيتك عن إرساله، وأخبرتك بعدوانه وغشه، ولو كنت بعثتني لكنت خيراً من هذا الذي أقام عنده يفتح الأبواب التي يريد ويغلق الأبواب التي يخاف. فقال له جرير لو كنت لقتلوك، وقد ذكروا إنك من قتلة عثمان، فهدده الأشتر بالحبس ولكن علياً تدخل، فخرج جرير من حينه إلى بلدة قرقيسياء ليعتزل، وأرسل إلى معاوية بخبر ما كان.

عزم الإمام علي على القتال، وأخذ يجهز قواته، وفكر أن يختبر استعداد أهل الشام وأهل العراق إلى الحرب. دعا رجلاً فأمره أن يتجهز ويسير إلى دمشق، فإذا دخل أناخ راحلته بباب المسجد ولا يُلقي من ثياب سفره شيئاً حتى يراه الناس بآثار الغربة، فإذا سألوه، فليقل لهم: تركت علياً قد نهد إليكم بأهل العراق، «فانظر ما يكون من أمرهم وابلغني.» ففعل الرجل ذلك، وكثروا عليه يسألونه وذاع خبره، فأرسل إليه معاوية الأعور السلمي يسأله، ونقل عنه

إلى معاوية الخبر. نادى معاوية الصلاة جامعة، ثم قام فخطب الناس وقال لهم: إن علياً قد نهد إليكم في أهل العراق، فما ترون؟ فنصت الناس لا يتكلمون، حتى قام ذو الكلاع الحميري فقال: عليك الرأي وعلينا الفعال. فنزل معاوية ونادى في الناس بالخروج إلى معسكرهم.

عاد الرجل إلى علي في الكوفة فأخبره بذلك، فنادى علي: الصلاة جامعة، ثم قام فخطب الناس، وأخبرهم أنه قدم عليه رسول كان بعثه إلى الشام، وأخبره أن معاوية قد نهد إلى العراق في أهل الشام، فما الرأي؟ اضطرب أهل المسجد، هذا يقول الرأي كذا، وهذا يقول الرأي ذاك، وكثر اللغط واللجب، فلم يفهم علي من كلامهم شيئاً ولم يدر المصيب من المخطئ، فنزل عن المنبر وهو يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، ذهب بها ابنُ آكلة الأكباد، يعني خصمه معاوية بن هند زوجة أبي سفيان، لأن الناس يطيعونه.

في هذه الأثناء وقبل أن تنتهي تجهيزات أمير المؤمنين علي للمسير، ذهب ناس من قراء أهل الشام إلى معاوية فقالوا له: يا معاوية، علام تقاتل علياً وليس لك مثله؟ فقال لهم معاوية: إني لا أدعي أن لي في الإسلام مثل صحبته ولا هجرته ولا سابقته، ولكن خبروني عنكم، ألستم تعلمون أن عثمان قُتل مظلوماً! قالوا بلى، فأخبرهم معاوية: فليدفع إلينا قتلته لنقتلهم به، ولا قتال بيننا وبينه. فطلبوا منه أن يكتب بذلك إلى علي، فكتب معهم بذلك المعنى. جاء رد علي، لاحقاً، قاسياً إذ كتب إلى معاوية: «...وأما ما ذكرت من أمر عثمان وقطيعتي رحمه، وتأليبي عليه! فعثمان عمل ما قد بلغك، فصنع الناس به ما قد رأيت، وأنك لتعلم أني قد كنت في عزلةٍ عنه، إلا أن تتجنى، فتجنى ما بدا لك! وأما ما ذكرت من أمر قتلة عثمان، فإني نظرت في هذا الأمر وضربت

أنفه وعينه، فلم أر دفعهم إليك ولا إلى غيرك، ولعمري لئن لم تنزع عن غيّك وشقاقك لتعرفنهم عن قليل يطلبونك لا يكلفوك أن تطلبهم في برٍ ولا بحر، ولا سهل ولا جبل. وقد أتاني أبوك حين ولّى الناس أبا بكر فقال: أنت أحق بمقام محمد، وأولى الناس بهذا الأمر، وأنا زعيم لك بذلك على من خالف، أبسط يدك أبايعك، فلم أفعل. فأنت تعلم أن أباك قد قال ذلك وأراده، حتى كنت أنا الذي أبيت، لقرب عهد الناس بالكفر مخافة الفرقة بين أهل الإِسلام، فأبوك كان أعرف بحقي منك، فإن تعرف من حقي ما كان أبوك يعرف، تُصب رشدك وإن لم تفعل، فسيغني الله عنك، والسلام».

هكذا عزم الإمام على المواجهة عسكرياً ولكنه قبل أن يأمر بذلك دعا من كان معه من المهاجرين والأنصار ليرى إذا كان رأيهم مشتتاً مثل أهل المسجد. جمعهم وقام فيهم خطيباً فحمد الله وأثنى عليه وقال: «أما بعد، فإنكم ميامين الرأي، مراجيح الحلم، مقاويل بالحق، مباركو الفعل والأمر، وقد أردنا المسير إلى عدونا وعدوكم، فأشيروا علينا برأيكم.»

قام هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، الملقب لشجاعته «بالمرقال» فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: «أما بعد يا أمير المؤمنين، فأنا بالقوم جدُّ خبير، هم لك ولأشياعك أعداء، وهم لمن يطلب حرث الدنيا أولياء، وهم مقاتلوك ومجاهدوك لا يبقون جهداً، مشاحةً على الدنيا، وظناً بما في أيديهم منها، وليس لهم إربةً غيرها إلا ما يخدعون به الجهال من الطلب بدم عثمان بن عفان، كذبوا، ليس لدمه يثأرون، ولكن الدنيا يطلبون، فسر بنا إليهم، فإن أجابوا إلى الحق فليس بعد الحق إلا الضلال، وإن أبوا إلا الشقاق، فذلك الظن بهم، والله ما أراهم يبايعون وفيهم أحد ممن يطاع إذا نهى، ولا يسمع

إذا أمر.» هاشم هذا هو ابن أخ سعد بن أبي وقاص، الذي اعتزل هذه الفتنة. وهاشم من الصحابة وقاتل المرتدين بعد موت الرسول (ص) واشترك في اليرموك والقادسية وقاد جيشاً لفتح المدائن. وهو رجل ضخم، وقد قال في نهاية خطبته: أيّها الناس، إنّي رجل ضخم، فلا يَهولَنّكم مَسقَطي إذا سقطت.

عمار بن ياسر، ابن أول شهيدين في الإسلام قتلهما القرشيون بعد طول عذاب حتى يعودا عن الإسلام، وقد وقف عمار مع حق علي في الخلافة منذ البداية، أي منذ وفاة الرسول (ص)، واستعدى عثمان علانية وتحداه مراراً، وهاهو ابن أربعة وتسعين يقف في مقدمة جند علي ضد معاوية. قال: يا أمير المؤمنين، إن استطعت ألا تقيم يوماً واحداً فافعل! اشخص بنا قبل استعار نار الفجرة، واجتماع رأيهم على الصدود والفرقة وادعهم إلى حظهم ورشدهم، فإن قبلوا سعدوا، وإن أبوا إلا حربنا، فوالله إن سفك دمائهم والجد في جهادهم لقربة عند الله وكرامة منه.

ثم قام قيس، ابن زعيم الخزرج والأنصار، سعد بن عبادة. وسعد هو الذي حاول أخذ الخلافة بعد وفاة الرسول (ص)، ومات في بصرى الشام بعد فتحها، إذ قتلته الجن. فقد سمع أهل المدينة قائلاً لم يروه: قتلنا سيد الخزرج سعد بن عبادة، ورميناه بسهم فلم يخط فؤاده. وقد ذعر القوم حين سمعوا هذا فحفظوا اليوم وعرفوا فيما بعد أنه يوم أن مات سعد وهو يتبول واقفاً، فاتكأ على الجدار ومات. وقد لازم ابنه، قيس، الرسول (ص) بشكل دائم، وهو من أكرم الناس مثل أبيه. قال قيس أمام الحضور: «يا أمير المؤمنين، انكمش بنا إلى عدونا ولا تعرج فوالله لجهادهم أحب إلي من جهاد الترك والروم، لإدهانهم في دين الله، واستذلالهم أولياء الله من أصحاب محمد من المهاجرين والأنصار والتابعين

بإحسان، إذا غضبوا على رجل حبسوه وضربوه وحرموه وسيروه، وفيئنا لهم في أنفسهم حلال. ونحن لهم فيما يزعمون قطين.» كان قيس قد وصل لتوه من مصر بعد أن أخرجه علي عنها وأعاد إليها محمد بن أبي بكر. فقد وصل إلى مسامع علي أن قيساً قد مال إلى العثمانيين، فكتب إليه أن يقاتل المعتزلين منهم في مصر، فرد عليه قيس، إن قاتلناهم اتحدوا مع خصمنا. وعند ذلك تعززت شكوك علي فيه وأعاده إلى الكوفة ليتحقق من الأمر، فعرف متأخراً أنها من خدع معاوية، وأطمأن مجدداً لقيس.

تأكد الإمام من موقف النخبة، فدعا الناس إلى منبره وقام عليهم محرضاً ويأمرهم بالمسير: «سيروا إلى أعداء الله، سيروا إلى أعداء السنن والقرآن، سيروا إلى بقية الأحزاب، قتلة المهاجرين والأنصار. فإياكم والتخلف والتربص، فإني قد خلفت مالك بن حبيب اليربوعي، وأمرته ألا يترك متخلفاً إلا ألحقه بكم عاجلاً إن شاء الله.» فقام إليه معقل بن قيس الرياحي فقال: يا أمير المؤمنين، والله لا يتخلف عنك إلا ظنين، ولا يتربص بك إلا منافق، فأمر مالك بن حبيب أن يضرب أعناق المتخلفين. فرد عليه علي: «قد أمرته بأمري، وليس مقصراً في أمري إن شاء الله.» تحرك الناس وتقاعس نفر عن الاستجابة، منهم حنظلة بن الربيع، الذي أخذ أناساً من قومه وهربوا تلك الليلة إلى معاوية، فأمر علي في الصباح بهدم دورهم. وبينما الجند يهدمون الدور دخل أبو زبيب بن عوف على علي ليعرب عن شكوكه، فقال: «يا أمير المؤمنين، لئن كنا على الحق لأنت أهدانا سبيلاً، وأعظمنا في الخير نصيباً، ولئن كنا في ضلالةٍ إنك لأثقلنا ظهراً وأعظمنا وزراً، أمرتنا بالمسير إلى هذا العدو وقد قطعنا ما بيننا وبينهم من الولاية، وأظهرنا لهم العداوة نريد بذلك ما

يعلم الله من طاعتك، وفي أنفسنا من ذلك ما فيها، أليس الذي نحن عليه الحق المبين والحوب الكبير؟».

«بلى» قال علي بنبرة حازمة «شهدت أنك إن مضيت معنا ناصراً لدعوتنا، صحيح النية في نصرتنا، قد قطعت منهم الولاية، وأظهرت لهم العداوة كما زعمت، فإنك ولي الله تسيح في رضوانه، وتركض في طاعته، فأبشر أبا زبيب.» ثم نظر عمار بن ياسر إلى المتشكك وقال «أثبت أبا زبيب ولا تشك في الأحزاب عدو الله ورسوله.» فقال الرجل لهما: «ما أحب أن لي شاهدين من هذه الأمة فيشهدا لي على ما سألت عنه من هذا الأمر الذي أهمني مكانكما.»
وخرج عمار بن ياسر وهو يقول على مسمع من الآخرين محرضاً لهم:

سيروا إلى الأحزاب أعداء النبي   سيروا فخيرُ الناس أتباعُ علي
هذا أوان طاب سل المشرفي   وقَودُنا الخيل وهزُّ السمهري

لاحظ قتلة عثمان أن علياً يصيبه التردد أحياناً من تصرفات بقية شيعته، فخافوا أن يؤجل الإمام المسير ويتصالح الفريقان فينالهم القصاص. دخل يزيد بن قيس الأرحبي على علي بن أبي طالب فقال: يا أمير المؤمنين، نحن على جهازٍ وعدة، وأكثر الناس أهل قوة، ومن ليس بمضعَّف وليس به علة، فمر مناديك فلينادي الناس أن يخرجوا إلى معسكرهم بالنخيلة، فإن أخا الحرب ليس بالسؤوم ولا النؤوم ولا من إذا أمكنته الفرص أجلها واستشار فيها، ولا من يؤخر الحرب في اليوم إلى غدٍ وبعد غد!

دخل زياد بن النضر مع يزيد فأضاف: لقد نصح لك يا أمير المؤمنين يزيد بن قيس وقال ما يعرف، فتوكل على الله وثق به، واشخص بنا إلى هذا العدو راشداً معاناً، فإن يرد الله بهم خيراً لا يدعوك رغبةً عنك إلى من ليس مثلك

في السابقة مع النبي والقدم في الإسلام والقرابة من محمد. وإلا يُنيبوا ويقبلوا ويأبوا إلا حربنا، نجد حربهم علينا هيناً، ورجونا أن يصرعهم الله مصارع إخوانهم بالأمس. زياد بن النضر هذا، هو الذي كان في أهل الكوفة الذين خرجوا ضد عثمان. أما يزيد فهو قائد التمرد الأول في الكوفة وخرج مع الأشتر وأعادوا الوالي سعد بن أبي وقاص من الطريق عن الكوفة إلى المدينة وقتلوا معاونه، وادعوا أنهم يريدون أبا موسى الأشعري فقبل عثمان ذلك منهم لحقن الدماء. وكان الأشتر عندما وصله كتاب يزيد بالثورة قد عاد للتو من عند عثمان حيث أعلن أمام الخليفة توبته وتوبة أصدقائه المحتجزين عند عبد الرحمن بن خالد بن الوليد في حمص فأفرج عنهم.

عندما انتهى يزيد وزياد من حديثهما دخل إلى الإمام علي، عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي... وهو من الذين حاصروا بيت عثمان، وهو قاتل المغيرة الثقفي عندما دافع مع عبد الله بن الزبير ومروان بن الحكم وغيرهما عن بيت الخليفة، وكان مع عبد الله بن بديل آنذاك أخوه عبد الرحمن، وهما سوياً الآن مع من يجهزون للحرب. قال الخزاعي محرضاً لعلي: «يا أمير المؤمنين، إن القوم لو كانوا الله يريدون، أو لله يعملون، ما خالفونا، ولكن القوم إنما يقاتلون فراراً من الأسوة وحباً للأثرة، وظناً بسلطانهم، وكرهاً لفراق دنياهم التي في أيديهم، وعلى إحنٍ في أنفسهم، وعداوةٍ يجدونها في صدورهم، لوقائع قديمةٍ أوقعتها يا أمير المؤمنين بهم، قتلت فيها آباءهم وإخوانهم.» ثم التفت الخزاعي إلى الناس ورفع صوته: «فكيف يبايع معاوية علياً وقد قتل أخاه حنظلة وخاله الوليد، وجده عتبة في موقف واحد، (في موقعة بدر قبل 34عاماً) والله ما أظن أن يفعلوا، ولن يستقيموا لكم دون أن تقصد فيهم المرّان، وتقطع على هامهم

السيوف، وتنثر حواجبهم بعمد الحديد. أليس هذا هو سيفك الذي أعضضته بجده وخاله وأخيه في مقام واحد؟»

حُسم الأمر، ونادى الحارث الأعور بأمر من عليٍّ: أيها الناس، أخرجوا إلى معسكركم بالنخيلة. وبعث عليٌّ إلى، صاحب شرطته، مالك بن حبيب اليربوعي، فأمره أن يحشر الناس إلى المعسكر. وكان مالك هذا عاملاً للخليفة عثمان على ماه من بلاد فارس. واستخلف عليٌّ عقبةَ بن عمروٍ الأنصاري على الكوفة، وكان أصغر أصحاب بيعة العقبة السبعين، وأوصاه بوصاياه، ثم خرج وخرج الناس معه وفي مقدمتهم أمامه الحر بن سهم بن طريف الربعي وهو يقول:

يـا فـرسي سيـري وأمي الشـامـا	وقـطعـي الـحـزون والأعـلامـا
ونـابـذي مـن خـالـف الإمـامـا	إنـي لأرجـو أن لقـينـا الـعـامـا
جـمـــع بـنـي أمية الـطغـامـا	أن نـقتـل الـعـاصي والـهُمـامـا

صلى علي بالناس في دير أبي موسى صلاة العصر، فلما انصرف من الصلاة، رفع يديه بالدعاء وقال: «سبحان ذي الطَولِ والنِعَم، سبحان ذي القدرة والإفضال، أسأل الله الرضا بقضائه، والعمل بطاعته، والإنابة إلى أمره، فإنه سميع الدعاء». ثم سار حتى نزل على شاطئ نرس، وهو نهر حفره نرس بن بهرام بنواحي الكوفة، فصلى هناك صلاة المغرب، فلما انصرف قال: الحمد لله الذي يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل، والحمد لله كلما وقب ليل وغسق، والحمد لله كلما لاح نجم وخفق. ثم أقام حتى صلى الغداة، وشخص بعد ذلك حتى بلغ قُبيِّن حيث نخل طوال إلى جانب البِيعة من وراء النهر، فلما رآها قال: «والنخلَ باسقاتٍ لها طلعٌ نضيد» ثم أقحم دابته

النهر فعبر إلى تلك البيعة فنزلها فمكث بها قدر الغداة. تابع سيره في اليوم التالي فوصل إلى أرض بابل، فجعل يخفُّ في سيره ويقول: إن ببابل أرضاً قد خسف بها فلعلنا نصلي العصر خارجاً منها، فحرك دابته وحرك الناس دوابهم في أثره، حتى أتوا على مكان وقد كادت الشمس أن تغيب، فنزل علي فدعا الله، وقال من كانوا حوله: إن الشمس قد رجعت كمقدارها من صلاة العصر، فصلى بالناس العصر ثم غابت الشمس، فناموا استعداداً للمسير إلى كربلاء.

نزل القوم في كربلاء وصلى علي بهم، فلما سلم رُفع إليه من تربتها فشمها ثم قال: واهاً لك أيتها التربة ليُحشَرُنَّ منك قوم يدخلون الجنة بغير حساب، ثم أشار بيده وقال: ههنا ههنا! فقال رجل: وما ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: ثقل لآل محمدٍ ينزل هاهنا فويلٌ لهم منكم، وويلٌ لكم منهم. فقال له الرجل: ما معنى هذا الكلام يا أمير المؤمنين؟ قال: ويلٌ لهم منكم: تقتلونهم، وويلٌ لكم منهم: يُدخلكم الله بقتلهم إلى النار. ثم وقف وقال: ذات كربٍ وبلاء. ثم أومأ بيده إلى مكان فقال: ها هنا موضع رحالهم، ومناخ ركابهم، وأومأ بيده إلى موضع آخر فقال: ها هنا مهراق دمائهم. فتعجب الناس مما شاهدوا وسمعوا، ومضوا إلى مدينة بُهرُ سير، وإذا برجل من أصحابه يقال له حرّ بن سهم، ينظر إلى آثار كسرى وهو يتمثل قول ابن يعفر التميمي:

جرتِ الرياح على مكان ديارهم   فكأنما كانوا على ميعادِ

فقال عليٌ: ﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ (٢٧) كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ (٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴾. إن هؤلاء كانوا وارثين فأصبحوا موروثين، إن هؤلاء لم يشكروا النعمة فسُلبوا دنياهم بالمعصية. إياكم وكُفرُ النِعَم لا تحلَّ

بكم النقم. لما وصل الجيش المدائن، أمر عليٌ الحارث الأعور فصاح في أهلها: من كان من المقاتلة فليواف أمير المؤمنين صلاة العصر، فوافوه في تلك الساعة، ولحق به فيما بعد ألف ومئتا مقاتل.

في الأنبار استقبل الدهاقنة من بني خُشنُوشَك أمير المؤمنين وعرضوا عليه دواباً وبراذين يأخذها للحرب، وطعاماً أعدوه للمسلمين، وعلفاً كثيراً للدواب، فرفض علي أخذ هدايا منهم وأبلغهم أنه يمكن أخذ الدواب على أن تحسب من الخراج، وبدل الطعام يقبضون نقوداً ثمناً له «فإنا نكره أن نأكل من أموالكم شيئاً إلا بثمن.» فقالوا: يا أمير المؤمنين، إنا نحب أن تقبل هديتنا وكرامتنا. فرد عليهم: ويحكم، نحن أغنى منكم! وتركهم وسار.

ارتحل الجيش حتى وصل الرقة فنزل فيها بمكان يقال له بليخ، على جانب الفرات، حيث توجد صومعة، فلما رأى راهبها أمير المؤمنين نزل من صومعته، وسلم عليه وقال له: إن عندنا كتاباً توارثناه عن آبائنا، كتبه أصحاب عيسى بن مريم، فهل أعرضه عليك. قال علي: نعم، فما هو؟ قال الراهب: بسم الله الرحمن الرحيم الذي قضى فيما قضى، وسطر فيما سطر، أنه باعث في الأميِّين رسولاً منهم يعلمهم الكتاب والحكمة، ويدلهم على سبيل الله، لا فظٌّ ولا غليظ، ولا صخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح، أمته الحمّادون الذين يحمدون الله على كل نشز، وفي كل صعود وهبوط، تذل ألسنتهم بالتهليل والتكبير والتسبيح. وينصره الله على كل من ناوأه، فإذا توفاه الله اختلفت أمته ثم اجتمعت، فلبثت بذلك ما شاء الله ثم اختلفت، فيمر رجل من أمته بشاطئ هذا الفرات، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويقضي بالحق، ولا يرتشي في الحكم، الدنيا أهون عليه من الرماد في

يوم عصفت به الريح، والموت أهون عليه من شرب الماء على الظمأ، يخافُ اللهَ في السر، وينصح له في العلانية، ولا يخاف في الله لومةَ لائم، من أدرك ذلك النبي من أهل هذه البلاد فآمن به، كان ثوابه رضواني والجنة، ومن أدرك ذلك العبد الصالح فلينصره، فإن القتل معه شهادة. ثم قال الراهب لعلي: فأنا مصاحبك غير مفارقك حتى يصيبني ما أصابك. فبكى علي ثم قال: الحمد لله الذي لم يجعلني عنده منسيّاً، الحمد لله الذي ذكرني في كُتُبِ الأبرار. ومضى راهب الرقة معه، وصار يتغدى مع علي ويتعشى معه.

عبر علي ومن معه شاطئ الفرات بعد أن أقاموا لهم جسراً إلى صفين. ودعا زياد بن النضر وشريح بن هاني، فسرحهما أمامه نحو معاوية في طلائع من اثني عشر ألفاً... ومروا بسور الروم، من دون اشتباكات معهم، حتى التقوا بطلائع معاوية يقودهم أبو الأعور السلمي، فدعا أهل العراق أهل الشام إلى طاعة علي فأبوا. وصل الخبر إلى أمير المؤمنين فأرسل إليهم مالك الأشتر وجعله أميراً عليهم، وحذره من أن يبدأهم بقتال. صبر الأشتر حتى المساء، فسمع في معسكره من ينادي بأن أهل الشام يهاجمونهم، فحمل الأشتر على جماعة أبي الأعور السلمي، فثبتوا له واضطربوا ساعة. في اليوم التالي خرج هاشم بن عتبة في خيل ورجال من أهل العراق، وخرج إليهم أبو الأعور، فاقتتلوا يومهم ذلك، فصبر القوم بعضهم لبعض، ثم انصرفوا كل إلى معسكرهم في سهل صفين بانتظار اكتمال حشود الجيوش الإسلامية المتنافرة.

رأى علي أن يرسل وفداً إلى معاوية قبل أن تحتدم الحرب، ليطالبوه مجدداً بالطاعة. اختار ثلاثة من رجاله لهذه المهمة هم، بشير بن عمرو الأنصاري، وسعيد بن قيس الهمداني، وشبث بن ربعي التميمي. سار الثلاثة لبضع مئات

من الأمتار ودخلوا على معاوية وبعض من قادته. قال بشير بن عمرو بدون مقدمات: يا معاوية، إن الدنيا عنك زائلة، وإنك راجع إلى الآخرة، وإن الله محاسبك بعملك ومجازيك بما قدمت يداك. وإني أنشدك الله أن لا تفرق جماعة هذه الأمة وأن لا تسفك دماءها.

«هلا أوصيت صاحبك بذلك؟» أجابه معاوية بإيجاز.

«إن صاحبي أحق البرية كلها بهذا الأمر في الفضل والدين والسابقة في الإسلام والقرابة من الرسول..»

«فيقول ماذا؟» قاطع معاوية المتحدث.

«يأمرك بطاعة الله والاستجابة لابن عمك لما يدعوك إليه من الحق، فإنه أسلم لك في دنياك وخير لك في عاقبة أمرك.»

«ونظل دم عثمان، لا والله لا أفعل ذلك أبداً.»

«يا معاوية إني قد فهمت ما رددت..» قال شبث وقد رفع جسده ووقف على ركبتيه».. إنه والله لا يخفى علينا ما تغزو وما تطلب، إنك لم تجد شيئاً تستغوي به الناس وتستميل به أهواءهم وتستخلص به طاعتهم إلا قولك قتل إمامكم مظلوماً فنحن نطلب بدمه فاستجاب لك سفهاء طغام، وقد علمنا أنك قد أبطأت عنه بالنصر وأحببت له القتل لهذه المنزلة التي أصبحت تطلب. ورب متمنٍّ لأمر وطالبه، يحول الله عز وجل دونه بقدرته وربما أوتي المتمني أمنيته وفوق أمنيته، والله ما لك في واحدة منهما خير، لئن أخطأت ما ترجو إنك لشر العرب حالاً في ذلك، ولئن أصبت ما تمنى لا تصيبه حتى تستحل من ربك صلي النار، فاتق الله يا معاوية ودع ما أنت عليه ولا تنازع الأمر أهله.»

«مصيركم الجحيم، فانصرفوا الآن.» كان جواب معاوية على هذا

الاستعلاء والصلف من رسل علي الذين لم يتحدثوا عن صلح، ولكن عن إذلال لمعاوية، وهجوم على مؤيديه «سفهاء طغام» وكأن ثلاثتهم من دعاة الحرب بين المسلمين، وتعجب من سمعهم كيف ولماذا أرسلهم علي لهذه المهمة إذا كان بالفعل يريد الصلح.

كان معاوية قد سبق بجيشه إلى صفين فنزلوا على مشرعة الماء في أسهل موضع وأفسحه وأقر عليها أبا الأعور، فلما نزل علي نزل بعيداً من الماء، وورد أهل العراق الماء فمنعهم أهل الشام فوقع بينهم مقاتلة بسبب ذلك. فأرسل علي الأشعث بن قيس الكندي في جماعة ليصلوا إلى الماء فمنعهم أولئك وقالوا: موتوا عطشاً كما منعتم عثمان الماء. تراموا بالنبل ساعة، ثم تطاعنوا بالرماح أخرى، ثم تقاتلوا بالسيوف بعد ذلك كله، وأمد كل طائفة أهلها حتى جاء الأشتر النخعي من ناحية العراقيين، وعمرو بن العاص من ناحية الشاميين، واشتدت الحرب بينهم أكثر مما كانت. تدريجياً أخذ أهل العراق يكشفون الشاميين عن الماء حتى أزاحوهم وخلوا بينهم وبينه، ثم اصطلحوا على الورود حتى صاروا يزدحمون في تلك الشريعة لا يكلم أحد أحداً، ولا يؤذي إنسان إنساناً. ومما سهل الصلح على الماء أن جماعة من أصحاب معاوية، ومنهم عمرو بن العاص، لم يكونوا راضين عن منع الماء، بينما كان البعض يريدون تعطيش أهل العراق انتقاماً لتعطيش الخليفة عثمان أربعين يوماً. هكذا اقتتلوا على الماء ثم اصطلحوا فيما بينهم على ورود الماء، ولا يمنع أحد أحداً منه.

مع فشل البعثة الثلاثية الموتورة نشبت المعارك بينهم أحياناً في صفين، وكانت في بعض الأيام تستعر من الصباح حتى منتصف الليل على شكل

مبارزات فردية أو اشتباك جماعات صغيرة، ولكنهم يردون الماء ويشربون سوياً دون قتال. وكان القادة والجند يتبادلون الزيارات ويدخل كل طرف إلى صف الطرف الآخر إذا توقف القتال. وذات يوم بينما علي واقفاً بين جماعة من همدان وحمير وغيرهم من أنصاره، إذ نادى رجل من أهل الشام: من يدل على أبي نوح الحميري؟ فقيل له: قد وجدته، فماذا تريد؟ فحسر عن لثامه فإذا هو ذو الكلاع الحميري ومعه جماعة من أهله ورهطه اليمنيين. فقال لأبي نوح: سر معي حتى نخرج من الصف فإن لي إليك حاجة، فخرج في كتيبة معه. قال ذو الكلاع: إنما أريد أن أسألك عن أمرٍ فيكم تمارينا فيه. أحدثك حديثاً حدثنا إياه عمرو بن العاص قديماً في خلافة عمر بن الخطاب، ثم اذّكرناه الآن فيه فأعاده. إنه يزعم أنه سمع رسول الله يقول: «يلتقي أهل الشام وأهل العراق، وفي إحدى الكتيبتين الحق وإمام الهدى ومعه عمار بن ياسر.» فقال أبو نوح فوراً: نعم والله إنه لفينا. قال: نشدتك الله أجاد هو في قتالنا؟ قال أبو نوح: نعم ورب الكعبة لهو أشد على قتالكم مني، ولوددت أنكم خلق واحد فذبحته وبدأت بك قبلهم وأنت ابن عمي. قال ذو الكلاع لابن عمه: ويحك، علام تمنّى ذلك منا، فوالله ما قطعتك فيما بيني وبينك قط، ورحمك لقريبة وما يسرني أن أقتلك. فرد أبو نوح: إن الله قطع بالإسلام أرحاماً قريبةً، ووصل به أرحاماً متباعدةً، وإني أقاتلك وأصحابك لأنا على الحق وأنتم على الباطل. قال ذو الكلاع وقد قرر التماسك والهدوء: فهل تستطيع أن تأتي معي صف أهل الشام. فأنا لك جارٌ منهم حتى تلقى عمرو بن العاص فتخبره بحال عمّار وجدِّه في قتالنا لعله أن يكون صلح بين هذين الجندين. فقال أبو نوح: إنك رجل غادر وأنت في قوم غدر، وان لم ترد الغدر أغدروك وإني أن أموت

أحب إلي أن أدخل مع معاوية! فألح عليه ذو الكلاع وكرّر عليه ما قاله أولاً حتى أقنعه.

سار أبو نوح مع ذي الكلاع حتى أتى عمرو بن العاص وهو عند معاوية وحوله الناس وكان عبد الله بن عمرو يحرض الناس على الحرب، فلما وقفا على القوم، قال ذو الكلاع لعمرو: يا أبا عبد الله، هل لك في رجل ناصحٍ لبيب مشفق يخبرك عن عمار بن ياسر فلا يكذبك؟ قال عمرو: ومن هو؟ قال: هو ابن عمي هذا وهو من أهل الكوفة. فقال عمرو: أرى عليك سيماء أبي تراب (يقصد علي بن أبي طالب). فرد أبو نوح بغضب: علي سيماء محمدٍ وأصحابه، وعليك سيماء أبي جهل وفرعون! فقام أبو الأعور، فسلَّ سيفه وقال: لا أرى هذا الكذاب اللئيم يسبّنا بين أظهرنا وعليه سيماء أبي تراب. فقال ذو الكلاع: أقسم بالله، لئن بسطت يدك إليه لأحطمن أنفك بالسيف! ابن عمي وجاري عقدت له ذمتي وجئت به إليكم ليخبركم عما تماريتم فيه. فقال له عمرو: يا أبا نوح أذكرك الله إلا ما صدقتنا ولم تكذبنا، فيكم عمار بن ياسر؟ قال: ما أنا مخبرك حتى تخبرني، لم تسأل عنه ومعنا من أصحاب محمد عدة غيره، وكلهم جاد على قتالكم. فقال عمرو: سمعت رسول الله يقول: إن عماراً تقتله الفئة الباغية، وأنه ليس لعمّار أن يفارق الحق، ولن تأكل النار من عمّار شيئاً. فقال له أبو نوح متحمساً: لا إله إلا الله والله أكبر، والله إنه لفينا، جادٌّ على قتالكم! ولقد حدثني يوم الجمل أنا سنظهر على أهل البصرة، ولقد قال لي أمس إنكم لو ضربتمونا حتى تبلغوا بنا سعفات هجر، لعلمنا أنا على الحق وأنكم على الباطل، ولكانت قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار. قال عمرو: فهل تستطيع أن تجمع بيني وبينه؟ قال: نعم.

تحرك عمرو بن العاص في اثني عشر فارساً، والتقى عمار بن ياسر الذي قابله في اثني عشر فارساً هو الآخر، والتقوا حتى اختلفت أعناق خيل عمار وخيل عمرو، ونزل القوم واحتبوا بحمائل سيوفهم. أراد عمرو بن العاص أن يتكلم، وبدأ بالشهادتين، فقاطعه عمار وصرخ: اسكت، فلقد تركتها وأنا أحق بها منك، فإن شئت كانت خصومةً فيدفع حقنا باطلك، وإن شئت كانت خطبةً فنحن أعلم بفصل الخطاب منك، وإن شئت أخبرتك بكلمةٍ تفصل بيننا وبينك، وتكفرك قبل القيام، وتشهد بها على نفسك ولا تستطيع أن تكذبني فيها.

فقال عمرو بهدوء: يا أبا اليقظان، ليس لهذا جئت، إنما جئت لأني رأيتك أطوع أهل هذا العسكر فيهم، أذكرك الله إلا كففت سلاحهم وحقنت دماءهم، وحرصت على ذلك، فعلام تقاتلوننا؟ أو لسنا نعبد إلهاً واحداً ونصلي إلى قبلتكم وندعو دعوتكم، ونقرأ كتابكم، ونؤمن بنبيكم؟ هلل عمار وقال: الحمد لله الذي أخرجها من فيك، إنها لي ولأصحابي، القبلة والدين وعبادة الرحمن، والنبي والكتاب من دونك ودون أصحابك. الحمد لله الذي قررك لنا بذلك وجعلك ضالاً مضلاً أعمى، وسأخبرك بمَ أقاتلك عليه وأصحابك، إن رسول الله أمرني أن أقاتل الناكثين، فقد فعلت. وأمرني أن أقاتل القاسطين وهم أنتم. وأما المارقون، فلا أدري أدركهم أم لا؟ أيها الأبتر، ألست تعلم أن رسول الله قال: من كنت مولاه فعليٌّ مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه، فأنا مولى الله ورسوله، وعلي مولاي بعدهما. قال عمرو من دون انجرار للغضب: لِمَ تشتمني أبا يقظان، ولستُ أشتمك؟ قال عمار: وبمَ تشتمني، أتستطيع أن تقول إني عصيت الله ورسوله يوماً قط؟

قال عمرو: إن فيك لمساوئ سوى ذلك. قال عمار: إن الكريم من أكرمه الله، كنتُ وضيعاً فرفعني الله، ومملوكاً فأعتقني الله، وضعيفاً فقواني الله، وفقيراً فأغناني الله. فقال له عمرو: فما ترى في قتل عثمان؟ قال: فتح لكم بابَ كلّ سوء! فسأله عمرو: فعليٌّ قتله؟ أجاب عمار بصوت عال: بل الله ربُّ علي قتله، وعليٌّ معه. وهنا رفع عمرو صوته وقال: ألا تسمعون، قد اعترف بقتل إمامكم! فقال عمار: قد قالها فرعون من قبلك لقومه: «ألا تستمعون». وعلى الفور قام أهل الشام وركبوا خيولهم ورجعوا. وقام عمار وأصحابه فركبوا خيولهم ورجعوا. ولما بلغ معاوية ما كان بينهم من حديث قال: هلكت العربُ إن حركتهم خِفّةُ العبد الأسود، يعني عماراً.

حتى الآن فشلت السفارات، ومحاولات أهل اليمن، المنتشرين في الفريقين، في منع القتال، وأمر علي بالطلائع والأمراء أن تتقدم للحرب، وجعل علي يؤمر على كل يوم من الحرب أميراً، مثل الأشتر النخعي، وحجر بن عدي، وشبث بن ربعي، وخالد بن المعتمر، وزياد بن النضر، وزياد بن حفصة، وسعيد بن قيس، ومعقل بن قيس، وقيس بن سعد. ويضم جيش علي تسعين ألفاً، وجيش معاوية خمسة وثمانون ألفاً.

وكذلك كان معاوية يبعث على الحرب كل يوم أميراً، فمن أمرائه: عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وأبو الأعور السلمي، وحبيب بن مسلم، وذو الكلاع الحميري، وعبيد الله بن عمر بن الخطاب، وشرحبيل بن السمط، وحمزة بن مالك الهمداني، وربما اقتتل الناس في اليوم مرتين، واستمر ذلك في شهري شوال وذي الحجة (36 هجرية) وتهادنوا أيام عيد الأضحى، ولكن القتال لم يكن حاسماً في العموم كون ذي الحجة من الأشهر الثلاثة التي يحرم

العرب فيها القتال منذ الجاهلية، كما أن عامة القوم أصبحوا وكأنهم جميعاً يهابون أن تلتقي جموع الشام بجموع العراق، وذلك خوفاً من الاستئصال والهلاك. في مطلع محرم توادع الفريقان إلى انقضائه أملاً في الصلح، ونشط القراء من الطرفين في الحجز بين الجيشين، وبالطبع كان كل منهما يستفيد من الهدنة لتعزيز قواته.

23

حتى يشحذ نفسيات الجند المتقابلين في صفين، كان لا بد لكل من علي ومعاوية التظاهر بالرغبة في الصلح، وبالتالي قرر كل منهما إرسال السفارات إلى الطرف الآخر. بعث علي كلاً من عدي بن عامر، ويزيد بن قيس الأرحبي، وزياد بن حفصة، والموتور من السفارة السابقة، شبث بن ربعي. دخلوا على معاوية فبدأ عدي الحديث: «إنا أتيناك ندعوك إلى أمر يجمع الله به عز وجل كلمتنا وأمتنا ويحقن به الدماء ويصلح ذات البين. إن ابن عمك سيد المسلمين أفضلها سابقة وأحسنها في الإسلام أثراً، وقد استجمع له الناس وقد أرشدهم الله بالذي رأوا فلم يبق أحد غيرك وغير من معك.» صبر معاوية على الحديث الذي بدا ليناً لولا أنه كان يعرف من هو المتحدث، الذي واصل فقال وقد وضع الصرامة على محياه: «فانته يا معاوية لا يصيبك الله بأصحابك بيوم كيوم الجمل.»

«كأنك إنما جئت مهدداً ولم تأت مصلحاً، هيهات يا عدي كلا والله وإني لابن حرب ما يقعقع لي بالشنان، وإنك لمن المجلبين على ابن عفان، وإنك لمن قتلته، وإني لأرجو أن تكون ممن يقتل الله عز وجل، هيهات يا عدي قد حلبت بالساعد الأشد.» تدخل كل من شبث وزياد مطالبين معاوية بالإجابة فيما ينفع، وكاد معاوية أن يطردهم ولكن يزيد بن قيس أخذ الكلام فأراد معاوية الاستماع لما عنده.

«إنا لم نأت إلا لتبليغك ما بعثنا به إليك ولنؤدي عنك ما سمعنا منك ونحن على ذلك لن ندع أن ننصح لك وأن نذكر ما ظننا أن لنا عليك به حجة وأنك راجع به إلى الألفة والجماعة. إن صاحبنا من قد عرفت وعرف المسلمون فضله ولا أظنه يخفى عليك أن أهل الدين والفضل لن يعدلوا بعلي ولن يميلوا بينك وبينه، فاتق الله يا معاوية ولا تخالف علياً، فإنا والله ما رأينا رجلاً قط أعمل بالتقوى، وأزهد في الدنيا، ولا أجمع لخصال الخير كلها منه.»

«دعوتم إلى الطاعة والجماعة» أجاب معاوية بهدوء تام «فأما الجماعة التي تدعون إليها فمعنا هي. وأما الطاعة لصاحبكم فإنا لا نراها. إن صاحبكم قتل خليفتنا، وفرق جماعتنا، وآوى ثأرنا وقتلتنا، وصاحبكم يزعم أنه لم يقتله فنحن لا نرد ذلك عليه أرأيتم قتلة صاحبنا ألستم تعلمون أنهم أصحاب صاحبكم، فليدفعهم إلينا فلنقتلهم به، ثم نحن نجيبكم إلى الطاعة والجماعة.»

اغتاظ شبث من هدوء معاوية فقال له: «أيسرك إن تمكنت من عمار تقتله؟» وبهذا السؤال يضع شبث عمار بين قتلة عثمان، ويخيف معاوية من حديث للرسول نقله عنه عمرو بن العاص، إن عمار تقتله الفئة الباغية.

«لقد طالب عمار من عمر بن الخطاب وهو يحتضر، أن يقتص من ولده عبيد الله لقتله الهرمزان، فلم لا يطالب بالقصاص للخليفة عثمان؟ إن كنت تقول إنه من قتلة الخليفة فسوف نقتص منه، وإن لم نتمكن فسوف يقتص منه الله. نحن لم ولن نقتل عماراً، وإن قتل في الحرب فأنتم الذين حملتموه شيخاً تسعينياً إليها، وستكونون الفئة الباغية التي تقتله.» هكذا انتهت هذه السفارة إلى الفشل هي الأخرى ولم يكن متوقعاً غير ذلك من تركيبة أعضائها ومما قالوا إنهم يحملوه معهم من علي بن أبي طالب.

أراد معاوية أن يوصل رسالة واضحة إلى علي، بأنه يريد القصاص لعثمان، والاعتزال لعلي ثم اختيار خليفة جديد بالشورى، وإلا فالحرب. بعث إليه سفارة من حبيب بن مسلمة وشرحبيل بن السمط ومعن بن يزيد بن الأخنس، وكان ثلاثتهم قد استمعوا لسفارة علي. «إن عثمان بن عفان كان خليفة مهدياً يعمل بكتاب الله عز وجل.» قال حبيب مخاطباً علي ومن حضروا مجلسه. «كان ينيب إلى أمر الله فاستثقلتم حياته واستبطأتم وفاته فعدوتم عليه فقتلتموه.» كان حبيب يجول النظر وكأنه يوزع التهم على المحيطين بعلي. «ادفع إلينا قتلة عثمان إن زعمت أنك لم تقتله نقتلهم به، ثم اعتزل أمر الناس فيكون أمرهم شورى بينهم يولي الناس أمرهم من أجمع عليه رأيهم...»

«ما أنت لا أم لك والعزل وهذه الأمة، اسكت فإنك لست هناك ولا بأهل له.» قاطع علي حبيباً غاضباً، فلم يعد لدى حبيب سوى رد الفعل بقوله: والله لتريني بحيث تكره. متوعداً بالحرب، فواصل علي حديثه الغاضب: «وما أنت وإن أجلبت بخيلك ورجلك لا أبقى الله عليك إن أبقيت على أحقره أو سوءاً، اذهب فصوب وصعد ما بدا لك.»

«ما كلامي إلا مثل كلام صاحبي فهل عندك جواب غير الذي أجبت به من قبل؟» سأل شرحبيل علياً وهو يستعد للمغادرة إذا كان الجواب بالنفي.

«نعم» قال علي وقد هدأت ملامحه قليلاً فأنصت إليه الثلاثة ومن حضر من أعوان علي الذي حمد الله ثم أثنى عليه وذكر موجز لبعثة الرسول وهدايته للناس: «... ثم قبضه الله إليه واستخلف الناس أبا بكر واستخلف أبو بكر عمر فأحسنا السيرة وعدلاً في الأمة وقد وجدنا عليهما أن توليا علينا، ونحن آل رسول الله، فغفرنا ذلك لهما، وولي عثمان فعمل أشياء عابها الناس عليه

فساروا إليه فقتلوه. ثم أتاني الناس وأنا معتزل أمورهم. فقالوا لي: بايع، فأبيت عليهم. فقالوا لي بايع فإن الأمة لا ترضى إلا بك، وإنا نخاف أن تفعل أن يفترق الناس. فبايعتهم فلم يرعني إلا شقاق رجلين قد بايعاني، وخلاف معاوية الذي لم يجعل الله له سابقة في الدين، ولا سلف صدق في الإسلام، طليق بن طليق حزب من هذه الأحزاب، لم يزل لله ورسوله وللمسلمين عدواً هو وأبوه حتى دخلا في الإسلام كارهين فلا غرو لإخلافكم معه وانقيادكم له، وتدعون آل نبيكم الذين لا ينبغي لكم شقاقهم ولا خلافهم ولا أن تعدلوا بهم من الناس أحداً. ألا إني أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه، وإماتة الباطل وإحياء معالم الدين.»

ظن علي أنه قد أثر في أعضاء السفارة الذين أنصتوا لكلامه المطول الذي جنح للهدوء والتمني في النهاية. فقال له شرحبيل: «أشهد أن عثمان قتل مظلوماً، ونحن معك للقصاص وتوحيد كلمة المسلمين.»

«لا أقول إنه قتل مظلوماً، ولا إنه قتل ظالماً.» قال علي وهو يتنهد.

«من لم يزعم أن عثمان قتل مظلوماً فنحن منه براء.» قال الثلاثة وقد نهضوا للانصراف. وأسمعهم علي قرآناً قبل ان يغيبوا عن السمع: ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴾

ولما كان آخر يوم من المحرم قبل غروب الشمس، بعث علي إلى أهل الشام: إني قد احتججت عليكم بكتاب الله، ودعوتكم إليه، وإني قد نبذت إليكم على سواء، إن الله لا يهدي كيد الخائنين. وخطب علي في ذلك اليوم خطبةً جاء فيها: نحن أهل بيت الرحمة، وقولنا الصدق، وفعلنا القصد، ومِنّا خاتَمُ النبيين، وفينا قادة الإسلام، وفينا حَمَلة الكتاب ألا إنا ندعوكم إلى الله

وإلى رسوله وإلى جهاد عدوه، والشدة في أمره، وابتغاء مرضاته، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت... إلى أن قال: ألا وإن أعجب العجائب أن معاوية بن أبي سفيان الأموي، وعمرو بن العاص السهمي أصبحا يحرّضان الناس على طلب الدين بزعمهما، ولقد علمتم أني لم أخالف رسول الله قط، ولم أعصِه في أمر، أقيه بنفسي في المواطن التي ينكِصُ فيها الأبطال وترعُدُ فيها الفرائص، بنجدةٍ أكرمني الله بها وله الحمد، ولقد قُبِض رسول الله وإن رأسه لفي حجري، ولقد وَليتُ غسله بيدي وحدي، تُقَلبُه الملائكة المقربون معي، وأيم الله ما اختلفت أمة قط بعد نبيها إلا ظهر أهل باطلها على أهل حقها إلا ما شاء الله. فقاطعه عمار بن ياسر قبل أن يسلم ونادى في الناس: أما أمير المؤمنين فقد أعلمكم أن الأمة لم تستقم عليه أولاً. وأنها لن تستقيم عليه آخراً فعليكم بالقتال. هكذا تفرّقَ الناس وقد نفذت أبصارهم في قتال عدوهم، فتأهبوا واستعدوا، ووثبوا إلى رماحهم وسيوفهم ونبالهم يُصلحونها. وخرج علي يُعبّئُ الناس ليلته تلك كلها حتى أصبح، وعقد الألوية وأمر الأمراء وكتب الكتائب، وبعث إلى أهل الشام منادياً نادى فيهم: اغدوا إلى مَصَافّكم! فضج أهل الشام واستعدوا.

الأربعاء أول صفر سنة 37 بدأت الحرب في صفين من دون لقاء الجمعين وجهاً لوجه، ولكن يخرج كل يوم قائد من كل طرف يتبارزان أو تتقاتل فرقة من طرف مع فرقة من الطرف الآخر. طوال أسبوع كانت خطب التحريض أكثر من الطعن بالرماح والضرب بالسيوف. قام عبد الله بن بديل خطيباً في أصحاب علي فقال: ألا إن معاوية ادعى ما ليس له، ونازع الأمر أهله ومن ليس مثله، وجادَلَ بالباطل لِيدحض به الحق، وصال عليكم بالأعراب والأحزاب، وزيّنَ

لهم الضلالة، وزرع في نفوسهم حُبَّ الفتنة، ولبسَ عليهم الأمور، وزادهم رجساً على رجسهم. وأنتم والله على نور وبرهان مبين، قَاتِلوا الطُغاة الجُفاة، قاتِلوهم ولا تخشوهم، وكيف تخشونهم وفي أيديكم كتاب من ربكم ظاهر مبين.. إلى أن قال: لقد قاتَلـتُهُم مع النبي والله ما هم في هذه بأزكى ولا أتقى ولا أبرَّ، انهضوا إلى عدو الله وعدوكم.

في اليوم التالي خطب سعيد بن قيس في الناس فقال: إن أصحاب محمد المصطفين الأخيار معنا وفي حيزنا... وإنما رئيسنا ابن عم نبينا، بَدريٌ صُدُقٌ، صلى صغيراً وجاهد مع نبيكم كبيراً، ومعاوية طليق من وثاق الإسار ابن طليق، ألا وإنه أغرى حفاةً فأوردهم النار، وأوردهم العار، والله محلٌ بهم الذل والصَغَار.

وأقبل أبو الهيثم بن التيهان في اليوم الثالث محرضاً وكان من أصحاب رسول الله، بدرياً، نقيباً، عَقبيّاً، وصار يُسوي صفوف أهل العراق ويقول: يا معشر أهل العراق، إنه ليس بينكم وبين الفتح في العاجل والجنة في الآجل إلا ساعة من النهار، فأرسوا أقدامكم وسووا صفوفكم، وأعيروا ربكم جماجمكم، واستعينوا بالله إلهِكم، وجاهدوا عدو الله وعدوكم، واقتلوهم قَتَلهم الله وأبادهم، واصبروا فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

في يوم خطبة مالك الأشتر امتطى فرساً دهماء مثل حلك الغراب، وقال: الحمد لله الذي خلق السموات العلى، والرحمن على العرش استوى... إلى أن قال مطمئناً الناس إلى النصر المبين: معنا ابن عم نبينا، وسيف من سيوف الله عليُّ بن أبي طالب، صلى مع رسول الله، لم يسبقه إلى الصلاة ذَكَرٌ حتى كان شيخاً، لم تكن له صَبوَة، ولا نَبوَة، ولا هفوَة ولا سَقطة، فقيهٌ في دين الله

تعالى، عالم بحدوده، ذو رأيٍ أصيل وصبرٍ جميل، وعَفَافٍ قديم، فاتقوا الله وعليكم بالعزم والجد، واعلموا أنكم على الحق، وأن القوم على الباطل، وإنما تقاتلون معاوية وأنتم مع البدريين قريب من مئة بدري سوى من حولكم من أصحاب محمد أكثر ما معكم رايات قد كانت مع رسول الله. ومع معاوية رايات قد كانت مع المشركين على رسول الله فما يَشُكُّ في قتال هؤلاء إلا من كان ميت القلب. أنتم على إحدى الحُسنيين إما الفتح وإما الشهادة، عصمنا الله وإياكم بما عصم.

على الطرف الآخر كانت الخطب في أيام المبارزات معدومة نظراً لانتظام الجيوش والتزامها بالأوامر، ولكن عندما طلب معاوية إلى عمرو بن العاص أن يُسوي صفوف أهل الشام ويقود الحرب، قال له عمرو: على إن لي حكمي إن قتلَ الله ابنَ أبي طالب واستوثقت لك البلاد. فسأله معاوية: أليس حكمك في مصر؟ فقال عمرو: وهل مصر تكون لي عِوضاً عن الجنة، وقتل ابن أبي طالب ثمناً لعذاب النار؟ فأكد له معاوية ما اتفقا عليه سابقاً: إن لك حكمك أبا عبد الله إن قُتِل ابن أبي طالب، رويداً حتى لا يسمع أهل الشام كلامك. هنا قام عمرو فخطب في الناس: معاشر أهل الشام، سووا صفوفكم قَصّ الشارِب، وأعيرونا جماجمكم ساعة، فقد بلغ الحق مقطعه، فلم يبق إلا ظالم، أو مظلوم... ثم ارتجز عمرو بن العاص كلاماً موجهاً إلى علي:

لا تـأمنّنـا بعدهـا أبـا حسن ... إنـا نُمر الأمـــر إمرار الرسن

فأجابه شاعر من أهل العراق:

ألا احذروا في حربكم أبا حسن ... ليثاً أبـا شبلين محــذوراً فطن

يدقكم دق المهاريس الطحــن ... لتُغبنن يـــا جاهــلاً أي غبن

ليلة الأربعاء ثامن أيام صفر قال علي لجنده إنه قد مل هذه المبارزات وسألهم: حتى متى لا نناهض هؤلاء القوم بجمعنا؟ واتفق الجميع على ذلك وباتوا يصلحون أمرهم لهجوم شامل، ولم يخف الأمر على أهل الشام فاستعدوا. في الصباح زحف علي بأهل العراق، ومعاوية بأهل الشام، وكان يوماً عظيماً في صفين لما لقي فيه الطرفان من أهوال شديدة. وأول فارسين التقيا في ذلك اليوم هما حُجر بن عدي الكندي، الملقّب بحُجر الخير صاحب أمير المؤمنين علي، وحجر الملقب بحجر الشر، وهو ابن عمه، وكلاهما من كندة وكان من أصحاب معاوية، فاطّعَنا برمحيهما. وخرج رجل من بني أسد يقال له خزيمة، من عسكر معاوية، فضرب حجر بن عدي برمحه، فحمل أصحاب علي فقتلوا خزيمة الأسدي ونجا حجر الشر هارباً فالتحق بصف معاوية. ثم برز حجر الشر ثانيةً، فبرز إليه الحكم بن أزهر من أهل العراق فقتله حجر الشر فخرج إليه رفاعة بن ظاهر الحميري من صف العراق فقتل حجر، وعاد إلى أصحابه يقول: الحمد لله الذي قتل حجر الشر بالحكم بن أزهر. ثم تناهض الناس واقتتلوا قتالاً شديداً نهارهم كله.

في اليوم الثاني لم يركب علي بغلة الرسول، ولكنه طلب فرساً وربط عمامة على بطنه الضخم وزحف بالجيش. وضع على ميمنته عبد الله بن بُديل الخزاعي، وعلى ميسرته عبد الله بن العباس وقُراء العراق مع عمار بن ياسر، وقيس بن سعد بن عبادة، والناس على راياتهم ومراكزهم، وعلي في القلب في أهل المدينة، جمهورهم الأنصار ومعهم من خزاعة وكنانة عدد حسن.

أما معاوية فقد رفع قبةً عظيمة، وألقى عليها الكرابيس وجلس تحتها، واجتمع إليه أهل الشام، فعبأ خيله، وعقد ألويته وأمر الأمراء وكتب الكتائب،

وأحاط به أهل حمص في راياتهم وعليهم أبو الأعور السلمي، وأهل الأردن في راياتهم، وعليهم عمرو بن العاص، وأهل قنسرين، وعليهم زفر بن الحارث الكلابي، وأهل دمشق وهم القلب وعليهم الضحاك بن قيس الفهري، فأحاطوا كلهم بمعاوية.

تقدم علي بين الصفين ونادى: يا معاوية، يا معاوية. فقال معاوية لمن معه: سلوه ما شأنه؟ قال علي لهم: أحب أن يظهر لي فأكلمه كلمة واحدة، فتقدم معاوية ومعه عمرو بن العاص، فلما قارباه، لم يلتفت إلى عمرو، وقال لمعاوية: ويحك، علام يقتتل الناس بيني وبينك؟ ويضرب بعضهم بعضاً؟ أبرز إلي، فأينا قتل صاحبه فالأمر له! التفت معاوية إلى عمرو يستشيره، وسأل: ما ترى يا أبا عبد الله؟ قال عمرو: قد أنصفك الرجل، واعلم أنك إن نكلت عنه لم يزل سبَّةً عليك وعلى عقبك ما بقي على ظهر الأرض عربي. فقال معاوية: يا ابن العاص، ليس مثلي يُخدَعُ عن نفسه. والله ما بارز ابن أبي طالب شجاعٌ إلا وسقى الأرض بدمه! ثم انصرف معاوية راجعاً حتى انتهى إلى آخر الصفوف وعمرو معه، فلما رأى علي ذلك ضحك وعاد إلى موقعه. أما معاوية فقال لعمرو وهما عائدان، ويحك ما أحمقك، تدعوني إلى مبارزته ودوني عكٌّ وجذام، والأشعريون. ما أظنك قلت ما قلته يا أبا عبد الله إلا مازحاً.

قبل أن ينشب القتال دعا علي أصحابه إلى أن يذهب واحد منهم بمصحف كان في يده إلى أهل الشام، سألهم: من يذهب إليهم فيدعوهم إلى ما في هذا المصحف؟ فسكت الناس، وأقبل فتىً اسمه سعيد فقال: أنا صاحبه. فأعاد عليّ القول ثانيةً فسكت الناس، وتقدم الفتى فقال: أنا صاحبه. فسلّمه إليه فقبضه بيده، ثم أتاهم فناشدهم الله ودعاهم إلى ما فيه، فقتلوه! ارتفعت

أصوات الاستياء في صفوف علي فقال لعبد الله بن بديل: احمل عليهم الآن؟ فحمل عليهم بمن معه من أهل الميمنة وهو يتقلد سيفين ودرعين، فجعل يضرب بسيفه قدماً ويقول:

لم يبق غير الصبر والتوكـــل	والترس والرمـح وسيف مصقل
ثم التمشي في الرعيل الأول	مشي الجمال في حياض المنهل

فلم يزل يحمل حتى اقترب من معاوية ومن معه ممن بايعوه على الموت، وأمرهم معاوية أن يصمدوا لعبد الله بن بديل، وأرسل إلى حبيب بن سلمة الفهري وهو في الميسرة أن يعجل إليه بجميع من معه، واختلط الناس، واصطدم الفيلقان، ميمنةُ العراق وميسرة أهل الشام، وأقبل عبد الله يضرب الناس بسيفه قِدماً حتى زحزح معاوية عن موقفه وجعل ينادي: يا لثارات عثمان وهو يعني أخاً له قد قُتل في موقعة الجمل وظن معاوية وأصحابه أنه يعني عثمان بن عفان. تراجع معاوية عن مكانه وأرسل إلى حبيب بن مسلمة مرة ثانية وثالثة يستنجده ويستصرخه، فحمل حبيب حملةً شديدة بميسرة معاوية على ميمنة العراق فكشفها حتى لم يبق مع ابن بُديل إلا نحو مئة إنسان من القراء، فاستند بعضهم إلى بعض يحمون أنفسهم، ولجَجَ ابن بُديل في الناس وصمم على قتل معاوية، وجعل يطلب موقفه ويصمد نحوه حتى انتهى إليه ومع معاوية عبد الله بن عامر واقف، فنادى معاوية في الناس: ويلكم، الصخر والحجارة إذا عجزتم عن السلاح! فرضخه الناس بالصخر والحجارة حتى أثخنوه، فسقط فأقبلوا عليه بسيوفهم فقتلوه. وجاء معاوية وعبد الله بن عامر حتى وقفا عليه، فأما عبد الله بن عامر فألقى عمامَتَهُ على وجهه وترحمَ عليه وكان له أخاً صديقاً من قبل. فطلب معاوية الكشف عن وجهه، فرفض

ابن عامر: لا والله لا يُمَثَّلُ فيه وفيَّ روح. فقال معاوية: اكشف عن وجهه فإنا لا نُمثل فيه، قد وهبناه لك. فكشف ابن عامر عن وجهه، فقال معاوية: هذا كبش القوم ورب الكعبة. اللهم اظفرني بالأشتر النُخعي والأشعث الكندي، والله ما مَثلُ هذا إلا كما قال الشاعر:

أخو الحرب إن عضت به الحرب عضها

وإن شمرت عن ساقها الحرب شمرا

بعد مقتل ابن بديل، استعلى أهل الشام على أهل العراق، وانكشفت صفوفهم من قِبلِ الميمنة وأجفلوا إجفالاً شديداً. في محاولة لتعديل الوضع أمر علي سهل بن حُنيف أن يستقدم من كان معه ليرفِدَ الميمنة، فاستقبلتهم جموع أهل الشام في خيل عظيمة، فحملت عليهم، فألحقتهم بالميمنة، وكانت ميمنة أهل العراق متصلةً بموقف علي في القلب في أهل اليمن، فلما انكشفوا انتهت الهزيمة إلى علي، فانصرف يمشي نحو الميسرة، فانكشفت مضر عن الميسرة أيضاً، فلم يبق مع علي من أهل العراق إلا بعض من بني ربيعة وحدها في الميسرة. انتقل علي ومعه بنوه من القلب نحو الميسرة حيث ربيعة وكان النبل يمر بين عاتقه ومنكبيه، وما من بَنيهِ إلا من يقيه بنفسه، فيكره علي ذلك، فيتقدم عليه ويحول بينه وبين أهل الشام، ويأخذه بيده إذا فعل ذلك، فيلقيه من ورائه. وأبصر أحمر، مولى بني أمية، بعلي، وكان شجاعاً، فنادى: عليٌّ ورب الكعبة قتلني الله إن لم أقتلك! فأقبل أحمر نحوه، فخرج إليه كيسان مولى علي، فاختلفا ضربتين، فقتله أحمر، وخالط علياً ليضربه بالسيف. مد علي يده فوقعت في جيب درع أحمر، فجذبه عن فرسه وحمله على عاتقه ثم ضرب به الأرض فكسر منكبيه وعضديه، وشد ابنا علي محمد وحسينٌ

فضرباه بأسيافهما حتى إذا أتيا عليه، فأقبلا إلى أبيهما والحسن قائم معه. سأل علي الحسن: يا بني، ما منعك أن تفعل كما فعل أخواك؟ فرد الحسن: كفياني يا أمير المؤمنين.

انتبه أهل الشام لموقع علي وبنوه فدنوا منه يريدونه، ولكن ما تسبب قربهم منه في سرعة مشيته، فقال له الحسن: ما ضرّك لو أسرعت حتى تنتهي إلى الذين صبروا لعدوك من أصحابك؟ فقال علي: يا بُنَيّ، إن لأبيك يوماً لن يعدوه ولا يبطئ به عن السعي، ولا يقربه إليه الوقوف، إن أباك لا يبالي إن وقع على الموت أو وقع الموت عليه. قبل أن يصل علي وبنوه إلى ربيعة في الميسرة مر بهم الأشتر النخعي، فقال له علي: إئت هؤلاء القوم فقل لهم أين تفرون من الموت؟ ذهب الأشتر للفلول وهيج الناس لخوض الصعاب فتبعوه وكروا معه وصاروا يكشفون كتائب أهل الشام حتى حققوا بعض التوازن ما بين العصر والمغرب، وسقط آلاف القتلى من الجانبين. وكان بيد الأشتر يومئذٍ صفيحةٌ يمانيةٌ، إذا طأطأها خِلتَ فيها ماءً ينصَبّ، وإذا رفعها يكاد يغشي البصر شعاعُها، وكان مقنعاً في الحديد، وهو من أعظم الرجال وأطولهم إلا أن في لحمه ووزنه خفة قليلة، وخطب الأشتر محرضاً أصحابه فقال: عَضّوا على النواجذ من الأضراس، واستقبلوا القوم بهَامِكم، فإن الفِرار من الزحف فيه ذَهاب العز والغلبة على الفيء وذل الحياة والممات، وعار الدنيا والآخرة. ثم حمل على صفوف أهل الشام حتى كشفهم فألحقهم بمضارب معاوية.

بات أهل المعسكرين في شدة من الألم والجراح والقتلى وشدة البرد إذ كان الناس يسمعون اصطكاك أسنان بعضهم، ونادى علي أصحابه أن يستعدوا للقتال والحسم في الصباح. سمع أهل الشام ذلك فسأل معاوية مستشاره عمرو بن العاص أن يجد له مخرجاً مما يرى.

«والله لأدعوهم إن شئت إلى أمر أفرق به جمعهم، ويزداد جمعك إليك اجتماعاً، إن استجابوا لك اختلفوا، وإن رفضوا اختلفوا.»

«وما ذلك يا عمرو؟» سأل معاوية عمرو متلهفاً لسماع هذا المخرج.

«تأمر بالمصاحف فترفع، ثم تدعوهم إلى ما فيها، فوالله لئن قبله لتفترقن عنه جماعته، ولئن رده ليكفرنه أصحابه.» فدعا معاوية بالمصحف، ثم أخرج به ابن هند في الصباح الباكر بعد أن أفهمه ما ينادي وأين. وقف ابن هند بين الصفين، ثم نادى: الله الله في دمائنا ودمائكم الباقية، بيننا وبينكم كتاب الله. فلما سمع الناس ذلك ثاروا إلى علي فقالوا: قد أعطاك معاوية الحق، ودعاك إلى كتاب الله، فأقبل منه. واستمر ابن هند، صاحب معاوية، رفع المصحف والقول: بيننا وبينكم هذا المصحف، ثم تلا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾. ثم نادى: لسنا فارس ولستم الروم. فلما سمع الأشعث ذلك قال: والله لا نأتي هذه أبداً، ونرضى معك حكم كتاب الله، أو لا نقاتل معك. وتابعه أشراف أهل اليمن مؤيدين، وركنوا إلى الصلح، وكرهوا القتال.

ثم أردف معاوية بن هند بخطيب آخر أن يكلم أهل العراق، فأقبل عليهم حتى إذا كان بين الصفين نادى: يا أهل العراق، أنا عبد الله بن عمرو بن العاص، إنه قد كانت بيننا وبينكم أمور للدين والدنيا، فإن تك للدين، فقد والله أسرفنا وأسرفتم، وإن تك للدنيا فقد والله أعذرنا وأعذرتم، وقد دعوناكم لأمر لو دعوتمونا إليه أجبناكم، فإن جمعنا وإياكم الرضا، فذلك من الله، وإلا فاغتنموا هذه الفرجة، لعل الله أن ينعش بها الحي، وينسي بها القتيل، فإن بقاء المقلد بعد الهالك قليل. استمع علي للصوت وعرف صاحبه، فقد شاهده بالأمس

يقاتل بسيفين، وقال لمن سأله من أهل العراق لماذا يحارب وهو المشهور برغبته في اعتزال هذه الحرب، فقال لهم: أمرني رسول الله أن أطيع أبي.

قال الإمام علي لسعد بن قيس: أجب الرجل. تقدم سعد بين الصفين وقال: يا أهل الشام إنه كانت بيننا وبينكم أمور حامينا فيها على الدين والدنيا، وقد دعوتمونا الآن إلى ما قاتلناكم عليه أمس، ولم يكن ليرجع أهل العراق إلى عراقهم، ولا أهل الشام إلى شامهم بأمر أجمل منه، فإن يُحكم فيه بما أنزل الله فالأمر في أيدينا، وإلا فنحن نحن، وأنتم أنتم. بعد أن سمع الناس كلام ابن هند وابن عمرو ثم ما قاله ابن قيس كرد، تحركوا إلى علي يطالبونه بالاستجابة لما دعاه إليه القوم، وأرسل الأشعث إلى أهل الرايات، يأمرهم أن ينقضوها ويرجعوا رحالهم حتى يبرموا رأيهم، فقد كان الأشعث متخوفاً أن يشعل قتلة عثمان الحرب قبل الانتهاء من الاستشارات، كما فعلوا يوم الجمل.

قبل كل هذه التطورات وعندما استقر رأي معاوية وعمرو في الليل على مخرج الاحتكام للمصحف، أرسلوا عتبة بن سفيان ليحادث الأشعث بن قيس، بأن يُعظم شأنه ويؤكد موقعه ويفرق بين موقفه في المشاركة بهذه الحرب وبين أمثال الأشتر المشارك في قتل عثمان، وسعد بن قيس الانتهازي، أو شريح بن هانئ وزحر بن قيس، اللذين لا يعرفان غير الهوى. وقال عتبة للأشعث أيضاً: إنّا لا ندعوك إلى ترك علي ولا نصرة معاوية، ولكنّا ندعوك إلى البقية التي فيها صلاحك وصلاحنا.

هكذا بدأ رؤوس القوم من أنصار الإمام علي يتجمعون حوله لإبداء الرأي والاستماع لما سيكون عليه هذا الأمر، وقد تمتم أكثر من واحد أن هذه الحرب قد أكلتهم وأذهبت الرجال، والرأي هو الموادعة، بينما قال آخرون:

بل نقاتلهم اليوم على ما قاتلناهم عليه أمس. ولاحظ الإمام أن الجماعة تميل للموادعة فقام بهم خطيباً وقال: «أيها الناس، إني لم أزل من أمري على ما أحب حتى قدحتكم الحرب، وقد والله أنفت منكم وتركت. وقد كنت بالأمس أميراً، فأصبحت اليوم مأموراً، وكنت ناهياً فأصبحت اليوم منهياً، فليس لي أن أحملكم على ما تكرهون».

كانت كلمة علي فاتحة الآراء وتخير القوم بما يريدون، فقام كردوس بن هانئ مستجيباً وقال: أيها الناس، إنه والله ما تولينا معاوية منذ تبرأنا منه، ولا تبرأنا من علي منذ توليناه، وإن قتيلنا لشهيد، وإن حينا لفائز، وإن علياً على بينة من ربه، وما أجاب القوم إلا إنصافاً، وكل محق منصف، فمن سلم له نجا، ومن خالفه هوى. ثم وقف سفيان بن ثور مؤيداً للموادعة أيضاً وقال إن علياً ليس بالراجع الناكص وهو اليوم على ما كان عليه أمس ولكن الحرب قد أكلتنا ولا نرى البقاء إلا في الموادعة. وانضم حريث بن جابر البكري لهذا الرأي قائلاً لقد دعاهم علي بالأمس لكتاب الله ورفضوا، وهم يدعون اليوم لهذا الأمر فكيف نرفضه؟ كذلك تحدث خالد بن معمر السدوسي مطالباً بالموادعة وخاطب علياً: إن رأيت ذلك، وإن لم تره فرأيك أفضل. في هذا الاتجاه تحدث أيضاً الحصين بن المنذر واختتم بالقول إن علياً: المأمون على ما قال وفعل، فإن قال: لا، قلنا: لا، وإن قال: نعم، قلنا: نعم. الصحابي عثمان بن حنيف، وهو عامل علي على البصرة، ذكر بدوره الناس بالموقف يوم الحديبية حيث أراد الصحابة القتال إنكاراً للصلح فردهم الرسول عنه. وأضاف: إن أهل الشام دعوا إلى كتاب الله اضطراراً، فأجبناهم إليه إعذاراً، فلسنا والقوم سواء إنا والله ما عدلنا الحي بالحي، ولا القتيل بالقتيل، ولا الشامي بالعراقي، ولا معاوية

بعلي، وإنه لأمر منعه غير نافع، وإعطاؤه غير ضائر، وقد كلت البصائر التي كنا نقاتل بها، وقد حمل الشك اليقين الذي كنا نؤول إليه، وذهب الحياء الذي كنا نماري به، فاستظلوا في هذا الفيء، واسكنوا في هذه العافية، فإن قلتم: نقاتل على ما كنا نقاتل عليه أمس، هيهات هيهات، ذهب والله قياس أمس، وجاء غد. فأعجب علياً قوله، وافتخرت به الأنصار، ولم يقل أحد بأحسن من مقالته. هدأت المعارضة قليلاً فأكد عدي بن حاتم على ما قيل قبله ودعا القوم إلى الانصياع لأمير المؤمنين وعدد مزاياه. ثم قام عبد الله بن حجل فقال: يا أمير المؤمنين، إنك أمرتنا يوم الجمل بأمور مختلفة، كانت عندنا أمراً واحداً، فقبلناها بالتسليم، وهذه مثل تلك الأمور، ونحن أولئك أصحابك، وقد كثر الناس في هذه القضية، وأيم الله ما المكثر المنكر بأعلم من المقل المعترف، وقد أخنت الحرب بأنفاسنا، فلم يبق إلا رجاء ضعيف، فإن تجب القوم إلى ما دعوك إليه، فأنت أولنا إيماناً، وآخرنا بنبي الله عهداً، وهذه سيوفنا على أعناقنا، وقلوبنا بين جوانحنا، وقد أعطيناك بقيتنا، وشرحت بالطاعة صدورنا، ونفذت في جهاد عدوك بصيرتنا، فأنت الوالي المطاع، ونحن الرعية الأتباع، أنت أعلمنا بربنا وأقربنا بنبينا، وخيرنا في ديننا، وأعظمنا حقاً فينا، فسدد رأيك نتبعك، واستخر الله تعالى في أمرك، وأعزم عليه برأيك، فأنت الوالي المطاع. فسر الإمام علي بقوله، وأثنى خيراً. فقام صعصعة بن صوحان وأبلغ الإمام أن قومه سيتبعونه مهما كان قراره، ومثله قال المنذر بن الجارود.

شعر المعارضون بميل الإمام إلى الموادعة وهذا بالتالي سيعني خضوعهم في يوم قريب إلى المساءلة في قتلهم الخليفة عثمان. كانت أصوات أهل الشام تصل المجتمعين وهي تناشد أبا الحسن الرأفة في دماء المسلمين،

فقام الأحنف بن قيس وقال: يا أمير المؤمنين، إن الناس بين ماض وواقف، وقائل وساكت، وكل في موضعه حسن، وإنه لو نكل الآخر عن الأول لم يقل شيئاً، إلا أن يقول اليوم ما قد قيل أمس، ولكنه حق يُقضى، ولم نقاتل القوم لنا ولا لك، إنما قاتلناهم لله، فإن حال أمر الله دوننا ودونك فاقبله، فإنك أولى بالحق، وأحقنا بالتوفيق، ولا أرى إلا القتال. ثم قام عمير بن ميساء عطارد فقال: يا أمير المؤمنين، إن طلحة والزبير وعائشة كانوا أحب الناس إلى معاوية، وكانت البصرة أقرب إلينا من الشام، وكان القوم الذين وثبوا عليك من أصحاب رسول الله (ص)، خيراً من الذين وثبوا عليك من أصحاب معاوية اليوم، فوالله ما منعنا ذلك من قتل المحارب، وعيب الواقف، فقاتل القوم إنا معك.

ثم قام الأشتر النخعي فقال: يا أمير المؤمنين، ما أجبناك لدنيا. إن معاوية لا خلف له من رجاله، ولكن بحمد الله الخلف لك ولو كان له مثل رجالك لم يكن له مثل صبرك ولا نصرتك، فافرج الحديد بالحديد، واستعن بالله. وأيده فوراً عمرو بن الحمق، فقال: يا أمير المؤمنين، ما أجبناك لدنيا، ولا نصرناك على باطل، ما أجبناك إلا لله تعالى، ولا نصرناك إلا للحق، ولو دعانا غيرك إلى ما دعوتنا لكثر فيه اللجاج، وطالت له النجوى، وقد بلغ الحق مقطعه، وليس لنا معك رأي.

شعر الأشعت بن قيس أن المعارضة بدأت تنتشر فقال: يا أمير المؤمنين، إنّا لك اليوم على ما كنا عليه أمس، ولست أدري كيف يكون غداً. وما القوم الذين كلموك بأحمد لأهل العراق مني، ولا بأوتر لأهل الشام مني، فأجب القوم إلى كتاب الله، فإنك أحق به منهم، وقد أحب الله البقيا. ثم نهض آخر من قيادات

أهل اليمن هو عبد الرحمن بن حارث فقال: يا أمير المؤمنين، امض لأمر الله، ولا يستخفنك الذين لا يوقنون. أحكم بعد حكم؟ وأمر بعد أمر؟ مضت دماؤنا ودماؤهم، ومضى حكم الله علينا وعليهم.

بدت على ملامح علي ميله إلى قول الأشعث وأهل اليمن، فأمر رجلاً ينادي: إنا قد أجبنا معاوية إلى ما دعانا إليه. وصل الخبر بسرعة إلى معاوية فأرسل إلى علي: إن كتاب الله لا ينطق، ولكن نبعث رجلاً منا ورجلاً منكم فيحكمان بما في كتاب الله، فقبل علي بذلك، ولكن النقاش لم يكن قد انتهى بين أصحابه. فعندما ظهر أن علياً قبل بالموادعة قام عمار بن ياسر ليعلن موقفه، فقال: يا أمير المؤمنين، أما والله لقد أخرجها إليك معاوية بيضاء، من أقرها هلك، ومن أنكرها ملك، مالك يا أبا الحسن؟ شككتنا في ديننا! ورددتنا على أعقابنا بعد مئة ألف قتلوا منا ومنهم؟ أفلا كان هذا قبل السيف؟ وقبل طلحة والزبير وعائشة، قد دعوك إلى ذلك فأبيت، وزعمت أنك أولى بالحق وأن من خالفنا منهم ضال حلال الدم، وقد حكم الله تعالى في هذا الحال ما قد سمعت، فإن كان القوم كفاراً مشركين، فليس لنا أن نرفع السيف عنهم، حتى يفيئوا إلى أمر الله، وإن كانوا أهل فتنة فليس لنا أن نرفع السيف عنهم حتى لا تكون فتنة، ويكون الدين كله لله، والله ما أسلموا، ولا أدوا الجزية، ولا فاؤوا إلى أمر الله، ولا طفئت الفتنة.

قال له علي: والله إني لهذا الأمر كاره.

على الفور نادى عمار: أيها الناس هل من رائح إلى الجنة، فخرج إليه خمس مئة رجل، فاستسقى عمار الماء، فأتاه غلام له بإداوة فيها لبن، فلما رآه كبر وقال: سمعت رسول الله (ص) يقول: آخر زادك من الدنيا لبن، ثم

قال عمار: اليوم ألقى الأحبة محمداً وحزبه. ثم حمل عمار وأصحابه على أهل الشام فعرفوه وصاروا يبتعدون عن طريقه ويقتلون أصحابه من حوله واشتد القتال، وحمل عبيد الله بن عمر في قراء أهل الشام ومعه ذو الكلاع في حمير، حملوا على ربيعة وهي في ميسرة علي، فقاتلوا قتالاً شديداً، فأتى زياد بن خصفة إلى عبد القيس يستنجدهم فقال لهم: لا بكر بن وائل بعد اليوم! إن ذا الكلاع وعبيد الله أبادا ربيعة، فانهضوا لهم وإلا هلكوا. فركبت عبد القيس كأنها غمامة سوداء، فشدت أزر الميسرة، فعظم القتال فقتل ذو الكلاع الحميري، قتله رجل من بكر بن وائل اسمه خندف، وتضعضعت أركان حِميَر ولكنها ثبتت بعد قتل زعيمهم ذي الكلاع وصارت تحارب مع عبيد الله بن عمر، الذي أرسل إلى الحسن بن علي إن له حاجةً عنده، فالتقاه الحسن، وسمع منه: إن أباك قد وتر قريشاً أولاً وآخراً، وقد شنئه الناس، فهل لك في خلعه وأن تتولى أنت هذا الأمر؟ فقال الحسن: كلا والله لا يكون ذلك، يا ابن الخطاب، والله لكأني أنظر إليك مقتولاً في يومك أو غدك. وبالفعل قتل عبيد الله بن عمر بن الخطاب ذلك اليوم.

ونادى عمار بن ياسر عبد الله بن عمرو بن العاص، فقال له: بعت دينك بالدنيا من عدو الله وعدو الإسلام معاوية! وطلبت هوى أبيك الفاسق. فقال عبد الله: لا، ولكن أطلب بدم عثمان الشهيد المظلوم. قال عمار: كلا، أشهد على علمي فيك أنك أصبحت لا تطلب بشيء من فعلك وجه الله وأنك إن لم تُقتل اليوم فستموت غداً، فانظر إذا أعطى الله العباد على نياتهم ما نيّتك؟ واستمر عمار يخوض بين الصفوف ويحرض على القتال حتى التقى عليه رجلان فقتلاه، وأقبلا لاحقاً برأسه إلى معاوية يتنازعان فيه، كل يقول أنا قتلته،

فقال لهما عمرو بن العاص: والله إن تتنازعان إلا في النار، وتمتم ما سمعه من رسول الله (ص): «تقتل عماراً الفئة الباغية.» فقال له معاوية: قبحك الله من شيخ، فما تزال تتزلق في قولك، ألم تقل إنما قتله الذين جاؤوا به، ثم التفت معاوية إلى أهل الشام فقال: إنما نحن الفئة الباغية؟ التي تبغي لدم عثمان.

كان القتال متوقفاً منذ الصباح أثناء المشاورات حتى انقض عمار على أهل الشام فلما قتل عمار اختلط الناس، حتى ترك أهل الرايات مراكزهم، وأقحم أهل الشام، وتفرق الناس عن علي. وهنا حاول عدي بن حاتم استمالة علي لمواصلة القتال، فقال: والله يا أمير المؤمنين ما أبقت هذه الوقعة لنا ولا لهم عميداً، فقاتل حتى يفتح الله تعالى لك، فإن فينا بقية، فقال علي: يا عدي، قتل عمار بن ياسر؟ قال: نعم، فبكى علي ثم استجمع مشاعره وقال: رحمك الله يا عمار، استوجب الحياة والرزق الكريم، كم تريدون أن يعيش عمار، وقد نيف على التسعين؟

ثم أقبل الأشتر جريحاً، فقال: يا أمير المؤمنين، خيل كخيل، ورجال كرجال، ولنا الفضل إلى ساعتنا هذه، فعد مكانك الذي كنت فيه، فإن الناس إنما يطلبوك حيث تركوك. حسم علي أمره بعد سماع الأشتر ودعا بفرسه التي كانت لرسول الله (ص)، ثم غير رأيه فدعا ببغلة رسول الله (ص)، الشهباء، ثم تعصب بعمامة رسول الله (ص) السوداء، وخرج لبقية القوم ونادى: من يبع نفسه اليوم يربح غداً، يوم له ما بعده، وإن عدوكم قد قدح كما قدحتم. فانتدب له ما بين عشرة آلاف إلى اثني عشر ألفاً واضعين سيوفهم على عواتقهم وتقدموا، فحمل علي والناس حملة واحدة، فلم يبق لأهل الشام صف إلا أهمد، حتى أفضى الأمر إلى معاوية، وعلي يضرب بسيفه، ولا يستقبل أحداً

إلا ولى عنه. فدعا معاوية بفرسه لينجو عليه، فلما وضع رجله في الركاب نظر إلى عمرو بن العاص، فقال له: يا ابن العاص، اليوم صبر، وغداً فخر، قال عمرو: صدقت. فترك معاوية الركوب، وصبر وصبر القوم معه إلى الليل، فبات الناس يتحارسون، وكرهوا القتال، وكان ذلك اليوم الذي تحول إلى بلاء عظيم بعد مقتل عمار، وكل من الطرفين يظن أن الدائرة عليه، فأسرفوا في القتل.

في الليل عاد أهل الشام لرفع المصاحف وارتحلوا حتى اعتصموا بجبل منيف، وهم يصيحون: لا ترد كتاب الله يا أبا الحسن فإنك أولى به منا وأحق من أخذ به، من لثغور الشام بعد أهل الشام، من لثغور العراق بعد أهل العراق. في هذه الأثناء أقبل الأشعث بن قيس في أناس كثير من أهل اليمن، فقالوا لعلي: لا ترد ما دعاك القوم إليه، والله لئن لم تقبل هذا منهم فلا وفاء معك، ولا نرمي معك بسهم ولا حجر، ولا نقف معك. وكان أهل اليمن يشكلون مع علي ومع معاوية نسبة كبيرة من المحاربين.

رأى الإمام علي أن يبذل جهداً في محاولة لإقناع معارضي الحرب فقال: يا عباد الله أمضوا على حقكم وصدقكم، فإن معاوية وعمرو بن العاص وحبيب بن مسلمة والضحاك بن قيس، ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن. ويحكم إنهم ما رفعوها ثم لا يرفعونها ولا يعملون بما فيها، وما رفعوها لكم إلا خديعة ودهاء ومكيدة.

قبل أن ينتهي علي من مقولته هذه وصلت جماعة أخرى من المقاتلين المطالبين باحترام تحكيم المصحف، ومنهم مسعر بن فدكي التميمي وقراء آخرون. قالوا لعلي كما قال أهل اليمن: أجب إلى كتاب الله إذا دعيت إليه،

وإلا ندفعك برُمتك إلى القوم. وطالبوه بأمر الأشتر ألا يخرج إلى الحرب، ففعل، وأرسل الأشعث إلى معاوية ليسأله عما يريد، وكان عدد القتلى حتى الآن قد تجاوز خمسة وسبعين ألفاً بالإضافة إلى سبعة عشر ألفاً قتلوا في موقعة الجمل.

قال معاوية للأشعث بن قيس: نرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله في كتابه، تبعثون منكم رجلاً ترضونه، ونبعث منا رجلاً، ثم نأخذ عليهما أن يعملا بما في كتاب الله لا يعدوانه، ثم نتبع ما اتفقا عليه. فرد الأشعث على معاوية بأن هذا هو الحق، وسأله من اختاروا، فأخبره إنه عمرو بن العاص. وعاد الأشعث إلى علي وأخبره. كان زعماء أهل العراق ينتظرون الإجابة مع علي، وأخذوا يتفحصون من يرسلون للتحكيم مع عمرو بن العاص. قال الأشعث لعلي قد رضينا أبا موسى الأشعري، فأجابهم علي: قد عصيتموني في أول الأمر، فلا تعصوني الآن. وبرر تخوفه من أبي موسى بأنه كان يخذل الناس عن المشاركة في القتال، لكن القوم أبوا إلا الأشعري فاضطر علي لمسايرتهم. قبل انفضاض الناس عن علي وصل الأحنف بن قيس بعد أن عرف باختيار الأشعري، فقال: يا أمير المؤمنين إنك قد رميت بحجر الأرض وبمن حارب الله ورسوله أنف الإسلام (يقصد عمراً) وإني قد عجمت هذا الرجل وحلبت أسطره (يريد أبا موسى) فوجدته كليل الشفرة قريب القعر وإنه لا يصلح لهؤلاء القوم إلا رجل يدنو منهم حتى يصير في أكفهم ويبعد حتى يصير بمنزلة النجم منهم. فإن أبيت أن تجعلني حكماً فاجعلني ثانياً أو ثالثاً، فإنه لن يعقد عقدة إلا حللتها ولن يحل عقدة أعقدها إلا عقدت لك أخرى أحكم منها. لم يؤثر الأحنف في مستمعيه، رفض الناس إلا أبا موسى، فقال الأحنف: فإذا أبيتم إلا أبا موسى فأدفئوا ظهره بالرجال.

استمر دفن بقية القتلى من أيام القتال أسبوعاً كاملاً مفعماً بالحزن في أجواء برد قارس، ثم التقى الحكمان ورجال من كل طرف، وكان أبو موسى قد جهز كتاب التحكيم، وقرأ: هذا ما تقاضى عليه علي أمير المؤمنين... فاعترض عمرو بن العاص وطلب الاكتفاء باسم علي ومعاوية. اعتزل علي نصف النهار مع بني هاشم وبمشاركة من الأحنف بن قيس للاستشارة إذا كانوا سيقبلون بذلك. كان رأي الأحنف رفض محو الإمارة خوف أن لا ترجع لعلي أبداً، لكن الأشعث بن قيس قال لهم: أمح هذا الاسم، فمحي وصار كتاب الصلح كالتالي:

هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان: قاضي علي على أهل الكوفة ومن معهم من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين، وقاضي معاوية على أهل الشام ومن معهم شيعتهم من المؤمنين والمسلمين. إننا ننزل عند حكم الله عز وجل وكتابه ولا يجمع بيننا غيره. وإن كتاب الله عز وجل بيننا من فاتحته إلى خاتمته، نحيي ما أحيا ونميت ما أمات، فما وجد الحكمان في كتاب الله عز وجل وهما: أبو موسى الأشعري عبد الله بن قيس، وعمرو بن العاص القرشي، عملاً به، وما لم يجدا في كتاب الله عز وجل فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة.

سجل الحكمان على معاوية وعلي العهود والمواثيق بالالتزام بالحكم، وأنهما آمنان على نفسيهما وأهلهما، وأن الأمة لهما نصير على ما يتفقان عليه. وتعهدا أن يحكما بين هذه الأمة ولا يرداها في حرب ولا فرقة. واتفق الجميع على لقاء الحُكم حتى شهر رمضان، وإن أحب الحكمان أن يؤخرا ذلك أخراه على تراض منهما، وإن توفي أحد الحكمين فإن أمير الشيعة يختار

بديله. حسب الاتفاق أيضاً فمكان القضاء يكون عدل بين أهل الكوفة والشام، وإن رضيا وأحبا فلا يحضرهما فيه إلا من أرادا ويأخذ الحكمان من أرادا من الشهود. وقد سجلت هذه الكتب والمواثيق وتم التوقيع عليها يوم 15 صفر سنة 37 للهجرة.

شهد اليوم التالي على التوقيع عودة معاوية بجنده إلى دمشق، ولكن جند الإمام علي دب فيهم الخلاف فور أن أخذ الأشعث الكتاب وخرج يقرأه على الناس. مر الأشعث ومن معه على جماعة من بني تميم فيهم عروة بن أدية، قرأ الكتاب عليهم، فقال عروة: أتحكمون في أمر الله الرجال؟ لا حكم إلا لله. ثم سحب سيفه وضرب عجز دابة الأشعث، الذي غضب من هذه الرعونة، وتعصب له قومه من اليمن. لكن قبل استفحال الأمر اعتذر رؤساء بني تميم وتنصلوا من الفعلة فصفح الأشعث، وجمع الناس أشياءهم للرحيل إلى الكوفة. في الطريق فشى فيهم التحكيم، وأقبلوا يتدافعون ويتشاتمون ويتضاربون بالسياط ويتحزبون مع التحكيم وضده. صار الذين خرجوا يقولون للآخرين: يا أعداء الله أدهنتم في أمر الله وحكمتم، ويرد عليهم الآخرون: أيها الخوارج فارقتم إمامنا وفرقتكم جماعتنا.

على أبواب الكوفة رفض الخوارج الدخول مع أمير المؤمنين وساروا إلى حروراء، ونزل فيها اثنا عشر ألفاً منهم، ونادى مناديهم: إنّ أمير القتال هو شبث بن ربعي التميمي، وأمير الصلاة عبد الله بن الكواء اليشكري، والأمر شورى بعد الفتح والبيعة لله عز وجل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. شبث، زعيم هذا القوم، هو الذي كان يرسله علي إلى معاوية فيتوقح في خطابه، ويؤكد أن علياً سيد المسلمين وابن عم الرسول ولا تجوز مخالفته... الخ.

استشعر علي بأن ثلث الأحياء من الجيش انفصلوا عنه، وربما أصبحوا خصومه المقربين منه وإليه، بينما يتحول معاوية إلى الخصم الأبعد جغرافياً، والمستحيل مواجهته إذا لم يتفق الحكمان على الحل المناسب له. أراد علي استعادة الخوارج وردع الصدع، فأرسل إليهم عبد الله بن عباس وأوصاه أن لا يُعجل في جوابهم وخصومتهم وينتظر وصوله. أقبلوا على ابن عباس يجادلونه فلم يصبر عليهم وسألهم عن سبب النقمة من التحكيم وقد قال الله عز وجل ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ ﴾قالوا له أما ما جعل حكمه للناس فهو إليهم، وما حكم فأمضاه فليس للعباد أن ينظروا فيه. رد عليهم ابن عباس بالاستشهاد بقول الله ﴿يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ ﴾ فرفضوا أن يكون ابن العاص عدل وهو الذي سفك دماءهم كما قالوا، ورفضوا المقارنة بين الحُكم في الصيد والحدث وما بين المرأة وزوجها كالحكم في دماء المسلمين. قالوا لابن عباس: لقد حكمتم الرجال في أمر الله، وقد أمضى الله حكمه في معاوية وحزبه أن يُقتلوا أو يرجعوا، وقبيل ذلك دعوناهم إلى كتاب الله فأبوه، ثم كتبتم معهم كتاباً وجعلتم بينكم وبينه الموادعة والاستفاضة وقد قطع عز وجل الاستفاضة والموادعة بين المسلمين وبين أهل الحرب إلا من أقر بالجزية.

«ألم أنهك عن كلامهم، انته.» قال علي لابن عباس ثم سأل القوم: «ما أخرجكم علينا؟» كان غاضباً من هؤلاء: «أنشدكم الله. ألست قد نهيتكم عن قبول التحكيم فرددتم علي رأيي، ولما أبيتم إلا ذلك اشترطتم على الحكمين أن يحييا ما أحيا القرآن وأن يميتا ما أمات القرآن، فإن حكما بحكم القرآن فليس لنا أن نخالف حكماً يحكم بما في القرآن وإن أبيا فنحن من حكمهما براءة.» ما كاد ينتهي حتى انهال السؤال الواحد من أكثر من رجل، إذا صار

عدلاً تحكيم الرجال في الدماء. «لم نحكم الرجال وإنما القرآن، وهو خط مسطور بين دفتين لا ينطلق إنما يتكلم به الرجال.» عادوا وسألوه عن الأجل ولماذا وافق عليه طويلاً فقال علي للخوارج: «ليعلم الجاهل ويتثبت العالم ولعل الله عز وجل يصلح في هذه الهدنة هذه الأمة. ادخلوا مصركم رحمكم الله.»

«إن قبولنا للتحكيم كان كفراً منا. وقد تبنا إلى الله، فتب معنا ثم نبايعك، وإلا فنحن مخالفون.» قال زعيمهم بعد استشارة لبعضهم. ولم يجد علي مناصاً من موافقتهم حتى تهدأ الأمور.

«ادخلوا فلنمكث ستة أشهر حتى يجيء المال ويسمن الكراع، ثم نخرج إلى عدونا.» قال علي بعد أن بايعهم، فدخلوا معه إلى الكوفة على ذلك. اعتمد موقف القراء الخوارج أن علياً كان إماماً بويع بيعة صحيحة، فمن امتنع فهو مرتكب للعصيان والبغي ويرونه كافراً وباغياً على الإمام والله ورسوله، ولهذا يكون له ولقومه حد مقرر في القرآن سلفاً ولا معنى للتحكيم. لذلك يرون معاوية وجماعته يستحقون العقوبة وغير ذلك يكون مداهنة وتحكيماً للرجال فيما لا حكم فيه إلا لله، وإذا وافق علي على التحكيم فهو ضال والضال لا يصلح لخلافة المسلمين ويحق قتاله كما يحق قتال معاوية.

24

«عمرو وجندب! ألا تفترقان في سلم أو حرب؟» سأل المغيرة بن شعبة الرجلين حين دخل عليهما في دومة الجندل.

«لم اشترك في موقعة الجمل أو مجزرة صفين، ولست مكلفاً بالتوصل إلى الصلح، ولكني فعلاً لا افترق عن أبي عبد الله إلا لألتقيه مرة أخرى.» أجاب جندب صديقه المغيرة الذي لم يلقه منذ أعوام. تحاضنا مجدداً بعد تحية المغيرة لعمرو. كان المغيرة قد وصل دومة الجندل بالأمس ومعه كل من عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن الحارث وسعد بن أبي وقاص، وكلهم ممن اعتزل الفتنة بعد مقتل الخليفة عثمان، ولم ينضموا إلى معاوية أو علي قولاً أو فعلاً، وقد حضروا اليوم بعد أن حان أجل اجتماع الحكمين. أرسل علي أربعمئة رجل عليهم شريح بن هانىء الحارثي ومعهم ابن عباس يصلي فيهم، وبالطبع يرافقهم أبو موسى الأشعري. وبعث معاوية بدوره أربعمئة رجل من أهل الشام ومعهم عمرو بن العاص.

«يا أبا عبد الله، ما رأيك فينا، معشر القوم الذين اعتزلوا القتال ولم يشهدوا من هذه الحرب شيئاً؟» سأل المغيرة عمرو الذي تشكك في الهدف من هذا السؤال، فالرجلان يشهد لهما العرب بالذكاء الفائق والفطنة.

«وهل سألت أبا موسى بذلك قبل الوصول إلينا؟»

«نعم سألته وأجابني، ولن أطلعك على إجابته إلا بعد سماع إجابتك.» قال المغيرة وقد عرف أن عمرو قد كشف سبب سؤاله هذا.

«إنكم معشر المعتزلة خلف الأبرار وأمام الفجار.» قال عمرو وسكت بانتظار سماع تعليق المغيرة.

«أما أبو موسى فقال عنا: أنتم المؤمنون الصالحون حقاً.»

«إذاً ما تقول الآن بعد سماعك للإجابتين؟»

«والله يا أبا عبد الله إنكما رجلان لا يمكن أن تجتمعا على حل.»

«لم نحضر هنا لتجتمع كلمتنا مع أبي موسى، ولكن لنجد حلاً ضمن عقد التحكيم.» قال عمرو موجهاً حديثه إلى المغيرة بينما كان ينظر إلى جندب، وأكمل: «جندب أيضاً حدثني في الطريق من الشام إلى هنا أن عقد التحكيم لا يشمل حدوداً بعينها ولا علامات يهتدي بها الحكم أو الناظر في مقدماته ونتائجه. لم يشمل العقد ماذا سيكون إذا فارق الحكمان أو أحدهما ما في كتاب الله أو السنة العادلة، ولا حُكم في العقد إذا اختلف الحكمان ولم يتفقا. ولكنا نتوكل على الله وسنجد حكما عادلاً بإذنه تعالى.»

كان جندب وعمرو قد تحادثا مراراً وتكراراً بعد صفين، حول عقد التحكيم، وضحايا الحرب ومخاطر استمرارها أو عودتها. كان السبب الذي أدى إلى سرعة التوقيع على عقد التحكيم من دون ضبط كل شؤونه، هو كثرة القتلى بين الطرفين، وتخوفهما من إطالة الحرب إذا اختلفا حول بنود معينة في العقد، فوافقا على صيغته السريعة وتوكلا على الله. لقد أكلت الحرب أكثر من ثمانين ألفاً من شجعان وأنجاد المسلمين، أي نصف ما جمعه كل طرف تقريباً، ولو لم يشعروا بنيران الحرب لاستؤصلت البقية الباقية وضاعت الثغور

وارتد الناس عن الدين. وكان جندب يخبر عمراً كثيراً بمخاوفه أن ينتبه الروم للضعف الذي أصاب المسلمين وأن ينقضوا معاهدة الهدنة وينقضوا على الشام ومصر ويستعيدوهما من المسلمين. ذلك أن الخلاف بين المسلمين لم يكن دينياً أو اختلافاً على صد عدوان خارجي يسهل تجديد توحيد الناس، وإنما الفتنة والاختلاف حول تثبيت حق علي بن أبي طالب في كرسي الخلافة. طرف يؤيد حق ابن عم الرسول في الخلافة، وطرف آخر يؤيد أخذ القصاص لمقتل الخليفة عثمان ولا يرون شرعية لمبايعة علي الذي أوى القتلة في جيشه. كل من علي ومعاوية يعرفان تمام المعرفة أن أيا منهما لن يصل إلى مبتغاه إلا على عشرات آلاف جثث المسلمين المغرر بهم، وأن الإسلام سيكون ضحية لهذا الاقتتال إن آجلاً أو عاجلاً. لم يكن بوسع جندب أن يطلب من معاوية التنازل عن موقفه، لكن عمرو أيد أن يتبارز كل من علي ومعاوية في بداية مجزرة صفين لحقن الدماء. آنذاك كان علي قد طلب المبارزة على أن يفوز المنتصر بالخلافة، ولكن معاوية، الذي لا يطالب بالخلافة جهاراً، استدار وغادر الساحة بالرغم من نصيحة عمرو له بأن يبارز خصمه.

لم يُلمح جندب لمعاوية بحل تأجيل القصاص، لأنه يعرف أن معاوية وعلياً على تباين تام وكل منهما مقتنع أنه على صواب وأن تخليه عن موقفه سيضر بالأمة. علي بن أبي طالب يرى لنفسه الفضل والسابقة والقرابة، وهو ما لا يتمتع به أي إنسان آخر الآن، وهو مقتنع أن الأشياخ من أصحاب الرسول يعرفون ذلك ويغضون عنه البصر. كما أن علياً يرى في خصمه انحطاطاً لا مثيل له، فهو من الطلقاء الذين حاربوا الرسول قبل فتح مكة، ودخلوا الإسلام كرهاً إذ لم يجدوا مناصاً. وتأكد علي من حقه المسلوب بعد مبايعة الناس له

بالخلافة وكثرة مناصريه سلماً وحرباً، فكيف له أن يتنازل الآن عما كان يسعى إليه منذ وفاة الرسول؟ لذلك حرك علي قواته لمواجهة معاوية وأهل الشام، ولو لم يسر إليهم لما سعوا إليه.

على الطرف الآخر فمعاوية بن أبي سفيان بن حرب يرى نفسه عظيماً من عظماء قريش، فهو ابن شيخها ويعادل في الرفعة علياً إذ يلتقيان عند الجد عبد مناف. ويرى معاوية أن الرسول والخلفاء الثلاثة من بعده وثقوا به في ولايته للشام، وهو من كتبة القرآن حين كان ينزل على الرسول الذي تزوج أخته، ولديه قوات كثيرة وحسنة التدريب ومطيعة عملت على حماية الثغور حتى الآن وغزت في البحر والبر. ويعرف معاوية أن علياً يحتقره، إذ كان أول عمل له بعد توليه الإمامة عزل معاوية عن الشام، وكان السفراء إليه قبيل صفين ينضحون بالكراهية والتقريع لمعاوية بأمر من علي. ومعاوية يرى مبررات التمرد على علي لأنه لم يستشر في البيعة وهو من عظماء الأمة ولديه مئتا ألف من الجند، وهناك الكثير من الصحابة رفضوا مبايعة علي، وإن الذين ندبوه إلى الخلافة هم قتلة الخليفة عثمان، وقد آواهم في جيشه ورفض القصاص منهم، ولهذا لم يكن من الممكن لمعاوية أن يبايع علياً ويجلس بانتظار المذلة والمهانة التي ستلحق به. هكذا انتهى الأمر آنذاك إلى الحرب، ومن ثم التوصل إلى عقد التحكيم، ولكن على الأرجح أن مواقف علياً ومعاوية لن تلتقي أبداً، فعلي يريد أن يأخذ البيعة قبل كل شيء، ومعاوية يريد القصاص لعثمان ثم تحويل أمر اختيار الخليفة إلى الشورى، أي أنه لن يبايع علياً ويريد عزله قبل اختيار خليفة جديد عبر الشورى بين المسلمين، وهو أمر غير قابل للتطبيق لصالح أي من الرجلين لأن رجال كل طرف في مجلس الشورى سيقفون ضد الآخر. هذا ما دار في رأس جندب وهو يراقب عمراً وأبا موسى يتشاوران فيما إذا أرادا

إشراك آخرين في جلساتهم، ثم أصبح عليه الانتظار مع الآخرين للنتيجة بعد أن قررا الاختلاء في مشاورتهما.

«ألست تعلم أن عثمان قُتل مظلوماً؟»

«أشهد على ذلك.» أجاب أبو موسى نظيره عمرو في بداية الجلسات للتوصل إلى حكم.

«ألست تعلم أن معاوية وآل معاوية هم أولياؤه؟»

«بلى هو وهم كذلك.»

«فإن الله يقول: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ فما يمنعك من معاوية ولي عثمان يا أبا موسى وبيته في قريش كما علمت؟ فإن تخوفت أن يقول الناس ولى معاوية وليست له سابقة، فإن لك بذلك حجة، تقول: إني وجدته ولي عثمان الخليفة المظلوم، والطالب بدمه، الحسن السياسة، الحسن التدبير، وهو أخو أم حبيبة زوج رسول الله، وكان كاتب الوحي لرسول الله وقد صحبه فهو أحد الصحابة. ثم تحدث عمرو عن ثقة الخلفاء الثلاثة به وعن كرم معاوية مع من يناصرونه، حتى قاطعه أبو موسى مذكراً له أن قضية اللقاء هي الفصل في شأن القصاص، وأضاف:

«اتق الله يا عمرو، فأما ما ذكرت من شرف معاوية فإن هذا ليس على الشرف يولى أهله. ولو كان على الشرف لكان هذا الأمر لآل أبرهة بن الصباح، إنما هو لأهل الدين والفضل مع أني لو كنت معطيه أفضل قريش لأعطيته علي بن أبي طالب. وأما قولك إن معاوية ولي دم عثمان فوله هذا الأمر (الخلافة)، فإني لم أكن لأوليه معاوية وأدع المهاجرين الأولين. وأما تعريضك لي بالسلطان،

فوالله لو خرج لي معاوية من سلطانه كله ما وليته وما كنت لأرتشي في حكم الله عز وجل.» احتد أبو موسى قليلاً كونه اعتبر حديث عمرو عن كرم معاوية محاولة لإغرائه، ثم عاد ليقول لعمرو: «لكنك إن شئت أحيينا اسم عمر بن الخطاب.» للخلافة المؤقتة ريثما يختار المسلمون من أرادوا.

«إن كنت تحب بيعة ابن عمر فما يمنعك من ابني وأنت تعرف فضله وصلاحه».

«إن ابنك رجل، ولكنك قد غمسته في هذه الفتنة.» كان عبد الله بن عمرو يقول أثناء صفين لمن يسأله عن اشتراكه في الحرب: إن الرسول أوصاه بطاعة أبيه. أما عبد الله بن عمر بن الخطاب فقد اعتزل الفتنة على عكس أخيه عبيد الله الذي قتل في صفين.

هكذا تأكد أن الرجلين صارا الآن متفقين ضمناً على وقف الحرب وذلك بإبعاد القائدين المتقاتلين. إبعاد علي عن الخلافة مؤقتاً، وعدم ترشيح معاوية لها الآن، وأنهما لم يتفقا بعد على اختيار من سيكون البديل المؤقت. المهم هنا أن عقد التحكيم لا يطالب أو يخول الحكمين باختيار خليفة جديد، بل أن علياً أرسل أبا موسى وهو مقتنع أنه سوف يؤيده، بينما معاوية لم يعلن نفسه خليفة ولم يرشح نفسه لذلك، بل يطالب بالقصاص وباختيار خليفة عبر الشورى، قد يكون علي أو معاوية أو غيرهما. عقد التحكيم مفاده (النزول عند حكم الله عز وجل وكتابه...) وهذا الموقف من الحكمين لا علاقة له بالقرآن وما جاء فيه، ولو اعتمدا القرآن لعملا مثلاً على الصلح حسب قوله تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ﴾ ولم يكن من المستحيل، بعد قتل عشرات آلاف المسلمين، أن يتصالح علي ومعاوية. مثلاً الأول يبقى

والياً للشام والآخر يبقى خليفة مُبايعاً من الجميع، وقصاص لاحق للقلة الباقية من قتلة عثمان الذين لم يقتلوا بعد في موقعة الجمل وفي صفين.

«لو عمل علي بما في كتاب الله واقتص من قتلة عثمان لما وصلنا إلى هذا الحال. إذا تمكن علي من القصاص الآن يمكننا العمل بقوله تعالى بالصلح بين طائفتين من المؤمنين، وأكاد أن أجزم أن معاوية سيبايع علياً حتى وإن كانت النتيجة عزله عن الشام.» لم يجزم عمرو بأن معاوية سيبايع بالفعل لو تم ما طالب به من القصاص، ولكنه متأكد الآن أن علياً لن يقتص من قادة جنده الذين قتلوا عثمان، والذين قاتلوا معه في موقعة الجمل وفي صفين.

«هذا يعني أن الخليفة سيكون عليه الأخذ بالقصاص، ولكن أيضاً يجب على معاوية أن يكف عن الضغط ويعطي الخليفة فرصة للعمل بكتاب الله، وبالطبع كما سنخلع علياً من الخلافة، سنخلع معاوية عن إمارة الشام.»

«هذا لا يجوز.» قال عمرو لأبي موسى وتعلل بأهمية استمرار معاوية في منصبه كونه الأفضل الآن لحماية الثغور وحتى لا يتفكك جيش الشام بعد أن أنهكته الخسائر في صفين، وقال لا يمكن أيضاً عزل من يطالب بالقصاص وبتطبيق كتاب الله عز وجل.

«لك هذا يا أبا عبد الله. يبقى معاوية والياً للشام، ويبقى علي أميراً للمؤمنين، حتى نختار خليفة، ولكنه وإياك تستبعدون من مجلس الشورى»

«فأين تجعلني أنا ومعاوية؟»

«يمكن أن يستعان بكما، ففيكما معونة، وإن يستغن عنكما فطالما استغنى أمر الله عنكما.»

«وأين أصبحنا من القصاص لدم الخليفة عثمان؟»

«سنطالب أمير المؤمنين علي بأخذ القصاص، فإن فعل سيكون هذا في صالحه عندما يجتمع مجلس الشورى ليختار خليفة، وإذا قصر في ذلك سيكون أخذ القصاص شرطاً يجب أن يطبقه أي خليفة يتم اختياره.» قال أبو موسى وأضاف موضحاً: «رأيي أن نجعل الأمر شورى بين المسلمين فيختاروا لأنفسهم من أحبوا.»

«إن الرأي ما رأيت.» أجابه عمرو مؤيداً، ثم تساءل إذا كان عقد التحكيم يخولهما بعمل ذلك.

«نلتزم بكتاب الله، وبما فيه من أوامر بالصلح، فإذا تقبل الجميع حكمنا، استمر الصلح ريثما يتشكل مجلس الشورى ويختار لجميع المسلمين.»

«من سنختار لمجلس الشورى؟» سأل عمرو نظيره وكان دوماً يقدمه على نفسه لكبره في السن وقربه من رسول الله.

«الذين بقوا من شيوخ الإسلام ممن مات الرسول وهو عنهم راض.» صمت أبو موسى قليلاً وكرر «الذين بقوا...» فطمأنه عمرو بأنهم كثر وأن الذين اعتزلوا الفتنة من الشيوخ لا يستهان بعددهم والكثير منهم ينتظرون في الخارج نتيجة التحكيم.

المعتزلون للفتنة لم ينكروا حق علي في الخلافة، ولكنهم لم يكونوا مستعدين للخوض في دماء المسلمين معتمدين في ذلك على نصائح سمعوها من الرسول مباشرة، ولم يؤيدوا خروج علي للقتال لأخذ البيعة بالقوة حتى لا يصبح باغياً على مسلمين آخرين. لهذا بالذات لم يعترض عمرو بن العاص على مقترحات الحل وتشكيل مجلس شورى، فهو شبه مقتنع أن القوم لن يختاروا علياً لأنه خاض في دماء المسلمين وأباد نصف جيشهم. وإذا كان

بعضهم اعتبر سابقاً أن عثمان اجتهد في الأموال، كما يُتهم، فعلي اجتهد في الدماء إذ رأى القتال سبيلاً إلى توحيد الجماعة وفرض الطاعة.

اجتمع عمرو وأبو موسى فوراً بمن وُجد من الصحابة الذين اعتزلوا الفتنة وحضروا إلى دومة الجندل مع الحكمين، ومنهم عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن الزبيروالمغيرة بن شعبة والأحنف بن قيس، ومن غير المعتزلة وُجد أيضاً عبد الله بن العباس، وشريح بن هانئ الحارثي، وشرحبيل بن السمط وعبد الرحمن بن الحارث، وغيرهم من الوجوه الذين حضروا ضمن المرافقين لكل من عمرو وأبي موسى.

«الخلاف في قتل الخليفة عثمان كان السبب في الاقتتال بين المسلمين.» قال أبو موسى للذين وجدوا بالقرب منهم، وأكمل: «أهل الشام طالبوا بالقصاص من قتلة عثمان وجعلوه شرطاً لبيعة علياً بن أبي طالب، وأهل مكة استنفروا الناس وجمعوهم للمطالبة بدم الخليفة، لكن الإمام علياً رأى تأخير القصاص ريثما يتمكن، وأصر على رأيه بالرغم من رأي مقربين إليه نصحوه بعدم الخروج للقتال لأخذ البيعة بالقوة.» فهم المستمعون أنه يقصد الحسن وابن عباس اللذين اعترضا على علي ولكنهما خرجا معه للقتال. «عشرات الصحابة، وبعضهم معنا اليوم، اعتزلوا الفتنة ورفضوا الخروج للقتال.»

«الإمام علي أصر على استخدام القوة ضد من لم يبايعه وقرر الخوض في الدماء بعد أن زين له قتلة عثمان الأمر لأنه يعزز مواقعهم ويحميهم من القصاص.» أضاف عمرو ما عرف أن أبا موسى لن يذكره أمام الحضور، الذين أخذ عددهم في التزايد، حتى لا يُحسب السكوت ضده فيما بعد بين قومه.

«لقد أيدت علي بن أبي طالب وأقررت أنه تجب له البيعة من معاوية، ومن أهل الشام، وبعد أن تستقر الأمور يُؤخذ الثأر من قتلة عثمان بن عفان رضي الله

عنه. لكن عمرو بن العاص مندوباً عن معاوية، طالب بقتلهم أولًا، أو تسليمهم إليهم ليقتلوهم، وبعدها يبايعون. تحدثنا في هذا الأمر كثيرًا، ولم نصل إلى اتفاق حول البيعة والقصاص ولهذا اتفقنا على ترك أمر تحديد الخلافة إلى مجموعة من الصحابة الذين توفي رسول الله (ص) وهو عنهم راضٍ، وهم أعيان الصحابة وكبارها، ويمكن أن يكون فيهم علي بن أبي طالب، ولا يكون فيهم معاوية بن أبي سفيان، ولا عمرو بن العاص، ولكن يُستعان برأيهما إن رأى القوم أن يستعينوا برأيهما، وإن لم يروا فلا يستعينوا برأيهما.» كان عمرو يستمع مثل البقية من دون تعليق.

«ومتى يصدر قرار مجلس الشورى؟» سأل عبد الله بن الزبير الحكمين اللذين ظهرت علامات الارتياح عليهما كون السائل هو عبد الله، جده أبو بكر، وعمته خديجة، وخالته عائشة، وجدته صفية عمة الرسول، وسؤاله يدل عن رضاه بنتيجة التحكيم.

«يتشاور أعضاء المجلس لمدة عام ثم يلتقون هنا في دومة الجندل لينهوا تشاورهم ويعلنوا عن اختيارهم. وإلى أن يحين الموعد يحكم كلٌ من علي بن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان ما تحت يده في الدولة الإسلامية، وتجب الطاعة من الجميع للخليفة الجديد.»

« كان الأفضل لو وضع الإمام علي منذ البداية يده في يد الشيوخ معتزلي الفتنة وشيعته وأهل الشام سعياً لتحقيق الاقتصاص من جماعة لا يزيد عددهم عن 2500 شخص، كان يسهل قتالهم من قبل مئات آلاف الراضين عن القصاص.» قال الأحنف بن قيس الذي كان مع علي ثم اعتزل الفتنة رافضاً قتال من يقولون لا اله إلا الله. وسُمع صوت من بين أهل الشام الذين توافدوا للاستماع، يقول: القصاص من قتلة عثمان شرعي ومؤيد بكتاب الله، بينما

البغي على الممتنعين عن البيعة يتطلب من بقية المسلمين مقاتلة الطائفة الباغية حتى تفيء إلى أمر الله.

«لقد انتهينا من القتال يا عباد الله.» قال عمرو بصوت مرتفع، وأكمل «وتوصلنا إلى حكم يصلح بين الطائفتين، والحاضر يبلغ الغائب.»

25

تفرق المسلمون عن دومة الجندل، على الاتفاق المعلن بين الحكمين، وهم راضون تماماً، حتى يجتمع كبار الصحابة لتحديد الخليفة المناسب لمرحلة ما بعد الاقتتال. لكن قبل أن يصل الخبر إلى علي بن أبي طالب جاءه أحد القراء من الجماعة التي خرجت عليه وعادت، فقال: «إن الناس تحدثوا عنك أنك رجعت لهم عن كفرك». لقد وصل إذاً، خبر الاتفاق في دومة الجندل إلى القراء في الكوفة قبل أن يصل إلى الإمام علي، الذي خرج إلى صلاة الظهر، وعاب أمر القراء فثاروا في ناحية من المسجد يقولون: «لا حكم إلا لله».

«نعم لا حكم إلا لله، إنها أكبر كلمة حق يلتمس بها باطل. إما أن لكم عندنا ثلاثاً ما صحبتمونا: لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا اسمه فيها، ولا نمنعكم الفيء ما دامت أيديكم مع أيدينا، ولا نقاتلكم حتى تبدؤنا.»

سمع القراء كلام علي فخرجوا من المسجد واجتمعوا في منزل عبد الله بن وهب الراسبي الذي خطب بهم وأشعل حماسهم وحثهم على الهجرة من الكوفة: «فاخرجوا بنا من هذه القرية الظالم أهلها، إلى بعض كور هذه الجبال أو إلى بعض هذه المدائن منكرين لهذه البدع المضلة.» قبل قرار الخروج أراد القراء أن يولوا أمرهم رجلاً فعرضوا الولاية على رموزهم ولكنهم أبوها، حتى

عرضوها على عبد الله بن وهب فقال: «هاتوها، أما لا آخذها رغبة في الدنيا ولا أدعها فرقاً من الموت.» هكذا بايعوه واتفقوا على الخروج سراً ووحدانا حتى يجتمعوا في جسر النهروان، وكتب واليهم الجديد إلى من في البصرة منهم يبلغهم بما اجتمعوا عليه ويطالبهم باللحاق بهم في جسر النهروان، فاجتمع منهم أربعة آلاف، ولا يعلم إلا الله كم بقي منهم بين الناس في المدن ولم يلتحقوا بالنواة.

وصل خبر الاتفاق وتفاصيله مع الذين عادوا من دومة الجندل، ولم يكن بينهم أبو موسى الأشعري، الذي توجه إلى مكة، لظنه أن نتيجة التحكيم لن تعجب علياً. وقد صدق ظنه، فما إن استوثق علي من الخبر حتى خطب في الناس محملاً إياهم مسؤولية هذا القرار لأنهم خذلوه وأصروا على التحكيم أثناء حرب صفين. وطالب الناس أن يستعدوا ويتأهبوا للمسير إلى الشام وأن يصبحوا في معسكرهم. ورأى علي أن يحل عصيان القراء بإبلاغهم أنه خارج إلى الشام وظن أن هذا سيرضيهم ويضمهم إليه كونهم كارهين للتحكيم. كتب القراء إليه رداً على كتابه جاء فيه: أما بعد فإنك لم تغضب لربك وإنما غضبت لنفسك. فإن شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة نظرنا فيما بيننا وبينك، وإلا فقد نابذناك على سواء، إن الله لا يحب الخائنين.

انعدم أمل علي في القراء، فقرر الخروج بدونهم إلى معسكر النخيلة، وكتب إلى ابن عباس أن يواتيه بالجند من البصرة، فلم يخرج منها سوى ألف وخمسمئة، وكان ديوان أهل البصرة يحوي ستين ألف مقاتل سوى أبنائهم وعبيدهم ومواليهم. عندما شاهد علي قلتهم طالب بإحصاء أبناء المقاتلة وعبيدهم ومواليهم، فكانوا سبعة عشر ألفاً من الأبناء وثمانية آلاف من الموالي

والعبيد، فأصر على تجميع أعداد أكثر من البصرة وأخرج الناس بتهديد خصم فيئهم من الديوان إذا تقاعسوا. في هذه الأثناء تواردت أنباء أفعال مستنكرة من القراء أخافت الناس على ترك عوائلها وأملاكها. فقد ذبحوا الصحابي عبد الله بن خباب وبقروا بطن زوجته الحامل.

حملوا لواء التكفير في وجه خصومهم الذين يخالفونهم الرأي واستباحوا لأنفسهم قتل المسلمين المخالفين لهم، وكفروا مرتكب المعاصي، كشارب الخمر والزاني. أثناء انشغال علي بجمع جيشه عقدت جماعة من القراء الخوارج العزم وخرجت تطوف وتلتقي بالناس وتهددهم بالقتل والتنكيل، ما لم يساندوهم في تكفير الإمام علي بن أبي طالب، لأنه تقبل فكرة تحكيم البشر أثناء حرب صفين. وسمع عبد الله بن خباب بقدومهم إلى قريته، وهو أقرب الناس لمناصرة علي في الخلافة، وممن حضروا التحكيم وعاد للتو من دومة الجندل، فخرج هو وزوجته، وكانت حبلى. فأوقفوه وسألوه في موضوع التحكيم وتكفير علي، فكان رده أن علياً أعلم بالله وأشد حرصاً على دينه. أثناء محادثتهم له سقطت رطبة من نخلة، فألقاها أحدهم في فيه، فأنكر عليه الآخرون ذلك لأنه لم يدفع ثمنها ولم يستأذن من صاحب النخلة. اطمأن خباب، وتواصل حديثهم معه، ولكن لم يعجبهم كلامه، فاتهموه أنه يشهد بالهوى، رموه فوق خنزير قتلوه للتو، ثم ذبحوه وأسالوا دمه في النهر، وعادوا لزوجته التي توسلت إليهم فبقروا بطنها، وكانت متئماً، وقتلوا أيضاً ثلاث نسوة من طيء كن معها، وقتلوا الصحابية أم سنان الصيداوية. قتلوهم دون ذنب وظنوا أنهم فعلوا خيراً بهذه الجرائم حتى يرهبوا الآخرين، وساقوا حجتهم أن هذا الصحابي أصبح كافراً لأنه ناصر علي.

انتشرت قصص الفظاعات في معسكر علي، فأرسل رسولاً للقراء ليعلم جلية الأمر، فقتلوه. قال أصحاب علي: يا أمير المؤمنين علام تدع هؤلاء وراءنا يخلفوننا في أموالنا وعيالنا؟ سر بنا إلى القوم، فإذا فرغنا منهم سرنا إلى أهل الشام. ولم ير علي مناصاً من مناجزة القراء، وكان يأمل أن يسير إلى الشام من دون الدخول في معارك أخرى.

نادى المنادي في الناس للرحيل، فعبروا الجسر وصلى علي في الناس ركعتين، ثم سلك دير عبد الرحمن، فدير أبي موسى، ثم شاطئ الفرات، حيث التقاه مُنجم أقترح عليه أن يسير في أوقات محددة من النهار، فسار علي على خلاف ما قال المُنجم حتى يبين للناس خطأ المنجمين، وحتى لا يقول جاهل: إننا انتصرنا بمساعدة مُنجم. سلك علي ناحية الأنبار وبعث قيس بن سعد للمدائن ليحضر نائبها سعد بن مسعود في جيش المدائن، والتقى الجميع حيث تجمع القراء الخوارج. هكذا سار علي إليهم ولقيهم، فطالبهم بدفع القتلة ليقتص منهم بمن قتلوا ظلماً، وقال لهم إنه سيكف عنهم بعد القصاص ليذهب إلى أهل الشام. ردوا عليه إنهم كلهم شاركوا في القتل وإنهم يستحلون دماءه ومن معه. لم يناجزهم الإمام على الفور وأرسل إليهم قيس بن سعد بن عبادة فوعظهم، من دون جدوى، ثم نصحهم أبو أيوب الأنصاري ووبخهم، فلم يفلح في ردعهم، وتقدم أمير المؤمنين وأبلغ إليهم في المواعظ والتحذير والخطب الرنانة فلم يسمعوا. ومما قاله لهم علي: أنكرتم علي أمراً أنتم دعوتموني إليه فنهيتكم عنه فلم تقبلوا وها أنا وأنتم فارجعوا إلى ما خرجتم منه ولا ترتكبوا محارم الله فإنكم قد سولت لكم أنفسكم أمراً تقتلون عليه المسلمين، والله لو قتلتم عليه دجاجة لكان عظيماً عند الله، فكيف بدماء

المسلمين؟ كان جوابهم أن تنادوا فيما بينهم بعدم المخاطبة وأن يتهيأوا للقاء الرب عز وجل، وهتفوا: الرواح الرواح إلى الجنة.

تقدم القراء للقتال فجعلوا على ميمنتهم زيد بن حصن الطائي السنبسي، وعلى الميسرة شريح بن أوفى، وعلى خيالتهم حمزة بن سنان، وعلى الرجالة حرقوص بن زهير السعدي.

أمر الإمام علي أبا أيوب أن يرفع راية أمان وينادي: من جاء هذه الراية منكم ممن لم يقتل فهو آمن، ومن انصرف إلى الكوفة أو المدائن وخرج من هذه الجماعة فهو آمن، إنه لا حاجة لنا بكم بعد أن نصيب قتلة أخوتنا. استجاب البعض للنداء وبقي ابن وهب ومعه ألفان وثمانمئة، من أصل أربعة آلاف، وكان علي قد أمر جنده أن لا يكونوا الباغين المعتدين.

زحف من بقي من القراء، ومعهم عبد الله بن وهب، إلى جيش الإمام علي الذي قدم الخيل وأخفى خلفهم الرماة، وصف الرجالة وراء الرماة، وأعاد القول لأصحابه: كفوا عنهم حتى يبدأوكم. انتصف النهار وتشوق القراء للقتال وصاح مناديهم: هل من رائح إلى الجنة؟ فأجابوه جميعاً: الرواح إلى الجنة، لا حكم إلا لله، وحملوا على خيالة الإمام. فتح لهم الخيالة المجال وانشقوا يميناً ويساراً فوجد القراء أنفسهم في مواجهة النبل يطلقه الرماة، فصرع منهم خلقاً كثيراً، ثم التف شقا الخيل عليهم من الخلف، والرجالة من الأمام، ونهض إليهم الرجال بالرماح والسيوف فأناموهم وصاروا صرعى تحت سنابك الخيول. ولم تمر ساعة حتى قُضي عليهم، وقتل أمراؤهم: ابن وهب، وحرقوص، وشريح، وغيرهم ولم ينج سوى أربعمئة جريح سلمهم الإمام علي إلى أقاربهم وأبناء قبائلهم في جيشه ليعتنوا بهم، وقسم المنتصرون

سلاح القتلى والجرحى، ولم يخمس الإمام ما أصاب منهم بل رده إلى أهلهم ماعدا السلاح والخيل فقد احتفظ بها ليستعين على قتال أهل الشام. كان هذا ما طُبق أيضاً في موقعة الجمل، وفي صفين، حيث كان القتال بين مسلمين، واستنبط الإمام علي وطبق أحكام قتال البغاة لأول مرة في الإسلام، وهي عدم قتل الجرحى، ولا أسر ولا سبي ولا نهب أو تخميس، فالطرفان مسلمان يشهدان أن لا اله إلا الله، وليسوا كفاراً مشركين.

بعدما انصرف علي عن النهروان، قام، كعادته، في الناس خطيباً، فقال: أما بعد فإن الله قد أعز نصركم فتوجهوا من فوركم هذا إلى عدوكم من أهل الشام. وتحدث يشجعهم على الاستعداد، حتى انتهى. فقال له الأشعث بن قيس بعد الخطبة: يا أمير المؤمنين، نفذت نبالنا وكلت سيوفنا ونصلت أسنتنا، فانصرف بنا إلى مصرنا حتى نستعد بأحسن عدتنا، ولعل أمير المؤمنين يزيد في عدتنا عدة من فارقنا وهلك منا فإنه أقوى لنا على عدونا. وافقهم الإمام على مضض ونزل بهم معسكر النخيلة وأمرهم أن يلزموا معسكرهم ويوطنوا أنفسهم على جهاد عدوهم ويقلوا من زيارة نسائهم وأبنائهم. لكن فشى بين الناس حزن شديد وتساؤلات كثيرة. عم الحزن لأن الصرعى من القراء الخوارج هم أخوة وأبناء وأقارب للذين قتلوهم، فهذا عدي بن حاتم يقاتل مع علي ضد ابنه زيد على طرف القراء، كل منهم يعتقد أنه على الصواب، ولكن في النهاية جميعهم أقارب وأصهار خصوصاً أن القراء من الكوفة والبصرة وجيش علي من هناك أيضاً، وليس مثل يوم الجمل حين تقاتل أهل البصرة مع أهل الكوفة. ومن التساؤلات التي انتشرت في معسكرهم بعد مذبحة القراء في النهروان، لماذا لا يعطي الإمام أهل الشام فرصة ويتركهم في حالهم كما هي سياسته مع بقية

المسلمين، بل يريد الخروج إليهم والبغي عليهم بالرغم من حكم الحكمين؟ لم يسألوه عن ذلك، ولكنهم تسللوا من المعسكر حتى لم يبق منهم أحد إلا الرؤساء من أصحاب الإمام، فخطب فيهم كلاماً مطولاً ووبخهم وأنبهم وتلا عليهم آيات في الجهاد، ولكن هذه البقية الباقية أبت أن تعيد الناس إلى القتال، فتركهم علي ودخل إلى الكوفة يائساً من أهل العراق، بينما معاوية ينعم برضا شيعته في الشام ويرضيهم.

لم يطل يأس الإمام من شيعته فعاد يدعوهم إلى الخروج، وذلك حسب ما قال له قادتهم إنهم بحاجة إلى بعض الراحة، وقد استراحوا. أخذ يحثهم على الجهاد وهم يسمعون ولا يفعلون شيئاً. أمهلهم أياماً أُخر وعاد يخطب فيهم: «يا عباد الله ما بالكم إذا أمرتم أن تنفروا في سبيل الله تثاقلتم إلى الأرض؟ أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة بدلاً، وبالذل والهوان من العز والكرامة خلقاً؟ أفكلما دعوتكم إلى الجهاد دارت أعينكم في رؤوسكم كأنكم من الموت في سكرة وكأن قلوبكم قاسية، فأنتم أسود الشرى عند الدعة وحين تُنادون للبأس ثعالب رواغة، تُنتقص أطرافكم فلا تخاشون، ولا ينام عدوكم عنكم وأنتم في غفلة ساهون. إن لكم علي حقاً، فالنصيحة لكم ما نصحتم، وتوفير فيئكم عليكم، وأن أعلمكم كيلا تجهلوا، وأؤدبكم كيما تعلمون. وأما حقي عليكم فالوفاء بالبيعة، والنصح في المغيب والمشهد، والإجابة حين أدعوكم والطاعة حين آمركم».

سمعوه بالأذن ولم يصل كلامه إلى القلوب، فانصرفوا ولم يصنعوا شيئاً، لا نفروا لحرب، ولا أظهروا ميلاً سوى للدعة في مصرهم وبيوتهم. كانوا قبل النهروان في طريقهم مترددين إلى غزو الشام، فانعطفوا لقتل القراء في

النهروان فإذا بهم يفقدون أي رغبة في القتال بعد ذلك. ربما تذكروا وتذاكروا أن الإمام لم يدفعهم إلا إلى حروب يقتلون فيها مسلمين وأقارب وجيراناً وأبناء وأصدقاء وأنساباً، حروب تقطع الرحم، وليست حروباً للفتح كما تعودوا من قبله، حيث كانت الحروب توسع بلاد المسلمين وتعود على المجاهدين بالغنائم الجمة. توقف الفتح واضطربت دولة الإسلام، وعما قريب إذا استمر هذا الحال سيطمع الفرس والروم في استعادة بلادهم وغزو مكة والمدينة. ثم إن خيرة أصحاب الرسول قد اعتزلوا هذه الفتنة ولم يشاركوا في الجمل أو صفين أو النهروان، ولا يريدون غزو الشام، فهل يعقل أن هؤلاء على خطأ وأهل الحرب على صواب؟ هكذا لم يتجاوبوا مع خُطب الإمام الرنانة. أما علي فلم يعد يدري لهم طاعة أو يعرف لهم عصياناً، وصار منهم في شك ويأس عظيم.

في ظل هذه التساؤلات الكثيرة والشكوك المتنامية، وبالرغم منها، كان أهل العراق يعيشون في دعة، يصلهم فيئهم من دون قتال مما يُجبى من شرق بلاد المسلمين. ذلك أن علياً سار بعكس سياسة عمر بن الخطاب. أقام عمر الدواوين وعزز بيت المال واحتفظ للدولة بمصاريفها، وقد عارض علي ذلك في حينه، وعندما صار خليفة الآن طبق رؤيته الخاصة على بيت المال، وهي توزيع دائم لكل ما يصل البيت، بل كان يغسل البيت ويصلي فيه ركعتين بين حين وآخر، حتى لا يبقى فيه شيء يمكن أن يساء التصرف فيه، والتوزيع بالطبع يكون على أهل العراق، ولا يُرسل إلى بقية الأمصار أو إلى المدينة أو مكة.

لم يفقد الإمام كل الأمل من هذا الوضع وأولئك الناس، بل عندما وصله نبأ ثورة مصر على محمد بن أبي بكر، احتفظ بالأمل لقناعته أنه على حق وثقته

أن الله ناصره في النهاية. تندم حين سمع بخبر مصر وقال إنه لا يصلح لها الآن سوى أحد رجلين، هذا الذي عزلناه والأشتر. الذي عزله علي بمكر من معاوية هو قيس بن سعد، أما الأشتر فهو الآن عامل للإمام على الجزيرة. وكان قيس عندما وصله محمد بكتاب العزل قد نصحه أن لا يحارب المعتزلين في خربتا حتى لا يعظم شأنهم، ولكن محمد لم يستمع إلى النصيحة وأغار على العثمانية المعتزلين، فقاتلوه وهزموه وتقلقلت مصر على محمد، فأخبر الإمام بذلك، ولكن الخبر وصل بالطبع إلى معاوية أيضاً، الذي كان يتابع شؤون العراق ومصر والحجاز عن كثب بطاقم كبير من الجواسيس. كتب الإمام علي إلى الأشتر: إن مصر قد انتفضت على محمد بن أبي بكر، وإنه غلام ليس عنده تجربة، فاستخلف على عملك أهل ثقة وأحضر إلي.

في انتظار وصول الأشتر من الحجاز حاول الإمام مجدداً استثارة أهل الكوفة فربما أرسل مع الأشتر جيشاً منهم إلى مصر، ولكنهم كالعادة كانوا يسمعون ويمضون إلى سبيلهم، فصار يُسمعهم تعنيفاً حتى قال لهم يوماً: «... من فاز بكم فاز بالأسهم الأخيب. أصبحت لا أطمع في نصركم ولا أصدق قولكم. فرق الله بيني وبينكم، أبدلني بكم من هو خير لي منكم.» ولكنهم سمعوا وتفرقوا، فعاد إليهم في الصلاة وقد وضع المصحف على رأسه وقال: «اللهم إني سألتهم ما فيه فمنعوني ذلك. اللهم إني قد مللتهم وملوني، وأبغضتهم وأبغضوني، وحملوني على غير خلقي وعلى أخلاق لم تكن تُعرف لي، فأبدلني بهم خيراً لي منهم، وأبدلهم بي شراً مني، ومث قلوبهم ميث الملح في الماء.» ثم أنزل المصحف عن رأسه وأمهم في الصلاة.

وصل الأشتر الكوفة فولاه علي أمر مصر وقال له: أخرج رحمك الله

فإني لو لم أوصك اكتفيت برأيك واستعن بالله على ما أهمك فاخلط الشدة باللين، وارفق ما كان الرفق أبلغ، واعزم بالشدة حين لا يغني عنك إلا الشدة. قبل أن يغادر الأشتر الكوفة كان الخبر قد وصل إلى معاوية، فتدابر مع عمرو ابن العاص الملم بدروب مصر، وارتأوا رشوة احد أهل الخراج يملك نزلاً على الطريق، وأرسلا له من اتفق معه على إعفائه من الخراج ومكافأة نقدية إن أعفاهم من الأشتر، وزودوه بالسم الملائم. بعد ضبط الخطة أبلغ معاوية أهل الشام أن علياً أرسل الأشتر إلى مصر، وطلب منهم الدعاء لله أن يكفيهم الأشتر، فصاروا يدعون ليل نهار. نزل الأشتر في القلزم حيث الرجل في انتظاره، فقدم له منزلاً وطعاماً، وعلفاً لدوابه، وأشربه بعد الطعام عسلاً مسموماً.

نجحت الخطة، ومات الأشتر، ووصل الخبر إلى معاوية فخطب في الناس: أما بعد، فقد استجاب الله لدعائكم، فإن علي بن أبي طالب كان له يمينان، قطعت إحداهما يوم صفين (عمار) وقد قطعت الأخرى اليوم. ثم صار معاوية مع عمرو بن العاص في انبساط وقال: إن لله جنوداً من عسل. لقد حركت مصر بعد صفين مخاوف معاوية، فإذا وجد من يضبط وضعها لعلي تصبح الشام بين مصر والعراق. لهذا حاول معاوية استمالة قيس بن سعد، ثم أوقع بينه وبين علي الذي عزله عن مصر واستجلبه للكوفة وأشركه في صفين، وولى محمد بن أبي بكر مكانه.

عرف محمد أن الإمام عزله وأرسل الأشتر مكانه، ووصله نبأ موت الأشتر كما وصل علي في الكوفة. غضب محمد من الإمام لعزله، فاسترضاه الإمام برسالة مطولة وثبت منزلته على مصر بعد موت الأشتر، وقبل منه محمد

وأخذ يستعد لقتال العثمانيين مجدداً كما أمره إمامه، وكتب إليه: أما بعد فقد أنهي إلي كتاب أمير المؤمنين ففهمته وعرفت ما فيه وليس لأحد من الناس بأرضى مني لرأي أمير المؤمنين ولا أجهد على عدوه ولا أرأف بوليه مني. وقد خرجت فعسكرت وأمنت الناس إلا من نصب لنا وأظهر لنا خلافاً، وأنا متبع أمر أمير المؤمنين وحافظه وملتجئ إليه وقائم به والله المستعان على كل حال والسلام.

«أتدرون لماذا دعوتكم؟» سأل معاوية ضيوفه القرشيين، عمرو بن العاص، وحبيب بن سلمة، وبسر بن أبي أرطأة والضحاك بن قيس وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وغير القرشيين مثل أبي الأعور السلمي وحمزة بن مالك، وشرحبيل بن السمط. كلهم كانوا على اطلاع بما يجري في مصر ووعرفوا أن الإجابة عن سؤاله لسبب دعوتهم هو الاستشارة لغزو مصر وضمها إلى حكم معاوية في الشام. لقد كان هؤلاء القادة وغيرهم يشنون غارات على أطراف العراق لإخافة الإمام علي والإيقاع بينه وبين الرعية بإثبات ضعفه في حمايتهم. شجع الضيوف مُضيفهم على الغزو واستعدوا له بالتنفيذ، فقال معاوية لعمرو: أهمك ما أهمك؟ يريد بذلك سؤاله عن قيادة الحملة لمصر التي كان يعده بها إن هزموا علي بن أبي طالب. وأضاف معاوية على سمع الحضور: إن هذا قد ظن ثم حقق ظنه. فقال بعضهم إن الأمر لم يتم بعد وغير مؤكد. أضاف معاوية على مسامعهم: إن أبا عبد الله قد أصاب، ثم تحول حديث معاوية يذكرهم بما جرى وإن الله نصرهم وخرب بيوت أعدائهم «وجمع كلمتنا وفرق بينهم. لقد رأيت أن نحاول أهل مصر، فكيف ترون ارتثاءنا لها؟» وجه السؤال إلى عمرو وقد التفت إليه بقية الحضور.

«قد أخبرتك عما سألتني عنه، وقد أشرت عليك بما سمعت.»

«إن عمراً قد عزم وجزم ولم يفسر فكيف لي أصنع؟» قبل أن يجيب أحد من المدعوين وحتى لا تضيع مهمة فتح مصر من بين يديه اضطر عمرو لبعض التفصيل فقال:

«إني أشير عليك كيف تصنع. أرى أن تبعث جيشاً كثيفاً عليهم رجل صارم حازم تأمنه وتثق فيه، فيأتي مصر حتى يدخلها فإنه سيأتيه من كان من أهلها على رأينا، فظاهره على من بها من عدونا، فإذا اجتمع بها جندك ومن بها من شيعتك على من بها من أهل حربك رجوت أن يعين الله بنصرك ويظهر فلجك.»

«فهل عندك سوى هذا؟»

«لا.» أجاب عمرو وسكت ليرى إذا كان عند معاوية مخطط آخر أم أنه يريد إرسال غيره إلى مصر وخيانة كل الاتفاقيات السابقة معه.

أرى أن نكتب إلى من هم من أهل صلحنا وعلى مثل رأينا فنثبتهم ونقويهم ونمنيهم مجيئنا إليهم، ونكتب إلى أهل عداوتنا فندعوهم إلى صلحنا ونمنيهم شكرنا ونخوفهم حربنا. فإن صلح لنا قيامهم بغير قتال فذاك ما أحببنا وإلا كان حربهم من وراء ذلك كله. إنك يا ابن العاص امرؤ بورك لك في العجلة وأنا امرؤ بورك لي التؤدة.»

«أفعل ما رأيت فإني أرى والله أن أمرك وأمرهم يصير إلى الحرب العوان. ومهما يكن فجهز الجيوش وحركها ببطء وأرسل كتبك للمفاوضات مسرعة.»

خرجت الكتب من الشام إلى مخلد الأنصاري ومعاوية بن حديج الكندي في مصر، وهما من قادة من خالفوا الإمام علي وهزموا جند محمد بن أبي

بكر. طمأنهم معاوية وأبلغهم الاستعداد، فشكروه وتعجلوا حضوره وأقروا له بالسلطان، إذ كتبوا:... عجل علينا بخيلك ورجلك فإن عدونا قد كان علينا حرباً وكنا فيهم قليلاً، فقد أصبحوا لنا هائبين وأصبحنا لهم مقرنين، فإن يؤتنا الله بمدد من قبلك يفتح الله عليكم، ولا حول ولا قوة إلا بالله...عندما وصل هذا الرد إلى الشام طلب معاوية من عمرو التحرك وأرسل معه ستة آلاف وأوصاه بالإعذار إلى المخالفين والتأني والرفق والعفو عمن أدبر، وأعطاه كتاباً يرسله إلى محمد بن أبي بكر قبل شن القتال.

وصل عمرو أدنى مصر واجتمعت إليه العثمانية، فأرسل إلى محمد بن أبي بكر كتاب معاوية وكتب هو الآخر إليه: أما بعد، فتنح عني بدمك يا بن أبي بكر فإني لا أحب أن يصيبك مني ظفر. إن الناس في هذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك ورفض أمرك وندموا على اتباعك، فهم مسلموك لو قد التقت حلقتا البطان فاخرج منها إني لك من الناصحين. أما كتاب معاوية فكان أشد قسوة إذ ذكره بسفك دم عثمان الحرام، وإنه كان الأعظم بغياً على ابن عمه الخليفة المقتول وهدده بالجيش الذي سيجاهده وإنهم سيمثلون به وكتب أيضاً: أحببت أن يقتلوك بظلمك وقطيعتك وعدوك على عثمان يوم يطعن بمشاقصك بين خشائه وأوداجه، ولكن أكره أن يمثل بقرشي ولن يسلمك الله من القصاص أينما كنت والسلام.

أرسل محمد هذه الكتب إلى الإمام علي، وأبلغه أن ابن العاص حضر بجيش عظيم وكتب له: إن كان لك في أرض مصر حاجة، فأمدني بالرجال والأموال. والسلام. وجاء الرد إلى محمد أن يصبر وأن الدعم إليه قادم وطلب منه الإمام الرد على كتب معاوية وعمرو، ففعل، وقام يستجيش الناس ويؤلبهم

فناصره ألفان، ووقف مع حليفه كنانة بن بشر مثلهم، ونهضوا سوياً لصد ابن العاص الذي تعجل إليهم قبل أن يصلهم من العراق أي مدد. قُتل بشر بعد نصف نهار، وهو ممن قتلوا الخليفة عثمان، ثم تفرق الناس من حول محمد ولم يبق معه أحد، فهام على وجهه حتى وصل إلى خربة فدخلها وهو يكاد يموت من العطش، وكانت رائحتها نتنة من جثة حمار ميت فيها. استدل عليه معاوية بن حديج فوجده قد اختبأ في الجثة فأحرقها وهو بداخلها. وصفت مصر مجدداً وبسرعة لعمرو بن العاص.

في الكوفة تصادف أن جاء بعض قادتها إلى الإمام علي يسألونه رأيه في الخليفة أبي بكر، وكان خبر سقوط مصر قد وصله في ساعته مع الجند الذين أرسلهم لدعم محمد فبلغهم خبره قبل أن يبتعدوا عن الكوفة فعادوا للإمام. كان أهل العراق منذ النهروان قد تعودوا الجدال العقيم بعد أن اعتكفوا الحرب. قال لهم علي مجيباً على سؤالهم وقلبه ينفطر حزناً وغيظاً: «أوقد فرغتم لذلك وهذه مصر قد فتحها أهل الشام وقتلوا واليها محمد بن أبي بكر؟» خرجت مصر من خلافة علي بن أبي طالب، وانقسمت البلاد الإسلامية إلى قسمين منفصلين متحاربين. معاوية بن أبي سفيان في الشام ومعه مصر وما يليها من فتح أفريقيا، وعلي في الكوفة ومعه بقية بلاد المسلمين في الشرق وعماله في الجنوب حتى اليمن. وبينما لم يعدل علي عن رأيه بغزو الشام رغم كل الخذلان الذي يواجهه من شيعته، انتشى معاوية بالانتصارات والتفاف قادته حوله وطاعة الناس له، فصار يخطط لغزو العراق.

لم تقف محنة الإمام علي عند هذا الحد، فقد اكتشف أنه لم يقتل كل القراء الخوارج في النهروان، فالذين انسحبوا آنذاك وغيرهم من الأبناء

والأنصار يعايشونه في الكوفة ويعايشون عامله وابن عمه في البصرة. لم تغير الهزيمة آراءهم واشتعل حب الانتقام في قلوبهم. صاروا يكيدون ويمكرون ويحرضون على الإمام، ثم يخرجون مستترين ويسلون سيف المعصية على أطراف المدن والقرى. ومن لم يخرج منهم أصبح يقاطع الإمام في خطبه وصلاته داخل المسجد، ويجادله.

«والله لا أطعت أمرك ولا صليت خلفك.» قال الخريت بن راشد السلمي لعلي.

«ثكلتك أمك، إذاً، تعصى ربك وتنكث عهدك ولا تغر إلا نفسك. ولم تفعل هذا؟» سأل الإمام الخريت.

«لأنك حكمت في الكتاب، وضعفت عن الحق حين جد الجد، وركنت إلى القوم الذين ظلموا أنفسهم، فأنا عليك زارٍ وعليهم ناقم.» لم يعاقبه علي فقد كان الخريت رفيعاً في قومه، فاتفق معه أن يناظره في اليوم التالي. لكن الخريت خرج مع جماعته تحت جنح الليل، وكانوا ممن شاركوا علياً في الجمل وصفين. في الطريق التقوا يهودياً ومسلماً، فأطلقوا اليهودي لأنه ذمي، وقتلوا المسلم لأنه أجابهم عن علي خيراً حين سألوه عنه. وصل الخبر إلى الإمام فأرسل خلفهم قوة تناجزهم، وحين بلغتهم طلب قائدها من الخريت أن يسلمه قاتل المسلم ليقتص منه، فرفض واقتتلوا بقية النهار وفر الخريت ليلاً إلى البصرة. أرسل علي إلى عبد الله بن عباس في البصرة أن يمد الجيش ففعل، ولكن الخريت تمكن من الإفلات مجدداً. صار الخريت يبلغ العثمانية أنه مؤيدهم، ويقول للخوارج إنه معهم، وسار على الشاطئ والناس تنضم إليه، علوج ونصارى وموالٍ ومتخلصون من دفع الجزية ومرتدون عن الإسلام. استمر جيش الإمام يتابعهم حتى واجههم وقتل الخريت وكثرة من أتباعه

وأخذ البقية أسرى، فاعتق المسلم منهم فوراً، ومن ارتد واستتاب أطلق سبيله، وبقى حوالى خمسمئة سار بهم الجيش نحو الكوفة. في الطريق مروا بولاية فارسية عليها مصقلة بن هبيرة الشيباني عاملاً لعلي، فصار الأسرى يتصايحون ويستنجدون بمصقلة وكان معظمهم من قومه، بكر بن وائل. اشتراهم مصقلة من قائد الجيش وأعتقهم وانتهى الجيش إلى الكوفة، فأثنى الإمام على القائد لصواب رأيه، وأرسلوا إلى مصقلة ليسدد الثمن ولكنه تملص. أرسل علي إليه مجدداً من يقبض المال أو يقبض عليه ويسلمه إلى ابن عباس في البصرة. لم يدفع ولم يكن معه مال أصلاً، فحُمل إلى ابن عباس وأجاب أنه لا يملك المال وأنه لو كان طلب أكثر من هذا المال من ابن عفان لأعطاه. ثم هرب مصقلة من البصرة إلى الشام فأكرمه معاوية، أما علي فقد هدم منزله حين عرف بفراره وقال: ما له قاتله الله فعل فعلَ السيد وفر فرار العبد.

شعر أمير المؤمنين أن الدنيا تتنكر له، والعدو يمكر به، والصديق يلتوي عليه، وأخبار العطايا التي يرسلها معاوية إلى أشراف العراق تصله بانتظام، بعضهم يرحل إلى الشام وغيرهم يبقون بانتظار أن تصل الشام إليهم، حتى رعاياه من أهل مكة والمدينة كثر ترحالهم إلى معاوية وطلب الإمام من عماله أن لا يمنعوا بين الناس وترحالهم. صار الإمام كل يوم يواجه الضيق من القراء الخوارج، أو تصله أخبار غزو قوات معاوية لأطراف أو قلب البلاد التي هو خليفتها بينما يعجز عن رد العدوان عنها. صار الخليفة يحدث نفسه أثناء الوضوء: لتخضبن هذه من هذه، مشيراً إلى لحيته ثم إلى جبهته، ويضيف ما يؤخر أشقاها؟ فقد صار يتذكر ما قاله له الرسول، (ص)، بأنه سيموت مقتولاً وإن قاتله أشقى هذه الأمة.

26

تأخر الموت على الخليفة ولكن حضره ما هو أصعب منه حين اعتزل عبد الله بن عباس ولاية البصرة وحمل الأموال وترك ابن عمه. كان عبد الله صاحب رأي لعلي، وأعرف الناس به وأقدرهم على نصحه. نصحه بعدم الخروج إلى الشام، كما فعل ابنه الحسن، وطلب منه عدم الخوض في حرب الجمل، كما فعل الحسن، ورجاه أن لا يخوض الحرب في صفين، كما فعل الحسن، ولكن عبد الله، مثل الحسن خاض هذه الحروب إلى جانب ابن عمه. ولكنه رفض أن يشترك في قتال النهروان واكتفى بإرسال قوات للدعم من البصرة، ثم رفض أن ينضم إلى المعسكر استعداداً لغزو الشام بعد النهروان. لقد حطمت صفين الكثير من الناس ومنهم ابن عباس الذي يرى عاقبة الحرب يومياً، مثل انقلاب شيعة علي إلى الحرب السرية الداخلية ضد إمامهم، والانكفاء عن خوض الحرب العلنية ضد خصوم إمامهم، ومثل قتل علي للقراء وهم جماعته وأصحابه، وعجزه عن المضي إلى الشام، ثم عودته إلى الكوفة وعدم قدرته على الخروج منها. تأكد أن نجم ابن عمه أفل ونجم معاوية في سطوع.

تحت هذه الضغوط، على ما يبدو، تنعم ابن عباس قليلاً من بيت المال في البصرة، فشعر بشيء من التكير يبديه صاحب بيت المال، أبو الأسود الدؤلي، فأغلظ عبد الله لأبي الأسود، فكتب هذا إلى علي في الكوفة: أما

بعد فإن الله جعلك والياً مؤتمناً وراعياً مسؤولاً. وقد بلوناك فوجدناك عظيم هذه الأمة ناصحاً للرعية توفر لهم فيئهم، وتظلف نفسك عن دنياهم، فلا تأكل أموالهم ولا ترتشي في أحكامهم. وإن عاملك وابن عمك قد أكل ما تحت يده بغير علمك، ولا يسعني كتمانك ذلك. فانظر رحمك الله فيما قبلنا من أمرك واكتب إلي برأيك إن شاء الله والسلام.

لم يتشكك الخليفة في شكوى صاحب بيت المال باتهام أقرب الناس إليه، فكتب رسالة لأبي الأسود وأخرى إلى عبد الله. كان من الأفضل لو أرسل في طلب ابن عمه، أو حمل نفسه من الكوفة إلى البصرة ليرى ويسمع ويحكم، ولكنه كتب إلى الأول: أما بعد. فقد فهمت كتابك. ومثلك نصح للإمام والأمة، ووالي على الحق وفارق الجور. وقد كتبت إلى صاحبك فيما كتبت إلي فيه من أمره ولم أعلمه بكتابك إلي فيه. فلا تدع إعلامي ما يكون بحضرتك مما النظر فيه للأمة صلاح، فإنك بذلك محقوق، وهو عليك واجب والسلام.

وكتب الإمام في الوقت نفسه الى عبد الله بن عباس من دون أن يخبره عن مصدر المعلومات إذا كانت مؤكدة أو مكيدة أو شائعة مغرضة: أما بعد. فقد بلغني عنك أمر إن كنت فعلته فقد أسخطت ربك وأخربت أمانتك وعصيت إمامك وخنت المسلمين. بلغني أنك جردت الأرض وأكلت ما تحت يديك، فارفع إلي حسابك واعلم أن حساب الله أشد من حساب الناس.

اعتبر ابن عباس هذا الكتاب اتهاماً له من إنسان كان يعتبر نفسه شريكاً معه في الضراء والسراء منذ البداية، فلم يكن يعتبر نفسه والياً على البصرة ولكنه هنا ليضبط شأنها في هذه الظروف الصعبة. فكتب إلى ابن عمه: أما بعد. فإن الذي بلغك باطل، وأنا لما تحت يدي أضبط وأحفظ، فلا تصدق علي الأظناء، رحمك الله. والسلام. هذا بالطبع كتاب واضح موجز ينفي التهم، ولكنه لا

يقر برفع الحساب الآن. لم يقتنع علي بهذا الرد عندما بلغه فعاد وكتب لابن عباس: أما بعد. فإنه لا يسعني تركك حتى تعلمني ما أخذت من الجزية ومن أين أخذته وفيما وضعت ما أنفقت منه. فاتق الله فيما ائتمنتك عليه واسترعيتك حفظه، فإن المتاع بما أنت رازئ منه قليل، وتبعة ذلك شديدة. والسلام.

وصل هذا الكتاب إلى ابن عباس ففقد صوابه، وتصرف بما لم يكن يليق به وبماضيه وبعلمه وبصحبته للرسول. فهو يعرف قسوة علي في شأن المال، وكان من الممكن استرضاء ابن عمه حتى هذه اللحظة، ولكنه تصرف كند للإمام، ورأى أنه أكبر من أي مساءلة مهما كان مصدرها، فأعرض عن الرد والتبرير وإصلاح ذات البين، واعتزل عمله ولم ينتظر موافقة على الإعفاء. وكتب لابن عمه ما يؤذي نفسه: «أما بعد فقد فهمت تعظيمك علي مرزئة ما بلغك أني رزأته أهل هذه البلاد. ووالله لأن ألقى الله بما في بطن هذه الأرض من عقيانها ولجينها وبطلاع ما على ظهرها، أحب إلي من أن ألقاه وقد سفكت دماء الأمة لأنال بذلك الملك والإمارة. فابعث إلى عملك من أحببت».

هكذا أعلن ابن عباس رده على كتاب الإمام بأنه يؤثر لقاء الله وإن كان في ذمته كل شيء من أموال المسلمين، على أن يلتقي الله وفي ذمته تلك الدماء التي سفكها علي في الجمل وصفين والنهروان، وقال لعلي إنه سفك هذه الدماء في سبيل الملك وليس في سبيل الحق ضد قوم يجب قتالهم. لا يكن ابن عباس الكثير أو القليل من الاحترام والتقدير لأهل البصرة والكوفة الذين تسببوا على الدوام بمشاكل جمة لولاتهم منذ أيام أبي بكر وعمر وعثمان، وخذلانهم الدائم لعلي الآن، وتنعمهم بتقسيم الأموال بينهم، كما يريد علي، وليس توزيع مخصصات قدر حاجتهم كما ساد العمل أيام عمر وعثمان. في هذه الأجواء جمع عبد الله ما في بيت المال وحمله يريد الخروج به إلى مكة،

فألب أبو الأسود أهل البصرة عليه ليحموا ما يعتبرونه مالهم وفيئهم، فاستجار ابن عباس بأخواله من بني هلال، فأجاروه وأمنوا مسيره بالمال حتى مكة. كادت الحرب أن تقع بين العرب وبني هلال، فقد أبوا أن تؤخذ الأموال وهم شهود، وأصر بنو هلال على إجارة ابنهم، وفي النهاية تراجع الأزد وربيعة وفضلوا سلامة الجيرة المستقبلية مع بني هلال، ثم انضم إليهم جماعة الأحنف بن قيس من تميم، لكن بقية تميم تناوشوا مع بني هلال حتى تدخل بعض حلماء البصرة وردوا تميم، فسار عبد الله وأخواله آمنين. في مكة اشترى ابن عباس ثلاث جوارٍ مولدات حُور بثلاثة آلاف دينار، وأقبل في معاشه على شيء من الترف. وصل هذا النبأ إلى علي عن ابن عمه الذي بلغ الأربعين من العمر فكتب إليه في مكة يوبخه: أما بعد. فإني كنت أشركتك في أمانتي، ولم يكن في أهل بيتي رجل أوثق منك في نفسي لمواساتي ومؤازرتي وأداء الأمانة إلي. فلما رأيت الزمان على ابن عمك قد كلب، والعدو عليه قد حرب، وأمانة الناس قد خربت، وهذه الأمة قد فتنت، قلبت له ظهر المجن، ففارقته مع القوم المفارقين، وخذلته أسوأ خذلان الخاذلين، وخنته مع الخائنين، فلا ابن عمك آسيت ولا الأمانة أديت، كأنك لم تكن لله تريد بجهادك، أو كأنك لم تكن على بينة من ربك. وكأنك إنما كنت تكيد أمة محمد عن دنياهم أو تطلب غرتهم عن فيئهم. فلما أمكنك الغرة أسرعت العدوة وغلظت الوثبة وانتهزت الفرصة واختطفت ما قدرت عليه من أموالهم اختطاف الذئب الأزل دامية المعزي الهزيلة وظالعها الكبير. فحملت أموالهم إلى الحجاز رحيب الصدر تحملها غير متألم من أخذها، كأنك، لا أبا لغيرك، إنما حزت لأهلك تراثك عن أبيك وأمك. سبحان الله! أفما تؤمن بالمعاد ولا تخاف سوء الحساب؟ أما تعلم أنك تأكل حراماً وتشرب حراماً؟ أوما يعظم عليك وعندك أنك تستثمن الإماء

وتنكح النساء بأموال اليتامى والأرامل والمجاهدين الذين أفاء الله عليهم البلاد؟ فاتق الله وأود أموال القوم، فإنك والله إلا تفعل ذلك ثم أمكنني الله منك لأعذرن إلى الله فيك حتى آخذ الحق وأرده، وأقمع الظالم وأنصف المظلوم. والسلام.

كان بوسع عبد الله بن عباس أن يكتفي بقناعاته لما فعل وإنفاقه من المال على آل البيت الموجودين في مكة، ولكنه طالع رسالة ابن عمه ورد عليه مؤكداً حقه في هذه الأموال، فكتب موجزاً: أما بعد. فقد وصلني كتابك تُعظم علي إصابة المال الذي أصبته من مال البصرة. ولعمري إن حقي في بيت المال لأعظم مما أخذت منه. والسلام.

لقد فهم علي مراد ابن عمه وابن عم الرسول من هذا الكتاب، ولكنه لم يؤيده، فكتب إليه: أما بعد. فإن من أعجب العجب تزيين نفسك لك أن لك في بيت مال المسلمين من الحق أكثر مما لرجل من المسلمين. ولقد أفلحت إن كان ادعاؤك ما لا يكون وتمنيك الباطل ينجيك من الإثم. عمرك الله! إنك لأنت البعيد البعيد إذاً. وقد بلغني أنك اتخذت مكة وطناً وصيرتها عطناً واشتريت مولدات المدينة والطائف تتخيرهن على عينك وتعطي فيهن مال غيرك. والله ما أحب أن يكون الذي أخذت من أموالهم لي حلالاً أدعه ميراثاً، فكيف لا أتعجب اغتباطك بأكله حراماً. فضح رويداً. مكانك قد بلغت المدى. حيث ينادي المغتر بالحسرة، ويتمنى المفرط التوبة، والظالم الرجعة، ولات حين مناص. والسلام.

عبد الله هو الآن أعظم المفسرين للقرآن، والحافظين للأحاديث. فهو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم، ابن عم النبي، وهو حبر الأمة وفقيهها وإمام التفسير، ولد ببني هاشم قبل عام الهجرة بثلاث سنين، وكان النبي دائم

الدعاء له فدعا أن يملأ الله جوفه علماً وأن يجعله صالحاً. وكان يدنيه منه وهو طفل ويربّت على كتفه وهو يقول: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل». توفي رسول الله وعمر بن عباس لا يتجاوز ثلاث عشرة سنة، وقد حفظ له 1660 حديثاً، جمعها من الشيوخ بعد موت الرسول. وصار عبد الله بن عباس مقدماً عند عثمان بن عفان، وقبل ذلك عند عمر وأبي بكر الصديق.

ما أراد ابن عباس قوله لابن عمه من رسالته الأخيرة هو تفسيره لقول الله عز وجل: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾. ولم يكن ابن عم الرسول، علي، يأخذ هذا الخمس، ولا ابن عم الرسول، عبد الله، الذي رأى الآن أنه أولى به من أهل البصرة. فكل الأموال التي تدخل بيوت المال في بلاد الإسلام هي أموال غنيمة، وعبد الله يرى فيها حقاً له لقرابته للرسول، وعلي يقول له في مطلع الرسالة إنه يتعجب من ظنه أن له في بيت المال الحق أكثر مما لأي رجل من المسلمين.

قلب الزمان لعلي ظهر المجن، كما قال، وامتحن الإمام في أسرته وأصحابه وخلافته، وبدل أن يعيد علي للنظام السياسي الإسلامي سيرته السابقة من أيام الشيخين أبي بكر وعمر، دمر نظام الخلافة، وقسم بلاد المسلمين، وعادت العصبية الجاهلية. في البصرة مثلاً ترك ابن عباس خلفه زياد بن أبيه، ولما عرف معاوية بأمر البصرة بعد فتحه لمصر، أرسل اليها ابن خالة الخليفة المقتول، عثمان، وهو عبد الله بن عامر الحضرمي، وأوصاه أن يأتي بني تميم في البصرة ويتحبب إلى الأزد، ويتجنب ربيعة ذات الهوى العلوي. فاستجار زياد، عامل علي الجديد على البصرة، بربيعة خوفاً من الحضرمي، ولكنهم ترددوا بقبوله، فاستجار بالأزد وأجاروه بشرط أن يترك دار الإمارة ويجلس

بينهم ويحضر معه المنبر، وبيت المال. ففعل، وأصبحت البصرة وأطرافها عدة طوائف، واحدة مالت إلى معاوية وضمت إليها رسوله، ابن الحضرمي، وثانية بقيادة الأحنف بن قيس اعتزلت الفتنة، وثالثة تترقب الأحداث، وهي ربيعة، ورابعة لم تحفل بعلي أو معاوية وقامت تحمي زياداً بعد أن التجأ اليها، وذلك أن الأزد غضبوا لنزول ابن الحضرمي في تميم. وصار جند البصرة يخدمون قبائلهم وليس إمامهم. كتب زياد بكل ذلك إلى علي، فأرسل أعين بن ضبيعة إلى تميم ليناظر قومة، فاختلفوا عليه وتفرقوا عنه ثم قتلوه ذات ليلة، فأراد زياد الانتقام له، ولكن الأزد رفضوا الحرب وقالوا لزياد أجرناك لنحميك ونحمي بيت المال، ولم نتحالف معك لنحارب خصومك.

صار من الواضح لعلي أن معاوية يريد البصرة، فأرسل جارية بن قدامة ومعه جند إلى قومه بني تميم ليناظرهم ويعزل ابن الحضرمي عنهم. استمع لجارية بعض تميم فضمهم إلى من أحضر معه من الكوفة، وهاجم بهم ابن الحضرمي ومن معه ودحروهم إلى حصن امتنعوا فيه. لم يكن من جارية إلا أن جمع الحطب وأحرقهم كلهم في الحصن، وعاد زياد ومعه المنبر من الأزد إلى مقره في البصرة، وقال شاعر الأزد متغنياً بالقبلية ومن دون أي ذكر للإسلام والإمام والخلافة:

رددنـــا زيـــاداً إلـــى داره وجـــار تميم دخاناً ذهب
لحى الله قوماً شووا جارهم وللشاء بالدرهمين الشصب

فشل معاوية إذاً، بالاستيلاء على البصرة سلمياً، ولكنه نجح في إثارة الفتنة وألجأ زياد إلى قبيلة، وأفسد الناس عن إمامهم في الكوفة. وعرف معاوية أن أوان الحرب الظاهرة لم يحن بعد في العراق، فوضع خطة للحرب الخاطفة بأسلوب الغزوات للنهب الذي ساد الجاهلية، بهدف ترويع الناس وأخذ الغنائم

وإضعاف سلطان علي عن حماية رعيته وإثبات أنه لا يردع عنهم شراً. أقام قطعاً خفيفة من الجند على كل منها رجل صلب مجرب للقتال والكر والفر، وكلف كل منهم بغارات في أماكن متفرقة على الحدود وداخل الأرض لتعيث فساداً ونهباً وتعود مسرعة قبل أن يصل الخبر إلى علي أو يرسل قوات تلاحقها. كما أغرى شيوخ قبائل بالثورة على علي، وخرج غيرهم من دون إغراء.

أغار النعمان بن بشير على عين التمر، فاستنجد عاملها مالك بن كعب بالإمام الذي استنهض أهل الكوفة فتثاقلوا، فغضب، فخطب، فقال: يا أهل الكوفة كلما سمعتم بمنسر من مناسر أهل الشام أظلكم، انجحر كل أمرئ منكم في بيته، وأغلق بابه انجحار الضبع في وجارها... ماذا منيت بكم؟ عمي لا تبصرون، بكم لا تنطقون، صم لا تسمعون، إنا لله وإنا إليه راجعون. وأغار بن عوف في ستة آلاف على الأنبار والمدائن، فغلب جند علي وحمل ما بها من أموال وعادوا إلى معاوية. وأغار عبد الله بن مسعدة على تيماء واصطدموا بجند لعلي ولكنهم انسحبوا سالمين. وأغار الضحاك بن قيس على بوادي البصرة، ووجه معاوية بسر بن أبي أرطأة في ثلاثة آلاف إلى الحجاز واليمن استجابة لاستغاثة العثمانية في اليمن، فأخذ المدينة ومكة وذهب إلى اليمن، ففر عبيد الله بن عباس عنها الى الكوفة، وقتل بسر الكثير من شيعة علي في اليمن وأخذ بيعتهم بالطاعة لمعاوية. رداً على هذه الغزوات أرسل الإمام علي جارية بن قدامة في ألفين ووهب بن مسعود في ألفين لمواجهة بسر الذي انسحب قبل المواجهة، فدخلوا المدينة ومكة وذهبوا إلى اليمن فقتلوا الكثير من العثمانية انتقاماً.

في ظل هذه الفوضى وصلت الخلافات إلى موسم الحج، إذ رفضت كل شيعة أن تصلي إلا خلف من أرسله أميرهم على الموسم، حتى اتفقوا

على إمام ليس من هنا أو هناك. واغتاظ من ذلك فريق من القراء كانوا في الموسم، وتذكروا مصارع أخوانهم من هذه الحروب والخلافات، واتفقوا على قتل الثلاثة الذين تسببوا في ذلك، وهم علي ومعاوية وعمرو. انتدبوا عبد الرحمن بن ملجم الحميري لقتل علي، والحجاج الصريمي من تميم لقتل معاوية وعمرو بن بكر التميمي لقتل عمرو بن العاص. اتفقوا على التنفيذ في يوم واحد وساعة محددة وهي ساعة الخروج لصلاة الفجر يوم السابع عشر من شهر رمضان لهذا العام، سنة أربعين للهجرة. أقاموا في مكة برهة من الزمن واعتمروا في رجب ثم تفرقوا كل منهم إلى هدفه من الخطة.

عندما دخل جارية بن قدامة مكة بعد خروج بسر هارباً منها إلى معاوية، أخذ بيعة أهلها لمن بايع أهل الكوفة، فقد وصلهم خبر إصابة الإمام علي بن أبي طالب، ثم أخذ بن قدامة بيعة أهل المدينة، وقد عرفوا أنهم يبايعون الحسن بن علي. وكان الإمام قبيل اغتياله قد أكثر من الخطب في أهل الكوفة بعد أن أرسل فرق القتال لصد غارات معاوية، وهددهم الإمام بأنه خارج إلى لقاء أهل الشام سواء ناصروه أم أعرضوا عنه كعادتهم، فخجل زعماؤهم وخافوا أن يفعلها الإمام اليائس منهم ويخرج وحيداً للقاء أهل الشام، فيصيبهم العار الجلل بين القبائل، فجندوا له ثلاثين ألفاً وخرجت طلائعهم باتجاه الشام. بعد موت الإمام وأخذ البيعة للحسن شجعه البعض على مواصلة الخروج بهذا الجيش لمواجهة أهل الشام، فخرج بهم متردداً، وكان معاوية قد عرف بخروج طلائع جيش علي قبل اغتياله فأرسل طلائع جيشه باتجاه العراق للمواجهة. في المدائن اختلف جند الحسن فيما بينهم واختلفوا عليه، فدخلوا سرادقه، ونهبوا محتوياته، وعنفوه، ورموه عن سجادة يجلس عليها ونهبوها أيضاً، وطعنه أحدهم وهو يصرخ: أشركت كما أشرك أبوك. فقد الحسن الأمل

في القوم فعاد إلى المدائن بعيداً عن الجند ينتظر أن يتعافى جرحه، وتواصل من هناك مع معاوية استجابة للصلح الذي عرضه عليه منذ أول رسالة بينهما بعد أخذ البيعة. حاول الحسين ثني أخيه عن الصلح ولكنه أسكته، واستجاب معاوية للحسن بعد مكاتبات ورسل، فطلب الحسن من قيس بن سعد في مقدمة جيشه أن يدخل في طاعة معاوية، فخطب قيس في الناس: أيها الناس اختاروا الدخول في طاعة إمام ضلال أو القتال من غير إمام. فاختار الناس الإمام الضال وبايعوا معاوية.

كان معاوية في الشام عندما عرف بموت علي من الصريمي الذي حاول قتله في اليوم ذاته. فشل الصريمي وأصاب إلية معاوية بالسيف المسموم، فأخذه الجند. حاول الرجل شراء نفسه بخبر يفرح معاوية فأخبره أن أخاً له قتل علياً هذا اليوم، فقتله معاوية، وأخبره الطبيب ان الدواء من السم الذي أصابه هو الكي بالنار في موضع السيف، أو تناول دواء يعفيه ولكنه يقطع نسله، فاختار معاوية الدواء عن النار. قبل أن يلتحق معاوية بجنده ليرى من أمر العراق ويحسمه في هذه الظروف المواتية، وصله خبر نجاة عمرو بن العاص ومقتل خارجة بن حذافة صاحب شرطته. فقد أصاب عمرو مغس في بطنه فلم يخرج للصلاة، وأناب بن حذافة، فهجم عليه ابن بكر وهو يظنه عمرو فضربه وقتله، فأخذه الناس إلى عمرو الذي قال أردتني وأراد الله خارجة، ثم أمر بقتله.

لقد وصل الكثير من كتب أهل العراق إلى معاوية بعد موت علي ومبايعة الحسن. كان بعضهم يكاتب معاوية أيام علي ويتلقى عطاياه ويمهدون له. وبعد أن بايعوا الحسن كاتبوا معاوية يبلغونة بضعف إمامهم الجديد ويستقدمونه، وغيرهم رحل إلى الشام يبايعونه حتى يعودوا لاحقاً في ركابه. مع ذلك لم

يتجبر معاوية وإنما استقبل أولى رسائل الحسن بالرفق. فقد كتب إليه الإمام بعد أخذ بيعة أهل العراق يدعوه إلى الطاعة، وحمل هذه الرسالة جندب بن عبدالله الأزدي. أجابه معاوية بأنه، لو علم أنه أقوم بالأمر، وأضبط للناس، وأكيد للعدو، وأحوط على المسلمين، وأعلم بالسياسة، وأقوى على جمع المال منه، لأجابه إلى ما سأل لأنه يراه أهلاً لكل خير. وكتب معاوية أيضاً أن أمره وأمر الحسن شبيه بأمر أبي بكر وعلي بعد وفاة الرسول. وبهذا يقول معاوية إنه يعرف مقام آل البيت كما عرفه الشيخان أبو بكر وعمر وإن حقهم لن ينتقص. وبالطبع أكال معاوية للحسن الوعود المالية الآنية والمستقبلية.

أبلغ جندب الأزدي الحسن بما رأى من استعداد أهل الشام للحرب، وأنهم يتأهبون للمسير ويقتربون من طلائع العراق، فصبر الحسن قليلاً ثم استجاب إلى ضغوط المطالبين بالحرب وسار بهم حتى المدائن، حيث اختلف جنده ونال طعنة من أحدهم. صار الحسن يُبلغ من يزوره من وفود العراق: أنتم أكرهتم أبي على الحرب وأكرهتموه على التحكيم، ثم اختلفتم عليه وخذلتموه. وهاهم وجوهكم وأشرافكم يفدون على معاوية أو يكتبون إليه مبايعين. فلا تغروني عن ديني. في هذه الأثناء أرسل معاوية للحسن عبد الله بن عامر وعبد الرحمن بن سمرة فعرضا الصلح وألحا عليه ورغباه بنيل ما يريد. من جهته أرسل الحسن عمرو بن سلمة الهمداني ومحمد الكندي ليستوثقا من معاوية، فحصلا منه على كتاب بدأه بتقديم اسم الحسن: إلى الحسن بن علي من معاوية بن أبي سفيان، وعرض عليه ثلاثة أشياء: ولاية العهد ومرتباً سنوياً ألف ألف درهم، وأن يترك له كورتين في فارس يصنع بهما ما شاء. لم يكن هذا ما أراده الحسن، فهو مُبايع خليفة ولديه العراق ومالها، ولكنه احتفظ بهذا الكتاب وطالب معاوية بالمزيد، أي تأمين الناس. وأرسل الحسن لهذا الغرض

أحد أقارب معاوية، بل ابن أخته، وهو عبدالله بن الحارث بن عبد المطلب، وقال له الحسن: إئت خالك وقل له إن أمنت الناس بايعناك.

هذا بالضبط ما لم يكن معاوية يحلم أن يناله بهذه السرعة، أن يتنازل الحسن ويصبح هو الخليفة، فطلب طوماراً فارغاً وختم ووقع في أسفله وقال لابن أخته: اكتب ما شئت. جاء عبدالله إلى الحسن بالطومار الفارغ المختوم فكتب فيه الحسن: هذا ما صالح عليه الحسن بن علي معاوية بن أبي سفيان. صالحه على أن يُسلم إليه ولاية أمر المسلمين على أن يعمل فيها بكتاب الله وسنة نبيه وسيرة الخلفاء الصالحين. وعلى أنه ليس لمعاوية أن يعهد لأحد من بعده، وأن يكون الأمر شورى، والناس آمنون حيث كانوا على أنفسهم وأموالهم وذراريهم، وعلى ألا يُبغى الحسن بن علي غائلة سراً ولا علانية ولا يخيف أحداً من أصحابه. شهد عبد الله بن الحارث وعمرو بن سلمة. وعاد ابن الحارث بالكتاب من عند الحسن إلى معاوية ليشهد عليه أصحابه، ففعل، وتم الصلح على هذه الأسس. لكن الحسن كان يظن أن الكتاب الأول ساري المفعول وهذا الكتاب يكمله، بينما اعتبر معاوية أن الثاني الذي كتبه الحسن يلغي الأول، إذ وضع فيه ما يريد ولا أكثر. الفارق بين الكتابين هو المبلغ المالي المقرر للحسن في الكتاب الأول ولم يرد في الثاني، والتغيير في ولاية العهد التي عرضها معاوية على الحسن، ولكن هذا طالب بالشورى بديلاً في كتابه الثاني.

وصل معاوية إلى الكوفة مطمئناً جداً، فالاختلاف على المال يسهل حله مع الحسن، والشورى متفق عليها وأمهها مؤجل حتى يموت معاوية. استقبل الحسن معاوية وبايعه وفعل الناس مثله وبايعوا معاوية. وخطب الحسن في الناس فقال: «أيها الناس إن أكيس الكيس التُقى، وأحمق الحمق الفجور. إن

هذا الأمر الذي سلمته لمعاوية إما أن يكون حق رجل كان أحق به مني فأخذ حقه، وإما أن يكون حقي فتركته لصلاح أمة محمد وحقن دمائها. فالحمد لله الذي أكرم بنا أولكم وحقن دماء آخركم.» بالتأكيد كان الحسن يرى جده في تلك اللحظات، وهو يحمله على رقبته ويباهي به المسلمين ويبشرهم أن ابنه هذا سيحقن دماء المسلمين. هكذا مكن الحسن المسلمين من الاجتماع والائتلاف، وعودة أهل الثغور إلى مواقعهم، واستعداد الجيوش لاستكمال الفتح. اعترض الحسين على أخيه ولكن الحسن هدده بوضعه في الحديد اذا استمر فى الاعتراض. وكالعادة وجد من أهل الكوفة من أسمع الحسن ألفاظاً نابية مثل: يا مُذل العرب، يا مسود وجوه العرب، يا مُذل المؤمنين. لكنه لم يأبه بهم وفرغ من الأمر وارتحل بأهل بيته كلهم عائداً إلى المدينة، تاركاً معاوية في الكوفة يتدبر أمر دولته الجديدة. لكن آل البيت تركوا أيضاً أباهم، علي بن أبي طالب، دون وداع. فبعد أن مات علي من جرحه لم يلتزم ولاة الدم بوصيته في شأن قاتله، إذ أمرهم أن يلحقوه به ولا يعتدوا. لكنهم مثلوا بالقاتل أشنع تمثيل، وبعد موته أحرقوا جثته. وخوفاً من انتقام الخوارج، أصحاب القاتل، أخفى أبناء علي مكان قبر أبيهم، ولم يتمكنوا من زيارته الآن حتى لا يُكشف أمره.

في اليوم التالي على مسير الحسن من الكوفة خرج بعض أهلها على معاوية، فأرسل من يلحق بالحسن ليعيده لقتال الخوارج. ضحك الحسن ورفض العودة وقال للرسول أن يبلغ معاوية: لقد صالحتك وما أريد إلا حقن الدماء واجتناب الحرب. وواصل طريقه إلى المدينة حيث لقي من بعض أهلها انتقاداً للصلح، فصار يقول للائميه: كرهت أن ألقى الله عز وجل فإذا سبعون ألفاً أو أكثر تشخب أوداجهم دماً، يقول كل منهم، يا ربي فيم قُتلت؟

غاب الحسن عن الكوفة، وتحرك الخوارج، فبدل معاوية نهج اللين الذي اتبعه معهم إلى الآن. أبلغهم ألا بيعة لهم عنده حتى يكفوه بوائقهم، ويردوا عنه خوارجهم. فمضى أهل الكوفة يقاتلون خوارجهم من أبنائهم وإخوتهم، ليطيعوا معاوية كما أطاعوا علياً بمثل هذه الحروب. اختار معاوية أن يضع نهجاً جديداً في العراق يأخذ على أساسه البيعة من أهلها مجدداً. قرر أن الحال لن يصلح إلا بثلاث خصال: أولها أن يأتي المسلمون عدوهم في بلاده قبل أن يأتي العدو لبلاد المسلمين، وهذا ما فعله أبو بكر لإشغال الناس عن عصبياتهم وخلافاتهم الداخلية. الخصلة الثانية أن يقيم الجند في الثغور القريبة ستة أشهر وفي البعيدة ستة لا يعودوا أثناءها إلى منازلهم. والخصلة الثالثة إصلاح البلاد والمرافق، لإشغال بقيتهم من المقيمين. وأشاع معاوية بين الناس أنه عندما حرص على إنهاء الفتنة، قدم الوعود والعطايا، ولكنه الآن يضع هذا كله تحت قدمه، وإن ذمته بريئة ممن لن يُقبل فيعطي البيعة ضمن الرؤيا الجديدة، وأمهلهم ثلاثة أيام. فأقبلوا من كل صوب يبايعون. هكذا انتهى زمن الدعة التي ألفوها في الكوفة والبصرة، وجاء عهد طاعة الأمراء، ومن لم يعط الطاعة فقد برئت منه ذمة الخليفة.

ولى معاوية على الكوفة المغيرة بن شعبة، وكان قد تولاها في عهد عمر بن الخطاب وبعض الحين في بداية خلافة عثمان، وأعاد للبصرة واليها عبد الله بن عامر، الذي عُزل عنها في بداية عهد علي. كان المغيرة قد خرج من اعتزاله للفتنة في الطائف، وحضر اجتماع الحكمين، ثم انتقل من هناك إلى الشام يريد دوراً بعد أن تيقن من إقبال الحياة على معاوية، وحضر معه إلى الكوفة، وكان من المقربين الناصحين. وقد استشاره معاوية في تولية مصر

لعبد الله، وتولية أبيه عمرو بن العاص على الكوفة، فقال المغيرة لمعاوية: وتقيم أنت بين فكي الأسد، هذا في العراق وهذا في مصر، فعدل معاوية وولى المغيرة على الكوفة. ولم يبق الأمر سراً إذ عرف عمرو بمكيدة المغيرة فكتب من مصر إلى معاوية أن للمغيرة ضعفاً أمام المال وقال: تجعل المغيرة على الخراج؟ هلا وليت رجلاً آخر عليه يكون أقدر على جمع الخراج وضبطه؟ فاكتفى معاوية بتولية المغيرة على الحرب والصلاة وجعل الخراج لغيره.

كان زياد في البصرة يعمل جهده لحفظها للإمام علي بعد رحيل ابن عباس عنها، والتجأ إلى قبيلة الأزد عندما وصل رجل معاوية للمدينة. وبعد مقتل علي وتنازل الحسن لمعاوية هرب زياد إلى فارس، واعتصم بقلعة هناك وجمع بعض أهل المنطقة إليه وجلس بانتظار ما ستؤول إليه أوضاع معاوية في العراق. فلما بايع الناس معاوية لم يرغب زياد في النزول من قلعته من دون أخذ الأمان، فأرسل إلى المغيرة ليتوسط له. والمغيرة مدين لزياد منذ أيام الخليفة عمر، حين اتهم المغيرة بالزنى أثناء توليه البصرة، وذهب أربعة شهود إلى عمر منهم زياد الذي لجلج في الشهادة فأعفى عمر المغيرة من الجلد بحد الزنى، وجلد شهود الزور ومنهم أبا بكرة، وهو أخو زياد من أمه، جلدهم بحد القذف. وولى عمر، بعد فترة من هذه الحادثة، المغيرة على الكوفة التي تتعب كل ولاتها.

يُنسب زياد إلى أمه سمية، أو صار يسمى زياد الأمير بعد توليه البصرة، ويسميه خصومه زياد ابن أبيه. كان زياد أيام الخلفاء الراشدين أحد موالي ثقيف، ولدته أمه سمية الفارسية وهي في خدمة الحارث بن كلدة عام الهجرة، وكان أبوه عبداً رومياً لصفية زوج الحارث بن كلدة. وقد اشترى زياد أباه من العبودية بألف درهم أخذها من الخليفة عمر.

«علينا إنزال زياد من قلعته وإبعاده عن أخواله وإعادته إلى حضن أخوته وأعمامه.» قال المغيرة لمعاوية الذي ارتسمت علامات دهشة على وجهه.

«نعرف من هم أخواله، ولكن من يكون أخوته وأعمامه؟»

«الرجل يدعي أنه اخوك، ابن أبي سفيان، صخر بن حرب.» صمت معاوية وواصل المغيرة حديثه: «ولديه شهود بذلك، فقد عرف أبوك أمه في إحدى زياراته للطائف. يريد منك الأمان لينزل من القلعة. لا تنس أنه يعرف أهل البصرة والكوفة حق المعرفة، فقد كتب لولاتها منذ عهد الشيخ عمر.»

وافق معاوية على اقتراح المغيرة وطلب منه أن ينوبه بإعطاء الأمان، وأن يستعين به الآن والياً للبصرة إلى حين، ويرسله إلى الشام لاحقاً ليعلن النبأ بحضور الشهود. «عليه أن يفهم ثمن الأخوة وواجبها من طاعة عمياء.» قال معاوية للمغيرة الذي أومأ بالفهم لما يريده سيده. لم يستنكر معاوية أو ينكر الأمر، فقد عاشر والده الكثير من نساء الموالي والباغيات أيام الجاهلية وقبل أن يسلم، وضم إليه الكثير من الأبناء وادعى أباه أناس آخرون. المهم الآن لمعاوية أن يتجنب أي خطر من زياد، والأهم أن يحوله إلى تابع مطيع له بعد أن كان في خدمة علي وشيعته، وله دراية بشؤون أمصار العراق وفارس.

27

«مبروك عليك الخلافة، الآن بدأ عهدك، وأعانك الله على مهامك.»

«بارك الله فيك يا جندب، ولولا همتك وفطنتك لما وصلنا إلى ما نحن فيه الآن.» أجاب معاوية رفيق سفره من الكوفة إلى الشام. «لقد أكرمنا الله بالتزام الروم بالهدنة، وقبولهم تمديدها. لو خانوا الاتفاق ونزلوا إلينا لطمع فينا علي وأهل العراق وأصبحنا بين فكي الضبع.» كان الركب في يومه الثالث بين الكوفة والشام، يسيرون في أجواء ربيعية، ولا تعدم أنظارهم بعض الخضار في الصحراء. أعاد جندب روايته لبعض وقائع تلك المعاهدة وكيف أقنع صاحب القسطنطينية بفوائد الهدنة للروم، ولكن معاوية غير مجرى الحديث حين سأله عن الخطوات الفورية الواجب اتخاذها عند الوصول إلى الشام بعد أربعة أيام.

«ضمان أمنك الشخصي، وأمن الأبناء، وأمن الرعية.» صمت جندب ونظر إلى الخليفة الجديد فرأى الانتباه على وجهه، وتذكر طول الفترة التي تألم فيها من الجلوس على مؤخرته إثر إصابته بالسيف المسموم. «أفضل أن تقلد الإمبراطور وتعين حاجباً، ففي محاولاتهم المقبلة لن يكرروا الانتظار خلف المسجد.»

«نعم وحارس يقف إلى جانبي أثناء الصلاة في المسجد، حتى لا يفعلوا معي كما فعلوا بصديقك، الشيخ عمر، رحمه الله.»

«نعم حراس لك وحراس للدولة ينتشرون في مرافقها.» قال جندب بعد الترحم على الخليفة عمر بن الخطاب، صديق طفولته وراعي شبابه. «ستحتاج الدولة إلى نظام شرطة مفعل أفضل مما هو الحال الآن. وستحتاج أيضاً إلى توسيع أجهزة التجسس الداخلي وعلى الولاة والرعية في الأمصار وعلى بلاد الروم أيضاً. الأفضل أن توسع اطلاعك على كل شيء والاستعانة بخيرة الرجال والأعوان على كل الصعد.»

«كم يصعب العثور على الرجال يا جندب. إنما أسوق غالبيتهم الآن بالوعود والعطايا والمال، وبالشدة حيناً والليونة أحياناً. لو كان بيني وبينهم شعرة لحرصت ألا تنقطع.» صمت الخليفة هنة ثم أكمل: «لقد هزموا علي بن أبي طالب لأنه لم يتعرف إلى معادنهم، وأرادهم كما أحب، أن يكونوا مثله، أو نسخة عنه في التصميم والإيمان، فخذلوه مراراً وتكراراً ولم يتعظ أو يتعلم، ولم ييأس منهم أيضاً». لم يعلق جندب على كلام الخليفة إذ شعر بالتأثر في نبرته والرغبة في إكماله للحديث. «أترى يا جندب! منذ اغتال أبو لؤلؤة صديقك تغير حال المسلمين. أبدى عثمان لهم اللين فطمعوا فيه حتى قتلوه شر قتلة بين أصحاب الرسول ووسط مدينته، بعضهم تآمر وبقيتهم تخاذل. وحين أفاقوا وطالبوا بالقصاص قضى عليهم علي بدل أن يقضي على القتلة في جيشه، ونازعني الشام، ولم يستعد أبداً لأخذ القصاص. جهله بالرجال أودى به إلى تخليهم عنه حتى حان موعد اغتياله، اغتيال ثالث خليفة بشكل متتالٍ، فانتقلت إلي، وسأضمن ألا أموت اغتيالاً إن شاء الله. يجب أن أكسر لعنة الاغتيال المتتالي للخلفاء.»

«هل تحقق القصاص من قتلة عثمان الآن؟» استغرب جندب خروج هذا السؤال من فمه الآن، ولكن معاوية نظر إليه وتفكر.

«سؤال وجيه. هل تحقق القصاص؟ هل كانت الفتنة ستبقى نائمة لو لم نطالب بالقصاص؟ هل كان سيتركنا لحالنا لو بايعناه وتنازلنا عن القصاص؟ كان سيعيد الناس إلى سيرة عمر من الشدة ولكنه لا يملك حنكة عمر. هل يعقل إدارة دولة بهذا الحجم بغسل بيت المال كل فترة وتوزيعه على الكسالى الجالسين يثرثرون؟ كيف سنقيم الدولة والجيش والأسطول والمرافق. لقد أتعسنا وأتعس ذاته طوال خمس سنوات. بل كانت حياته كلها تعاسة ومحن. أراد الخلافة بعد الرسول ولم يُصفي خاطره لأي من الخلفاء الثلاثة، نعم أطاعهم وناصحهم ولكنه لم ينسَ ما ظنه حقه. وعندما وصلت إليه لم يجن منها إلا شراً يتضاعف كل يوم. هرب من المدينة، بعد مقتل عثمان، إلى الكوفة فصار كالمحتمي من الرمضاء بالنار.» تذكر معاوية سؤال القصاص فأضاف: «زعماء مؤامرة اغتيال عثمان والذين شاركوا فيها قتلوا في حروب السنوات الخمس، وقتل الكثير ممن أيدوهم وتقبلوا عملهم. حكيم بن جبلة قتل في البصرة قبيل الجمل حيث قتل بعض رفاقه. وفي النهروان قُتل البصري حرقوص بن زهير، وأحرق محمد بن ابي بكر في مصر وقتل في ذات اليوم شريكه كنانة بن بشر، وقتلنا محمد بن أبي حذيفة في الشام، وسممنا الأشتر في طريقه إلى مصر، وقتل محرضهم عمار بن ياسر في صفين. ولسوف أطلق الجواسيس وأقبض على أرواح من بقى منهم أو من مؤيديهم.» توقف معاوية عن الحديث وتذكر ذلك اليوم الذي أرادوا فيه قتل ثلاثتهم، فلم يقدر الله سوى مقتل علي بن أبي طالب، فطلب من جندب أن يخبره بالتفاصيل عما حدث في الكوفة.

«انتدب الخوارج في مكة عبد الرحمن بن ملجم لاغتيال علي، والحجاج

الصريمي لقتلك، وابن بكر لقتل عمرو في مصر. كان ابن ملجم الأكثر عرضة للفشل لأنه وقع في غرام صبية جميلة في الكوفة. كتم أمره عن بقية الخوارج وأخذ يتربص بعلي في انتظار اليوم المتفق عليه، ولكن حسن الصبية أشغله عن مهامه، فقرر أن يخطبها ويتجاهل ما جاء من أجله. لقد رآها للمرة الأولى في جماعة تيم الرباب الذين مات منهم عشرة يوم النهروان. تقدم لها فعرف أنها قطام الشجنة، وقد قتل أبوها وأخوها في تلك الوقعة أيضاً. قالت له قطام إن مهرها ثلاثة آلاف وعبد وقينة أو قتل ابن أبي طالب. أخبرها أنه جاء إلى الكوفة لقتل علي، وأنه مستعد لدفع هذا المهر ولكن كيف سيتزوجها بعد ذلك؟ أراد منها وصالاً مسبقاً فرفضت، وأقنعته بإمكانية هربه ومن ثم زواجهما، وانتدبت له من جماعتها من يساعده ويسهل فراره، فوافق.» لم يكن معاوية يعرف هذه التفاصيل الغرامية في مقتل الإمام، فأعطى جندباً المزيد من الاهتمام، فأكمل: «في ليلة الجمعة إياها التقى ابن ملجم ومساعديه مع قطام في المسجد الكبير، وأبلغها أن موعدهم الفجر. ألبستهم قطام عصبات من حرير على رؤوسهم وسهروا تلك الليلة حتى الفجر. انتقلوا قبل موعد الصلاة مقابل السدة التي يخرج منها الإمام منادياً عباد الله إلى الصلاة. قبل أن يرتفع صوته مجدداً ضرب شبيب بالسيف فوقع في الباب، فقام ابن ملجم بالضرب فأصاب الإمام في رأسه، وهرب المساعد الثاني حتى وصل إلى أحد رجال قومه فأخبره بما كان فقتله الرجل فوراً. أمسك الناس بابن ملجم وأخذوه وهو يصيح: الحكم لله. قبل أن يموت علي من آثار ضربة السيف المسموم أدخلوا عليه، حسب طلبه، ابن ملجم، فسأله علي: يا عدو الله ألم أحسن إليك؟ فما حملك على هذا؟ فأجابه: الحكم لله وأنت قتلت أصحابي. لقد شحذت هذا

السيف أربعين صباحاً وسألت الله أن يقتل به شر خلقه. فقال له علي: لا أراك إلا مقتولاً به ولا أراك إلا من شر خلقه. وهنا قالت أم كلثوم ابنة علي وكانت خلف حجاب: أي عدو الله لا بأس على أبي والله مخزيك. كانت تبكي، فقال لها القاتل: فعلى من تبكين إذاً؟ والله قد اشتريته بألف وسممته بألف، ولو كانت هذه الضربة على جميع أهل المصر ما بقي منهم أحد.»

«لا حول ولا قوة إلا بالله، والله إن الخوراج سيخربون البلاد، ولن يفلح معهم غير أشر خلق الله، ولا أدري إذا كان المغيرة وابن عامر سيفلحان في ردعهما إلى الطريق القويم.» قال معاوية وسأل جندب إذا كان يعرف ماذا حصل في بيت علي يومي الجمعة والسبت قبل موته.

«لقد فُجع أولاده وبناته وزوجاته وكل من حوله. دخل عليه حبيب بن عمرو يطمئنه: يا أمير المؤمنين ما جرحك هذا بشيء، وما بأس بك. لكن علياً كان يعرف مصيره المحتوم، فقال لحبيب: أنا والله مفارقكم الساعة. فبكى حبيب، وبكت أم كلثوم، فقال أبوها ما يبكيك يا بنية؟ قالت سمعت ما قلته فبكيت. فقال لها: يا بنية لا تبكي فوالله لو ترين ما يرى أبوك ما بكيت.»

«هذه البنية لم يحالفها الحظ أبداً.» قال معاوية ولم يكمل، فهو وجندب يعرفان أن المقصود بذلك هو زواجها من الخليفة عمر ولم تكن قد بلغت الحلم، وقد حرمها الخليفة، بطبعه، من أبسط نعم الحياة الدنيا. بعد اغتيال عمر تزوجت ابن عمها عون بن جعفر، فمات عندها، فتزوجها أخوه محمد، ومات عندها ثم تزوجها أخوهم عبد الله بن جعفر ولاتزال عنده، وقد شارك مع علي والجماعة في صفين، وكان عند طعن علي قادماً من الكوفة وشارك الحسن والحسين في تغسيل والدهما. ولم تلد أم كلثوم لأبناء عمها الثلاثة.

«اختص الإمام من بين زوجاته، أمامة، وقال لها عندما تيقن من الوفاة: إن كان لك في الرجال حاجة فقد رضيت لك المغيرة بن نوفل عشيراً» سكت جندب ولم يكمل، فقد تذكر أن معاوية قد خطبها عندما انقضت عدتها، فأرسلت أمامة إلى المغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب: إن كان لك بنا حاجة فأقبل. فتقدم المغيرة وخطبها من ابن خالتها، الحسن بن علي فتزوجها منه. كانت رغبة معاوية بها سياسية، فهي زوجة الإمام، ولكنها قبل ذلك ابنة أبي العاص بن الربيع وابنة زينب بنت الرسول. ويعرف الجميع كم أحبها جدها، وكان يحملها على رقبته أثناء الصلاة في المسجد، وبعد موت أمها عام ثمانية للهجرة مكثت مع جدها وأمهات المؤمنين حتى توفي النبي. ولما توفي والدها، أبو العاص بن الربيع سنة اثنتي عشرة للهجرة، كان قد أوصى الرعاية بابنته أمامة، إلى ابن خاله الزبير بن العوام، وقد زوجها الزبير من علي بن أبي طالب، وذلك في بداية خلافة عمر بن الخطاب. وكانت خالتها فاطمة قد توفيت في عهد أبي بكر بعد ستة أشهر من وفاة والدها الرسول. لم تكن أمامة أولى زوجات علي بعد فاطمة، ولم تكن آخرهن، ولكنه أعفاها من الحرج وخيرها بالزواج من المغيرة بن نوفل وهو ينازع الموت. وللإمام من زوجاته التسع وجواريه ثمانية وعشرون ولداً وبنتاً.

«كيف كان من الممكن لعلي أن ينجح؟» رمى جندب بهذا السؤال الافتراضي على الخليفة الجديد، ليسمع رأيه، وليغير موضوع حديثهم عن عائلة الإمام المقتول.

«رحمه الله، كان يحاول تحقيق المستحيل. أراد إعادة الناس إلى زمن أبي بكر وعمر، ولم يكن بهما شبيهاً.» جاء حديث معاوية هادئاً كمن يتذكر ويفكر

بصوت مسموع. «ما مررنا به منذ وفاة نبينا يفرض علينا التغيير والتكيف. الفتوحات في عهد الشيخين وضعت المسلمين أمام خيارين، إما تطبيع الأقوام المنهزمة بطباعنا، وإما أن نتطبع بهم، وقد فرضت ظروفهم وظروفنا أن نتطبع بهم. انبهرنا من ملك وعمران وحياة بذخ الفرس والروم. قارناه بما تركنا خلفنا، ثم انتشى الناس من انتصاراتهم على القوم، وغرقوا في الغنائم لا يعرفون أين وكيف ينفقونها، خصوصاً وأن الشيخ عمر قمعهم. كان يراقبهم ويحاسبهم، وكانوا يظاهرونه ويتقشفون أمامه حتى إذا عادوا إلى أمصارهم استمروا في البذخ.» كان جندب شديد الانتباه وهو يستمع لهذه الرؤية التي تؤكد له أن الخليفة الجديد ملم بالجزئي والشامل من التطور في ربع القرن المنصرم. تذكر جندب عندما حضر معاوية في ركب ملوكي من الشام إلى بيت المقدس لمقابلة عمر، الذي تقبل منه هذا التظاهر والبذخ بعد أن أخبره معاوية بضرورة ذلك كونه يجاور الروم. «عندما جاء الشيخ عثمان، رحمه الله، ظهرت النفوس على حقيقتها، فلم يكن شديداً أو متقشفاً من قبل. أنت تعرف من زياراتك للمدينة آنذاك كيف انتشر الترف في البناء والقصور والغناء واللعب والأكل والشرب. فقد أصبح من الممكن للناس إنفاق ما لديهم من نقود، ولم يعد المال مكتنزاً فقط عند بضعة من الصحابة، بل زاد عدد الشيوخ وأصحاب السابقة الذين يجمعون المال ويقبلون على الترف والبذخ، وصار من الطبيعي والممكن أن يقلد الناس شيوخهم. كل الناس تغيروا إلا علي بن أبي طالب، كان بذخه الوحيد الطلاق والزواج والجواري.» أنزل معاوية عِمته ووضعها أمام بطنه المتكئ على السرج، فقد نشط بعض الهواء البارد مع اقتراب صلاة العصر. «لقد غزونا الفرس والروم، وهزمنا الأباطرة والأكاسرة،

ولكن الرقيق غزونا في عقر دارنا الآن ومكة والمدينة والحجاز، وبقية بلاد العرب. أعداد ضخمة من الرقيق وصلت مع الغنائم، بعضهم من أهل البلاد التي فتحت، وبعضهم كانوا رقيقاً هناك. حملناهم إلى بلادنا وحملوا معهم طباعهم وأخلاقهم وعاداتهم، أغروا العرب بها ولم يجدوا منهم ممانعة، بل رضى وانبساط لكل ما هو ممتع ومريح. ابتعدوا في الأمصار عن حياة الخشونة في عهد الشيخ عمر، ثم انتقل الاسترخاء إلى بلاد العرب في عهد الشيخ عثمان. ولأن الإمام علياً، رحمه الله، أراد إعادة الجيل الجديد إلى شظف حياة الجيل السابق، فقد رفضوه وخذلوه وتخلوا عنه وأقبلوا علينا.» علق في ذهن جندب ما سمع للتو بأن، العرب غزوا الأرض وغزا الرقيق العرب.

«صدقت فيما قلت، لكن أهل العراق تقلبوا على الإمام لأسباب أخرى أيضاً.» صمت جندب لحظات وهو يعدل جلسته على الدابة إذ وضع قدمه اليسرى أمامه، على السرج، بدون صعوبة رغم أنه صار في مطلع عقده السبعين. ثم أكمل حديثه لمعاوية: «لقد كانوا في نعيم مالي ورخاء معيشة، ولكن الحروب لم تكف عن أكتافهم طوال خلافة ابن أبي طالب. ثم إنهم بغالبيتهم من أهل الردة الذين رفض أبو بكر إشراكهم في الفتوحات ثم سمح لهم عمر بهذا. وبالطبع تزوجوا من الفارسيات الكافرات وعابدات النار اللواتي لا يعرفن آلهة مثل النصارى، فتربى الجيل الجديد من أمهات غير عربيات وذوات إسلام مختلط. أمهات متشبعات بالعادات والديانة القديمة. إنهم أسوأ مزيج محتمل.» نظر معاوية إلى جندب متسائلاً عن هدفه من هذا التحليل، فقال: «هؤلاء لن يجلسوا بهدوء، الخوارج الذين يمزجون الأديان ويبالغون في كل شيء لن يتوقفوا، وأهل العراق، قديمهم وجديدهم،

سيعودون إلى التذمر الذي لم يتوقفوا عنه يوماً، ومهما بسطت لهم يدك فلن تلقى منهم في النهاية غير ما لقيه الإمام، فهم على غيهم مجبولون.»

«سنرى يا جندب. لقد وكلت بهم من عاشروهم في السابق، ابن عامر والمغيرة، فإن اهتدوا فهذا ما نرجوه، وإن غووا، فوالله لأجعلنهم يتذكرون أيام علي والحسن كأجمل ما عاشوه في حياتهم، وحينها سيندمون على خذلانهم لأئمتهم حيث لا ينفع الندم.» قال معاوية وقد أوقف دابته لصلاة العصر وأضاف وهو يترجل: «الحمد لله على ما نحن فيه الآن من اجتماع كلمة المسلمين، سنستريح في الشام قليلاً ثم نزور الحجاز والمدينة ومكة لنطمئن الأهل هناك على اجتماع الكلمة.»

وقف جندب في الصف الأول للمصلين خلف الخليفة وقد تشتتت أفكاره، صعب عليه التركيز في الصلاة، تذكر زوجته سارة وأولاده الثلاثة في المدينة، وأعجبته فكرة السفر مع معاوية إلى هناك وإلى مكة، بل قفزت إلى ذهنه إمكانية اعتزال العمل والكف عن الترحال والمكوث بالقرب من زوجته، ليستريح تحت رعايتها، فهي لم تتجاوز بعد الخامسة والأربعين من عمرها، بينما دخل هو في بداية العقد السابع من العمر. انتابه بعض تأنيب الضمير على الترجل الآن بينما لا تظهر في الأفق نهاية للخلافات والاقتتال، ولكن الذكريات مرت سريعة في ذهنه بأن الخلافات صاحبت القوم على الدوام، وخصوصاً منذ اللحظة التي انتقل فيها الرسول إلى ربه. توجس بأن الخلافات لن تنتهي في أي يوم أو عهد، وإن لزوجته وأولاده عليه حقاً، وإن الخليفة سيجد بسهولة من يحل مكانه.

28

طوال عقد من الزمان، كان جندب يتذكر بين الحين والآخر ما سمعه من معاوية، بأن أهل العراق، إذا عادوا لغيهم، سيتندمون على أيام علي وابنه الحسن، وسيرون أن ما اعتبروه إجحافاً بحقهم كان في الواقع نعيماً. وما أعاد مقولة معاوية هذه في ذهن جندب المتقاعد في المدينة هو استمرار الغي في العراق، وتنفيذ متصاعد لتهديد معاوية. في ظل ولاية المغيرة بن شعبة للكوفة وعبد الله بن عامر للبصرة، تمتع أهل العراق بهامش كبير من الحرية، كما سجل جندب في إيجازه لمجريات السنوات من أربعين إلى خمسين للهجرة. اطمأن عبد الله بن عامر للبصريين، وراقب المغيرة أهل الكوفة عن كثب واستبق الكثير من مؤامراتهم، ولكنه لم يقس عليهم ولم يأخذ المطيع بجريرة العاصي منهم، وقد هيأ كل ذلك لإقامة حزب للتشيع تحت سمع ونظر الواليين والخليفة معاوية أيضاً.

في البداية صاروا يتذاكرون ما فعلوا بالإمام وابنه، فيحزنون ويأسفون على خذلانهم للإمام علي، وأخذوا يفكرون بما يمكن عمله للتكفير عن خطاياهم، فسيروا الوفود الى المدينة للقاء مع الحسن. كان كل وفد منهم يصل المدينة يلوم الحسن على تنازله لمعاوية وعدم خوضه للحرب، ثم يعلنون الاستعداد للطاعة إذا أراد لهم ذلك، ويحرضونه بأن معاوية نقض العهد بأفعاله. كان

الحسن بهم عليم ومع ذلك لم يرغب في نهرهم، وصار يقول للوفود: أنتم شيعتنا وأهل مودتنا. فلو كنت بالحزم في أمر الدنيا أعمل ولسلطانها أعمل وأنصب، ما كان معاوية بأبأس مني باساً ولا أشد شكيمة ولا أمضى عزيمة. لكني أرى غير ما رأيتم، وما أردت فيما فعلت إلا حقن الدماء، فارضوا بقضاء الله وسلموا الأمر والزموا بيوتكم وأمسكوا وكفوا أيديكم حتى يستريح بر أو يستراح من فاجر.

بهذا الخطاب فهموا أنهم شيعة آل البيت، وأن عليهم أن يكفوا وينتظروا مطيعين للخليفة، حتى يستريح أهل الحق الأبرار أو يريح الله من الحاكم الفاجر. فهموا الأمر كاستعداد سري للحرب في اللحظة المناسبة. عادت الوفود الأولى من المدينة إلى الكوفة تبشر بالنظام الحزبي الجديد، وتجهز الناس ضمن خطة الطاعة الظاهرية بانتظار الأوامر للانتفاض، وصارت الوفود اللاحقة تنهج في الطريق ذاته. كان جندب يعرف أن هذه التفاصيل وغيرها تصل إلى معاوية في الشام، وساد الاعتقاد بين الجميع أن شيعة آل البيت اعتبروا أن عليهم انتظار موت معاوية وما سيليه من شورى في اختيار الخليفة الجديد، وأخذوا بالتالي الذم في الولاة والخليفة الأموي سلمياً بقدر المستطاع ومن دون انتفاضات، إلا أن الحسن كان ملتزماً بالبيعة التي أعطاها لمعاوية، ومتنصلاً من أي تحريض يمارسه أهل العراق ضد ولاتهم وخليفتهم. لا يعني هذا أن الحسن كان مؤيداً لمعاوية، ولكن انتقاده كان خفيفاً ولم يمنع معاوية من مواصلة إمداده بالمال الذي ينفقه بسخاء على أنصاره ورواده من أهل المدينة ومكة.

رأى جندب أن يوم الحسن في المدينة يبدأ بصلاة الفجر والمكوث في

المسجد حتى تشرق الشمس، فيزور أمهات المسلمين، يحادثهن ويهاديهن ويمضي لبعض أعماله قبل العودة للمسجد لصلاة الظهر حيث يجلس إلى الناس يستمع منهم ويستمعون منه. لم يصبح راهباً متصوفاً بالطبع، فقد أقبل على الحياة، وأكثر من الزواج والطلاق، منذ عودته من الكوفة عام 40 للهجرة حتى وفاته بعد عشر سنوات. وكان من ضمن أزواجه في هذه الفترة، أسماء ابنة عطارد التميمي، التي كانت زوجة لعبيد الله بن عمر الذي قُتل في صفين. ويسجل جندب في إيجازه لمجريات هذا العقد أن الظن يسود الآن بين شيعته أن إحدى زوجاته دست له السم بإيعاز وإغراء من معاوية. وقد قال الحسن على فراش الموت بعد أن لفظ قطعة من كبده إنه قد تم تسميمه، ولكنه رفض إجابة أخيه الحسين بذكر من دس له السم.

في البصرة لم يصمد عبد الله بن عامر طويلاً، فقد واصل سياسته القديمة أيام عثمان، وجمع الأموال، وترك الناس بدون حساب أو عقاب فتفشى الفساد وضاعت هيبة السلطة، ثم إن معاوية غضب على ابن عامر حين وصله أنه قد قال في أخوة معاوية وزياد: لهممت أن أجمع خمسين رجلاً من قريش يحلفون بالله ما عرف أبو سفيان سُمية. فغضب معاوية وأمر حاجبه أن يمنع ابن عامر من دخول القصر، ولم يرض معاوية عنه مجدداً إلا بعد تدخل ابنه يزيد، وبعد أن اعتذر ابن عامر من زياد واسترضاه. وكان خمسون شاهداً قد أقروا أن أبا سفيان قد عرف سمية، أم زياد، في الطائف، ووصف بعضهم حالها بعد أن خرجت من نكاح أبي سفيان، فأعلن في الشام أن معاوية وزياداً أخوان. لكن أبو بكرة، ابن سمية وعبيد اعترض على مسعى أخيه زياد ونهاه عن ذلك فلم يسمع له زياد، فأشاع أبو بكرة أن سمية ما كانت بغياً ولا عرفت أبا سفيان.

وعندما سمع أبو بكرة أن زياداً سيكون أمير الحج بموافقة معاوية ذهب إلى منزل أخيه ووجه حديثه إلى أحد أبنائه بينما زياد يستمع فقال: إن أباك هذا أحمق، فقد فجر في الإسلام ثلاث فجرات. أولاهن كتمان الشهادة على المغيرة، والله أعلم أنه قد رأى ما رأينا. والثانية في انتفائه من عبيد وادعائه إلى أبي سفيان، وأقسم إن أبا سفيان لم ير سمية قط. والثالثة أنه يريد الحج، وأم حبيبة بنت أبي سفيان زوج رسول الله (ص) هناك، وإن أذنت له كما تأذن الأخت لأخيها فأعظم بها مصيبة وخيانة لرسول الله، وإن هي حجبته فأعظم بها عليه حجة. فقال زياد: ما تدع النصح لأخيك على حال، وعدل عن الحج ولم يأت الحجاز حتى ماتت أم حبيبة.

اشتكى الناس والي البصرة إلى معاوية، فعزل ابن عامر وولى زياداً وأوكل إليه ضبط ذلك المصر منذ عام خمسة وأربعين. أما المغيرة فقد مكث في ولاية الكوفة حتى مات عام خمسين هو الآخر قبيل موت الحسن. كانت سياسته في الكوفة مزيجاً من الحذر والليونة والردع، رفق بالناس وترك للمعارضين حرية الحديث ومنعهم من الإتيان بالشر. كان شديد الاحتياط وأكثر من الجواسيس على الخوارج ليمنع خروجهم وغالباً ما هاجم اجتماعاتهم وأودعهم السجن. أما مع شيعة آل البيت فكان أكثر ليونة إذ تحمل شتائمهم وأبدى لهم النصح ولم ينتقص أموالهم، فاستفادوا من موقفه ونظموا أنفسهم. وكلما زار المغيرة الشام أو التقى معاوية في مواسم الحج كان يشجعه على فكرة إعطاء ولاية العهد إلى ابنه يزيد. هكذا عاش المغيرة عقد ولايته للكوفة مستريحاً، أرضى الخليفة بحفظ الكوفة، وأرضى الناس ونعم نفسه أيضاً إذ كان مزواجاً مطلاقاً بل كان يطلق النساء أربعاً ويتزوجهن أربعاً مما صعب مهمة إحصاء عدد زوجاته.

لم يكن خافياً على معاوية شأن البصرة والكوفة منذ خلافة أبي بكر ثم ما فعلوه أثناء خلافة عمر وعثمان، كما تابع عن كثب خذلانهم للإمام علي ولابنه الحسن. حبذ معاوية في بداية عهده أن يولى المغيرة الكوفة وابن عامر البصرة لأنهما كانا قد شغلا هذا المنصب في عهد عثمان ويعرفان طباع القوم، ثم عزل ابن عامر لفشله في ردع الفاسقين، وولى بدلاً منه زياداً الذي أصبح أخاً لمعاوية مقابل صفقة سياسية، وهو العارف بشؤون البصرة وأهلها إذ عمل فيها للإمام علي بعد رحيل عبد الله بن عباس عنها. ولاه معاوية وأوصاه بردع القوم، ولم يكن زياد بحاجة للوصية إذ نقم على الرعية لانتقادهم صفقة أخوته مع معاوية. أراد زياد منذ يومه الأول في البصرة أن يرهب الناس ويقطع ألسنتهم عن اللغو في نسبه، ويقدم الثمن لمعاوية أيضاً.

لم يكتف زياد بالعقوبات المألوفة وبالحدود المشرعة، منذ خمسة وأربعين عاماً على بداية الإسلام بعد الهجرة، ليرد أهل البصرة إلى الصواب، فأخبرهم أن من يحرق دور الناس سيحرق، ولأن بعض البصريين كانوا يغرقون بعضهم، قال من غرق قوماً أغرقناه، وقال لمن ينقبون البيوت إنه سينقب عن قلوبهم، ومن نبش قبراً سيدفن فيه حياً. ومنع زياد أهل البصرة من السير ليلاً، ومن ضبط مخالفاً يقتل حتى وإن كان له عذر في المخالفة. وأقسم زياد لأهل البصرة في إحدى خطبه بأنه سيأخذ الولي بالمولى، والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدبر، والمطيع بالعاصي، والصحيح في نفسه بالسقيم. انتقل هذا الإرهاب بهدف الردع إلى الكوفة أيضاً بعد موت المغيرة، إذ تولاها زياد إلى جانب البصرة. خاض زياد في دماء الناس وأهدر حقوقهم وأهان كرامتهم وهو يزعم أن الناس أحدثوا ذنوباً جديدة ولذلك صنع لكل ذنب عقوبة تماثله، وادعى في خطبه أنه يطبق سياسة عمر بن الخطاب، أي لين في غير ضعف، وشدة في غير عنف.

اشتد زياد على أهل العراق بالجملة، وأصاب شيعة آل البيت نصيب وافر، كما تلقى خصومهم من الخوارج النصيب الأكبر من البطش، إذ أنهى زياد سياسة ابن عامر والمغيرة، فلم يعد ينتظر خروجهم حتى يتصدى لهم، وإنما سبقهم واستقصى أمورهم وتتبع أفرادهم وجماعاتهم حيث كانوا، بل أخذهم بالشبهة وقتلهم حيث استطاع الإمساك بهم. من جانبهم عرف الخوارج موقف زياد منهم فاحتالوا في التخفي عن شرطته وعيونه، ولكنه كلما سمع بجماعة منهم أرسل خلفهم جيشاً لا طاقة لهم به فأبادهم. مع ذلك لم يتوقفوا عن الخروج فقد باعوا أنفسهم لله واشتروا الجنة وهم الآن حزب التضحية التي لن تنتهي إلا بنهايتهم. وبينما يرون أنفسهم كمشروع شهادة فإن شيعة آل البيت وعامة أهل الكوفة والبصرة يعتبرونهم مارقين لقتلهم الإمام علي بعد تكرار خذلانه.

سياسة البطش الجديدة هذه لم تطبق في بقية بلاد المسلمين، كما يسجل جندب في إيجازه، ففي الشام ومصر والحجاز وغيرها من الأمصار كان اللين سيد السياسة، والأحكام حسب الشرع ظاهرياً. سكت معاوية عن سياسة زياد تخوفاً من اشتداد المعارضة بين أهل العراق لما يخطط له من تولية ابنه يزيد، أي التخلي عن الاتفاق مع الحسن بن علي على جعل خلافة المسلمين شورى بينهم، وهذا بالتأكيد سيثير شيعة آل البيت في كل الأمصار وخصوصاً في الكوفة. وكان أهل الكوفة قد بايعوا الحسن بعد اغتيال والده، ولو كان بوسعهم الاحتفاظ بالإمامة لساروا أيضاً على نهج التوريث، ولكن الحسن رأى حقن الدماء وتنازل لمعاوية حسب اتفاق أن تصبح شورى بعد معاوية. ولم يتوقف الخليفة عن تقديم الأعطيات لأصحاب القول بين الناس تشجيعاً لهم على

المضي في الطاعة وتقبل ولاية العهد لابنه حين تصبح سياسة رسمية. كان المغيرة قبل موته يحث معاوية على التعجيل في إعلان توريث الخلافة ليزيد، لكن زياداً صار ينصح بالأناة ريثما يتم القضاء على المعارضة المحتملة، وعلى أمل أن يتم إصلاح سيرة يزيد. وبالفعل أخذ معاوية ابنه بالحزم، حاول إبعاده عن لهو الصيد والملذات، وأمره على الحج، وأغزاه على الروم تمهيداً لإعلانه ولياً للعهد تقليداً لسياسة الأباطرة والقياصرة. ويكتب جندب أنه إذا تم ذلك وأعلن يزيد ولياً للعهد، وأصبح خليفة بعد موت أبيه، فهذا سيعني مخالفة صريحة لنهج المسلمين، وتحريك معارضة متجددة واقتتال لا نهاية له، واستمرار لنهج زياد الإرهابي من قبل آخرين، وتعميمه في محاولة لفرض الأمر الواقع، أي استمرار البطش لتثبيت الملك المتوارث.

والله خير العالمين

فتنة الكرسي

صدر للمؤلف

راوي قرطبة (رواية)، دار الفارابي، 2006.

سياسة في الجنة (رواية)، دار الفارابي، 2008.

بومة بربرة (رواية)، دار الفارابي، 2010.

فتنة الكرسي

فتنة الكرسي